

1793

الذئب والمراقب

مكتبة

نكلاس نات أو داغ
ترجمة: محمد عبد العاطي

عصير
الكتب

1793

الذئب والمُراقب

اصحح الكود.. انضم ل مكتبة

telegram @soramnqraa





إدارة التوزيع

© 00201150636428

لمراسلة الدار:

● email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: 1793. The Wolf and the Watchman
- العنوان العربي: 1793، الذئب والمراقب
- طبع بواسطة: John Murray (Publishers)
- طبع بواسطة: جون موراي (ناشرون)
- حقوق النشر: نيكلاس نات أو داغ 2017
- Copyright © by Niklas Natt och Dag .2017
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: محمد عبد العاطي
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: مايو / 2022م
- رقم الإيداع: 2022/11212م
- الترقيم الدولي: 2-29-6972-977-978

مكتبة
t.me/soramnqraa

1793

الذئب والمُراقِب

نكلاس نات أو داغ
ترجمة: محمد عبد العاطي



الشر يُفْضِي إلى الشر، والعنف يفضي إلى العنف.

- توماس ثوريلد، 1973

خريطة دقيقة
للعاصمة الملكية السعودية
استوكهولم

1793

ميل واحد



الجزء الأول

شبح اندبِتو

خريف 1793

أَلَمَّت بنا نازلةٌ فاجعة. تَفَشَّت آلاف الشائعات،
كل شائعة تَبُرُّ سابقتها في لا معقوليتها، ويستحيل
الوصول إلى أي معلومة جديرة بالثقة، فحتى الرخالة
يدلون بسرديات متباينة وجميعهم يتَّسمون بشيء
من الشعارية فيما يسردونه، فالجريمة -كما قيل-
من البشاعة بحيث لا أدري ما ينبغي لي قوله بشأنها.

- كارل غوستاف ليوبولد، 1973

مكتبة
t.me/soramnqraa

يطفو ميكيل كارديل على ماء بارد، وبيده اليمنى السليمة
يمسك بيوهان هجيلم من ياقته، هجيلم الذي يتمدد إلى جانبه،
بلا حراك، وعلى شفثيه زبد أحمر. الدماء والمياه الآسنة
تجعل زِيَّ هجيلم زلَقًا، وعندما تزيل موجةً آخرَ مُزعة قماش
من أصابع كارديل، يرغب في الصراخ، لكن لا تند عنه سوى
أنَّة. وسرعان ما يغوص هجيلم، ويغطُّس كارديل رأسه تحت
سطح الماء، وللحظة يتبع الجثة في رحلتها نحو الأعماق،
ويظن -مرتجفًا من البرد والانفعال الذي يجتاحه، بحسب ما
توحي إليه حواسه- أنه يرى شيئًا آخر هناك بالأسفل، آلاف من
جثث البحارة ذات الأطراف المبتورة تتهاوى ببطء نحو بوابات
الجحيم، ومَلَك الموت -الذي يقبع على رأسه تاجٌ مقولَّبٌ من
جمجمة إنسان- يحقُّفهم بجناحيه، وفي خضم دوامة التيار،
يتذبذب فُكُّه بضحكة ساخرة.

الفصل الأول

- ميكيل! أيها المراقب ميكيل! استيقظ أرجوك!

ينهض كارديل مشوّشاً مرتعشاً من غفوته، ويحسّ بألمٍ خاطفٍ في زراعته اليمنى التي لم تعد متصلة بجسده، إذ حلتّ ذراع خشبية منحوتة محل طرفه المفقود، ويستجم طرفه الأبتري في تجويف بداخل خشب الزان، الموصول بمرفقه بالاستعانة بأربطة جلدية، تحزُّ لحمه، ينبغي أن يكون أدرى بحلول هذا الوقت، إذ كان يجدر به أن يرخي الأربطة قبل أن يغشاه النعاس.

يفتح عينيه على ممرضٍ ويحدق إلى سطح الطاولة الواسع، وعندما يحاول رفع رأسه، يلتصق خده بالسطح الخشبي، ولا شعورياً ينزع الباروكة ناهضاً، فيطلق سباباً ويستخدمها لمسح حاجبه قبل أن يقحمها في سترته، تتدحرج قبعته وتسقط على الأرضية، وقد انبعج تاجها، فيصلح انبعاجتها ثم يعتمرها. يشحذ ذاكرته رويداً رويداً، إنه في "سرداب هامبيرغ" ولا بد أنه عاقر الشراب حتى فقد وعيه، وبنظرة فوق كتفه يرى آخرين في حالة مماثلة، قلة من السكارى -الذين عدّهم المالك موسرين بما يكفي لعدم إقائهم في مجرى التصريف- يتمددون على الطاولات، حتى مجيء الصباح عندما يترنحون زاهبين لتلقي التوبيخ من الذين ينتظرونهم في منازلهم، الأمر الذي لا ينطبق على كارديل، المحارب المخضرم ذي الإعاقة، الذي يعيش وحده ولا أحد يسأله فيم يُفني وقته.

- ميكيل، عليك أن تأتي! هناك جثة في بحيرة لاردر!

الصبيان اللذان أيقظاه من أبناء الشوارع، وجهاهما يبدوان مألوفين لكن ليس باستطاعته استحضار اسميهما، وخلفهما يقف "الكبش"، المدير ذو الصحة

الجيدة الذي يعمل لصالح الأرملة نورستروم، المالكّة. يبدو الكبش ثملاً محتقن الوجه، وقد تموضع بين الطفلين ومجموعة الكؤوس ذات النقوش المحفورة: فخر السرداب، في الحفظ والصون خلف قفل ومفتاح في خزانة زرقاء.

يتوقف المحكوم عليهم بالإعدام هنا في حانة "سرداب هامبيرغ" وهم في طريقهم إلى "بوابة جبايات اسكونز"، ومن ثم إلى المشنقة الواقعة وراءها، يُقدّم لهم عند سلالم الهامبيرغ آخر مشروب لهم، وبعدها يُحرّص على استعادة الكأس، ونقش اسم الشارب والتاريخ عليها، ثم تُضاف إلى المجموعة، ولا يشرب الزبائن من إحدى هذه الكؤوس إلا تحت إشراف، وبعد دفع رسوم يُحدّد مقدارها بناءً على درجة خِسّة المحكوم عليه بالإعدام الذي شرب من الكأس، إذ يقال إنَّ هذا يجلب الحظ السعيد. ولم يفهم كارديل قط المنطق الكامن وراء هذا الأمر.

يفرك كارديل عينيه ويدرك أنه ما يزال ثملاً، ويخرج صوته أجش حينما يحاول الكلام:

- ما الذي يجري بحق الشيطان؟

الأكبر سنًا -فتاة- تجيب، والصبي -ذو شفة مشقوقة، وهو شقيقها بالنظر إلى قسمات وجهه- يجعد أنفه متقرّزًا من أنفاس كارديل ويحتمي خلف شقيقته.

- هناك جثة في الماء، عند الحافة.

نبرة صوتها مزيّج من الرعب والحماسة. يحس كارديل بعروق جبهته كأنها على وشك الانفجار، ووجيب قلبه يهدد بتبديد أفكاره الواهنة التي يحاول استجماع شتاتها.

- كيف هذه مشكلتي؟

- أرجوك يا ميكيل، ما من أحد آخر وكنا نعرف أنك هنا.

يدلّك صدغيه وهو يأمل -دون طائل- أن يخفف الألم النابض.

لم تبلغ خيوط الضوء سماء الجزيرة الجنوبية بعد. يترنح كارديل خارجًا ويهبط سلالم الهامبيرغ، ويتبع الطفلين في الشارع المقفر، وهو يستمع بنصف انتباه إلى قصة عن بقرة عطشى اقتربت من طرف الماء وفرّت مرعوبة باتجاه دانتو.

- لاس خطمها الجثة وجعلتها تدور في دوائر.

تحت أقدامهم تغوص الحجارة ويكسوها الطين وهم يقتربون من البحيرة. واجبات كارديل لم تدفعه أبعد من شواطئ بحيرة لاردر منذ أمد بعيد، لكنه لا يرى تغييرًا طرأ على المكان، إذ لم ينزل على أرض الواقع شيء من الخطط -التي وُضعت منذ دهور- المتعلقة بتنظيف خط الشاطئ وبناء رصيف وحواجز، بيد أن هذا لا يدعو للعجب والمدينة والبلاد بأكملها تتأرجح على حافة الخراب. المنازل الجميلة المحيطة بالبحيرة حُوّلت إلى مصانع منذ وقت طويل، والورش تلقي بمخلفاتها مباشرة في الماء، والجزء المسور المخصص للفضلات الأدمية طافح ويتجاهله معظم الناس. يطلق كارديل عبارة لا تخلو من بذاءة عندما ينغرس كعب حذائه في الوحل ويضطر إلى الرفرفة بذراعه السليمة حتى يحافظ على توازنه.

- بقرتكما فزعت إثر رؤيتها أحد بني جنسها متفسخًا، يلقي الجزارون مخلفاتهم في البحيرة، وقد أيقظتmani لا لشيء سوى خاصرة بقرة ننتة أو قفص صدري لخنزير.

- رأينا وجهًا في الماء، وجه شخص.

تربّت الموجات على الشاطئ، وتداعب زبدًا مصفرًا شاحبًا، ثمة شيء متعفن، يلوح ككتلة داكنة، يطفو على بعد بضعة أمتار في الماء، وأول ما يخطر لكارديل هو أنه لا يمكن أن يكون كائنًا بشريًا، فالشيء صغير جدًا.

- كما قلتُ، إنها مخلفات جزار، جيفة حيوان.

تُلحُ الفتاة على أنها ليست مخطئة، ويومئ الصبي متفققًا معها، فيطلق كارديل نَحْرَهُ مستسلمًا.

- إنني سكران، أسمعانني؟ في غاية الثمالة، أخذ السكر مني كل مأخذ، لن تنسيا هذا عندما يسألكما شخص ما عن اليوم الذي خدعتما فيه المراقب وجعلتماه يغطس في اللاردر، والعلاقة الساخنة التي نلتماها عندما خرج من الماء مبتلًا ويستشيط غضبًا.

يتملّص من معطفه بحركات خرقاء نظرًا إلى ذراعه الواحدة، والباروكة الصوفية المنسية تسقط من بطانة المعطف على الوحل، لا يهم، لم تكلفه

الباروكة البائسة سوى مبلغ زهيد وموضتها في طريقها للاندثار، وهو لا يرتديها إلا لأن المظهر اللائق قليلاً يعزز فرص أن يقدم شخصٌ كأساً أو كأسين لمحارب قديم. يرنو كارديل ببصره إلى السماء، فيرى نجومًا نائية تتلألأ فوق خليج آرستا، ثم يغمض عينيه ليعزل انطباع الجمال بداخله، ويخطو إلى البحيرة، بقدمه اليسرى أولاً.

الحافة السبخية لا تتحمل وزنه، فتنغرس ساقه حتى ركبته ويشعر بمياه البحيرة تتدفق فوق حافة حذائه، الذي يظل عالقاً في الرواسب الطينية والقدم تُنزع منه مع سقوط كارديل لا إرادياً للأمام، وبحركات تجمع بين الزحف وسباحة الكلاب، يشرع في شق طريقه إلى داخل البحيرة، المياه ثخينة بين أصابعه، مليئة بأشياء حتى قاطنو الجزيرة الجنوبية لا يحبذون الاحتفاظ بها. يشوش سكره على رُشده، فيشعر بوخزة زعر عندما لا يحس بقاع البحيرة تحت قدميه، هذه المياه أعمق مما توقع، وتعود ذاكرته به إلى سفينسكُند قبل ثلاثة أعوام، يتذكر زعره وقد لفظته الأمواج، وطليلة الجيش السويدي تتراجع.

يمسك بالجتة في الماء حالما تقربه رفساته بما يكفي، وأول ما يتبادر إلى ذهنه هو أنه كان على حق، لا يمكن أن تكون هذه جتة إنسان، إنها جيفة تخلص منها شخص ما، ألقاها هنا صبية الجزار، واستحالت طوق نجاة بعدما انتفخت الأحشاء بغازات التحلل. ومن ثم تدور الكتلة وتُريه وجهها.

ليست متعفنة إطلاقاً، ومع هذا، محجرا العينين الخاويان يحدقان إليه، وخلف الشفتين الممزقتين ما من أسنان، الشعر وحده يحتفظ برونقه، الليل والبحيرة بذلا كل ما بوسعهما لإعتام لونه، لكنه دون شك خصلات من الشعر الأشقر الفاتح. شهقة كارديل المفاجئة تملأ فمه بالمياه فيغصُّ بها.

وعندما تنحسر نوبة سُعاله، يطفو بلا حراك إلى جانب الجتة، متفحصاً قسماتها التي طالها الخراب. وفي الشاطئ، لا ينبس الطفلان ببنت شفة، وينتظران عودته في صمت. يمسك كارديل بالجتة، ويستدير في الماء ويبدأ الرفس بقدمه الحافية قاصداً اليابسة.

لا يجد كارديل سبيلاً لالتقاط أنفاسه عندما يبلغ الحافة الموحلة ولا تعود المياه تحمل وزنيهما، فينقلب على ظهره ويركل بكلتا قدميه متراجعاً، ساحباً

صيده من الخرقه الرثة التي تغطيه. الطفلان لا يساعده، إنما ينكمشان ويتقهقران بعيدًا وهما يمسان بأنفيهما. يتنحج كارديل منظرًا حلقه من مياه البحيرة القذرة ويصق في الطين.

- اركضا إلى "القنطرة" وأخبر رجال الشرطة.

لا يحرك الطفلان ساكنًا ليمتثلا لأمره، حريصان على البقاء بمأمن وفي الوقت عينه مثلثفان ليلقيا نظرة على صيد كارديل، ولا ينطلقان إلا عندما يرشقهما بحفنة من الطين.

- اركضا إلى المركز الليلي وأحضرا لي شرطياً! اللعنة!

عندما يبتعد وقع أقدامهما الصغيرة عن مسمعه، يتكى جانبًا ويتقيًا، يخيم السكون، ويحس كارديل في عزله بقبضة باردة تعترض كل هواء من رثتيه، فيستحيل عليه التقاط نفس آخر، تتسارع دقات قلبه باطراد، وتنبض الدماء في عروق حلقه ويجتاحه خوف يشلُّه. يعرف تمام المعرفة ما سيحل به الآن، يشعر بالذراع التي لم تعد موجودة تتخلق من الظلام المحيط حتى تؤكد له كل ذرة من كيانه أنها عادت إلى حيث كانت ذات يوم، ويرافقها ألمٌ مبرح بما يكفي ليمحو العالم من الوجود بالنسبة إليه، ألمٌ كأنه فكٌ ذو أسنان فولاذية ينهش لحمه وأوتار عضلاته وعظامه.

تعتريه حالة هلع، فيحل بسرعة الأربطة الجلدية ويدع الذراع الخشبية تسقط في الوحل، ويمسك طرفه الأبتري بيده اليمنى ويدلك موضع الندوب ليرغم حواسه على تقبل أن الذراع التي تحس بها لم تعد موجودة وأن الجرح قد التأم منذ أمدٍ بعيد.

لا تدوم نوبة الذعر أكثر من دقيقة، يستعيد تنفُّسه، في البداية بشهقات سريعة، ومن ثم شهيق وزفير ببطء وهدوء، ينحسر الرعب، ويكتسب العالم ملامحه المألوفة. نوبات الذعر المبالغته هذه ظلت تعذبه خلال الثلاث سنوات الماضية، منذ عودته من الحرب وقد فقد ذراعًا وصديقًا، لكن انقضى وقت طويل على الحادثة بحلول هذا الوقت. وظن أنه وجد منهجيةً لإبعاد الكوابيس، أي المشروبات الكحولية القوية وشجارات الحانات. يجول كارديل بناظره فيما حوله، كما لو أنه يلتمس شيئًا يهدئ به روعه، لكنه والجملة وحدهما، ويتمايل من جانب إلى آخر قابضًا على طرفه الأبتري.

الفصل الثاني

على المكتب الذي أمامه تنبسط ورقة رُسمت عليها شبكة مربعات منتظمة ومتطابقة، يضع سييسل ويُنِيه ساعة جيبه أمامه، ويفكها من سلسلتها ثم يقرب منه الشمعة التي تطلق، مفكّاته مرصوفة إلى جوار الملاقط والزرديات. يمد يديه أمام الشعلة، ما من ارتعاشات ملحوظة.

يشرع في عمله بتدقيق بالغ، يفتح الساعة، ويرخي الصامولة التي تثبت العقارب في مكانها ويرفعها من القرص المُرقم، فيكشف عن القطع الداخلية التي صار الآن بمقدوره استخراجها بسهولة، ببطء يفك القطع الميكانيكية الصغيرة، ترسًا ترسًا، ويضع كل قطعة داخل سياجها الخاص المشدّد من الجبر، يتمدد الزنبرك الشعري، وقد تحرر من قيوده، ويتخذ شكلًا لولبيًا طويلًا، وتحتة تكمن منظومة التروس، ثم عمود الدوران، وبأدوات أكبر بانحد من إبر خياطة، يلاطف سييسل البراغي الصغيرة مستدرجًا إياها خارج أعشاشها.

محرومًا من ساعته، لا يستطيع ويُنِيه تتبّع مرور الوقت إلا بسماع قرع أجراس الكنيسة، فعبر "المروج" يبلغه رنين أجراس كنيسة هيدفيغ إليونورا، ومن البحر يأتيه صدى خافت مصدره برج كنيسة كاترينا حيث يجثم على التل. تمر الساعات مسرعة.

حالما ينتهي من تفكيك أداة قياس الوقت، يكرر كل خطوة بترتيب عكسي، فتتخذ الساعة شكلها ببطء مجددًا مع عودة كل قطعة إلى موضعها. تتشنج أنامله الرفيعة، ويضطر إلى التوقف على نحو متكرر حتى يتيح لعضلاته وأوتاره استعادة عافيتها، يبسط كفيه ويضمهما، ويدلكهما بعضهما ببعض،

ويمدد مفاصلهما على ركبتيه. وضعية عمله غير المريحة تبدأ بإلقاء ظلالها، والألم في وركه -الذي ظل يشعر به على نحو متزايد- يمتد إلى أسفل ظهره، مرغمًا إياه على التملل باستمرار على الكرسي.

وحالما تعود العقارب إلى مكانها، يضبط المفتاح الصغير في القفل ويديره، مستشعرًا مقاومة الزنبرك بالداخل، وما إن يفلته، يسمع النكة المألوفة، وللمرة الألف منذ الصيف تخطر له الفكرة نفسها: هكذا ينبغي أن يدور العالم، بطريقة عقلانية وقابلة للاستيعاب، حيث يكون لكل قطعة مكانها المخصص ويمكن تحديد دورها ومسارها تحديدًا دقيقًا.

بيد أن إحساس العافية والارتياح سريع الزوال، إذ سرعان ما يتخلى عنه حالما يتبدد الإلهاء ويهبط واقع العالم -الذي تجمد الزمن فيه للحظات قلائل- بوطأته الثقيلة مجددًا. يهيم بعقله، ويضع إصبعًا على رسغه ويحصي نبضات قلبه بينما يحصي العقرب الصغير الثواني على القرص المُرَقَّم الذي يحمل اسم صانع الساعة: "بيورلينغ، استوكهولم"، يحصي مائة وأربعين نبضة في الدقيقة، ثم يرتب أدواته ويهيئ نفسه لبدء العملية بأكملها مرة أخرى، وعندئذٍ يشتم رائحة طعام، ويسمع خربشة الخادمة على الباب وصوتًا يدعوه إلى المائدة.

توضّع أمامه سلطانية عليها نقوش زرقاء، وصاحب المنزل الذي يؤجره منه -الدَّمَك أولوف روزليس- يحني رأسه مستغرقًا في صلاة قصيرة قبل أن يمد يده ويرفع غطاء الطبق، ويمسك لسانه عن إطلاق سباب وينفض أصابعه من الألم بعدما أحرق نفسه بمقبض الغطاء.

ومن مقعده إلى يمين مضيفه، يتظاهر سيسل وينيه بالتحديق إلى سطح الطاولة المزركش بالشموع الذائبة، بينما تهرع الخادمة إليه بمنشفة. عقب اللفت واللحم المسلوق يسوي تجاعيد حاجبي صانع الحبال، الذي امتدت حياته سبعين عامًا زهبت بأي لون من شعره ولحيته وجعلته يجلس محدودبًا على كرسيه، روزليس معروف بوصفه رجلًا فاضلاً أفنى سنوات طوَالًا في إدارة ملجأ الفقراء في هيدفيغ إليونورا، كما تبرع بجزء من ثروته -التي كانت عظيمة بما يكفي ذات يوم- لشراء منزل الكونت اسبينز الصيفي هنا

في ضواحي "المروج"، تجهّمت شيخوخته باستثمار غير موفق في طاحونة شمالية، واستثمارات دخل فيها مع جاره إكمان، وهو مسؤول رفيع المستوى في "غرفة المالية". يستشعر وينيه أن روزليس يحس بأنه لم يلق المعاملة التي تليق به، ولم يعوّض عن الأعمال الخيرية التي ظل يؤديها لعقود، والآن يخيم على أرجاء المنزل إحساس عميق بالغبن.

لا يسع وينيه -بوصفه مستأجرًا- إلا أن يشعر بأن وجوده في حد ذاته يمثل شاهدًا على أوقات تعيسة، والليلة يبدو صاحب البيت أكثر كآبة من المعتاد ويتبع كل لقمة بزفرة حرّى، وبحلول الوقت الذي يتنحج فيه ويبدد الصمت، لا يبقى سوى مقدار بضع ملاعق في قاع وعائه.

- من الصعب إسداء النصح للشباب، لأن المرء لا يجد سوى الإساءة ردًا عليها، وعلى الرغم من هذا أتمنى لك كل الخير يا سيسل، فأرجو أن تتلطف وتستمع لي.

يأخذ روزليس نفسًا عميقًا قبل أن يخوض في قول ما يجب قوله.

- ما تفعله منافٍ للطبيعة، ينبغي للزوج أن يكون مع زوجته، ألم تُقسم متعهدًا بأن تكون معها في السراء والضراء؟ عد إليها.

يحتقن وجه وينيه بالدماء، ويتفاجأ هو نفسه بسرعة ردة فعله، إذ لا يليق برجل يتسم بالعقلانية والمنطقية أن يسمح لشيء بالتأثير في رجاحة عقله ويسلم زمامه للغضب، لذا يأخذ نفسًا عميقًا، ويحس بضربات قلبه في أذنيه، ويحشد تركيزه على ضبط انفعالاته. لا يُقال شيء في هذه الأثناء. يعرف وينيه أن تقادم السنوات لم ينل من الفطنة التي مكّنت روزليس من اقتعاد مكانة سامقة بين أقرانه. ويكاد وينيه أن يسمع الأفكار وهي تدور خلف جبين مالك العقار الذي يقطنه. يتضخم التوتر بينهما ثم ينحسر أمام جدار الصمت الصلد، يتنهد روزليس، ثم يتراجع متكئًا ويرفع يديه بإشارة تصالحية.

- لقد اقتسمنا العيش والملح كثيرًا، أنا وأنت، إنك مثقف، وحاضر البداة، وأعرف أنك لست شرييرًا أو نذلًا، بل العكس تمامًا، لكن الأفكار الجديدة وضعت غشاوة على بصيرتك يا سيسل، إذ تعتقد أن كل شيء يمكن حلّه بقوة العقل، عقلك أنت تحديداً. إنك مخطئ، فالعواطف لا تُعالج

بقواعد المنطق، عُد إلى زوجتك، من أجل مصلحتكما معًا، وإذا أخطأت في حقها بطريقة ما، فتوسّل غفرانها.

- ما فعلته كان لمصلحتها، كان قرارًا مدروسًا بعناية.

- أيًا كان ما يحتمل أنك كنت تأمل تحقيقه يا سيسل، فالنتيجة ليست ما كنت ترجوه.

يعجز وينيه عن إيقاف ارتعاش يديه ويضع ملعقته كي يخفي اضطرابه. ومما يثير إحباطه، يسمع صوته خافتًا لا يعدو كونه همسة مبحوحة:

- كان ينبغي أن ينجح الأمر.

يبدو وقع رده -حتى على أذنيه هو نفسه- كأنه حُجة طفل عنيد، وعندما يجيب روزليس، يأتي صوته ألطف من ذي قبل:

- رأيتها اليوم يا سيسل، أعني زوجتك، في محل بيع السمك جوار "خليج القطط"، وهي حُبلى، منذ وقت طويل لدرجة أنه لا توجد وسيلة لإخفاء بطنها.

يجفل وينيه في كرسيه، وللمرة الأولى ينظر إلى وجه روزليس نظرة مباشرة.

- هل كانت وحدها؟

يومي روزليس ويمد يده ليضعها على ذراع وينيه، لكن وينيه يزيح ذراعه بسرعة عن متناوله، وحتى هو نفسه يتفاجأ برده فعله الغريزية.

يغمض وينيه عينيه حتى يتمالك نفسه، ولوهلة يجد نفسه انتقل إلى المكتبة التي يحملها بين جنبيه، حيث تنتظم صفوف الكتب بترتيب دقيق وتخضع لسلطان الصمت المُطبّق، ويختار كتابًا لـ "أوفيد" ويقرأ عشوائيًا بضع كلمات:

Omnia mutantur, nihil inherit.

«كل شيء يتغير، لكن لا شيء يُفقد فقدانًا تامًا». هنا يجد العزاء الذي يبحث عنه.

وعندما يفتح عينيه، لا تعكسان أي عاطفة من أي نوع، ثم يبذل بعض الجهود ويحكم السيطرة على يديه المرتعشتين، وبعناية يعيد ملعقته إلى مكانها، ويدفع كرسيه للخلف وينهض عن المائدة.

- أشكرك على الحساء وعلى اهتمامك، لكن أظنني سوف أتناول عشائي في غرفتي من الآن فصاعدًا.

يلاحقه صوت روزليس إلى الخارج:

- إذا كان عقلك يقول شيئاً والواقع يقول شيئاً آخر، فلا بد أن التفكير هو الخطأ، كيف لا يبدو لك هذا جلياً مع كل مميزات التعليم الكلاسيكي الذي تلقينه؟

لم يُحرِ وينيه جواباً، لكن المسافة المتزايدة بينهما تكفل له التظاهر بأنه لا يسمع.

يترنح سيسل على ساقين متقلقتين خارجاً إلى الرواق، ويواصل ترنحه صعوداً إلى الغرفة التي يستأجرها من الدّمك منذ الصيف، وسرعان ما تنقطع أنفاسه ويُرغم على التوقف عند إطار الباب ليهدئ نفسه.

الحديقة ساكنة خارج نافذته، وقد غابت الشمس، ثمة بستان عند المنحدرات التي تفضي إلى الشاطئ، وخلف الأشجار يرى أضواءً قادمة من حوص السفن، حيث يهرع البحارة لإكمال عملهم أملاً في وضع جدار وسقف بينهم وبين الليل، وفي الأفق يلوح برج كنيسة كاتارينا. يهب نسيم المساء.

يمر كل يوم كأن المدينة تتنفس، تسحب الهواء كل صباح من البحر، وتزفره في مساء اليوم نفسه بقوة تلوي جميع دوارات الرياح ناحية الشاطئ، وعلى مقربة، تئن طاحونة هوائية احتجاجاً على الحبال التي تقيّد أشرعتها، وإلى الداخل أكثر تجيب إحدى أخواتها باللغة نفسها.

يرى وينيه انعكاسه على زجاج النافذة، لا يشعر بالعطش بعد، شعره الداكن مربوط بشريط عند عنقه، ويتنافر تنافرًا صارخًا مع وجهه الشاحب، وتغطي قطعةً بيضاء عنقه بطيئاتٌ مُحكمة. لا يعود يرى أين ينتهي الأفق وأين تبدأ السماء، والنجوم الآخذة في الظهور عاليًا وحدها هي التي تشي بموضع

السماء، وهذا هو حال العالم نفسه: جاحل من الظلام، وضوء شحيح. يلمح بطرف عينه شهابًا في الزاوية العليا من نافذته، خيط من الضوء يعبر صفحة السماء في لمح البصر.

وبالأسفل بالقرب من أشجار الزيزفون، يرى فانوسًا، على الرغم من أنه لا يتوقع زائرًا، يسمع أحدهم ينادي اسمه، فيتدثر بمعطفه، وعندما يقترب يرى اثنين في انتظاره، خادمة روزليس تحمل الفانوس، وإلى جانبها هيئة شخص قصير، منحنيًا من خصره، واضعًا يديه على ركبتيه، يلهث، وخيط من اللعاب يتدلى من شفتيه. وعندما يزداد اقتربًا، تضع الخادمة الفانوس في يده.

- الزائر جاء من أجلك، لن أسمح له بتخطي عتبة بابي بالحالة التي هو فيها.

تستدير على عقبيها وتسير بخطى ثابتة عائدةً إلى البيت الرئيسي، وهي تهز رأسها حسرةً على اختبار العالم. الزائر صبي، ما يزال صوته ناعمًا وثمة خدان أملسان تحت الأوساخ التي تغطي وجهه. يبادره وينيه:

- إذن؟

- هل أنت وينيه الذي يعمل في دار إندبتو؟

- لأكون دقيقًا، "غرفة الشرطة" مقرها في دار إندبتو، لكنني سييل وينيه بالفعل.

يتطلع الصبي إليه من تحت شعر أشقر قدر، غير راغب في الأخذ بكلامه دون دليل.

- في "تل القلعة" قالوا إن الذي سيصل إلى هنا أولاً سينال مكافأة.

- حقًا؟

يمضغ الصبي خصلة شعر شاردة من تحت قبعته.

- ركضتُ أسرع من الآخرين، والآن أشعر بشد عضلي في خاصرتي وأتذوق دمًا في فمي، وسوف أضطر إلى النوم بالخارج بملابس مبتلة. أريد مليمًا تعويضًا على متاعبي.

يحبس الصبي أنفاسه كأن جرأته هو نفسه تخنقه، ويحدهج ويُنِيه بنظرة حادة.

- قلت لي للتو إن هناك آخرين في طريقهم إلى هنا من أجل المهمة نفسها، إذن ما عليّ سوى الانتظار قليلاً وعندئذٍ يمكنني إجراء مناقصة. يمكن لوِيْنِيَه سماع الصبي وهو يكز بأسنانه ويلعن زلة لسانه، لكنه يفتح محفظته ويخرج العملة المعدنية المطلوبة، ويمسكها بين إبهامه وسبابته.

- حالفك الحظ الليلة، فأنا لا أعد الصبر من ضمن فضائلي.

يبتسم الصبي ابتسامة باهتة، وأسنانه الأمامية المفقودة تترك فجوة يلعب عبرها لسانه المخاط السائل من أنفه.

- مدير الشرطة هو من يبحث عنك يا سيدي، وهو يريدك على الفور، في "حارة أكسميث".

يومئ ويُنِيَه لنفسه ويمد اليد الممسكة بالعملة المعدنية، فيدنو الصبي بضع خطوات ويقبض مكافأته، ويلتفت بغتة، وينطلق متجاوزًا حائطًا منخفضًا بقفزة كادت تفقده توازنه. يصيح ويُنِيَه له:

- فلتشترِ بها الطعام، لا الكحول.

يتوقف الصبي، وردًا عليه ينزل بنطاله ويظهر لوِيْنِيَه عجزته الشاحبة ويصفع كل جانب منها صفعة مدوية وهو يهتف من فوق كتفه:

- ببضع مهمات إضافية من هذا النوع سأكون ثريًا بما يكفي لعدم اضطراري إلى الاختيار بينهما.

يطلق الصبي ضحكة انتصار، وينطلق إلى "المروج"، وسرعان ما تبتلعه الظلال.

منذ أشهر وُعد مدير الشرطة يوهان غوستاف نورلين بسكن رسمي، لكن لم يحدث شيء بهذا الخصوص، وما يزال يعيش مع أسرته في مجمع الشقق نفسه، على بعد ثلاثة شوارع من محل الصرافة. يكون الوقت قد تأخر عندما يلتقط ويُنِيَه أنفاسه بعد صعود شاق إلى الطابق الثالث، ويمكنه سماع أن زائرًا سابقًا له قد أيقظ المدير وأسرته أيضًا، فثمة امرأة تهدد طفلًا منزعًا

في مكان ما بداخل الغرف. يجد نورلين يترقب وصوله في غرفة الانتظار، دون باروكته، وجزء من منامته ظاهر من بين معطفه وبنطاله الرسمي.

- سيسل، شكرًا لمجيئك في مدة وجيزة.

يومئٍ ويُنِيه ويَلبي إشارة ترحيب بالجلوس على كرسي وضعه نورلين بالقرب من المدفأة من أجل هذه المناسبة.

- وضعت كاتارينا القهوة على الموقد، ستكون جاهزة قريبًا.

بتوتر مشوب بحرج يقعد مدير الشرطة قبالة ويُنِيه ويتنحج، كأنه يستعد للتطرق لسبب الاستدعاء.

- عُثِر على جثة الليلة يا سيسل، في بحيرة لاردر في الجزيرة الجنوبية، تمكن طفلان من إقناع مراقب ثمل بإخراجها من الماء، والجثة في حالة... الرجل الذي أخبرني عنها يعمل شرطياً منذ عشر سنوات وخلال هذه المدة لا بد أن سنحت له الفرصة ليشهد جميع ألوان الأذى الذي يمكن أن يسببه إنسان لآخر، وعلى الرغم من هذا كان عند عتبة بابي منحنيًا لاهثًا كما لو أنه لا يريد فقدان عشائه الذي تناوله، عندما وصف لي حالة الجثة.

- بحسب معرفتي بأمثاله، قد يكون السبب هو الشراب.

لا يبتسم أي منهما، ويفرك ويُنِيه عينيه المكدودتين.

- يا يوهان غوستاف، لقد اتفقنا على أن تكون المهمة الأخيرة التي ساعدتك فيها هي مهمتي الأخيرة، لقد قدمتُ المساعدة لغرفة الشرطة لعدة سنوات، لكن كما تعرف، حان الوقت بالنسبة إلي لألتفت إلى شؤوني الخاصة.

- لا أحد ممتن لما قدمته أكثر من امتناني يا سيسل، دائمًا ما تتجاوز توقعاتي، وبالنظر إلى مقدار تحسينك لسجل القسم منذ الشتاء الماضي، لا يداخل أحد الشك في قيمة الخدمة العظيمة التي قدمتها لي. لكن صحّحني إذا كنتُ مخطئًا يا سيسل، أليست هي نفسها خدمة أسديتها لك؟

من فوق حافة كوبه تبحث نظرات نورلين -بلا جدوى- عن نظرات ويُنِيه، فيتنهّد مدير الشرطة ويضع قهوته.

- كنا يافعين ذات يوم يا سيسل، متخرجين حديثاً في كلية القانون ومتلهفين لصنع أسماء لأنفسنا في المحاكم، كنتَ المثالي دائماً، الذي يدافع بضراوة عن قناعاته، مستعداً لدفع الثمن مهما يكن، ولم تتغير كثيراً منذ ذلك الوقت، بينما أنا سمحت للعالم بأن يكسر شوكتي، فقابليتي للمساومة هي التي قادتني إلى منصبِي. يبدو أننا نضطلع بأدوار مختلفة، والآن أنا الذي أقول لك: كم مرة وُضعتنا أمام تحدي أمر جسيم يجب تصحيحه وفي وسعنا تصحيحه؟ القليل من هذه المسائل التي كَرَّستَ لها نفسك كانت تستحق اهتمامك، مختلسون لا يجيدون التهجئة، وقَتَلتَ زوجات لا يكلفون أنفسهم عناء مسح الدماء عن المطرقة، وكل أشكال مرتكبي العنف والأشرار الذين تنتابهم نوبات الغضب إثر تناولهم المشروبات الكحولية القوية. بيد أن ما نحن بصدده أمر مختلف، كلانا لم يرَ له مثيل من قبل، وإن كان ثمة شخص آخر يمكنني أن أعهد إليه بهذه المهمة، لما ترددت، لكن ما من أحد، وفي مكان ما يجول وحش متخذاً هيئة بشرية. نُقلت الجثة إلى فناء كنيسة سانت ماري. أسدني هذا المعروف ولن أطلب منك شيئاً مجدداً أبداً.

يرفع وَيَبْنِي عَيْنِي، وهذه المرة مدير الشرطة هو الذي لا يستطيع مبادلتة النظرات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث

يتسلق كارديل هابطاً سلاالم "تل الطحّان" ويصق كتلة بنية من التبغ في مجرى التصريف، وقد تهندم بقدر مستطاعه مرتدياً قميصاً مستعاراً من صديق، وخلف المباني المطلية بالأبيض الجائمة على المنحدرات المائلة نحو "الخليج المُذهَّب"، يتبيّن بصعوبة المدينة الرابضة فوق جزيرتها، كعملاق شامخ منبعث من المياه، تتخللها نقاط ضوء متفرقة.

وما يكاد يغادر الحي حتى يلمح رجلاً، ذا وجه تغطيه ندوب الجدري، يضع درع الشرطة الفضي بسلسلة حول عنقه، متجهاً نحو قنطرة بولهيم.

- أستمحك عذراً، هل يصادف أن تعرف ما حدث مع الجثة التي وُجِدَت في اللاردر؟ اسمي كارديل، أنا الذي أخرجتها من الماء قبل قرابة ساعة.

- سمعتُ عن ذلك، أنت المراقب، أليس كذلك؟ الجثة في مستودع الموتى

بكنيسة سانت ماريا في الوقت الراهن. يا له من عمل شنيع! لم يسبق لي أن رأيت شيئاً بهذه الفظاعة! وبالنظر إلى كيفية لقاءك بالجثة، ظننت أنك ستتنفض يديك من كل ما يتعلق بها، لكنك أدري. أما أنا فعليّ

العودة إلى "دار انديتو" لأقدم تقريرتي قبل الفجر.

يفترقان، ويشرع كارديل في شق طريقه هابطاً التل عبر القاذورات الرطبة بالندى عند أبرشية ماريا، وفي سفح التل يجد نفسه أمام جدار الكنيسة. ماريا معاقة، مثل كارديل، وفي نفس العام الذي وُلد فيه كارديل، أشعلت شرارة شاردة من كوخ خبّاز حريقاً هائلاً أنزل الخراب بجانب التل بأكمله، انهار برج تيسين عبر سقف الجص المقبَّب، وحتى الآن، بعد ثلاثة عقود، لم تُستبدَل قمة البرج المستدقة.

ينتظره فناء الكنيسة على الجانب الآخر من البوابة، وتترأى له القبور كأنها تراقبه بصمت، لكن صوتًا مزعجًا يخل بسلام المكان، فيقف كارديل برهة في العتمة ليستوعب ماهية ما سمعه وأن مصدره إنسان، صوته كصوت نباح كلب تحت الأرض، لكنه عندئذ يلاحظ ظلًا، وعلى الباحة المفروشة بالحصى أمام إسطبلات الكنيسة ومقر حفار القبور، يرى هيئة شخص يسعل في منديل.

لا يدري كارديل ما عليه فعله حتى تنتهي نوبة سعال الشخص المجهول ويبصق على الأرض ثم يلتفت، ومن المباني التي خلفه، يتدفق الضوء عبر نافذة مفتوحة، فيحرم هذا الضوء كارديل من الرؤية جيدًا، وفي الوقت عينه يتيح للغريب رصد وجوده. يبدد الغريب حاجز الصمت بصوت أعلى قليلاً من همسة مبسوطة، لكنه يرتفع مع كل كلمة:

- أنت كارديل، الذي وجد الرجل الميت.

يومئ كارديل.

- الشرطي لا يعرف هذا، لكن كارديل ليس الاسم الكامل بالطبع.

يسحب كارديل قبعته الرطبة عن رأسه ويأتي بانحناء خفيفة متخشبة.

- ليته كان كذلك. اسمي جان مايكل كارديل، عندما وقعت عينا أبي على مولوده البكر، امتلأ بشيء من الزهو، لكن تطلعاته لي لم تتحقق، كما ترى. أُدعى ميكيل.

- التواضع فضيلة أيضًا، إن لم ير والدك هذا، فسأعدها خسارته.

تخرج الهيئة الظلية إلى الضوء، وتردف:

- اسمي سيسيل وينيه.

يلقي كارديل على الرجل نظرة فاحصة، ويدرك أنه أصغر مما يوحي به صوته، ملبسه غاية في الأناقة، على الرغم من أنها قديمة الطراز: معطف أسود، ضيق عند الخصر، ذيله مضلع ومزود ببطانة من شعر الخيل وياقة مرتفعة، وتبرز منه صدرية موشاة بحرفية، بنطال قصير من المخمل الأسود مزود بإبزيمات عند كل ركبة، ربطة عنق بيضاء تحيط بعنقه عدة مرات،

الشعر طويلٌ فاحم السواد، معقود عند مؤخرة العنق بشريط أحمر، والبشرة ناصعة البياض تكاد تبدو متوهجة.

وِينِيَهْ نو قوام أهيف، يكاد أن يكون نحيلًا على نحو غير طبيعي، لا يمكن أن يزداد اختلافًا عن كارديل، الرجل الذي يُرى أمثاله في جميع شوارع استوكهولم، سلبته المجاعة والحروب من شبابه، مستنزف قبل أوانه، لا بد أن منكبيه يبلغان ضعف عرض منكبي وِينِيَهْ، ذو ظهر جندي عريض يشد معطفه لدرجة تشوهه، ساقاه كالخشب، قبضته اليمنى في ضخامة فخذ خنزير، وأذناه النانتتان تعرضتا لضربات من الكثرة بحيث خلّفت حوافهما كُتلاً غشيتها الندوب.

يتنحج كارديل متوترًا مُحَرَجًا تحت سهام نظرات الآخر، الذي يوحي إليه بانطباع أنه يتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه دون أن يحول انتباهه عن وجهه المجذور. يستدير كارديل غريزيًا إلى اليسار ليخفي إعاقته. والصمت غير المريح -الذي يبدو أن وِينِيَهْ يتقبله بأريحية- يدفع الكلمات دفعًا من لسان كارديل.

- قابلت الشرطي أعلى التل، هل أنت أيضًا من "دار اندبِتو"؟ من "غرفة الشرطة"؟

- نعم ولا، يمكنك أن تعدّني مصدر معلومات إضافيًا، ربما. أرسل مدير الشرطة في طلبي. وأنت، جان مايكل؟ ما غرضك في مستودع موتى ماريا في منتصف الليل؟ قد يظن المرء أنك قد أسديت سابقًا الرجل الميت معروفًا كافيًا.

يبصق كارديل حَسْوة تبغ غير موجودة ليمهل نفسه بعض الوقت، مدرّكًا أنه يفتقر إلى إجابة معقولة عن السؤال.

- محفظتي ضائعة، ربما تكون قد سقطت في الجثة عندما سحبتها إلى الشاطئ، ليس فيها الكثير، هذا مما لا شك فيه، لكن ما يكفي لجعل السير في الليل يستحق العناء.
يُطَرِّق وِينِيَهْ وهلة قبل أن يجيب.

- أما أنا فقد جئت لأعابن الجثة، سَتُنظَّفَ عما قريب، وأنوي الحديث مع حفار القبور، هَلُمَّ يا جان مايكل، وسنرى إن كانت هناك أي محفظة يمكن العثور عليها.

يستجيب حفار القبور للطرق على بابه في المبنى المجاور للجدار، عجوز، قصير القامة ومقوَّس الساقين، منحني الظهر وعلى إحدى كتفيه حدة صغيرة، ويحمل لسانه لكنة ألمانية طفيفة.

- السيد وينيه؟

- نعم.

- اسمي دايتير شوابل، أجتت من أجل الجثة؟ إنها تحت تصرفك لبقية الليلة، سوف يقرأ القس عليه قبل قُدَّاس الصباح.

- هلا تلتفت وأرشدتنا إليها؟

- لحظة.

يشعل شوابل فانوسين يعود ثقاب طويل ويلوح به في الهواء ليطفئه. ثمة قط موفور الصحة على طاولة قريبة يمسح وجهه بمخلب لُعق للتو. يعطي شوابل فانوسًا لكارديل، ويغلق الباب ويسير أمامهما بخطى متعثرة نحو مبنى حجري واطىء على الجانب الآخر من الفناء.

يضع شوابل يده على فمه ويصدر صوتًا مزعجًا عاليًا قبل أن يفتح قفل الباب، ويوضح:

- من أجل الجردان، أفضل إخافتها بدلًا من أن تخيفني.

الأشياء متراكمة في جميع أركان الغرفة، أوتاد ومجارف، ومستلزمات نعوش قديمة وجديدة، وقطع شواهد القبور مشققة بفعل صقيع الشتاء. الجثة ممددة تحت أغطيها على مصطبة منخفضة، والغرفة باردة لكن رائحة الموت جليَّة لا لبس فيها.

يومئ حفار القبور ناحية حُطَّاف، فيعلق كارديل عليه فانوسه، يحني شوابل رأسه ويشابك يديه كأنه يصلي، وهو لا يفتأ يحوِّل وزنه من قدم إلى قدم، بادياً عليه التوتر. يلتفت وينيه إليه.

- هل من شيء آخر؟ أماننا عمل كثير والوقت عنصر جوهري.

يصدق شوابل إلى الأرضية.

- لا أحد يمكنه حفر القبور مدة طويلة مثلي دون أن يرى أشياء لم يرها آخرون، ربما لا يكون للموتى أصوات خاصة بهم لكن لهم طرقًا أخرى للكلام، هذا الممدد هنا غاضب، لم يسبق لي أن شعرت بأمثاله من قبل قط، أحس كأن الجص الذي يكسو الجدران الحجرية من حولنا يتفتت من شدة غضبه المستعر.

لا يسع كارديل سوى الشعور بالضيق من هذا الكلام المشبع بالتطير، ويهمُّ بالارتسام بشارة الصليب لكنه يتوقف عندما يرى النظرة المتشككة التي يرمق وينيه بها شوابل.

- يعرف الموت بغياب الحياة، كل وعي أو إدراك يغادر الجسد، ولا أدري أين يوجد الآن، لكن دعنا نأمل أن يكون مكانًا أفضل من سابقه، الجسد الباقي لا يحسُّ بمطر أو شمس، وما من شيء قد نفعله من شأنه تعكير صفو هذا الرجل الآن.

اعتراضات شوابل بيّنة على وجهه المجعد، ويقطبُّ حاجبيه الكثيفين ولا يبدي ما يدل على نيّته المغادرة.

- ينبغي ألا يذهب إلى قبره دون اسم، فدفن جثمان دون اسم يُعد كغرس بذرة شبح عائد من الموت، لمَ لا تطلقون عليه اسمًا ما إلى أن تعرفوا اسمه؟

يقلب وينيه الأمر في ذهنه برهة، ويفترض كارديل أن الإجابة ستكون نتيجة تقدير أسرع طريقة للتخلص من حفار القبور.

- ربما نجني نحن أيضًا فائدة ما من الاسم الذي سنطلقه عليه. أي اقتراحات يا جان مايكل؟

يتردد كارديل، إذ لم يكن مستعدًا للسؤال، ويتنحج شوابل بطريقة ذات مغزى، ثم يقول:

- بحسب العرف، يُطلق على غير المُعمّدين اسم الملك، صحيح؟

يختلج كارديل ويبصق الاسم كما لو أن له مذاقًا مريعًا:

- غوستاف؟ ألم يعانِ هذا المسكين بما فيه الكفاية؟

يضيقُ شوابل عينيه.

- أحد ملوككم السويديين الذين يحملون اسم كارل إذن؟ هناك اثنا عشر

منهم، والاسم يعني «رجل» بلغتكم، إن لم أكن مخطئاً، وينبغي أن

يكون مناسباً في هذه الحالة.

يلتفت وينبّه إلى كارديل.

- كارل؟

في حضرة الموت تُهَيِّجُ كوامن الذكريات الغابرة، ويقول كارديل:

- نعم، كارل. كارل يوهان.

يبتسم شوابل لهما كاشفاً عن صف من الأشياء البنيّة.

- عظيم! والآن أتمنى لكما ليلة سعيدة -خلاقاً لرأيي الأفضل- يا سيد

وينبّه وسيد...؟

- كارديل.

يتوقف شوابل في طريقه عند عتبة الباب ويردف فوق كتفه:

- ويا سيد كارل يوهان.

يُتْرَكُ وينبّه وكارديل وحدهما، برفقة ضوء الفانوس، يرفع وينبّه طرفاً من

الأغطية ويكشف عن إحدى الساقين، طرف مبتور بمنشار على بعد شبرين

من أعلى الفخذ، وبعد هنيهة يعاود الالتفات إلى كارديل.

- اقترب وأخبرني بما تراه.

يجد كارديل مرأى الساق أسوأ مما يتذكره عن الجثة بكاملها، هذا الطرف

الأبتر المجهول الذي لا يذكّر على الفور بأي هيئة بشرية.

- ساق مقطوعة؟ ليس هناك الكثير ليُقال في هذا الشأن.

يوميّ وينبّه مستغرقاً في التفكير وعلى وجهه ترسم تعابير جادة، فيشعر

الصمت كارديل بأنه أحرق ومن ثم ينتابه الضيق. تبدو الليلة كأنها تتشبث

بتلابيب الأبد دون وجود ما يدل على نهاية قريبة لها. يومئٍ وَيُنِيهِ ناحية جانب كارديل الأيسر دون أن يشيح بنظراته عن وجهه.

- لا يسعني سوى ملاحظة أنك نفسك تفتقد ذراعًا.

يعرف كارديل عن نفسه أنه بارع في إخفاء إعاقته، فقد تدرب لساعات أكثر من أن يُحصيها، من بعيد يسهُل اعتقاد أن خشب الزان الفاتح جلدٌ، وقد تعلم أن يبقي ذراعه مواربة قليلًا خلف وركه، وما لم يؤرجحها للأمام، قليلون يلاحظون محنته قبل أن تتعمق معرفتهم به، لا سيما في الليل، لكنه الآن لا يرى مناصًا من تأكيد ملاحظة وَيُنِيهِ ويميل رأسه.

- تعازي.

يطلق كاردير نخرة.

- جئت بحثًا عن نقودي الضائعة، ليس الشفقة.

- نظرًا إلى امتعاضك من اسم ملكنا الراحل غوستاف، أتجاسر على تخمين أن إصابتك وقعت إبان الحرب، صحيح؟

يومئٍ كارديل وَيُنِيهِ يتابع:

- أذكر هذا لا لشيء سوى أن معرفتك بما يتعلق ببتير الأطراف تفوق معرفتي بمراحل، فهلاً أسديتني معروفًا بإمعان النظر إلى الطرف الأبتَر مرة أخرى؟

وهذه المرة يتمهل كارديل في تفحص المنطقة خلف طبقة الطين التي تظل باقية على الرغم من الماء والصابون، وعندما تخطر له الإجابة، يجدها بدهيةً للغاية بحيث يدرك أنه كان ينبغي أن يعرفها على الفور.

- هذا ليس جرحًا حديثًا، لقد شُفيت الإصابة شفاءً تامًا.

يومئٍ وَيُنِيهِ موافقًا.

- أجل، أمثالنا الذين يجدون جثة في مثل هذه الحالة، يمكنهم عمومًا اعتقاد أن الجروح إما أن تكون سببًا للموت نفسه وإما محاولة من القاتل ليتخلص من دليل، وكلا الاحتمالين غير صحيحين في هذه الحالة، لن أفأجأ إذا وجدنا الأطراف الأربعة في حالة مماثلة.

إثر إشارة من وينيه، يتحركان إلى جانبي حشية القش، ويرفعان الغطاء ويطويانه، من الركن إلى الركن، تبعث الجثة ننانة حامضة حلوة مع شيء من رائحة التراب، تجعل وينيه يضغط منديله على أنفه بينما يلوذ كارديل بكُمه ببساطة.

كارل يوهان فاقد كلتا ذراعيه وكلتا ساقيه، جميعها مقطوعة من أقرب مكان ممكن من الجسد يتيح عمل السكين والمنشار، والوجه أيضًا خال من العينين، انتزعت المُقلتان من محجريهما، وبقيّة الجسد يعاني سوء التغذية، الأضلاع بارزة، والبطن منتفخ بالغازات التي جعلت السرة ناتئة، لكن كلا جانبي عظام الحوض ظاهران تحت الجلد، الصدر نحيل، ما يزال ضيقًا لصغر سن صاحبه ولم يبلغ العرض الكامل لصدر الرجل البالغ، الخدان غائران، والشعر وحده يظل في أحسن حال من بين جميع أعضاء الرجل الشاب المتوفى، خصلات الشعر الأشقر الفاتح عُسلت ومُشّطت على أيدي أفراد الأبرشية الطبيين.

يرفع وينيه الفانوس من حُطّافه ليلقي نظرة من كُتب وهو يدور ببطء حول الجثة.

- لا بد أنك نلت أكثر من كفايتك من رؤية الجثث المشبعة بالمياه في الحرب، صحيح؟

يومي كارديل، على الرغم من أنه غير معتاد مثل هذه المشاهد، أي فحص رجل ميت بنهج تحليلي مجرد من العواطف، فيحل توتره عقدة لسانه:

- كثيرون من الذين فقدناهم في خليج فنلندا عادوا إلينا في الخريف، وجدناهم أسفل جدران حصن سفيابورغ، تحت بطاريات المدافع، أرسل الذين نجوا من الحمى من بيننا لانتشالهم من الماء، ووجدنا أن أسماك القُد والسلطعونات قد أكلت ما استطاعت أكله. كثيرًا ما كانت الجثث تتحرك، وهذا كان الأسوأ، كما تخرج منهم أصوات أنين وتجشؤات، كما كنا نجد الجثث مليئة بثعابين البحر التي أكلت الأحشاء حتى صارت بدينة وكانت تخرج على مبيض وتتلوى على الأرض مبتعدة عندما نفسد عليها وليمتها.

- وكيف يبدو رفيقنا كارل يوهان مقارنة بما رأيته؟

- ما من تشابه على الإطلاق، عادةً ما كنا ننتشل الموتى سريعاً، بعد مناوشات اليوم نفسه الذي سقطوا فيه من السفن، نجدهم شاحبين، ومتعضّنين قليلاً ومشبعين بالماء، وهذا ما أراه هنا أيضاً، كارل يوهان لم يُمضِ وقتاً طويلاً في البحيرة، إن جاز لي القول. يمكنني تقدير أنه لم يُمضِ أكثر من بضع ساعات، لا بد أنه ألقى في الماء بُعيد هبوط الظلام.

يسألِ وَيُنِيهِ مستغرقاً في التفكير:

- ما المدة التي استغرقتها ذراعك لتشفى؟

يبادله كارديل التحديق قبل أن يصل إلى قرار.

- فلنعمل هذا كما ينبغي، حتى نصل إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم.

يساعدِ وَيُنِيهِ في طي كُم ذراع كارديل اليسرى الممدودة، حتى تُرفع ملبسه فوق الأربطة التي تثبت الطرف الخشبي بالمرفق، ويرخي كارديل الأربطة بأريحية شخص متمرس ويُخرج ذراعه، ثم يرفع طرفه الأبتَر نحو الضوء ويقول:

- هل سبق أن رأيت عملية قطع لحم إنسان؟

- ليس إنساناً حياً، شهدت تشريحاً عاماً في المسرح التشريحي ذات يوم عندما كان الجراحون يعملون على جثة امرأة متوفاة.

- عمليتي لم تكن على الإطلاق حالة دراسية من الحالات التي تجدها في الكتب التعليمية، أُجريت بخنجر على يدي جندي بحار أُحرق، تحت المرفق مباشرة. وحالما جُلِبْتُ إلى الجراح، اضطر إلى بتر المزيد كي ينقذ الذراع من الغرغرينا. يُقَيّد المريض بسلاسل مكسوة بالجلد حتى لا يفسد العملية بالانفلات أو التشنجات، ويُقطع اللحم الطري بسكين، والعظم بمنشار، يُسقى المحظوظون كمية كافية من الكحول لتخدير حواسهم، لكن في خضم الاستعجال أُجريت لي العملية وأنا صاحٍ صافي الذهن. يجب إغلاق الأوردة الكبيرة بسرعة، وإذا انزلقت المشابك، فستنطلق نوافير الدماء لمسافات بعيدة، تخور قوى الرجال وتبيضُ جلودهم في غضون بضع لحظات. إذا سار كل شيء على ما

يرام، تُترك سديلة من الجلد كبيرة بما يكفي لطيها على الطرف الأبر
وتُخاط حوافها بإبرة وخيط. انظر هنا، يمكنك تتبع الندوب في دائرة
كاملة وما يزال بمقدورك رؤية آثار الإبرة. إذا أظهر الطرف أي بادرة
تعفن، فما عليك سوى الانتظار حتى ينمو مجددًا.

يبتسم لويثيه ابتسامة تفتقر لروح الدعابة، ويثيه الذي يصغي بانتباه
شديد.

- رأيت جميع مراحل الشفاء عن قرب لا يتمناه أي أحد، أيمكنك محاولة
تحديد وقت بتر أطراف كارل يوهان؟
- ناولني الفانوس إذن.

والآن يحين دور كارديل في الدوران حول الرجل الميت، ينحني عند ركن
من الجنة، ويتفحص الأطراف المبتورة واحدًا تلو الآخر، عاجزًا عن سد أنفه
نظرًا إلى انشغال ذراعه السليمة بحمل الفانوس، فيتنفس عبر فمه ويزفر
الهواء ذا الرائحة النفاذة بنفخات صغيرة.

- بحسب ما أرى، فقد ذراعه اليمنى أولًا، ثم الساق اليسرى، فالذراع
اليسرى، وأخيرًا الساق اليمنى، ويبدو لي أن الذراع اليمنى بُترت قبل
ثلاثة أشهر، شريطة أن تكون سرعة شفاء كارل يوهان مماثلة لسرعة
شفائي، أما الساق اليمنى، فشهر ربما.

- إذن هذا الرجل بُترت ذراعه وساقاه تبعًا كل على حدة، ضُمد كل جرح
وتُرك ليلتئم، وبعدها بُتر الطرف التالي، والعينان فُقيئتَا عمدًا، ولم تُترك
أي سن، وكذلك اللسان. بالنظر إلى حالة الإصابات، فإن عملية إيصال
الرجل إلى الحالة التي نراها اليوم بدأت في الصيف الماضي واكتملت
قبل بضعة أسابيع، ولم يأت الموت إلا بالأمس أو اليوم الذي قبله.

يقشعر جلد عنق كارديل إثر إدراكه للتبعات الكاملة لما يقوله ويثيه،
وينقر ويثيه واجمًا أسنانه الأمامية بظفر إبهامه قبل أن يردف:

- أظنه رحَّب بالموت أيما ترحيب.
يتوقف في أثناء إعادته للأغطية، ويداعب بعناية القماش بين أصابعه.

- أشكرك على كل ما قدمته من عون يا جان مايكل. وللأسف بالغت في تقدير مهارة كارل يوهان في النشل، محفظتك ما تزال في مكانها تحت سترتك، فالانتفاخ ظاهر بوضوح، وإن لم يكن هذا كافيًا، فالمحافظة المعنية أفسدت سر موضعها عندما انحنيت حاملاً الفانوس، لكنك تعرف هذا بما أن الكحول الذي تجرعتَه ليلة أمس لم يبقَ في دماغك كل هذه المدة الطويلة كما جعلتني أعتقد.

يجفل كارديل ويلعن بداخله الهفوة التي خانت كذبتَه، يجتاحه الغضب الآن وثمانته يحل محلها الغثيان. يضايقه برود وِينِيَه وموضوعيته حيال الرجل الميت، على النقيض منه، وهو الذي شهد موتًا أكثر مما يتمناه لألد أعدائه. يبصق فوق كتفه كما لو أنه يدرأ الشر.

- إنك ذو دم بارد يا سيسل وِينِيَه، لا عجب أنك مستريح لهذه الدرجة في حضرة الموت. اسمح لي بالرد على قوة ملاحظتك بملاحظة مني: إنك لا تأكل بما فيه الكفاية، لو كنت مكانك لأمضيت وقتًا أطول عند طاولة العشاء ووقتًا أقل في المرحاض.
لا يلقي وِينِيَه بالآ للإهانة.

- ثمة شيء آخر دفعك للمجيء إلى هنا في هذا المساء، يمكننا ألا نتطرق إلى ماهيته، لكن هلأً واصلت ما بدأتَه؟ هلأً انتقمت لهذا الرجل في الأرض المقدسة؟ بوسعي توفير بعض المصادر بالنيابة عن سلطات الشرطة، وسوف أكون ممتنًا لمساعدتك ومستعدًا لتعويضك مقابلها.

ينظر وِينِيَه إلى كارديل بعينه الكبيرتين، ثمة شيء يتأجج فيهما لم يكن موجودًا من قبل، فيخيف كارديل ويشوُّشُه في الوقت عينه، غير أن كارديل يحس بالإرهاق يسري في جميع أوصال بدنه ويكتفي بالوقوف في مكانه إلى أن يتابع وِينِيَه:

- ليس عليك أن تعطيني إجابتك على الفور، سأذهب الآن إلى اندبِتو لحضور جلسة التقارير الصباحية، أعرف من الآن ما سوف أسمعُه، سوف يقدم الشرطي تقريره، وسوف تقع المسؤولية على عاتق المدعي العام المحلي المشغول سلفًا بشؤون أبسط بكثير وتعد بمجدٍ أعظم من هذه القضية، وفي أحسن الأحوال سوف يحث أفراد شرطة أبرشية

ماريا على التواصل مع موظفي الحي بشأن ما إذا كانت الشائعات المحلية سوف تسلط الضوء على القضية، لا يحدوني أي أمل في أي إجراءات تجري هناك، سوف يظل هذا الجثمان المعطوب محروماً من اسمه الحقيقي، وعلى حساب سلطات المدينة سوف يُوارى الثرى في حفرة بالجانب الشمالي من المقبرة حيث نقف الآن، ولن يقيم أحد الحداد على رحيله. طلب مدير الشرطة مني أن أبذل ما بوسعي، لكن وحدي أشعر بأن هذا لن يكون كافياً.

تتطلب تهدئة كارديل أكثر من هذا عندما يتعكر مزاجه، يلتفت ليغادر، وبدواخه تعترك مشاعر متناقضة. يلاحقه صوت وينيه الأجرس إلى الخارج:

- إذا رغبت في مساعدتي يا جان مايكل كارديل، فتعال لمقابلتي، أوْجُر غرفة من روزليس في "ضيعة اسبنز".

الفصل الرابع

كما هو الحال دومًا، يجلب بزوغ الفجر الفوضى والصخب إلى "دار انديتو" في عليائها على قمة "تل القلعة". يفرك وينيه عينيه، محاولًا نسيان قلة نومه ومتسائلًا عن وجود إبريق قهوة بقيت له فيه بضع قطرات في مكانٍ ما في إحدى هذه الحجرات.

السلام تعج بأناسٍ في طريقهم إلى الخارج أو الداخل، وبآخرين ينتظرون عندها ببساطة عوضًا عن مكان أفضل، فموظفو سلطات الشرطة ما زالوا يعانون في سبيل التأقلم مع مقرهم الجديد ورئيسهم الجديد، لم يتمكن أحد من تخصيص الحجرة المناسبة للغرض الأنسب لها.

انقضت سنة بالكاد منذ الانتقال إلى "دار انديتو"، والسبب الوحيد للانتقال من "شارع الحدائق" -وفقًا لشائعات خسيصة المقصد- هو حفظ ماء وجه المدينة بعدما تمكن مالك الدار السابق من الوصول إلى فراش موت الملك غوستاف، وخروجه بتوقيع ملكي مقروء بالكاد على صك يعده بخمسة وعشرين ألف دالر مقابل المبنى المتضعع، المعرض للتيارات الهوائية غير المرغوبة، الذي ظل مهجورًا منذ دهور، حار جدًا صيفًا، وبارد جدًا شتاءً.

المبنى غير متناسق على نحو غريب، مائل نحو التل حيث ينتصب بين الكاتدرائية ومساحة الأرض الخالية حيث يتناثر حطام ملعب التنس الذي هُدم مؤخرًا.

تمتزج الوجوه المألوفة بوجوه الغرباء في ضوء الصباح المعتم. ممتعضًا
يميزُ وَيُنِيهِ تيوكلر ونيسْتِدْت، البلطجيين في خدمة الوكالة اللذين يكادان
يحملان رجلًا تشهد عيناه المسودتان وشفته المشقوقة على حقيقة أنه
اعترف للتو بتهمته، أيًا كانت. يمر السكرتير بلوم جوار وَيُنِيهِ بين الحشد في
هذه اللحظة ويدير عينيه في محجريهما امتعاضًا عندما تلتقي أعينهما لوهلة
وجيزة. انقضى أكثر من عقدين منذ حضر مثل هذه الأساليب، لكن تيوكلر
ونيسْتِدْت يظلان أبناء زمن آخر.

الذين لا يعرفون عن وَيُنِيهِ سوى اسمه وشكله ولا يعرفونه معرفة شخصية
يخفضون وجوههم نحو الأرض عندما يقترب منهم، ويمكنه الإحساس بأعينهم
المصوبة إلى ظهره حالما يتجاوزهم، وفي أثناء صعوده السلام يلاحظ أنه لا
أحد قد أنزل من الجدار شعار النبالة الخاص بالمدير السابق، دليل آخر على
الفوضى التي ضربت أطنابها في الوكالة منذ التحاق الملك غوستاف بأسلافه.

انقضت قرابة سنتين منذ دوي رصاصة أنكارستروم في الحفل التنكُّري،
لكن في وكالة الشرطة يبدو الوضع كأنما صدى الطلقة ما يزال يتردد بين
جدرانها. ومع عدم تجاوز سن ولي العهد الثلاثة عشر عامًا، اندلع النزاع
على السلطة حتى قبل أن يخسر العاهل معركته الطويلة مع الموت. مدير
الشرطة السابق نيلز هنريك أسكان ليلجنسباريه، الذي شيد وكالة الشرطة
من الأرض، وهو من المفضلين لدى الملك غوستاف، قاد بنفسه عمليات
الشرطة لقرابة ثلاثة عقود، وكان أحد أقوى الرجال نفوذًا الذين رأوا الفرصة
وأظهروا طموحاتهم علانية: أن ينصَّب شقيق الملك، الضعيف عقليًا، الدوق
كارل حاكمًا بوصفه الوصي على الأمير، أي وصي دمية.

لكن بدلًا من هذا، أصبح هذا التعطُّش للسلطة سببًا لنهاية ليلجنسباريه،
إذ أخذ البارون ريوترهولم المكان الذي اختاره ليلجنسباريه لنفسه، وفي أثناء
حكم البارون للبلاد باسم الدوق، أرسل ليلجنسباريه إلى بوميرانيا السويدية.
وفي مطلع العام، منح ريوترهولم منصب مدير الشرطة للنائب العام يوهان
غوستاف نورلين، التعيين الذي يقال إن البارون لديه الأسباب التي تدفعه

للندم عليه منذ الآن، ومثل آخرين بمقدورهم رؤية الأشياء بوضوح، يعرف
وينبئه سبب ندم البارون، وهو أن نورلين رجل نزيه.

في الطابق الثالث، حيث تتراصف الكراسي على امتداد الرواق، يحتضن
وينبئه نفسه ويضرب كتفيه كي يدفع الدماء إلى أطراف أصابعه المتجمدة،
والهواء الرطب البارد يخزُّ حلقه ويتعيَّن عليه أن يتنفس بحذر حتى لا يثير
نوبة سعاله، يُجَبَّر على الانتظار ربع ساعة أخرى وهو عُرضة للتيارات
الهوائية الباردة المتسللة من النوافذ القديمة قبل أن يُفتح باب مقر نورلين
ويُدعى إلى الدخول.

مكتب نورلين تعمُّه الفوضى، أسوة ببقية الدار، فالمكتب الأنيق مرثيٌ
بالكاد تحت أكوام الأوراق التي تغطيه. يقف نورلين جوار النافذة، نورلين
الذي لا يكبر وينبئه كثيرًا، لكن العام كان حافلًا بليلي الأرق التي جعلته
يبدو أكبر من أعوام سنه الثلاثين، وحول ياقة معطفه الرسمي جلده محمر
ومُخدَّش بفعل أظفاره التي كانت تحاول باستمرار بلوغ منطقة تثير الحكمة.
وثمة قط أرقط يُقعي على حافة النافذة، يهرُّ ونورلين يداعب عنقه قائلاً:

- أحد القليلين من قاطني هذه الدار الذين ما يزالون سليمي العقل ولديهم
أولويات معقولة.

يدفع القط برفق إلى الأرضية، ويستند بظهره إلى حافة النافذة ويعقد
ذراعيه.

- هل كان فحص الجثة مُرضيًا؟
- كان طيشًا مني أن ألمِّح إلى أن الشرطي كان ثملًا، فردَّة فعله مبررة
تمامًا، إنها جريمة في غاية الغرابة.

- إلى جانب كفاءتك، ثمة سبب آخر جعلني أطلب منك تولِّي هذه القضية
يا سيسل، إنك لست عضوًا رسميًا في الوكالة ويمكنك العمل في الظل،
بيث ريوترهولم عيونته حولي وهناك أشياء قليلة تكدر صفو البارون
أكثر من اكتشاف أنني أؤدي عمل شرطة حقيقي، فالبارون يفضّل أن

أعمل على تنفيذ لوائح رقابته بدلاً من بسط الأمن في المدينة من أجل عامة الناس، ألقى نظرة.

يرفع نورلين ورقة مطوية ذات ختم فُصِّل للتو.

- هذه الرسالة تحمل توقيع غوستاف أدولف ريوترهولم، وفيها يطالب بمعرفة سبب عدم إحراز تقدُّم فيما يتعلق بشائعة أنه قد حاول تسميم ولي العهد، وتزعم الإشاعة نفسها أن تعطشه للسلطة يمكن أن يُعزى إلى العُنة وقائمة طويلة من الميول المنحرفة. يشعر البارون أنه قد انتظر مدة طويلة بما يكفي لرؤية المسؤولين عن إطلاق الشائعة يتذوقون العصا، والآن يطالبني بتقديم تفاصيل كاملة عن مجهوداتي.

- وهل سترسلها إليه؟

- بما أنني لم أفعل شيئاً، فعلى الأرجح من الأفضل ألا أرسل إليه، الرجل فاقد صوابه، ريوترهولم ليس سوى مستبد، دون صداقات أو أسرة تمنحه إحساساً بالاستقرار. إنه يحاول حمل العرَّاف أرفيدسون على الكلام مع الموتى بالنيابة عنه. متغطرس ونزق وناقم حتى النخاع، تمامًا مثل الملك غوستاف نفسه عندما تقدم به العمر. الخوف من الثورة أو الخيانة آفةٌ تصيب كل من يقترب من العرش. طلب جلالته من سلفي في المنصب أن يجنِّد كادرًا من المُخبرين لتقديم التقارير عن جلسات النميمة والمؤامرات بين الناس. والمشكلة ليست أن الناس غير سعداء، المشكلة هي أن مخبري ليلجنسباريه طُلب منهم تعقُّب الساخطين من الناس في الأماكن الخطأ. عندما كان الملك غوستاف تنتابه كوابيس عن تمدد الثورة الفرنسية إلى أقصى الشمال، وفعل كل ما بوسعه للتنصُّت على هَدْر الجمهوريين في المقاهي، كان الذين قتلوه يجولون خلسة بين أعضاء بلاطه. كان يخشى عامة الناس -الذين لم يقابلهم قط- أيما خشية لدرجة أنه صدَّق أن النبلاء -المحيطين به- لا يمثلون مصدر تهديد.

يومئ نورلين نحو مكتبه.

- حتى إذا بذلت كل ما بوسعي لتجاهل ثرثرات نميمة ليلجنسباريه، ما زال عليَّ أن أتلقي تقاريرهم، التي تتنافس في لا معقوليتها: ثمة من

يدعى أودمان يشتكي من أن شخصًا اسمه نيلسن كان يغني النشيد الوطني الفرنسي في ليلة شراب مفرط في سترانغناس، وهناك ضابط في سلاح الفرسان ذو ميول تعاطفية مريبة يُقال إنه امتدح دبوس ربطة عنق المتأمر سيئ السمعة يوهليم، وأن كولمر وأغرین ارتديا سراويل طويلة عندما ارتادا الكنيسة فأدخلا السرور على ويناس وفالك، وأن كارلين يخفي كتابات لثوريلد تحت وسادته... وهلم جرا. وفي أثناء تشتيت انتباهي بهذه الأمور، لا تجد المسائل المهمة من يعيرها انتباهًا. لا شك أنك سمعت اللقب الذي أطلقه عليه موظفو النيابة، صحيح؟ «الوسخان»، والكلمة تحريف لاسمه الأوسط، آسكان.

يلتفت وينيه إلى كومة الخطابات، ويأخذ واحدًا ويلقي عليه نظرة لا مبالية قبل أن يعيده إلى مكانه، وينزع نورلين باروكته ويلقيها فوق الكومة ويحك شعره.

- وفقًا للشائعات، سمعت أن ريوترهولم يبحث بالفعل عن يشغل منصبه بدلًا مني.

- أتعرف من هو؟

- سمعتُ أن المنصب عُرض على ماغنس أولهولم، وتعرف هذا الاسم تمام المعرفة.

- أتعرف مدة بقائك في منصبك؟

- لا، لكن عندما يضع البارون شيئًا نصب عينيه، تحدث الأمور بسرعة، ولن يسمح أولهولم باستمرار مهماتك، لذا هذه مسألة مُلحة يا سيسل.

يرفع وينيه يده إلى قصبة أنفه ويدلُّك عينيه المتورمتين، وقد تسبب نعاسه في ظهور بقع ضوء ضبابية تتراقص في مجال رؤيته.

- أنا آخر من تحتاج إلى تذكيره بما هو مُلح.

يدعو نورلين وينيه للجلوس على كرسي شاغر، ويفتح الباب قليلًا وينادي في الرواق طالبًا القهوة، فيلبي أقرب الذين صادف وجودهم الطلب سريعًا، ثم يقعد نورلين قبالة وينيه مُطلقًا تنهيدة ثقيلة.

- طيب، فلنعد إلى تلك الجثة التي أخرجت من البحيرة، ما مدى أملك في العثور على الشخص المسؤول؟
- لدي سبب يدفعني للاعتقاد بأن الجثة لم تُلَقَّ في الماء إلا قبيل ساعات من العثور عليها، أخطط للبحث عن شهود ربما كانوا في الحي قبيل هبوط الظلام.
- يبدو لي أن هذا إجراء عقيم لا يُرجى منه شيء، أهذا كل شيء؟
- ثمة أمر إضافي واحد، كانت الجثة عارية لكنها ملفوفة جزئياً بقمماش أسود من نوع لم أراه من قبل، يبدو لي قماشاً أثمن من أن يُستغنى عنه على ذلك النحو، الخبراء في هذه الأمور ربما يعرفون المزيد.
- بيدو نورلين غارقاً في أفكاره ويومئ لنفسه.
- تكتم على كل ما تفعله، وليس بسبب ريوترهولم فحسب، ثمة امتعاض يتفشى فيما حولنا، تجمع حشد من الرعاع عند بوابات القلعة في وقت مبكر من هذا العام، هاتفين مطالبين بالدماء، لأن نبيلاً خدش مواطناً بسيفه. أي عمل عنف يجب التعامل معه بعناية قصوى، أسدني هذا المعروف.
- تطرق خادمة الباب وتدلف حاملة إبريق قهوة وكوبين معدنيين، يصب نورلين، ويضع وينيه شفثيه الرفيعتين على حافة الكوب لتلتقيا بالمشروب الذي يهب الحياة، ويثب القط بسلاسة ليتكؤر على حجر نورلين، الذي يرسل نظرات قلقة نحو وينيه.
- المعذرة يا سيسل، لا سيما وأنني لستُ بريئاً تماماً مما أقوله، لكن، اللعنة! تبدو زري الهيئة!

الفصل الخامس

ثمة طبقة سميكة من السُّخام تسربل الجدران في حانة "دار البوّار"، لكن كل من يمعن النظر يمكنه تبيّن اللوحة الجدارية، اسمها رقصة الموت، تصوّر فلاحين وبرجوازيين ونبلاء وأساقفة، يضمون أيديهم حول هيكل عظمي يعزف على كمان أسود سواد القطران، تثير اللوحة ضيق الكثيرين، والزبائن القليلون يمكن عدّهم بسهولة حتى يتأخر الوقت وتجعلهم ثمالتهم لا يقيمون وزناً لأي ديكور في المكان. عارض صاحب الحانة، غيدا، جميع محاولات إقناعه بطلاء جدرانه بالأبيض، إذ كان يزمر قائلًا إن الجدارية رسمها هوفبرو نفسه، وهي تحفة.

يمقتها كارديل، وبخاصة أن اتفاهه مع غيدا يقتضي أن يحتفظ بذهنه صافيًا إلى درجة معقولة، فكارديل هنا بوصفه قوة عضلية مأجورة، وُظّف لإبعاد مثيري الشغب مقابل شلن أو نحوه أسبوعيًا وعلاوة إضافية على كل طرد ناجح. راتبه من عمله مراقبًا لا يقيم أوده، وهذا الدخل الإضافي مرحّب به. من مكانه على المقعد المجاور للباب، يشعر بحضور الهيكل العظمي للمرة المئة، ومحجرا عينيه يبحثان عن نظراته. تعترى كارديل رعدة ويقم في فمه حفنة من التبغ.

يستشعر أن هذه الليلة لا تبشر بخير، وهو شعورٌ لا يخلو من الترقّب، ففي الأجواء تعتمل متاعبٌ منذ مغيب الشمس، ندماء الشراب يتشاكسون على الجعة ومشروب الإكوافيت، وفي الحشود سرعان ما يؤدي التزاحم إلى التلظ بكمات عدوانية، وقد اضطر كارديل مرارًا وتكرارًا إلى النهوض من كرسيه وفض الاشتباكات، محاولًا التفاهم مع رجال لا يسمعون ولا يعقلون

حتى يمسك بتلابيبهم ويرفعهم إلى أن تتأرجح أقدامهم فوق خشب الأرضية ويلقيهم في الشارع.

تدخل مجموعة من البحارة متزاحمة عبر الباب، جميعهم دفعة واحدة، مشابكين أذرعهم، حتى يضطر الأضعف إلى كسر الحلقة مثيرًا سخرية الآخرين، يخورون بأغنية سوقية بذيئة بأعلى أصواتهم، وبين عبارات الهذر والتزّهات، يسمع كارديل تبجّجًا بغزوات العذراوات، والآن يعرف يقينًا أن الأمسية سوف تنتهي نهاية وخيمة.

شبان طائشون وثملون، بين حشد يؤمن بالشرف في مناصرة بعضهم بعضًا، يعرفهم كارديل تمام المعرفة، فهو كان مثلهم ذات يوم، يحبهم ويكرههم في الوقت عينه، يتابعهم متابعة لصيقة من مكانه جوار الباب كأنه ذئب يراقب قطيعًا من الأرانب ويعرف أن وقوعها بين براثنه مسألة وقت ليس إلا.

لا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. يتعثّر رجلٌ قصيرٌ برباط حذائه ويسكب مشروبه على ظهر أحد البحارة، وفي غضون بضع ثوانٍ، يرفعون الأثم المسكين فوق طاولة ويرغمونه على الرقص، وهم يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم ويميلون سطح الطاولة حتى يئن الخشب، وأحدهم قد أخرج مديته ويطارد أصابع قدمي الرجل بنصلها المدبب.

تلتقي نظرات كارديل بنظرات غيدا من الجانب الآخر من الحانة، لا يكثر غيدا بما إذا أراق الضيوف مشروباتهم أو دماءهم، لكن الأثاث يكلف أموالًا. ودون أن يضطر كارديل إلى التفكير بالأمر، تمتد يده الواحدة لتُحَكِّم الأربطة الجلدية التي تثبت ذراعه اليسرى في مكانها.

علّمت الحرب كارديل أنّ ما من شرفٍ في المعركة، ومع هذا فثمة طقوس ينبغي الالتزام بها، على الرغم من أنها متوقّعة وعديمة المعنى، يتبع الطقوس كأنها روتين مألوف، يضع يداً على كتف بحار، مجرد تظاهر باللباقة في خضم الجلبة، إيماءات مهدئة، وقريبًا من أذنه يزق أحدهم به قائلاً له أن يذهب إلى الجحيم، ويبصق آخر على وجهه، فيحس كارديل بدقات قلبه كأنها طبول في أذنيه، ويصطبغ العالم بالأحمر أمام عينيه، وعلى الرغم من هذا ما يزال متمالكًا أعصابه، ويهدّل كتفيه خاضعًا أمام ابتساماتهم الواسعة الظافرة.

وعندما تهوي الضربة الأولى، لا يفهمون ما يجري، تعلق اليد اليسرى من ارتفاع الخصر، وبما أن اليد نُحِتت كأن راحة اليد مبسوطة، يكاد كارديل يبدو كأنه يلاطف وجه أقرب رجل إليه، تتطاير الأسنان في الهواء في شلال أحمر، ويحوّل كارديل زخم اندفاع الذراع إلى اللكمة التالية، ثم التي تليها، فيشعر بذراع تنكسر، وقصبة أنف تتهشم، وأضلاع تغوص، ومقلة عين تطير من محجرها، كل ضربة تسبب ألمًا مبرحًا في طرفه الأبتري، والألم يصب الزيت على غضبه المتأجج.

يلوذون بالفرار فاقدين صوابهم من الهلع، وآخر واحد منهم يضطر إلى الحبو على أطرافه الأربعة منتحبًا، ولا يقدر على تجاوز العتبة إلا بمعونة حذاء كارديل. وعندما يستدير كارديل عائدًا، يجد ضحيتهم السابقة ما يزال واقفًا على الطاولة، يصفّق، مبتسمًا حتى تبين نواجذه.

يغمره الشعور بالامتنان، ويصرُّ على الاحتفاء بمخلّصه بإبريق نبيذ فاخر، ونخب تلو نخب. وكارديل، من جانبه، يقرر أن اشتباك الأمسية كفيلاً ببسط السلام في "دار البوّار" حتى توصلد الأبواب في نهاية الليلة. تتناثر البقع الحمراء على الأرضية، وثمة آثار أقدام تقود مباشرة إلى كارديل، كأنها إشارة تحذير يمكن للجميع قراءتها. يتجاهل نظرات غيدا المستهجنة ويعبُّ الشراب عبًا. تمثل الشجارات له أحد الأشياء القليلة التي تفعمه بالحيوية، وكان فيما مضى يسعى إليها سعيًا، مستلذًا بعد كل نصر بشعور -زائل- أنه يمسك بزمام حياته، بيد أن هذا الشعور حَفَّت بمرور السنوات، ذراعه تؤلمه، ويحس بأنه شاخ، ولم تعد سنه تسمح بحياة كهذه. يجد عزاءً في النبيذ، ويعرّف الرجل بنفسه بأنه آيزاك رينهولد بلوم.

- أنا شاعر، في خدمتك.

يرفع كارديل أحد حاجبيه في أثناء تنحنح الرجل ثم قوله:

- يا لك من بطل! إننا نرتعد رهبةً من نصرك... جميع أعدائك ولؤا الأدبار...

ومشيت فوق جثثهم الملطخة بالأحمر القاني!

- أهكذا تكسب قوت يومك؟

يزم بلوم شفتيه ويشعل غليونه الفخاري من الشمعة.

- هذه هي لعنة الشاعر، يجد النقاد أينما حل. لكن لا، حتى هبوط الليل
ألزم "دار انديتو"، هناك بالأعلى جوار القلعة، أعمل في غرفة الشرطة،
سكرتيرًا منذ يناير الماضي في الحقيقة.

لم يفكر كارديل في وينيّه وكلماته التي قالها عند افتراقهما حتى الآن.

- أتعرف شخصًا اسمه وينيّه، سيسل وينيّه؟

ينظر بلوم إلى كارديل نظرة يملؤها الفضول، وينفث سحابة من الدخان.

- يصعب نسيان هذا الرجل حالما تلتقي به.

- من هو؟ هل يمكنك إخباري بشيء عنه؟

- بدأ يطوف في أنحاء "دار انديتو" في نفس الوقت الذي عُيّن فيه نورلين

مديرًا للشرطة مطلع هذا العام، وبينهما اتفاق من نوع ما، يتيح إطلاق

يد وينيّه ليفعل ما يحلو له، ضمن حدود المعقول، وهو يهتم اهتمامًا

خاصًا ببعض الجرائم دون الأخرى.

يوميّ كارديل مفكرًا، ويعبُّ بلوم نفسًا عميقًا من غليونه مُطلقًا صوت

غرغرة، ثم يتابع:

- صادف أن درسنا القانون معًا في أوبسالا في نفس الوقت، أنا

ووينيّه، على الرغم من أنني كنت أكبره ببضع سنوات، ولم تجمعنا

الدوائر نفسها قط. دائمًا ما كان يُرى داسًا أنفه في كتاب ما لجان

جاك روسو، كان وينيّه أعجوبةً من نوع ما لم يُر له مثيلًا منذ رودبيك،

فالرجل لديه ذاكرة من القوة بحيث يمكنه استحضار كل كلمة قرأها

كأن الكتاب مفتوح بين يديه، وربما لهذا اتخذت الأمور منحى سيئًا،

فثمة أناس بعينهم يقرؤون أكثر من اللازم، وتتفتق أذهانهم عن أفكار

غريبة. خلال السنوات المبكرة من مسيرته المهنية، كان يجعل من

نفسه مصدر إزعاج بإصراره على استجواب المتهمين، وفي العادة هذا

أمر يتحاشاه المرء بأي ثمن، وكان يستعرض جمع قضاياها بتفاصيل

مُضنية لا نهاية لها. لكن على الرغم من أنه لا أحد بكامل وعيه يمكنه

أن يشكك في إذئاب أو براءة الشخص الذي تتولّى وينيّه قضيته، لم

ينجح قط في كسب ود زملائه، فمعظم الناس يُعيّنون في المحاكم

الدنيا يريدون رؤية العدالة ناجزة في أسرع وقت ممكن لدرجة أنهم لا يشغلون أنفسهم بمثل هذه التفاصيل، لكنهم يعجزون عن إيقاف وينيه نظراً إلى امتلاكه ناصية المحاججات المنطقية، فكانوا بدلاً من النقاش يلجؤون للسخرية والاستخفاف، اللذين يتجاهلهما وينيه ببرود منقطع النظير. ومنذ أن وُحِد قواه مع نورلين، ظهرت العديد من الحكايات عن كل ما أنجزه في خدمة الوكالة خلال العام الماضي. الرجال الآخرون يرتكبون الأخطاء، ويسهون، وإذا اتَّسموا بالتركيز الشديد، فغالبًا ما تخذلهم مئابرتهم، لكن ليس وينيه.

يلوُّح بلوم بجذع غليونه ليشدد على كلماته، وعندما يصمت مدة طويلة بما يكفي لسحب النفس التالي، يجد غليونه قد انطفأ، فيضعه جانبًا وهو يهز كتفيه هزة خفيفة، قبل أن يردف:

- إذا قلت كلامًا أقل إطرأء بشأنه، فذلك لأن الرجل لم يكن ودودًا قط.

- هذا القدر كان واضحًا.

- قابلت زوجته في الأوبرا العام الماضي، وعندما سمعت اسمها وأدركت من هو زوجها، كنت متيقنًا أنني لم أسمع على نحو صحيح، إنها امرأة رائعة يا كارديل، جميلة بالطبع، لكنها أيضًا ودود، رقيقة، مليحة، متهلة الأسارير، وهذه الصفات ضمن آخر كلمات قد أستعملها لوصف زوجها. لا بد أن اصطف الخاطبون أمام بابها، ولن أفهم أبدًا سبب اختيارها وينيه، ولهذا من سخرية القدر أن يكون هو الذي اختار هجرها، وليس العكس، كما قد يتوقع المرء...

يلوذ بلوم بالصمت فجأة كأن مزاجه الرائق قد انطفأ، مثل غليونه، فتملاً جلبية الحانة الصمت. في الركن ثمة رجل ذو معطف مرقع على الطاولة جواره قصعة شحاذ يبدأ بعزف لحن شجي بوزن ثلاثي على ناي خشبي بسيط.

- أجل، ها قد أخبرتك يا كارديل، وعلى الأرجح كان ينبغي أن أذكر هذا من البداية لكنني واقع تحت تأثير النبيذ، سيسل وينيه يحتضر بمرض السُّل، لم يكن قوي البنية أصلًا لكن المرض أنهكه أيما إنهاك، إنه شاحب لكن يخفي شحوبه ببراعة، ويكاد لا يسعل في مكان عام أبدًا، وعندما يفعل يسعل خلسة في منديل، دائمًا ما يكون بلون داكن

كي لا يظهر الدماء. تقول الشائعات إنه هجر زوجته كي يجنبها رؤية تدهوره، ويُقال إن مختصين مرموقين في مستشفى سيرافيم حددوا أن موعد موته سيكون قبل شهر، والآن يعيش على وقت مستعار. يجد وِئِنِه الاحترام من الجميع في ”تل القلعة“، لكن طاقم الموظفين أطلق عليه لقب ”شبح اندبِتو“.

لاحقًا، عندما ينقضي وقت طويل منذ ترنُح بلوم خارجًا إلى ليل استوكهولم على ساقين مرتعشتين، وبعدها يزداد الانتشاء وتُطفأ الشموع الدهنية واحدة تلو الأخرى مع انصراف الزبائن عن براميل السنديان المقلوبة التي جُعِلت طاولات - يضع صاحب الحانة يده على كتف كارديل قائلاً:

- وظفْتُكَ من أجل حفظ النظام هنا، وليس إقامة حمام دماء، إنك تخيف زبائني وتُنْفَرهم يا ميكيل، لم أعد قادرًا على مواصلة توظيفك.

في الليل بعد مدة من دقائق الساعة معلنة منتصف الليل، يستيقظ ميكيل كارديل في غرفته بسبب ضيق تنفسه وتسارع نبضات قلبه، ويستشري الألم في ذراعه، التي ترفض حواسه غيابها. وهذه هي ثاني مرة خلال يومين لا يفلح فيها الكحول ولا الشجار في مدّه بالسكينة.

الفصل السادس

لا أحد يسميه بـ "السُّل" حتى يغدو جلياً أن المرض قد استفحل إلى درجة لا يُتوقع معها تحسُّن الحالة، لا تُطلق التسمية الصحيحة على المرض إلا عندما يصبح الموت أمراً حتمياً.

كان مجرد سعال خفيف في البداية، في الربيع الماضي، سعال امتد أسبوعاً إثر أسبوع. وفي طفولته أيضاً كان يعاني السعال، لكنه كان ملحوظاً بالكاد. ثم بدأت الحمى الليلية، تداهمه نوبات تعرُّق يستيقظ بعدها بين أغطية وبطانيات مبللة. وبحلول الصيف، صار سيسل وينيه مضطراً إلى إخفاء سعاله بمنديل حتى لا يلفت الانتباه، وذات يوم في يونيو وجد القماش القطني المطرز مرقطاً بالأحمر، وصارت أنفاسه تنقطع بسهولة، وكثيراً ما يشعر بتشنجات في خاصرته كأنه كان يركض، وكان يحس في صدره كأن ثِقلاً عظيماً قد جثم عليه، ثِقْلٌ يتسع حينه على حساب رئتيه ويلجِم كل نفس.

تحسس الأطباء الغدد اللمفاوية المتورمة في عنقه وشخصوا المرض على أنه سل الغدد اللمفاوية، وكانت وصفة علاجهم طبخة دوائية ملفقة ذات مذاق مريع، مكونة من ثمار الدردار وخلاصة جذور نبتة الفُوَّة والزنجبيل والسرخس وعرق السوس والينسون النجمي، تعيَّن عليه تناول نصف قنينة يومياً، وعندما لم يطرأ تغير على حالته، لَمَعَ الطبيب نظارته وعلى محياه أمارات التفكير العميق واقترح عملية تفريغ لاستخراج السوائل الضارة من جسده، فأحدث الطبيب ثقباً، مستعيناً بالكَيِّ، في الجانب الأيمن من صدره، فتحة ليست أكبر من ظفر إصبعه الصغيرة، ثم وُضعت حبة بازلاء في الثقب لتمنع الجرح من الالتئام. وفي غضون بضعة أيام، تدفق الصديد من الجرح،

وطمأنه الأطباء بأنه هذه إشارة إلى نتيجة ميمونة. والحال غير هذا، إذ أبقاها الجرح الحارق مستيقظاً في الليل، وظل يتأرجح بين التجمد بردًا والتعرق. لزمّت زوجته جانبه دومًا بقطعة قماش لترطب جبهته، ومنشفة لتجفيف بدنه الضاوي، مترنمة بأغنية لتهدئته وتمنحه هنيئات من الرحمة.

مضى العام واستحال الشتاء ربيعًا، وتبع علاج الآخر، فكان ينحني فوق أحواض من الخل والطباشير، ويشرب حليب الأبقار غير المصفى، ويتنشق هواء الإسطبلات. وكان يصحو كل صباح منهكًا، جلده بارد رطب، وما من شيء كفيل بتدفئته. كانت عروقه زرقاء ومتورمة، وعيناه محتقنتان بالدماء تحيط بهما هالات سوداء، واستفحل ألم دائم في وركه. وعندما بدأ السعال، لم يوقفه شيء، وفي أسوأ حالاته يجلب معه إلى فمه مُزَعًا من الأنسجة الميتة، وكان بصاقه ننتًا. وعندما يجعلونه ينزف، يجدون دمه يتخثر بسرعة ليصبح قشرة ضاربة إلى الزرقة، وهذه علامة أكيدة على أن العدوى انتشرت. لم يعد قادرًا على أن يكون زوجًا لزوجته، ولم يطق مشاركتها الفراش عندما تبدأ نوبات سعاله وتعرقه الليلي ويُبْتلى بكرب مضمّن يجعله يظن أن ضلوعه ستُسْحَق.

انقضى شهر منذ أن أدار وينيه ظهره لكل نصيحة علاجية من المختصين الطبيين، فكل محاولة لتخفيف معاناته لم تزد حالته إلا سوءًا، ولم يعد بوسعه فعل شيء سوى استجماع كل ما لديه من إرادة لتجاهل الوخزات في حلقة، ووجد أن مصادر الإلهاء تساعده أكثر من أي شيء آخر، إذ إن التركيز الذهني يفرغ عقله من الأفكار ويجعل جسده يسترخي.

في الليل، في غرفته الموحشة بمنزل روزليس، يجلس جوار شمعة مشتعلة ويفكك ساعة جيبه، يبسط القطع العديدة أمامه حتى تترتب في صفوف، ثم يركبها مع بعضها مجددًا، يلتئم شمل التروس، واحدًا تلو الآخر، وتُنْبَت في مركزها وتُضْبَط مع بعضها، تلتف براغٍ بالغة الصغر في أحاديدها وتُشَد، فتتشكل ساعة تعمل كأنها جديدة من مجموعة قطع عديمة القيمة وهي وحدها.

يهتدي وَيُنِيهِ في طريقه نحو الموت بنفس البوصلة التي ظلت تهديه سبيله في حياته بأكملها: المنطق. يقول لنفسه إن جميع البشر سوف يموتون وإنهم جميعهم يحتضرون، يساعده هذا، لكن عندما يداهمه التعرق الليلي وتلاطم أفكاره، تَوَّرَقه تفاصيل هلاكه هو وليس المبدأ العام، فيفكر في جميع تفاصيل السُّل الإكلينيكية: هل ستنتشر العدوى إلى كل مفاصله وعظامه كما يحدث أحياناً؟ هل سيرحل بصمت في نومه أم في خضم تشنجات ونوبات؟ أي لون من ألوان العذاب يتربص به؟ وعندما لا يساعده شيء، يقول لنفسه إنه معظم ذاته ماتت بالفعل في آخر مرة رأى زوجته، غير أنه لا يجد عزاءً كبيراً في هذه الفكرة أيضاً، لأن جزء ذاته الذي واصل العيش هو الذي يقاسي الألم بوضوح.

يهبط المساء، ويرتدي وَيُنِيهِ ملابس استعداداً للخروج، المرأة التي في غرفته ضيقة لدرجة أنه يضطر إلى التراجع إلى نهاية الغرفة كي يرى نصف جسده، الملابس التي يرتديها هي الوحيدة التي يمتلكها، القميص والجوارب الطويلة تُغسل بانتظام وفقاً لجدول رتبه مع الخادمتين، وبقيّة الملابس تكفيها بضع ضربات بالفرشاة، قماش الملابس بدأ يهترئ، لا المعطف ولا الصدرية ما تزال موضتهما رائجة، لكنهما يفيان بالغرض، والملابس التي اختار الاحتفاظ بها هي نفسها التي كان يرتديها في خدمته في المحاكم الدنيا، ولم يكن الغرض منها هو التبخر قط، إنما الملاءمة، يُقصد منها الإيحاء لمن يراه بإحساس اللامبالاة إزاء كل شيء غير ذي أهمية قصوى.

يلف ربطة العنق حول عنقه ويعقدها، ويضع ذراعيه في كمي معطفه، ويحمل عصا المشي من ركنها، العصا التي كانت للمظهر فحسب ذات يوم والآن يعتمد عليها على نحو متزايد. يهبط وَيُنِيهِ السلالم بخطى وثيدة، بهدوء، حتى لا يصادف أياً من سكان المنزل.

يمشي هابطاً المنحدر نحو البحر ممسكاً بمنديل اتقاءً لرطوبة الهواء، وبالأسفل على مقربة من حوض السفن لا يستغرق وقتاً طويلاً ليعثر على رجل يقبل بأن يجدف به إلى داخل المدينة مقابل عملتين معدنيتين. يتناهى إلى مسامعه من بعيد خرير تيار المياه، لكن المياه ساكنة حيث هو، لا يחדش

سكونها سوى أنين مفصليّ الجداف وصوت الجدافين وهما يغطسان في الماء.

يعبران أسفل قوس جسر حوض السفن، ويجد النوتيُّ -بنظرات منتظمة فوق كتفه- ممرًا خلال متاهة السفن الراسية خارج الرصيف، حبال مرسة بسمك أفخاذ الرجال تمتد وترتخي حولها. وتتخلل رائحة القطران الطاغية رائحة خفيفة لمشروب العرق والقرفة والقهوة والتبغ.

بعد رحلة تدوم نصف ساعة، يقبل وينيه مساعدة يد ثابتة ليخطو إلى البر عند سلالم مبنى "وكيل العائدات"، ومن هناك تنتظره مسيرة قصيرة إلى شارع باغ.

الزقاق نابض بالحياة كالمعتاد، فهنا تتزاحم المواخير بعضها فوق بعض، وزبائن بدرجات متباينة من السكر يروحون ويجيئون، وثمة أغانٍ مرحة تمتدح فينوس يتردد صداها بين المباني، ممتزجة بتفاخر بأفعال وقعت أو سوف تقع، وهناك آخرون أكثر تحفظًا، فكثير من الرجال المتزوجين يختارون الإمساك بمناديل إلى أنوفهم، كما يفعل وينيه.

يعثر على المدخل الصحيح ويدلف. سيدة الماخور التي ورثت هذا العمل من القبطان الراحل أهلستروم لديها وجه مستغلق عتيق ولا تظهر أي إشارة على تعرفها إلى وينيه سوى إيماة مقتضبة.

- هل هي متوفرة؟

تهز المدام رأسها، ويضع وينيه عصاه ويهوي قاعدًا على كرسي.

- سأنتظر، ومن فضلك أريد أغطية ووسائد نظيفة، وغرفة مرتبة.

تلقي المرأة عليه نظرة يصعب تفسيرها ثم تغادره، يأتي آخرون ويذهبون دون أن يعيروه أي انتباه، وتنقضي قرابة ساعة قبل أن تعود المرأة وتلوح له ليصعد السلالم. يجد وينيه الباب دون إرشاد، ويطرق ثم يدخل.

المرأة التي يسمونها زهرة فنلندا في انتظاره، جالسة على حافة الفراش، وساقاها متصالبتان بإغراء. لم يكن العثور عليها سهلاً، إذ كان وينيه يبحث عن امرأة تقاربه في السن، والثلاثة عقود سن لا تبلغه معظم المشتغلات

في هذا المجال، لكنها ظلت سليمة على نحو لافت في هذا العالم السفلي، الذي يبدو أن قاطنيه يعيشون حياتهم بإيقاع يبلغ ضعفي إيقاع الآخرين. يتضح على معالم وجهها أنها تعرفت عليه حالما التقت أعينهما، وعلى الفور تتغير لغة جسدها، يتهدل كتفها، ويسترخي ظهرها الذي كان منتصبًا ليرز مفاتنها.

- هذا أنتَ، كان يمكن للموس العجوز أن تخبرني.

لكنتها الشرقية عذبة، إذ تتغنى بحروف العلة، ويومئ ويئن مجيبًا ويجول بناظره في أنحاء الغرفة ليتأكد أنها رُتبت وفقًا لتعليماته، ثم يناول المرأة المحفظة القماشية الصغيرة التي جهزها بالمبلغ الذي يعرفه كلاهما من المرة الماضية، فتشير إليه ليضعها على المنضدة.

- ستبقى طوال الليلة كالمعتاد؟

- نعم يا جوانا، أمل أن تكون النقود كافية.

تضحك.

- حتى إذا لم تكن كافية، إنني مستعدة لمنحك خصمًا، أنت زبوني المفضل، تدفع جيدًا وتطلب القليل، وهذا عكس ما أنا معتادة عليه، أم أن هناك شيئًا آخر تريده هذه المرة؟

يهز ويئن رأسه.

- لا، المعتاد فحسب.

يلق معطفه ويحل ربطة عنقه، ومن جيب صدره يخرج قنينة صغيرة ويناولها للمرأة بعناية بالغة، فتنزح السداة وترش بضع قطرات على نحرها وياقة فستانها المكشوفة. يطوي ويئن قميصه وبنطاله على ظهر كرسي بينما هي أيضًا تخلع بعض الملابس التي ترتديها ومعا يندسّان في الفراش.

يوليها ظهره وتحيطه بذراعها كما علمها تمامًا، يمكنها تحسس كل ضلع تحت يدها، وأنفاسه قصيرة واهنة تكاد لا تلاحظ، إنها تشبه زوجته، لديها الشعر الطويل نفسه ولون العينين نفسه، والآن الرائحة هي نفسها ودفء ذراعها هو نفسه.

تطفئ الشمعة التي بجوار السرير وتستشعر نبضات قلبه الواهنة وتباطؤ أنفاسه وهو يغوص في النوم، ثم ينزعج عدة مرات دون أن يصحو تمام الصحو وهي تمرر يدها على جبهته بحركات تعلمتها منه، وهي تنددن بكلمات تلقنتها منه.

يستيقظ عند الفجر، وكدأبه دوماً لا يدري إن كان ينبغي أن يعدّها نعمة أم لعنة، أي هذه اللحظات الوجيزة بين النوم والوعي عندما يتيح له عقله الناعس عيش اللحظات مرة أخرى. يغادر الفراش ويرتدي ملابسه، تظل جوانا في الفراش ولا تستيقظ حتى يدير وينيه المفتاح ليفتح الباب.

- الليلة هي المرة الأخيرة.

تتمطى وتفرك عينيها لتذهب عنهما النوم.

- هل مللت من اتفاقنا؟

- لا، إطلاقاً، هذه النقود كانت آخر ما أملك.

تهز كتفها بابتسامة طفيفة، ويجذب وينيه معطفه فوق كتفيه ويلاحظ أن القماش قد بدأ يهترئ عند المرفقين، اهترأ بما يكفي للرؤية من خلاله، لا يهم، فهو واثق من أن جميع ألبسته سوف تدوم لبقية حياته.

الفصل السابع

يسمع كارديل أجراس كنيستي هيدفيغ إليونورا وجاكوب تعلنان حلول الثانية بعد الظهر وهو يسير على "الجسر الجديد" تحت المطر، تتلاشى صواري سكان الجزيرة في الضباب الذي خلف مباني حوض السفن والحصن ذي الجوانب الثمانية الذي يحرس مدخل المرفأ، ترفرف راية البحرية ذات الرؤوس الثلاثة مع الريح وهي مبتلة بالمطر المنهمر، ويموج "خليج القطط" تحت قدميه، المياه هنا -بالمقارنة ببحيرة لاردر- أقل ركودًا، بفضل تدفق المياه النظيفة من البحر. وحول شواطئ "خليج القطط"، أكوام الأبال من مخلفات المراحيض تتجمع لتكوّن مستنقعًا سميگًا، يغذيه النُهير المنحدر من الشمال، وعلى الرغم من أن الماء تشوبه مسحة من الأصفر والبني، هناك مجموعة من النساء الغاسلات على الرصيف ومعهن أكوام من الملابس المتسخة، يعملن بغمر ملابسهن في الأوحال، ثم ينظفنها بضربها بألواحهن. وعلى مقربة منهن سوق السمك.

يتعين عليه شق طريقه مجتازًا رجلًا يستجدي باسطًا يده الشوهاء لاستدراار التعاطف، وفي سوق السمك ينتصب الحصان الخشبي ذو العمود الفقري الحاد، وفوقه رجل مقيد ينتحب وقد عُلقَت الأثقال بقدميه، وبالنظر إلى ملابسه، يبدو أنه حوذي ضُبط وهو يزور أوراق الأجرة، وهناك رجل نصف عار يقف مقيدًا بسيراق تشهير، يصرخ، والدماء تنهمر من أنفه إلى فمه.

يواصل كارديل سيره متجاوزًا العشش على الجانب الآخر من الجسر، وهنا تعيش الأسر بعضها فوق بعض في أكواخ مؤقتة ذات أسقف متكئة على مبان أكبر وأكواخ تبدو على وشك التداعي، ولديهم سبب وجيه للخوف

من الفصل القادم، فحالما يتسلل الشتاء إلى أركان ملجأ الفقراء الذي يعج بأجساد الفقراء المرتجفة، فإن جثث البقية المجمدة سوف تكوّن كومة عالية جوار المقبرة إلى أن يذوب الجليد.

يتابع السير بمحاذاة الشارع إلى أن يبلغ حوض السفن عند تيرا نوكفا، حيث امتلأ الشاطئ بالتراب والأوساخ من أجل خلق مكان للأرصفة الجافة والورش، ثم يستدير مبتعدًا عن الشاطئ ويسير نحو الأرض المرتفعة، وهنا تقل الكثافة السكانية، تصل المدينة إلى نهايتها، حيث تزداد حظوظ النسيم المالح في قدرتها على تبديد نتانة المدينة، لا يحتاج كارديل إلى متابعة السير في الشارع مسافة طويلة قبل أن يلحح "ضيعة اسبنز" بمبانيها شبه الدائرية المحيطة بأيكة من أشجار الزيزفون، وفي الساحة التي بين المنازل، يجد كارديل أمامه خادمة عجوز تحمل إبريقًا نحاسيًا، فيوضح لها طبيعة هذه الزيارة.

- السيد وينيه يقطن غرفة في الطابق الثاني من المنزل الحجري الجديد، يمكنك الانتظار في المطبخ بالأسفل، المدفأة موقدة هناك فيمكنك تجفيف نفسك.

تصعد الخادمة إلى الطابق العلوي لتعلن عن حضور الزائر. خلف صالة المدخل رغيفٌ يُخبَز في فرن حجري، والعديد من الخدم والعمال يروحون ويجيئون، فيجد كاريل نفسه -حيثما وقف- معترضًا طريق أحدهم، ولا تمر مدة طويلة قبل أن يُقحم في يده كوبٌ جعة محلّاة ومزودة بالتوابل، ثم يهز رأسه رافضًا كعكة قمح خُبزت للتو لأن لا يد أخرى لديه ليتلقاها بها. وفي الحال تعود الخادمة، وتلوح له من السلالم، ولا يتعيّن عليها إخباره بمكان غرفة وينيه، إذ إن سعاله المُوَجع يمكن سماعه من البوابة.

غرفة سيسل وينيه مكانٌ كالح، الأثاث الذي لا بد أنه تابع لاتفاق الإيجار موضوع على امتداد الجدران، ويرى القليل من ممتلكات وينيه الشخصية، الكتب مكومة في رزمة، وهناك صندوق، وينتصب مكتب بسيط جوار النافذة كي يتعرض للضوء، ويتناثر على سطحه ما يبدو كساعة لم يكتمل تفكيكها.

تنبعث الحرارة من المدفأة الغائرة عبر فجوات في الأرضية وهي مصدر الدفء الوحيد بما أن المدفأة لم تُوقد بعد.

لو أن أحدًا عاش حياة مختلفة عن حياة كارديل لظن بسهولة أن الرائحة التي تملأ الهواء رائحة حديد، لكن كارديل يعرفها خير معرفة، إنها رائحة الدماء، وتحت السرير يرى وعاءً على حوافه بقع حمراء، أبعد للتو، فيشبح ببصره بعيدًا عنه، مُحَرَجًا، بأسرع ما يمكنه.

يجلس ويُنِيه على السرير، شاحبًا وساكنًا، لا يبدي أي أعراض على نوبة سعال قادمة، وبينما يبحث كارديل عن الكلمات التي ظل يحاول العثور عليها منذ اليوم السابق، يبتدره ويُنِيه بالكلام:

- تحدثت مع شخص يعرف حالتي، وشعرت بالندم على آخر كلمات وجهتها لي على الرغم من أنه كان من المستحيل أن تعرف عندئذٍ.

يومئ كارديل مطلقًا تنهيدة ارتياح.

- هذا لا يهم يا جان مايكل، الأمر المهم هو أنك هنا. هل لي أن أسألك عما دفعك إلى تغيير رأيك؟

- ذكرت النقود، والله يعلم أنني محتاج إليها.

- وما كنت لأعرض عليك أي نقود إذا لم أستشعر أن ثمة سببًا أعمق لاهتمامك بهذه القضية، إذ لم تكن هناك نقود عندما خضت في بحيرة لاردر وخرجت بكارل يوهان بين ذراعيك.

- في أثناء الحرب... كان لدي صديق لا يفترق عني كثيرًا، لا بد أنه أنقذ حياتي مئة مرة، تمامًا كما أنقذت حياته. وعندما حلت بنا فاجعة، سقط كلانا في الماء، وضربه لوح خشبي على رأسه وأمسكت رأسه فوق الماء لأطول مدة قدرت عليها. جاءني في حلم الليلة قبل الماضية، كما يفعل كثيرًا، وعندما دخلت إلى البحيرة في حالة سُكري، كان الأمر كما لو أنني عدت إلى نفس المياه، لكن هذه المرة لم تنتزعه موجة من قبضتي، ظللت ممسكًا به وعدت به إلى البر. لم أتمل منذئذٍ، لكن الإحساس ما يزال باقياً.

- شكراً لك على ثقتك يا جان مايكل، إنني لا أسألك بدافع الفضول فحسب. عرض التعويض المالي ما يزال قائماً، لكن الآن يمكنني أن أدفع لك وأنا أعرف أن ولاءك ليس للذي يدفع أكثر. لكن ماذا عن وضعك؟ أنت مراقب، ومع هذا يبدو أنك قلماً تناوب في الخدمة.

يرتعد عندما يخطر له زملاء عمله، رجال بغيضون يتسمون بنطاق عريض من الصفات المرذولة ويفضلون أن تُدفع لهم الرشوة عيئاً.

- أنا مراقب اسماً فقط، فمنصبي هذا خدمة لمتسول معاق أصيب بإعاقة في أثناء خدمته للتاج. ومن بين الذين عادوا من الحرب، أحسب نفسي أحد المحظوظين، فهناك آخرون يتسولون، باذلين أنفسهم في الشوارع، أو يستعيدون أنفسهم في متجر تبغ ما. جاءني عمل المراقب عن طريق صلات جيدة، لكن فليأخذني الشيطان إذا كنت أعتزم إمضاء أي وقت في مطاردة المشردين والبغايا لأخذهم إلى دار الإصلاح، فهم مثلي لم يختاروا أقدارهم.

يسود الظلام المكان، ويشعل وينيه الشمعة على المكتب بعود ثقاب، فتُغري الشعلة الظلال بالتراقص حولهما، ويعود وينيه إلى السرير ويقعد مُصالباً ساقيه.

- ثمة بضعة أشياء أود لك أن تعرفها، أولاً، إنني أعمل بموجب اتفاق مع مدير الشرطة نورلين، وبحسب صلاحياته سوف نسعى خلف قاتل كارل يوهان. يوشك تعيين نورلين على الانتهاء وقد ذكر لي اسم من سيخلفه بالاسم: ماغنس أولهولم. قبل عامين عُين أولهولم للإشراف على صندوق معاشات الأرامل التابع للكنيسة، وفي عملية مراجعة لاحقة وُجد أن مبالغ ضخمة مفقودة، فكان من الطبيعي أن توجه الشكوك نحو أولهولم، كنت حينذاك أعمل في المحاكم الدنيا، وشاركت في القضية المرفوعة ضده، ولم يداخلي شك للحظة في أنه مذنب، لا سيما بعدما هرب إلى النرويج، وبالتالي أرغمتنا على تعليق القضية، والآن اختار البارون ريوترهولم أن يعفو عنه، بما أن البارون يعرف جيداً كيف يستغل رجلاً لا يريد شيئاً سوى الاغتناء. وأولهولم ليس

رجلاً ينسى الذين عارضوه من قبل، وحالما يعرف بأمر ترتيباتي مع نورلين، سوف ينهيها ويفعل كل ما بوسعه للتصدي لأهدافنا.

يقف وينتبه، ويذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهو يشابك يديه خلف ظهره.

- ثانيًا، الجريمة الماثلة أمامنا ذات طابع بالغ الغرابة، فهي ليست عمل مجرم عادي. ما هي الموارد التي يتطلبها إبقاء رجل سجيناً مدة طويلة بما يكفي لتقطيع أوصاله دون أن يعرف أحد بالأمر؟ فُكِّر أيضًا بقوة الإرادة التي يوحى بها هذا، والعزيمة. من يدري ما سنجده إذا قلبنا هذا الحجر؟ بكل قرش تكسبه إنك تشتري لنفسك عدوًّا جبارًا. أقول لك هذا لأن مخاطرتك تفوق مخاطرتي بكثير.

يستدير وينتبه مبتعدًا نحو النافذة، ورذاذ المطر يتحول ببطء إلى نُدف تلج ثقيلة.

- لن أظل على قيد الحياة بعد هذا الشتاء المقبل، قريبًا سأكون في عداد الهالكين، ومهما يحدث بعد ذلك، سوف تبقى أنت لتواجهه وحدك.

يخفض كارديل بصره. لا يعرف وينتبه منذ مدة طويلة، لكنه الآن يتساءل إن كانت محاولته لشفاء الجراح التي خلفها يوهان هجيلم لن تؤدي سوى إلى فتح جرح جديد بدلًا منها، وعلى الرغم من هذا، يجد القرار سهلًا. يصفع كارديل المكتب براحة يده بقوة كافية لتناثر قطع الساعة الصغيرة.

- إذن فلنستغل ما لدينا من وقت أحسن استغلال، حتى تتسنى لك فرصة الاستمتاع بحصتك من هذه الورطة.

يرى كارديل انعكاس وينتبه المشوه على زجاج النافذة ويتساءل عما إذا كان ما يراه منعكسًا هو شبح ابتسامة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الثامن

الأجواء نابضة بالحياة في حانة "العَلَم"، وهي كائنة في سرداب على مقربة من شاطئ الخليج، وفيها موسيقيان متجولان، أحدهما يضع أورغن يدوي في حجره والآخر يحمل كماناً مثبتاً قرب وركه، كلاهما أراد أن ينصب آلاته ويعزف للجمهور في هذا المساء، لكنهما حوَّلا نزاعهما في البداية إلى تعاون. تتدفق الحشود لسماعهما، وسرعان ما يصطف الناس حتى السلالم. الهواء منعش بالخارج، والضباب يتصاعد من البحر ويتلمس طريقه نحو المدينة. يتناول وينيه وكارديل وجبتهما المسائية عند طاولة جوار النار حتى يتفاديا التيار البارد القادم من الباب.

شهية كارديل مفتوحة على مصراعها، عكس وينيه فاقد الشهية تقريباً. من المطبخ تتلاحق الأطباق بانتظام: كرات سمك، وطبق تيرين من الجزر، المملح المدهون بالزبدة، وصفحة من نقانق لحم الخنزير، وسمك قُد مسلوق، وسمك رنجة مقلي، وحساء لفت يتصاعد منه البخار، وخبز محمص وجبن، وطبق ثريد، إلى جانب شرائح برتقال وكعك محلى. يلتهم كارديل الطعام كأنه آخر وجبة في حياته، ويتركه وينيه ليطفئ عطشه ويخمد جوعه دون مقاطعة، ومن جانبه، يكتفي بتحريك الطعام على الطبق بشوكته، ثم يضعها مفضلاً القهوة. أما كارديل، عندما يفرغ من الأكل، يجعد أنفه إثر اشتمامه رائحة البُن المسحوق للتو ويرفض الكوب المقدم إليه.

- لم أفهم قط سر إعجاب الناس بهذا السائل المعتكر.
- ربما يكون مذاقها مسألة عادة، لكنها تصفيّ الذهن فوراً. جان مايكل، هلاً أخبرتني بكيفية فقدانك ذراعك؟

- هذه قصة أجدني مستعدًا لتفادي حكيها بأي ثمن، لكن أؤكد لك، سيكون من الأفضل إذا تمكن الجميع من سماع قصة حرب غوستاف الروسية حتى نتلافى مثل هذه الحروب في المستقبل. دوري في الحرب لم يكن بطوليًا ولا ذا معنى، كنت ببساطة تافهًا في لعبة لا أملك فيها قرارًا، أرسلت لألقى حتفي، ولم ينقذني سوى القدر. فقدت ذراعي لكن فقدانها أنقذ حياتي.

بدأ كارديل -على الرغم من رتبة ضابط الصف المتواضعة- يشك سريعًا في أنهم دخلوا الحرب باستعجال شديد، خدم مدة خمس سنوات في وحدة المدفعية بالجيش، ومع آلاف الآخرين أبحر مع أسطول استوكهولم إلى خليج فنلندا قرابة منتصف صيف 1788، وفي جزيرة هانغو انضموا إلى سفن عديدة أبحرت من كارلسكرونا تحت قيادة شقيق الملك، الدوق شارلز. أرسل كارديل إلى سطح *نا فانرلاند*، وهي سفينة حربية ذات ستين مدفعًا صممها تشابمان وبُنيت في كارلسكرونا قبل خمس سنوات.

- إذن لك أن تقول إنَّ خبرتنا في الخدمة متساوية، أعني أنا و*نا فانرلاند*. نظرت إلى هذه المصادفة بوصفها فألاً حسنًا، لكن اتضح لاحقًا أنني مخطئ.

كان كارديل يقف على سطح *نا فانرلاند* في ضباب الصباح المبكر في السابع عشر من يوليو عندما أرسل الأسطول الأمامي إشارة تُخبرهم برؤية العدو، وبعد نصف ساعة، رأى كارديل بنفسه الصواري تطل برؤوسها من الضباب ناحية الشرق وأحس بأول وخزة رعب في أحشائه. كان كلا الجانبين متقاربين في القوة، سبع عشرة سفينة حربية روسية مقابل قرابة عشرين سفينة سويدية.

- سَحَقًا يا وينيّه، هذه كانت أول معركة أخوضها، في البحر يجري كل شيء ببطء مؤلم، في نفس اللحظة التي رأيت فيها القوتان البحريتان بعضهما، بدأت المناورات، ويتعيَّن على كلا الجانبين انتظار الرياح والتيارات المائية كي يقتربا من بعضهما بما يكفي، وينظما صفوفهما، كي يفسحا المجال للمدافع، وعند صدور الأوامر، تُطلق النيران بلا انقطاع وبلا

هوادة، وكل ما نراه عندئذٍ، نراه عبر كَوَّات المدافع عندما يُعاد تلقيمها بالقذائف والبارود، في أفضل الأحوال نلمح أمواجًا دامية وحطامًا طافيًا، وفي أسوأ الأحوال نجد صفاً منتظماً من المدافع اللامعة تتأهب لتدمير أسطح سفننا، نجد أنفسنا في مرمى النيران تمامًا كعدونا، إنه أمر فظيع، القذائف التي تخفق في الاختراق ترتد من الهيكل وترجُ السفينة بأكملها، شظايا الخشب تغوص في اللحم والعظم كأنهما زبدة مُخضت للتو، الرجال يتغوطون ويتبولون على أنفسهم حيث يقفون، فيمتزج البراز بالدماء تحت أقدامنا، حتى العرق تختلف رائحته في مواجهة الموت، أكنت تعرف هذا؟ امزج كل هذا مع دخان البارود وستحصل على عطر الشيطان. لو كان معنا ما يكفي من الذخيرة، لكان النصر لنا. أزهقت ألف روح في هوغلاند، وبلغ عدد القتلى الروس ضعف عدد السويديين. ومع هبوط الظلام، خيم صمت عميق على كلا الطرفين، وفي الصباح انسحب السويديون نحو هلسينكي، إذ لا يمكن أن تستمر المعركة دون ذخيرة، واختار الروس عدم المطاردة. خسرنا سفينة في أثناء القتال، وغنمنا واحدة بالمقابل، اسمها فلادِسلاف، ذات أربعة وسبعين مدفعًا.

إذا علمنا عندئذٍ ما نعلمه الآن، لأغرقنا فلادِسلاف في مكانها في التو واللحظة، إذ كادت السفينة وحدها أن تكلفنا الحرب، كان التيفوس متفشيًا على سطحها، وجلبناه معنا إلى حصن سفيابورغ. بقيت هناك طوال الشتاء بينما كانت السفن تعود إلى كارلسكرونا، اضطررنا إلى تكسير الجليد بالفؤوس والجِراب من أجل فتح الميناء، وحملت السفن الحمى عائدة إلى السويد. في ذلك الشتاء تحولت سفيابورغ إلى بؤرة جحيمية، انتشر المرضي والمحتضرون في كل مكان، كنا نموت كالذباب، وتكدس الرجال بالمستوصف بعضهم فوق بعض، قد يبلغ عددهم خمسة في كل سرير، والذين بالأسفل ميتون حتمًا. وكان الذين تشتد حدة مرضهم يهلوسون، ويحملقون بأعينهم المحترقة بالدماء نحو أشياء لا يراها أي كائن حي، ويصرخون بأعلى أصواتهم. رأيت رجالًا بلغوا من الرعب حد أن يتركوا أسرَّتهم ويركضوا عراة إلى العاصفة الثلجية. أنا عن نفسي نجوت من البلاء، وبحلول الصيف عادت

الحرب إلى خليج فنلندا. أنزلت بنا مجزرة في سفينسكُند، ولم نصمد في فايبورغ. وعلى الرغم من هذا لم تمس الحرب شعرة في رأسي، لم تقترب مني لا الحمى ولا الشظايا ولا الرصاصات. وفي مايو 1790، جاءتنا تعزيزات من أبو، وكنت أحد الذين كُفِّوا بمساعدة القادمين الجدد، فنقلتُ إلى الفرقاطة انجبورغ، التي بغضتها من البداية، فتشابمان، الذي صمَّمها أيضًا، لم يُبحر يومًا في حياته يا وينيّه، كان رياضياً يصمم سفناً لا تصلح للبشر، يبلغ طول السفينة مائة وعشرين قدمًا، بدسته مدافع جميعها تطلق قذائف يبلغ وزنها اثنا عشر رطلًا، وتسرب الماء، والفطر عالق بهيكلها بسمك شبر يمكن قطعه بسكين. شيئًا فشيئًا انضممنا إلى القوة الرئيسية في نهاية المطاف.

للمرة الثانية تموضعت السفن السويدية في سفينسكُند كأنها خراف تتهياً للذبح، متضعضة، ويلاحقها الروس، ومعزولة عن الأسطول البحري الذي قطع طريقه إلى سفيابورغ على نحو ميؤوس منه. لم يكن هناك مجال للفرار، وبدا أن المعركة هي البديل الوحيد، وقد أراد الملك خوض معركة.

- هاجمونا عند الفجر قرابة الساعة السابعة، استغرقوا أربع ساعات حتى يبلغوا مدى القذائف، ولكانت تلك الساعات الأربع هي أسوأ ساعات حياتي لو لم تفقها سوءًا الساعات التي أعقبتها، لم يداخلنا شكُّ في أن الموت نفسه مقبل علينا مُقسَّمًا على ثلاثمئة سفينة، حاول رجال كثيرون الفرار، وتُرك رجال بالآلاف في الأمواج في أثناء هروبهم من فايبورغ، وقد قال كثيرون -صباح ذلك اليوم في سفينسكُند- إنهم سمعوا أصوات استنجاد رفاقهم الغرقى تحملها الرياح، وعندما وصل الروس، وقع هجومهم على ميمنتنا، فدافعنا عنها، اشتغلت المدافع لساعات.

تغير الطقس في منتصف النهار، هب نسيم من ناحية الجنوب الغربي، ابتداءً كهمة، ثم استحال هديرًا، ومعه هاج البحر بأمواج ذات قمم بيضاء تحت سماء مدلهمة ثقيلة، كان قصف السفن السويدية -المثبتة بالمراسي والمقيدة ببعضها- أكثر فعالية بمراحل من قصف الروس، الذين وجدوا أنفسهم يطلقون القذائف بلا جدوى وتحت رحمة البحر المائج. انشقت مجموعة صغيرة من السفن السويدية

كي تهاجم ميمنة الروس من الخلف، فذبَّ الذعر فيهم عندما رأوا المهاجمين السويديين وانسحبوا، وفهمت ميسرة الروس إشارة انسحاب رفاقهم على أنها أمر عام بالانسحاب وتبعوهم سريعاً. ظل قلب سفن الروس في مكانه، وحده. ودُمرت سفنهم أشلاءً مع انتشار الظلام في سفينسكُنْد. غرقت جميع السفن، الواحدة تلو الأخرى، وتركوا موتاهم وجرحاهم طافين في الماء الذي صار مضطرباً أحمر، وكان الأوان قد فات عندما حاولت السفن الباقية الاستدارة والفرار، عصفت بهم العاصفة وقُضي أمرهم على الشعاب الفنلندية. وماذا عني؟ أُصيبت /نجبورغ بمدفع روسي عند العصر، اقتلعت القذيفة المدفَع الذي جواري ودفعته واخرقت به هيكل السفينة على الجانب الآخر، ومُزق فريق من المدفعية إلى أشلاء على الفور، والذين لم يكونوا في مسار القذيفة سُحِقوا وتحولوا إلى عجينة عندما تدرجت عليهم ماسورة المدفع، وكان أعداؤنا قد سَخَّنوا القذيفة قبل إطلاقها، فأشعلت أي خشب لامسته، وعندما لم تعد مدافعنا صالحة للاستخدام في الدفاع، ركضتُ إلى السطح، حيث كانت تسود فوضى عارمة، لم يكن أمامنا سبيل لإنقاذ الفرقاطة -التي بدأت تغرق بحلول هذا الوقت- سوى رفع المرساة والتوجه بها إلى مياه ضحلة، وعانينا مع المرساة عندما انفجر مخزوننا من البارود، إذ قُذِفَت رافعة المرساة بأكملها بعيداً، والذين لم يكونوا ممزقين عندئذٍ طاحوا فوق حاجز السفينة، سقطتُ على جزء من السطح ما يزال سليماً، فأفرغت رئتي من الهواء، ثم جاءت سلسلة المرساة مجلجلةً وهوت على ذراعي اليسرى، فكبَلتني على السطح، وظللت طافياً بينما كان صديقي يغرق. عثر عليّ لاحقاً في تلك الليلة قاربٌ في طريق عودته إلى القوة الرئيسية، استخدموا حبلًا كعاصبة شرايين وبتروا ذراعي من تحت المرفق، وبالتالي انتهت الحرب بالنسبة إلى ميكيل كارديل. تعافيت بخيمة في لوفيسا، ثم أعادتني ناقلة تابعة لمستشفى إلى استوكهولم، حيث عشت ثلاث سنوات كما تراني الآن.

ينقر كارديل على الطاولة بذراعه الخشبية.

- تعرف بالطبع أن الحرب كانت تفتقر إلى أي هدف، ولم نستفد شيئاً من ذلك النصر. ثمة واقعة بعينها لم أنسها قط يا وِئنيّه، في بدايات صيف 1790، تعرفت إلى ضابط شاب يدعى سيلين، أخبرني عن حادثة عجيبة وقعت بُعيد معركتنا خارج فريديريكشامن في مطلع ذلك العام. كان الملك غوستاف وحاشيته عائدتين إلى سفينته، التي اسمها أمفيون، وجاء كابتن يدعى فيرجين وعرف بنفسه وقدم تقريراً عن فشل محاولته السيطرة على حوض سفن روسي مجاور، وأظهر للملك -كأنما ليشدّد على هزيمته- يده المصابة وأشار إلى مساعده الأول المتمدد على سطح السفينة وهو مغطى بشبكة من أمعائه، فأشار الملك إلى الجثة التي ما تزال ترتعش وقال مازحاً للضباط الآخرين إن جثة ذلك الرجل تذكّره بدُمية محشوة من الأوبرا الخاصة به، غوستاف واسا، وعندئذ ضحك الملك وحاشيته وأثنوا على النُكته... هكذا كان الرجل الذي قاتلنا من أجله، وهذا هو الشكر الذي نلناه.

يستوعب وِئنيّه كلماته ويحتسي آخر ما في كوب قهوته، ويمسح كارديل حاجبه بكُمّه.

- إذن ما العمل الآن؟

- لدي اسم لك يا جان مايكل، اسم شخص ربما يقودك إلى نتيجة إذا حالفنا الحظ، سوف أتولى مسألة قطعة القماش القطني الفاخر الذي أرسل كارل يوهان ملفوفاً به إلى مثواه الأخير. تعرف مكان غرفتي، ابحث عني عندما تجد ما يجدر إبلاغي به.

الفصل التاسع

كان شرطي الحي في أبرشية ماريا -الذي رتبَّ كارديل للقاءه بمساعدة وينيّه ووكالة الشرطة- قد تناول إفطاره على هيئة سائلة، ويحافظ بصعوبة على توازنه وهو يظهر عند عتبة باب منزله، يعاني الفُواق، وتنبعث منه رائحة أرضية حانة، غليظُ عريض المنكبين، ذو أنفٍ ملتو هُشم أكثر من مرة على الأرجح، وتحت جلده أوعيته الدموية التالفة تتفسخ كأنها ديدان طفيلية.

- هنريك استبَّ، في خدمتك! يسمُوني استبي.

يكبح الرجل تجشؤه بصوت منخفض، ويهز كتفيه معتذراً.

- ميكيل كارديل، خادمك المتواضع، شكراً جزيلاً لك على وقتك.

- أوه، لا عليك، تفضّل، ادخل، لا أريد إطالة الموضوع أكثر من اللازم، لكن حُبّاً في الله فلنتناول مشروباً أولاً، فشوارع ماريا وكاتارينا هذه لا أتمنى لألد أعدائي أن يراها في حالة عدم ثمالة.

وبعد نصف ساعة كثيبة في معاقرة زير نبيذ -خمنَّ كارديل أنه مزيج رخيص من رواسب قيعان عدة براميل بمذاق طغت عليه إضافة اليانسون- يخرجان إلى شارع كاتارينا، ويرسل استبي الكلام مدراراً عن الأحياء التي عَهدت إليه حراستها:

- البراز الذي لا يُسحب إلى بحيرة لادرر ينزلق متلويّاً على التل نحو "الخليج المُذهب"، والمولودون حديثاً يسلكون الاتجاه نفسه لكنهم يمرون بالمقبرة أولاً. بحق يسوع المسيح يا كارديل! ربما ليس لدى

الناس ما يتفاخرون به هنا في أبرشية ماريا، لكنهم يعرفون كيف يتناكحون، وإذا لم تستطع أن تتجشم عناء إمتاع زوجتك، فهناك شخصٌ مستعدٌ دومًا. ولادة إثر ولادة، منذ أن تضع العذراء خاتمًا حول إصبعها إلى أن تغدو حيزبونًا وتُجرَّ من قدميها وثدياها يُسحبان خلفها على الأرض، بعد عشر سنوات وأكبر عدد ممكن من الأطفال. قِلَّة قليلة منهم محظوظة بما يكفي ليكبروا ويصبحوا نماذج راقية من الجنس البشري مثلي ومثلك، فالذين ينجون يناهزون العشرينيات من أعمارهم قبل أن تأخذهم الحمى.

يقتعد استبي صندوقًا خشبيًّا، والعرق ينضح تحت قبعته وباروكته، فيضعهما على جِجره وهو يفرك فروة رأسه مستمتعًا حتى تتطاير القشرة من شعره، ويتابع:

- تمثِّل الدعارة خزيًا صارخًا، إذ تتعلم الفتيات بالكاد الوقوف على سيقانهن قبل أن يتعلمن كيف يباعدن ما بينها، بيد أن بطرُق الأبواب وهن يحملن سلال الفاكهة ويبدلن كل ما بوسعهن ليغوين الرجال الذين يخشون الله ويوقعنهم في الخطيئة. لكن أفعالهن تترد عليهن، كما تعرف، فأصابتهن بالمرض الفرنسي⁽¹⁾ مسألة وقت ليس إلا، ولا تبقى أي أموال للعلاج بعدما يتبدد القليل الذي كسبته على المشروبات. وبعد سنوات قليلات ما من رجل عاقل قد يكلف نفسه عناء مجرد النظر إليهن، كلا، فنحن وأمثالنا من الحكماء الشبقيين يتعيَّن علينا الإسراع قبل أن تفقد الوردة نضارتها.

يغمز استبي لكارديل، ويردف:

- لكنك تعرف كل هذا بالفعل بما أنك مراقب. انظر هناك، إنهم بعض زملائك.

لا يحتاج كارديل سوى إلى إلقاء نظرة سريعة على هيئة الشخصين اللذين أمامه بعيدًا ليعرف اسميهما: فيشر وتيست، مراقبان مثله، يسيران في الشارع ويتوقفان ليفتحا الأبواب أملًا في ضبط أئمة ما متلبسة بالجرم المشهود.

(1) يُقصد به مرض الزُّهري. (المترجم)

لم يعمل كارديل، من جانبه، سوى ساعتين مراقبًا قبل أن يعود إلى قائده ليقدم له إشعار عدم رغبته في مواصلة العمل، فزيارته الوحيدة إلى إصلاحية النساء في جزيرة "الندبة" كادت تجعله يتقيًا، إذ رأى أجسادًا عجفاء تُجبر على تأدية العمل الموكل إليها، نساء يمتن من الجوع موتًا بطيئًا، وتحت رحمة رفاقه المراقبين، وخطر له أنه أيًا كان الجحيم الذي سيودعن فيه بعد الموت، فسيكون تغييرًا مُرحَّبًا به بدلًا من الحياة بين تلك الجدران، حتى إنه قال كلامًا بهذا المعنى بصوت عال، فحاولوا تغيير رأيه لكنه لا بصمت عنيد إلى أن هز قائده كتفيه، وبصق على الحصى، واستدار على عقبيه.

ارتأى رؤساء كارديل، على ما يبدو، أن من الأسهل إبقاء اسمه في كشف الرواتب بدلًا من استعداد الرجل الذي أوصى بتعيينه، لذا ما يزال يقبض مرتبه، وكل ما يفعله بالمقابل هو ارتداء جزء من الزي الذي مُنح له، وهو أفضل من ملابسه على أي حال، المعطف، والحذاء، والحزام، أما العصا فكسرها على ركبته وألقاها مع الحبل في البحر. يوجّه كارديل استيبي إلى ركن حتى يتجنب ملاقة فيشر وتيست، والرجل يواصل هذه:

- وبحيرة لاردر يا كارديل، يا له من مشهد يسرُّ ناظرِي الشيطان! وأنت خضت فيها، بحسب ما فهمته. هل شهدت يومًا هنا تهبُّ فيه ريحٌ هوجاء؟ لا؟ إنها تأتي بغتة من الخليج، تُدير طواحين الهواء حتى ينبعث من أخشابها الدخان... لكن عندما تضرب الريح بحيرة لاردر، تُحضرُّ منها يخنة عجيبة، أوكد لك، إذ تثير الفضلات التي كانت قابضة في القاع، فيفر الناس ركضًا عبر "تل الطحّان" بأسرع ما يمكنهم، أو إلى دانتو و "بوابة جبايات الشتاء". ما مدى معرفتك بجزيرتنا الجنوبية على أي حال يا كارديل؟

- أعرفها إلى حدٍّ ما، لكن معظم ما شهدته فيها كان عبر نوافذ الحانات.

- طيب، هذا لن يفني بالغرض! سأخبرك بكل شيء عنها. إنها وكر عصابة ضخمة من اللصوص، يتعلم الطفل منهم السرقة وهو في مهده، وإلا لعرض نفسه لخطر الموت جوعًا، ومن المهد يبدأ الطريق إلى سيراك التشهير، أو المشنقة إن دعا الأمر. ذات ليلة في الحانة، قرأ رجل رسالة أرسلت إلى صحيفة استوكهولم بوست، فحواها أن صديقًا محترمًا

يشتكي من فتيات الليل في «مدينة ما بين الجسور»، قائلاً إن أولئك العاهرات يقدمن خدماتهن مقابل بضعة شلنات، فضحكنا جميعاً على الأسعار المتضخمة، فهنا على هذا الجانب من القنطرة، يمكنك نيل من تريد بأقل من شلن، سواء كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً.

يجوبان معاً الشوارع المحيطة ببحيرة لاردر، مربع سكني تلو الآخر، المباني الحجرية البيضاء تضم بين جدرانها مصانع وعائلات تنحشر عدة أجيال منها في مكان واحد، وتتناثر هنا وهناك منازل مشيدة من الخشب، وهي منازل لم تتمكن سلطات المدينة من هدمها بعد لاحتمال نشوب الحرائق فيها. حجارة الرصف في الشوارع منزوعة من أماكنها بكعوب الأحذية وعجلات العربات.

يتوقفان ليشربا من البئر التي في كنيسة ماريا، يتجهّم كارديل بينما استبي يضحك ضحكة العارف ببواطن الأمور.

- ها قد وصلك نسيم البحر، سبب الطعم هو المياه المالحة التي تأتي عبر القنطرة وتتسرب إلى آبارنا، الكثير من صانعي الخمور فسدت منتجاتهم بعدما استخدموا مياهاً دون فحصها أولاً.

يشير استبي إلى جميع المباني، وأحاديث النميمة بشأن قاطنيها، ويطرق على النوافذ والأبواب، ويتيح لكارديل طرح أسئلته، لكن الإجابات مبهمة، فالفقراء ومهيضو الجناح قد تعلموا الخوف من السلطات التي لا تتوانى عن جر الذين لا يملكون تراخيص عمل إلى الإصلاحيات والعمل القسري، وبالتالي ينكر الناس كل شيء كما لُقنوا منذ الطفولة: لا تسمع سوءاً، لا تشهد سوءاً، لا تتكلم بسوء. وبعد بضع ساعات، يساور كارديل الشك في إمكانية تلقي إجابة عن أبسط الأسئلة التي يطرحها، ويهز استبي كتفيه.

- طيب، ما الذي كنت تتوقعه؟ فلنواصل السير إلى أسفل التل لنجد لأنفسنا شيئاً نأكله.

ثمة جلبة عالية قادمة من الموازين حيث يفرغ عمالُ قضباناً من الحديد، وفي "الساحة الروسية" يبذل المشترون القادمون من موسكو كل ما بوسعهم لجعل كلماتهم الغريبة مسموعة في خضم الجلبة، وعند "البجعة" على "تل

السيّاف“، على مرمى حجر من القنطرة، بانتظارهما لفت وسمك رنجة مع جعة بسيطة وكأس براندي. الحانة تعج بالناس، فينحشران على مقاعد إلى طاولة طويلة، كتفًا إلى كتف مع رفاقهم المتعشّين. يسمع كارديل السخط نفسه على كل لسان، اسمًا الدوق تشارلز والبارون ريوترولم يتخللان السباب، بينما ترثي الهمسات لحالة الاقتصاد المتدهورة وإدارة البلاد غير الكفاء، والحاجة العاجلة إلى التغيير.

- هل لي أن أسألك يا ميكيل كارديل، إذا سمحت لي، ما الذي تفعله هنا على أي حال؟ أليس هناك ما يكفيك من الشواغل في هذه المدينة وهي في هذا الوضع؟ سمعتُ بسيسلِ وينيّه، حتى إن عينيّ وقعتا عليه، ومن السهل رؤية ما يعانیه من مشكلات، فالرجل يبدو كجثة منسلّة من قبر، ليس من الطبيعي التشبث بالحياة على هذا النحو، ينبغي أن يتحلّى بالتعقل الكافي ليتصالح مع قدره. لكن أنت يا كارديل؟ رجل حقيقي من لحم ودم، والمستقبل أمامك، لماذا تهدر وقتك في مسألة عقيمة كهذه؟

يعرف كارديل كيف يسيطر على نفسه، فقد اعتاد الأمر، إذ تغلغل الغضب في أعماقه سنوات عديدة لدرجة أن كل لحظة كانت فرصة للتدرب على هكذا مواقف. وإذا كان ثملًا لوجد من الصعب مقاومة إغراء ضرب أنف استبي المعوج حتى يعتدل، لكنه يأخذ نفسًا عميقًا ويحول ناظريه إلى الحشد الذي في الساحة بالخارج.

- سوف نعرف في الوقت المناسب ما إذا كان التحقيق عميقًا أم مثيرًا يا استبي، عليك أن تصدق وعدي عندما أؤكد لك أنني في الوقت الراهن ليس خلفي صف طويل من الورثة الذين سيصبحون أثرياء. وماذا عنك أنت؟ هل تتذكر شيئًا من تلك الليلة؟

يأخذ استبي جرعة من جعته وهو يفكر في السؤال، ثم يطلق ضحكة خافتة مكتومة.

- كانت ليلة غريبة بلا شك يا كارديل، استيقظت في منتصف الليل واضطرتت إلى التبول - يبدو لي أن هذا يحدث على نحو متزايد مؤخرًا - وبما أن مِبولة الغرفة كانت طافحة ومحتوياتها على وشك الاندلاق،

سرت خارجًا إلى الفناء، استغرقت وقتًا، لكن في أثناء وقوفي هناك مشغولًا بشأني، تكيفت عيناى مع الظلام وبدأ لي كأن هناك شيئًا غريبًا حيث كنت أقف، كما لو أن الجدار تحرك، وعندما تحسست طريقي مقتربًا - ورجولتي ما تزال متدلّية، كما تعرف - أحسست أن أمامي شيئًا صلبًا ذا زوايا، ولم يخطر لي شيء سوى العودة وجلب فانوس، وعندما عدت رأيت... محفةً يا كارديل، هودج مغطى به نوافذ صغيرة وستائر وأحد المقابض مكسور. تجدر بك معرفة أنني نادرًا ما أستقبل زوارًا محمولين على محفة هذه الأيام، على الرغم من أنني صرت أقل اكتراثًا بتغطية عورتي بمرور الأعوام.

يتوقف استبي هنيهة ليطلق ضحكة جذلة مسرورًا بخفة دمه.

- على أي حال، كانت المحفة فارغة، مكسورة ومهجورة، وما من أحد بالجوار، ولم أجدها عندما استيقظت في الصباح، ولعل هذا أفضل، وإلا لأصبحت ملعبًا لكل طفل في الحي حتى يقرر صعلوك ما تزيينها وأخذها للأبد. أفترض أن مالکها واجه بعض المتاعب في الليل وركنها في أقرب منطقة هادئة وتدبر أمر وسيلة نقل أخرى، وبعدها عاد خدمه قبل الفجر ومعهم حبال أو معدات وأخذوها.

- كيف كانت تبدو؟

- خضراء ذات نقوش ذهبية، بدت غالية لكنها بالية قليلًا، وهذا ليس من المفاجئ بالطبع، إذ لا نرى محفات في كل زاوية شارع في هذه الأيام كما كان الحال قبل بضع سنوات.

- هل من أحد آخر في منزلك ربما يكون قد رأى شيئًا آخر؟

- أستمتع برفقة نفسي إلى درجة أنني نادرًا ما أتشاركها مع أي شخص آخر. لكنني سألت في الجوار قليلًا بدافع الفضول فحسب، لكن بدا أنه لا أحد يعرف شيئًا عن الأمر.

- بالمناسبة، ما الذي تفعله عدا وظيفتك شرطياً للحي؟

- طيب يا صديقي، أثار ما بعد الثمالة ليست العاقبة الوحيدة لمشروب كحولي قوي مثل الأكوافيت. عملي هو اللب، عندما ينتهي تخمّر

المشروب، تتبقى بعض المخلفات، معظمها حبوب وبذور فواكه، وهذا اللب يحتوي على بعض المواد الغذائية ويمكن استخدامها في علف الحيوانات، أجمعها من مصانع الخمور وأحياناً من المنازل الكبيرة، ثم أبيعها للمزارع والإسطبلات. إذا حدث أن عُرضت عليك حفنة من الشيء، فلا أوصيك بتناولها، لكن الخنازير والأبقار والإوز لا تكتفي منها.

- فهمت، أما أنا فمدفعي قديم في صميمي وقد تركت الضربات والانفجارات تأثيرها علي، إذا وقفت جوار مدفع من عيار ثلاثة وستين رطلاً عندما يُطلق، فسيُشعرك كأن قبضة هوت على وجهك وإن كان في أنفك أي مخاط فسيبتاير في الهواء. لكن يا استبي، بما أنك رجل راشد، وما يزال عقلك سليماً، أعتقد أنك يمكنك مساعدتي في استنتاجاتي؟ أخطر لك أي وسيلة نقل مناسبة لنقل جثة عبر شوارع مدينة دون ملاحظتها؟

يقطب استبي حاجبيه ويعض شفته السفلى.

- طيب، سأفترض أن المرء سيحتاج إلى عربة مقلعة من نوع ما لهذا الغرض، على ما أظن.

يميل كارديل رأسه في إشارة إلى موافقة جزئية.

- من الصعب شق طريقك في عربة كبيرة، وهي أيضاً تصدر ضجيجاً بوقع الحوافر على الأرض المرصوفة وصرير العجلات، وربما يقرر ضابط جمارك يقظ فجأة أن يتفقد الحمولة حتى ضمن حدود المدينة.

- مركبة هادئة ولا تلفت الأنظار، أهذا ما ترمي إليه يا كارديل؟ لا أستطيع تخيل ما قد يكون.

- ما الذي قلته للتو عما اكتشفته في فناء منزلك؟ والذي يصادف وقوعه غير بعيد عن بحيرة لاردر.

- محفة؟ إنك لا تقصد أن الجثة نُقلت في محفة ما، أليس كذلك؟

- ليست محفة ما، أيها الأبله، إنما تلك المحفة. لقد جررتني حول نصف الجزيرة الجنوبية دون جدوى، وطوال الوقت كان الشيء الذي ما

كنت لأجرؤ على الحلم بالعثور عليه موجودًا لساعات أمام باب بيتك. عزائي الوحيد هو اعتقادي أن جولتنا كانت بغيضة لك أكثر مما كانت لي. حمل شخص ما الجثة خلف ستائر مسدلة وهي مغطاة بقماشة، واضطر إلى ترك المحفة ثم عاد لأخذها في أقرب وقت ممكن، وربما تكون موجودة في ورشة ما في أثناء حديثنا الآن. أصغ إلي جيدًا الآن يا استبي، إذا أردت مجرد بصيص أمل في الاحتفاظ بمنصبك في هذه المدينة البالوعة، فستركض إلى منزلك رأسًا وتتحدث شخصيًا مع كل فرد يعيش فيه، من أكبر خادمة إلى أصغر رضيع، وإذا رأى أي واحد منهم المحفة ويمكنه وصفها بمزيد من التفاصيل، أو رأى الذين جاؤوا وأخذوها، فستخبرني قبل إضاءة مصابيح الشوارع.

يحدث كارديل نفسه، في طريق عودته عبر القنطرة، بنبرة منخفضة مفعمة بالحماسة يصاحبها خرير التيار.

”والآن يا كارل يوهان، أمسكت بك من يافتك بقبضة يتعذر الفكك منها، ولا أحتاج سوى إلى العثور على محفة خضراء مزينة باللون الذهبي ذات مقبض خضع لصيانة قريبًا“.

يرنو ببصره إلى قمة برج كنيسة ماريا المهدمة ويردف:
”ورائحة بول“.

الفصل العاشر

أمضى وِئِنِّه سحابة يومه في تعقُّب القماش القطني، وهذا استغرق بعض الوقت، فالتجار بُحَّت أصواتهم من الاستفاضة في حديثهم إليه عن البضائع التي بحوزتهم بدلاً عن قطعة قماش أخرى مجهولة، وأفضل معلومة تلقاها قادته إلى تاجر إنجليزي ربما يكون قد غادر استوكهولم أو لم يغادرها بعد، ولا يعرف أحد مكان سفينته، فلم يجد وِئِنِّه خيارًا سوى البحث في السجلات بنفسه حتى يعرف مكان السفينة.

الطوابق السفلية من "دار الجمارك" مضطربة بحركة العديد من البضائع واختلاط شتى اللغات، المسؤولون في غدوُّ ورواح، يلاحقهم الكُتَّاب حاملين دفاتر وأقلام رصاص، والتجار وملاك السفن وقباطنتها يتفاوضون بشأن التزاماتهم الضريبية، ويشككون في دقة الموازين ونزاهة القائمين عليها، والذين يعجزون عن إيصال مقصدهم يكررون ما يقولون بصوت أعلى. وبعد اللُتْيَا والتي يفلح وِئِنِّه في دس مبلغ صغير في يد أحد ضباط الجمارك كي يسمح له برؤية قائمة السفن التي وصلت إلى الميناء. السفينة المعنية اسمها صوفي، وقاعدتها الرئيسية ساوثهامبتون، خُصَّص لها موقع للرسو بمحاذاة منطقة أورفيوس، قريبًا من "تل القلعة"، وموضَّح من وضع مغادرتها أنها بانتظار الرياح المناسبة لانطلاقها.

يبدأ الظلام بالهبوط عندما يغادر وِئِنِّه "دار الجمارك" ويهرع بمحاذاة الرصيف مجتازًا السلالم التي تؤدي إلى الماء بالأسفل. ما يزال رصيف الميناء يحمل آثار سوق ميكلماس الخريفي، بأوساخه المتناثرة، وينظر وِئِنِّه قلقًا

إلى البحر بعيدًا لكن لا تلوح له أي سفن مغادرة، إذ تأخر الوقت وتتمكن الرياح بالكاد من رفرفة الرايات المثثة المثبتة بالصواري.

يחס بنوبة سعال كامنة في حلقه، استثارتها رطوبة البحر وجهده، ويشعر بالمغص في خاصرته كأنه دبوس ربطة عنق مغروس بين أضلاعه، فيضطر إلى إبطاء سرعته على مضض عندما يتعين عليه التوكُّؤ فعلياً على عصاه ذات الطرف الفضي، وتذكُّره انحناءة الخشب بأنها منحوتة لغرض الزينة أولاً قبل تحمل الوزن.

يتنفس وينبئه الصعداء عندما يقرأ الاسم صوفي على مؤخرة سفينة، وهي ذات شراعين، الأمامي منها أقصر من الصاري الرئيسي، وما تزال السفينة مقيدة من جانبها الأيمن إلى الرصيف، ولا يبدو على متنها أي نشاط، متسكعو الليل في زيارة إلى المقاهي وسرايب النبيذ، والحمالون وعمال الرصيف عادوا إلى منازلهم، والبحارة اختفوا في أزقة استادشولمن بحثًا عن الرفقة والترفيه. يسير وينبئه عبر المجاز المؤدي إلى السفينة، ولا يرى سوى رجل واحد على السطح، يعمل، وتعايير التركيز مرتسمة على وجهه، على إنزال ثقل رصاصي في صندوق مُصفح.

- جوزيف ساتشر؟

يجيبه الرجل بالفرنسية، وهو ذو بنية قوية، يرتدي معطف بحار مقوَّى، ويعتمر قبعة ذات ثلاث زوايا، وينتعل حذاءً متيناً، ويُعفي لحيه تبلغ صُدريته.

- اسمي تاتشر، وهو لا يصلح للإتجار مع السويديين كما هو حال بضائعي. أفترض أنك لا تتحدث لغتي، صحيح؟

يتحدث وينبئه الفرنسية بطلاقة، ولديه معرفة جيدة بالألمانية، وبوسعه تدبُّر أمره باليونانية، ويقرأ اللاتينية بسهولة، لكن إنجليزته ضعيفة. يومئ تاتشر وهو غير متفاجئ.

- معرفتي بالسويدية ليست كما ينبغي أيضاً، الفرنسية إذن. ما شأنك معي؟

- اسمي سيسل وينبئه، وقيل لي إنك حُجة فيما يتعلق بالأنسجة المصنوعة من القطن.

- يقتعد تاتشر صندوقه، ويشير إلى وِئِنِيَه حيث يمكنه القعود على إحدى كوات السطح، يناوله وِئِنِيَه قطعة القماش السوداء، فيتفحَّصها تاتشر بصمت.
- تخبرني أصابعي وحدها بالكثير، إلا أنني لا يمكنني الجزم بشيء حتى أجلس فانوسي، لكن أولاً، هلأ أخبرتني بسبب سؤالك؟
- وُجِدَت قطعة القماش هذه ملفوفة حول جثة رجل مقطَّع الأوصال في الماء، وأحاول حل لغز ما حدث له.

يبادله تاتشر التحديق لوهلة، ثم يغادر ويعود من كابينته ومعه فانوس مضاء، يتفحص النسيج مجدداً بكل درزاته وزواياه، في حين ينتظر وِئِنِيَه مسربلاً بالصمت. وأخيراً يلتقط تاتشر غليوناً خشبياً بسيطاً ويشعله من الفانوس قبل أن يتكلم:

- قل لي يا سيد وِئِنِيَه، هل تعني مقولة *homo homini lupus est* لك شيئاً؟
- كتبها بلوتوس إبان الحروب البونيقية: "الإنسان كالذئب لأخيه الإنسان".
- سامحني، أنا التاجر البسيط الذي لم يحظ بتعليم كلاسيكي، سمعت بهذه المقولة من فولتير، لكن بالنظر إلى معناها لا يفاجئني أنها أقدم من فولتير. وما هي وجهة نظرك في هذه المسألة؟ هل نحن ذئاب بالنسبة إلى بعضنا بعضاً؟ نبحث دوماً عن أقل إشارة ضعف قبل أن نختار لحظة الهجوم؟
- لدينا قوانين وأحكام من أجل احتواء هذه النزعات عند الذين يُضمرُونها. يضحك تاتشر بين سحابة من الدخان.

- إذن فالنظام لا يعمل كما ينبغي والحالة هذه يا سيد وِئِنِيَه، أنا نفسي أمثل نموذجاً جيداً، بلادكم مقلسة يا سيد وِئِنِيَه، وإذا كانت الأخبار تنتقل بسرعة، فلربما عرفت بهذا الوضع وتلافيت مصيري المشؤوم، لا أحد هنا يريد بضائعي، ومن أجل تجنب العودة إلى الديار خالي الوفاض، اضطررت إلى التخلي عن سلعتي بثمن بخس. أضف إلى هذا جشع ضباط الجمارك، ونهمهم الذي لا يشبع من الدوقيات الذهبية، ثم دهاء منافسي، وديوني، إنني ضائع يا سيد وِئِنِيَه. هل رأيت ما كنت أفعله قبل أن تقاطعني؟

- نعم، كنت تضع أثقالاً في صندوق يبدو أنه خزينتك.

- وهل يمكنك تخمين سبب فعلي هذا؟

يومئٍ ويُنِيه ويشيح بنظراته، ويتساءل عما إذا كان للموت رائحة أم سِمة أخرى تجعله يحس بوجوده بسهولة، وعما إذا كانت حساسيته نتاجاً لعمله الذي يزاوله أم لحالته الصحية.

- إنك تخطط لإلقاء الصندوق في البحر، وبما أن أوراق المرء غالباً ما تكون أثنى من حياته، يُخَيِّلُ إليَّ أنك تعتزم احتضانها بين ذراعيك ومرافقتها إلى الأعماق، والغرض من هذا الثقل الإضافي هو تقصير مدة معاناتك.

ينفث تاتشر حلقة جميلة من الدخان فوق الماء حيث تتلاشى إثر هبة ريح.

- أنا مسؤول شخصياً عن بضائعي، كل ما أملكه مرهون، والسادة الذين استثمروا أموالاً فيَّ أملاً في عائد سوف يمزقونني إرباباً، وسوف يُنزع كل شيء مني عند عودتي. يمكنني تحقيق النتيجة نفسها قبل مغادرة استوكهولم وأوفر على نفسي رحلة مرهقة والمزيد من المتاعب. ستقصر رحلتي إلى اثنين وعشرين قدماً وتنتهي في الطين أسفل هيكل صوفي. ومع وجود أوراقتي بين ذراعي، أكون قد قللت احتمال توريت ديوني.

يمجُّ تاتشر دخان غليونه، ويلوح في عينيه شيء مكفهر عندما يصبو عينيه بهدوء إلى عيني ويُنِيه من خلال خيوط الدخان.

- لماذا عساي أن أساعدك؟ لماذا يجدر بي أن يكون آخر عمل لي في هذه الحياة هو أن أضع دون جدوى العراقيل أمام الرجل الذي أظهر أنه الأفضل من بين الذئبين؟ لو أنني كنت ذئباً أفضل مما أنا عليه، لما كانت هذه هي ساعتى الأخيرة. أي نوع من الذئاب أنت إذن يا سيد ويُنِيه؟ ذئب بارع؟ صياد ماهر؟

- أخشى أنني لست ذئباً على الإطلاق، إنني لا أفعل ما أفعله من أجل تلبية رغبة التعطش للدماء، وعلى الرغم من هذا، سوف أنجح في مسعاي سواء قررت مساعدتي أم لا.

يرتجف تاتشر فجأة ويفرك ذراعيه، وغلبيونه ما يزال متدليًا من فمه. وبحالته العقلية التي اتخذ فيها قراره المشؤوم، يبدو كأنه قطع نصف المسافة إلى العالم الآخر.

- تبدو شاحبًا هزيلًا على نحو غير طبيعي يا سيد وينيه، ما هي عِلَّتكَ؟
- رثتاي، إنني مريض بالسُّل، ولن أظل على قيد الحياة بعدك بمدة تُذكر. يطلق تاتشر ضحكة عالية، بصوت مَرِحٍ مُرَعِدٍ يُرِعِشُ هواء البحر.
- ولماذا لم تقل هذا منذ البداية؟ كيف سيكون الحال إذا لم نؤازر بعضنا نحن الأرواح الهالكة؟ ثمة شيء يمكنني فعله من أجلك، لأن قطعة القماش التي أريتني إياها ربما تحمل سرًا تبحث عنه.
- يشير إلى وينيه بالاقتراب ويمسك بالقماش تحت ضوء الفانوس.
- انظر هنا، القطن مخيط بطبقة أخرى، وهذا الدرز يخبرني بأمر في غاية الوضوح، لا سيما بما أنه مُزَّقٌ من جانب واحد: لقد قلب أحدهم القماش بحيث صار الجزء الداخلي بالخارج، دعنا نرى.
- يمد تاتشر يده الخشنة عبر الثقب حيث أزيلت الدرزات، ويمسك بالجانب المقابل ويقلب القماشة السوداء كأنها كيس كبير.
- ها نحن أولاء! إليك شيء لا تراه كل يوم!

على امتداد حافة القماش حاشية عريضة عليها طباعة باللون الذهبي لم تمحها مياه بحيرة لادرر، يصوّر النقش هيئات بشرية، أربع في كل نقش، أجساد متشابكة بوضعية تمثّل مُتَعِ الجسد، أعضاء الرجال مضخّمة ضخامة بشعة، كما هو حال نهود النساء، والنشوة على وجوههم. يتكرر الشكل الرباعي على امتداد حافة القماش.

- بوصفي خبيرًا، يمكنني إضافة أن كُلاً من القماش والطباعة من أرفع طراز، حتى إذا اضطررت إلى الإقرار بأنني آمل أن يكون الفنان قد مارس قدرًا من الحرية ولم يستعن بمشهد واقعي... حسنًا، هذا لا يهم الآن، مآثري في هذا المجال ولّى عهدها، لعل أطفالي يتفوقون علي، لكنني أشكُّ في هذا. ربّيت أبنائي -ويا لسذاجتي- ليصبحوا رجالًا صالحين، وأتوقع أن يسقطوا مثلي فرائس سهلة للآخرين.

يبدأ تاتشر في نبش الرماد من غليونه، ثم يتوقف ويلقيه في البحر،
يُنهض جسده الضخم على قدميه، ويرفع غطاء الصندوق الذي يجثم فيه
الثقل الرصاصي على كومة أوراق، وهناك مساحة للمزيد.

- إذن... أستميحك عذراً يا سيد وينيه، عليّ حزم أشياء أخرى قبل رحلتي.
والآن ساعدتك على التقاط الرائحة، وما عليك سوى اقتفاء أثرها إلى
الغابة لتجد فريستك، أرى التغير الذي اعترى تعابير وجهك، لا تستطيع
خداعي! إنك ذئب بالفعل! لقد رأيت ما يكفي لأعرف، وحتى إذا كنتُ
مخطئاً، فستغدو ذئباً عمّاً قريب. لا أحد يمكنه الركض مع قطع الذئاب
دون أن يتقبَّل شروطهم، وأنت لديك أنياب المفترس ووميض عينيه،
تنكر تعطُّشك للدماء لكنه يفوح منك كرائحة نتنة، ذات يوم ستتلطخ
أسنانك بالأحمر وعندئذٍ سوف تعرف يقيناً مدى صوابي فيما قلتُ،
وسوف تنغرس أنيابك عميقاً. ربما سيتضح أنك الذئب الأبرع يا سيد
وينيه، وبهذا أختتم كلامي وأتمنى لك ليلة طيبة.

الفصل الحادي عشر

يستيقظ كارديل مبلاً بعرق بارد، وقشُ حَشِيَّة فراشه يَخِز ظهره، والقمل يستثير الحكّة في سائر جسده، ثمة طفل يصرخ على الجانب الآخر من ألواح الجدار الخشبية، وسرعان ما ينضم إليه رفيق من السن نفسها على مبعده في متاهة الغرف. ما يزال كحول الليلة السابقة سارياً في عروق كارديل، عندما احتفل باستنتاجاته المتعلقة بمحفّة استبي. يترنّح جزعاً وهو يحل أربطة البنطال الذي نام وهو يرتديه ويتبول في مَبولة الغرفة، ثم يفتح النافذة ويدلق -بحركة تنم عن التمُّرس- محتويات المَبولة في الفناء بالأسفل. وبالخارج السماء مدلهمة بغيوم منخفضة لدرجة أنها تموّه قمة برج كاتدرائية استوكهولم وتجعل منها هيئة شبحية، ووجه ساعتها -الذي لا يُقرأ إلا عندما يخرّز كارديل عينيه حتى يشتد صداعه- يشير إلى ما بعد التاسعة والنصف صباحاً بقليل. إنه يحتاج إلى شراب.

خارج الغرفة التي يؤجرها كارديل منذ أكثر من عام، يرى نساء هامسات يطهين عصيدة، لا يعرف أسماءهن لكنه يلقي عليهن تحية الصباح، ويطلب حسوات من ماء البئر الذي في دلو، ثم يواصل هبوط السلالم ويخرج إلى "زقاق الإوز"، ويتوجه صوب "الساحة الجنوبية"، حيث يمكنه الشرب بالدين. وتدفعه العادة إلى حبس أنفاسه عندما يمر بـ "ملتقى الذباب"، كومة الروث الضخمة التي تكوّنّها المدينة، جوار صوامع الغلال. جسر "القنطرة الحمراء" مرفوع كي يتيح مرور سفينة صغيرة إلى أعلى النهر، والجسر المتحرك الذي شُيد حديثاً على جانب البحر -الذي أُطلق عليه سريعاً اسم "القنطرة الزرقاء"- لم يجهز للاستخدام إلا قبل أسبوعين وما يزال يُنظر إليه بعين

الريية، إذ يبدو رفيحاً هُشاً مقارنة ببناء بولهيم الضخم، وكثيرون يفضلون انتظار الأحمر بدلاً من المخاطرة بحيواتهم على الأزرق، لكن ليس كارديل، الذي لا يدري إن كان السبب هو أنه أشجع من البقية أم أنه أقل تقديرًا لحياته. ثمة خطبٌ ما، يتجمّع حشدٌ ضخم في الساحة، ل يبدأ الزحف نحو "ممر البنّائون"، فينساق كارديل معه دون تفكير، وبالنظر إلى الجمهرة خارج "سرداب هامبيرغ"، لا بد أن يكون يوم إعدام، إذ يحتشد المُتَبَطِّلون هناك ليشاهدوا مندهشين الرجل المحكوم عليه الذي سيصل قريباً على متن عربة ليتناول كأس الشراب حسب التقليد المُتَّبَع.

يتناول كارديل نفسه كأساً سريعاً في الحانة المجاورة، ثم يتبع حشد الناس عبر "الجادة القوطية" إلى شارع مدير مكتب البريد حيث تقل كثافة المباني، تتراصف بطاريات مدافع "بوابة جبايات اسكونز" على جانبي الطريق، وخلف النتوء الأرضي يستمر الطريق إلى "تل هامرباي"، وعلى قمته تنتصب المشنقة ذات الثلاث قوائم مهيبّة وفوقها سماء مدلهمة، ثلاثة أعمدة حجرية مستقيمة متصلة بعوارض لترسم مثلثاً فتاكاً. يحيط حشد الرعاع الذي يبلغ قرابة أربعين شخصاً في كل اتجاه بمنصة الإعدام، يحجزهم عنها صف من المراقبين الذين يشكلون سياجاً بشرياً متصلًا بقضبان يحملونها بأيديهم. يصعد الحاجب إلى المنصة ويتلو الحُكم. يلاحظ كارديل أن حبل المشنقة لن يستخدم اليوم، فهذه ليست قضية لص سيُشنق، إنما قاتل امرأة، وبالتالي فالأمر يستوجب ضرب العنق.

لم تظهر العربة بعد. يُعلن عن وصولها بصخب جمهور المشردين الذين يرتدون الأسمال والمعتوهين الذين يركضون خلف الرجل المنكوب ويقذفونه بكل ما يقع في أيديهم من حُطام وقمامة، المدان شاب، لم يبلغ العشرين بلا شك، قُبِض عليه بعدما خنق خطيبته إثر شجار على دجاجة مسروقة، إذ أراد إخماد جوعه في الحال، وهي رغبت في الإبقاء على حياة الدجاجة من أجل بيضها.

يُدفع الشاب إلى منطقة الإعدام، فيرتعش سائر جسده، وتندحر بقعة داكنة على امتداد سرواله القصير إلى ركبته اليسرى. الجماهير تشتعل

حماسةً، وهناك عاهرتان يعرفهما كارديل بمظهرهما -إن لم يعرف اسميهما- تصيحان بتلميحات عن رجولة المدان، وخلفهما يقف رجل استحال أنفه إلى فوهة متعفنة بسبب المرض الفرنسي، ويضحك بشدة حتى يتطاير مخاطه. يغادر الحاجب المنطقة محاولاً إظهار أقصى درجات الوقار، إذ يشرب من قنينة فضية، ويحاول إنزال قدميه بعناية بالغة لِيُجَنَّبَ حذاءه الراقى الطين. يخيم الصمت على الحشد عندما يُفتح باب بيت الجَلَاد ويخرج السيَّاف، اسمه مارتن هُوس، وهو يتمتع بمزيج غريب من سوء السمعة والاحترام وإثارة النفور، القلنسوة المخصصة لأصحاب مهنته مُلقاة للخلف على عنقه، وهو لا يتحرَّج من الظهور سافر الوجه، على الرغم من أن كثيرين من أسلافه في المنصب كانوا يفضلون إخفاء وجوههم، وهو نفسه كان محكوماً عليه بالإعدام بعدما انتزع فك نديم له بإبريق شراب في وقت كان فيه منصب الجلاد شاغراً، فأوقف تنفيذ عقوبته مقابل قبوله تولِّي المنصب بنفسه. ومع كل ضربة فأس أو سيف، يدنو منه قدره، ومع كل حكم ينفذه، يزداد ارتعاش يديه قليلاً، ويزداد سُكره سُفوراً.

تروج إشاعة مفادها أن هُوس حاول إنهاء حياته ثلاث مرات، لكن بعدما خانته شجاعته عندما اعتزم إلقاء نفسه في مياه خليج آرستا، قرر عدم مواجهة مصيره بالإسراف في معاقرة الخمر، وهذا لم يؤثر سلبيًا في شعبيته، فسُكره يضيفي على العرض عنصر ترفيه إضافي.

يهيج الدهماء جَدلاً عندما ينتحي الحراس جانباً ويدخل هُوس المنطقة، ساقاه غير ثابتتين، ويكاد يسقط على قفاه وهو يحاول الانحناء أمام جمهوره انحناءة مبالغ فيها، فحماس المتفرجين يُلهمه. يمسك "المُعَلَّم هُوس" -وهو الاسم الذي يطلق عليه في غمزة لعدم كفاءته- الفأس من طرفه المستقيم من أحد مساعدي الجلاد ويلوِّح به في الهواء، ثم ينزلق في الوحل عندما يتظاهر بالركض نحو المدان كأنه يريد قطع رأسه في الحال، فيصيح الحشد مبهتجاً ويصفق.

تُجَلَّب كتلة الخشب التي سيُسند إليها رأس المدان، وهي قطعة خشب بسيطة، تكسوها الخدوش واللطخات، ثم يُرغم المدان على أن يجثو على ركبتيه حتى يلامس رأسه كتلة الخشب، ويضع أحد المساعدين قدمه بين

لوحى كتفه بينما يجذب آخرُ رباطًا حول يده اليمنى ويقيدها إلى كتلة الخشب، وستقطع أولًا لضمان أن المدان لن يعبرُ إلى العالم الآخر دون معاناة. يتخذ الجلاد مكانه، ومع ارتفاع الفأس، يخيمُ الصمت مرةً أخرى، ثم يُسكت مهرجٌ في الخلف بعدما انتهز ساحة الصمت ليصيح باسم عضو تناسلي. يصدر هوس زئيرًا ويهوي بالفأس لكنه يوقفه فوق قدم من الذراع المرتعشة.

يملاً هوس الفخرُ ببراعة الأداء وحب الظهور، ويمسح عن حاجبيه عرقًا مُتخيلاً، ثم يشابك يديه خلف ظهره ويتظاهر بأنه يتمدد كأنه كان ينوء بحمل ثقيل، واستحسان جمهور مشاهديه يدفعه لتكرار هذه الحركة ثلاث مرات. يجهش المدان بالبكاء، ولا يتحرك من موضعه على الرغم من أنه لم يعد مقيدًا، لكن النشيج الذي يرهق جسده بإدٍ للجميع.

على الرغم من تشوش هوس وسُكره، فهو متمرس بما يكفي لمعرفة أنه عليه إنهاء المهمة الآن وإلا فسيواجه نقمة الرعاع. يتصاعد نشيج المدان حتى يصبح عويلاً يجعل الحشد المهتاج يهدأ تدريجياً، ويتشبع الجو بالترقب.

ومجددًا، يتخذ المساعدون مواقعهم ويقيدون المدان، يبصق هوس في قبضتيه، ويرفع الفأس ويهوي به على معصم الرجل فيصدر صوتًا مكتومًا لزعًا، ويلتقط أحد المساعدين الطرف المبتور من الطين، في خضم صراخ الرجل، ويلقيه للأوباش. أصابع ويد المجرم المدان تجلب الحظ السعيد، والإبهام على وجه التحديد يكفل الوقاية من القانون عندما تُرتكب سرقة، واللصوص كثيرون بقدر ما هم مؤمنون بالخرافات. سوف يقطع اليد ويبيعها في الشوارع أيًا كان الصعلوك الذي سيتمكن من الإفلات من قبضة منافسيه.

يترنح هوس ليسدد ضربة الموت، والشاب يصرخ حتى يبح صوته، الذي لم يعد صوتًا بشريًا، إنما صوت يبلغ مسامع الجماهير من عالم آخر، كأنه صدى يرتد من جدران الجحيم.

يحتاج هوس إلى عدة محاولات كي يفصم الرأس عن الجسد، الضربة الأولى تقع على الكتف، والثانية تجزُ فروة مؤخرة الرأس فينجم عنها تدلي جزء كبير معه الأذن، ليس من السهل تمييز ما إذا كان هوس يضحك أو يبكي عندما يلوح بالفأس بوحشية أشد ويزعق بأعلى صوته: «عقابًا لك على أفعالك وتحذيرًا للآخرين! عقابًا لك على أفعالك وتحذيرًا للآخرين!»

ولا ينقطع الصوتان إلا بعد الضربة الخامسة، صوت المدان وصوت الجلاد. يُجمع الخبراء على أنها أكثر عملية إعدام تخبُّطًا نفذها المعلم هوس، ويتفقون على أنه كان يجب أن يخفف الشراب احترامًا لمهنته، فمن غير المرجح أنه سينجو بأدائه عدة عروض كهذه قبل أن يُوقَف تنفيذ حكم رجل أكفأ منه ويُقيد هو نفسه إلى كتلة الخشب.

وبعدما يسير الحراس مبتعدين، تندفع نساء عجائز ليجمعن الدماء التي كَوْنَت بركة على الأرض، إذ لا شيء أنجع منها في علاج مرض الصرع، وقد قلب مساعدو الجلاد الجثة على ظهرها ورفعوا ساقيها حتى تسيل أكبر كمية ممكنة من الدماء في الطين، فلا تتلخث ثيابهم عندما يسحبون الجثة إلى قبرها الذي حُفِر للتو.

يستدير ميكيل كارديل مبتعدًا، وعندما يرفع رأسه يرى هيئة سيسل وينيه النحيلة الداكنة تقف على رابية جوار الطريق، فيجعل اللقاء العفوي كارديل يتردد، ويقف مدة طويلة مراقبًا وينيه دون أن يحاول استرعاء انتباهه، الوجه الشاحب لا يعكس أي انفعال، أو ما يوحي بأن صاحبه قد تأثر أي تأثير بالأحداث التي شهدتها للتو، ولا يلاحظ كارديل -إلا عندما يقترب- أن أصابع وينيه الرفيعة تعصر عصاه حتى تبيض براجمه وترتعش ذراعه بأكملها.

وينيه مستغرق في التفكير، وما يزال ينظر باتجاه منصة الإعدام، ولا يبعد نظراته عنها ويحيي كارديل إلا عندما يزداد الأخير اقتربًا منه. يبدأ مطر خفيف بالتساقط فوق منطقة الإعدام.

- مساء الخير يا جان مايكل، لم أر الجلاد يؤدي عمله منذ مدة، جنئت هنا لأرى تطبيق العدالة في ضوء جريمة القتل التي نحقق فيها نحن أنفسنا، فهذا هو المصير الذي ينتظر مجرمنا إذا نجحنا في مسعانا.

- إذن؟

- لم أر قط المنطق خلف محاولة التاج في محاربة جريمة القتل بإنهاء حياة المواطنين، وبأسلوب أكثر وحشية من الجريمة التي ارتكبت، لكن إليك أهم اعتراضاتي: القانون لا يبذل أي محاولة لفهم الذين يحكم

عليهم، كيف يأمل أي أحد تلافيف جرائم الغد دون محاولة فهم الجرائم التي ارتكبت اليوم؟ الإجابة، يا جان مايكل، هي أن هذه الفكرة في حد ذاتها لم تخطر للمسؤولين، إذ يعتقدون أن مهمتهم هي إصدار الحكم ثم إنزال العقاب. كثيرون من الذين توليت محاكمتهم بنفسني أُرهِقت أرواحهم على هذا التل، وعزائي الوحيد هو أنه لا أحد منهم جُلب إلى هنا دون تحقيق، وأنني لم أدخر وسعًا في سبيل إثبات ذنب المتهمين بما لا يدع مجالًا للشك، وأن كل واحد منهم أُتيحت له فرصة الحديث دفاعًا عن نفسه.

- هذه الحشود لن تسمع صوت العقل أبدًا، مهما حاولت فهمهم، سوف تحترق استوكهولم بأسرها بين ليلة وضحاها إذا لم يخشَ الناس الفأس والمشنقة.

وينيّه لا يرد وكارديل يتابع:

- لقائي باستبي ربما قربنا خطوة نحو حل هذه الجريمة، سوف أخبرك بالمزيد عندما أجد معلومات أفضل، لكن على الأقل يمكنني قول إنني أبحث عن محفة خضراء ربما تكون قد استُخدمت لتجهيز كارل يوهان في رحلته الأخيرة.

يديران ظهريهما للمشنقة والبقعة الحمراء التي صارت الآن كل ما تبقى من الرجل الذي جيء به إلى هنا ليموت، ومعًا يشرعان في السير عائدين في الطريق إلى "بوابة جبايات اسكونز"، ثم يبدد وينيّه الصمت حالما يبلغان أسفل التل.

- حدثتني عن الملك غوستاف والحرب يا جان مايكل، وكان من المستحيل عليّ ألا أفهم شعورك حيال مصابك الجلل في حرب تورطت البلاد فيها من منطلق خاطئ، لذا أود منك أن تفهم شيئًا عني لا يعرفه الكثيرون وعلى الرغم من هذا فهو الحقيقة، لقد استعلمت عني، وأعرف أن الإشاعات تقول إنني هجرت زوجتي مراعاةً لها.

يشعر كارديل بعدم الراحة، وهو غير معتاد سماع الأسرار، يخفض بصره ويحديق إلى حذائه الذي يطأ بصعوبة الأرض التي تزداد بللًا.

- مع تفاقم نوبات سعالي، اشتد عليّ المرض، وازددت هزالاً وضعفًا، وبدأت أدوي أمام عينيها، لم أعد قادرًا على تقديم أي شيء لها، وعجزت عن أن أكون كما ينبغي للزوج أن يكون.

يتكلم وينبئه بصوت مبوح ذي نبرة رتيبة، وما من أثر لأي انفعال فيه، كما لو أنه يقرأ فقرةً من الكتاب المقدس، ويستشعر كارديل القوة التي تسيطر على الكلمات وتخرجها بهذا الثبات.

- فهتمت ما كان يجري، بطبيعة الحال، فهذه هي ثمرة الحياة التي أمضيتها في خدمة القانون. فهناك تفاصيل صغيرة تفضح وقوع خطب ما، وحواسي تغدو في غاية الحدة والحساسية إزاء هذه التفاصيل، وهذا ما لا يحدث مع تفاصيل أخرى. وجدت في منزلنا أغراضًا لا أعرف صاحبها، وهي كانت تخرج لتزور صديقات لها أدركت لاحقًا أنها لم تقابلهن قط، لكن أهم ما لاحظته عليها أنها تبدو سعيدة، كنت أرى خديها متوردين، وألمح بريقًا في عينيها حيث لم أكن أرى سوى حضور الموت.

يلتفت وينبئه نحو كارديل، ووجهه ما يزال جامدًا، كأنه شخص مشلول.
- للمرة الأولى منذ شهور، صارت تشبه المرأة التي وقعت في حبها ذات يوم.

يسرح مع هذا الخاطر لبرهة قبل أن يتابع:

- دخلت عليهما أخيرًا، وهما متلبسان في الفعل، في لحظة ضعف. بذلت قصارى جهدي لأتجنب هذه اللحظة، بيد أنني كنت واهنًا وساهيًا عما حولي، حجب سعالي أصواتهما وهما يمارسان الحب كما حجب وقع أقدامي عنهما. كان ضابطًا شابًا ومعه سيف في غمده، ذا شارب أسود والمستقبل أمامه، لم أستطع لومها، ورتبت مغادرتي إلى منزل روزليس في الليلة نفسها، ولم أرها منذئذ.

يفتح كارديل فمه ليواسيه لكن وينبئه يوقفه، ووجهه صوب بحيرة هامرباي، التي بدأت الريح تحرك أمواجها.

- لست بحاجة إلى قول أي شيء، فكما قلت بنفسك عندما التقينا أول مرة، إنني أيضاً لا أبحث عن الشفقة. إطلاعك على أسراري ليس المقصود من ورائه دعوة إلى الصداقة، إنما لأنني أشعر أن كلينا سيستفيد من معرفة نقاط قوة وضعف بعضنا بعضاً في خضم المشاق التي تنتظرنا، لا شيء أهم من هذا الآن، ولا أرغب في سماع أي كلمات مواساة. لا تصبح صديقي يا جان مايكل، فالوقت ضيق جداً، والأسى سيكون المكافأة الوحيدة على أتعابك.

يفترقان عند بوابة الجبايات حيث يشير وينيه لعربة يجرها حصان.
- قابلني غداً عند التاسعة في مقهى "البورصة الصغيرة". محفّتك تبدو واعدة، يحدوني الأمل بشأن ما سيكتب على شاهد قبر كارل يوهان.

الفصل الثاني عشر

التنقل بالمحفة لم يعد رائجًا، وهذا يستطيع كارديل استنتاجه بعد بضع ساعات من ترك هول ساحة الإعدام خلفه، وتعتريه مشاعر متناقضة بهذا الشأن، إذ ينبغي أن تصبح مسألة إيجاد محفة استبي الخضراء أسهل، لكنها تتعقد بحقيقة أن المجال يفتقر إلى التنظيم الواضح، فما من نقابة للإشراف على الحمالين، والمحفات القديمة التي كان يراها في طفولته في كل مكان إما أن استحالت رمادًا في مدفأة ما وإما ابتاعها أحد الحمالين المستقلين الذين يقفون في زوايا الشوارع أملًا في جذب الزبائن.

وبعد طرح المزيد من الأسئلة، يشق كارديل طريقه إلى إسطنبول بالقرب من "مرجة الأطفال" في أبرشية كاتارينا، لكن لا أحد هناك يعرف شيئًا أيضًا. ثمة مُؤمنٌ ملتجٍ يضح باروكة من شعر الخيل يعطس وهو يتنشق التبغ، ويلعن الزمن الحديث الذي سلبه مصدر كسب عيشه، ففي بدايات القرن، لم يكن هناك سيد محترم يتردد في السماح لنفسه بأن يُحمَل في أرجاء المدينة على أيدي رجلين قويين، وبنهاية السبعينيات، هو نفسه لم يعد لديه سوى دزينتي محفات قيد التداول، والآن انخفض هذا الرقم إلى الثلث والأسعار في تدنٍ مستمر. الحمالون الذين كانوا ذات يوم يرتدون زيًا مميزًا صاروا يكتفون بأي شيء يرتديه الناس. ألوان المحفات؟ يهز العجوز رأسه بمرارة لحقيقة أن ألوانه -الأبيض والأسود- لم تعد معروفة لدى العامة. يغادر كارديل "مرجة الأطفال" دون أن يقترب من الإجابة التي ينشدها.

يشرع رجال مع غروب الشمس في تسلق سلالم حاملين مشاعل طويلة لإشعال مصابيح الشوارع، ننانة الزيت المحترق تملأ كل مكان، على الرغم

من أن حرص حرس المدينة على إضاءة الشوارع في تراجع مستمر، حسب ما يلاحظه كارديل مع ابتعاده عن "مدينة ما بين الجسور".

يصل كارديل عند الغسق إلى الجانب الآخر من البلدة، وهو جزء مقفر من "المروج" في المنطقة المحيطة بـ "بوابة الجبايات الشمالية". يسير بمحاذاة النهر، المجرى المائي ذو الرائحة الكريهة الذي ينحدر شمالاً بتعرجات بُنية بين المنازل، إلى يساره "نتوء برونكيه" وأطراف "المستنقع" إلى يمينه، الذي تبلغ نتانة مياهه عنان السماء ومع هذا لا تضاهي بحيرة لادر، فجریان المياه وكميته الأكبر أنسب لتحمل استمرار تدفق مخلفات المراحيض والفضلات المنزلية.

وبعد "المستنقع" تفسح المنازل الحجرية المجال لمنازل خشبية، وينتهي الرصيف الحجري إلى ممشى طيني صلب. المنزل الذي يبحث كارديل عنه قريب من بئر الغاز الحمضي، ويقال إنه مقر نجار ما يزال يشتغل بصناعة المحفات الجديدة وصيانتها، المكان مظلم بين المباني التي في الساحة، ويتفاجأ كارديل برؤية أن الناس بالخارج على الرغم من أن برودة أكتوبر تشدد في الليل، ثمة رجل يقعد السلالم التي أسفل الباب الأمامي، وفي ظل المبنى بعيداً قليلاً تقف هيئة شخص ضخم يبدو حائزاً في اختيار أي قدم يقف عليها.

يحييه الرجل القاعد بتلويحة، وهو عريض المنكبين مثل كارديل، لكنه أثقل، وذو كرش مستدير تشد أزرار معطفه، يوحى جسده بالقوة الصُرفة والكسل في آنٍ واحد، جمجمته مستديرة كالكرة، وعنقه المزرق عريض إلى درجة أن رأسه يبدو كأنه نبت فوق كتفيه مباشرة، واسع الفم وغليظ الشفتين، يضيق عينيه وإحدهما زائغة، يمضغ التبغ وفي فترات منتظمة يُطلق البصاق مُصَوَّباً بمهارة من جانب فمه.

يرد كارديل على تلويحته بانحناء خفيفة.

- اسمي ميكيل كارديل، أستميحك عذراً لأن الوقت متأخر، لكنني أبحث عن نجار يُدعى فرييس.

- وها قد وجدته، هذا اسمي وليس اسم شخص آخر. اقعِد ودعني أقدم لك شيئاً من التبغ.

يظل كارديل واقفاً لكنه يباشر بأخذ حشوة تبغ من الجراب المقدم إليه، وعندما يقترب يرى أن الهيئة الضخمة القريبة رجل شاب، على الرغم من أنه يبدو عملاقاً، وجواره يبدو كارديل والنجار كلاهما أقرب قليلاً إلى الأرض، كما يرى كارديل أيضاً أن الشاب لا بد أن يكون أبله، إذ يتدلى فكه وعلى ذقنه يلتصق خيط طويل من اللعاب، وتُدكُّه عيناه -بضمولهما وخوائهما- بعيني بقره، وحول عنقه يلتف رباط جلدي نهايته معقودة بالحاجز الخشبي.

- لماذا تمضي الأمسية قاعدًا على دكة منزلك يا سيد فرييس؟

- أليس هواء المساء هو بلمس الروح؟ ماذا عنك إذن؟ ما الذي جاء بك إلى النجار المُعلِّم بيتر دي فرييس قاطعًا كل الطريق جوار "المستنقع" في أمسية كهذه؟

تلوح ابتسامة هازئة على شفثيه، وعصير التبغ يسيل من زاويتي فمه.

- إنني أتعقب محفة بعينها، خضراء ذات مقبض مكسور، يزعم أحد فتية الشوارع عند "خليج القطط" أنه رأى محفة بهذا الوصف متجهة إلى ورشتك قبل أقل من أربعة أيام.

ترتسم تجعيدة قلق بين عيني فرييس.

- أوه لا يا سيدي الفاضل، أعجز عن تذكر أي شيء من هذا، يؤسفني أنك تكبدت عناء السير كل هذه المسافة لا لشيء سوى القليل من التبغ. ربما تكون هذه المحفة عند حِرفي آخر في المنطقة.

يومي كارديل مفكرًا.

- في الحقيقة ما من منافسين لك في هذه المنطقة، وسمعتُ أيضًا أن النجار المُعلِّم دي فرييس يصعب فهم كلامه، لأنه ينحدر من روتردام، وأُخرق في الحديث بالسويدية لدرجة أن تعامل الزبائن معه أعجوبة، على الرغم من براعته.

- فهمت! طيب إذن، جونز كولينغ يتحلى بالرجولة الكافية ليعترف عندما يُضبط كاذبًا.

يميل كارديل رأسه ناحية الشاب الهائم في عالمه جوارهما.

- من هو؟

- هذا أخي، مانس، ومن الواضح لك أنه ليس بكامل قواه العقلية. كما ترى يا كارديل، أبونا وأمنا لم يترعرعا مثلك في مدينة كبيرة، إنما جاءا من قرية من الصُغر بحيث كان يصعب إيجاد الشريك المناسب، وعندما بلغ أبي مبلغ الرجال، لم يجد خيارًا سوى اتخاذ شقيقته زوجةً له، ومثل هذه المخالفة لتعاليم ربنا لها ثمن، وهذا الثمن أُطلق عليه اسم مانس، الذي أودى بحياة أمنا عندما خرج منها، أضخم رضيع رأته القابلة في حياتها. إنه ليس مفكرًا عظيمًا، لكن إذا احتجت إلى شخص يمكنه حمل مؤخرة المحفة لساعات دون تذمر، فمانس هو ضالتك.

- وأنت تحمل المقدمة، على ما أفترض.

- إنك رجل ماكر يا كارديل، أجل، إذا انعكست أدوارنا، لتوجه مانس بالمحفة إلى الجحيم رأسًا قبل أن يفهم راكبنا المسكين ما يجري. وها نحن نجلس في انتظار عهد أفضل. طلب النجار منا العودة مجددًا غدًا، لكن المحفة وسيلة كسب عيشنا الوحيدة ولا نتركها دون مراقبة، ناهيك بأن ولي نعمتنا زل لسانه بما يفيد أن أداءنا لم يكن مرضيًا في الآونة الأخيرة، وقال إن جاء أي شخص ليسأل عن محفة خضراء والأماكن التي ذهبت إليها، فإن الوضع سوف يسوء بالنسبة إلينا، أي إذا لم يجرِ احتواء الوضع على الفور، ها نحن أولاء إذن... أنا وأنت ومانس.

يحل جونز الوثاق الذي يقيد مانس، ثم يتقدم بضع خطوات إلى الفناء، ويميل رأسه من جانب إلى آخر كتمرين إحماء للعضلات المتخشبة، ويشخر بالمخاط من منخرية، ثم يبتسم ابتسامة خبيثة ويرفع قبضتيه، كل واحدة منهما بضخامة دلو، ويستتفر عضلات كتفيه وفخذه المقتولة بفضل سنوات تحت وزن المحفة.

- ما كان ينبغي لك المجيء مُتَشَمِّمًا يا كارديل، فهنا تبلغ رحلتك نهايتها يا صديقي، هيا بنا الآن لنخوض جولة ونكشف عن معدنك.

يتحرك كارديل في دائرة نحو اليسار كي يُبقي جونز ومانس ضمن مجال رؤيته، يبدو الشاب الضخم حساسًا لتقلُّبات المزاج ويبدأ بالتفافز، مُصدرًا صوتًا ينم عن التلهُّف، ويتموِّج عضوه الذي بضخامة ذراع تحت سرواله الضيق الذي يبلغ ركبتيه. وبعد عدة مناوشات يهوي كارديل بالضربة الأولى، تصيب اليد اليسرى جونز كولينغ بقوة في خاصرته وتجعله ينحني، ثم تتغير تعابير الذهول إلى ضحك بعدما يتحسس خاصرته وينظر إلى الدم في يده.

- اللعنة يا كارديل! إصابة موفقة بلا شك، أشعر بصدري كأنه قعر مِرْجَل، يا لها من قبضة حديدية!

- أخشى أنها مجرد خشب.

- إنك تقاتل بِخِسة يا كارديل، يعجبني أنك توافق هواي. لكن هذا غير متاح الآن، صحيح؟ يجب أن يكون هذا العراك عادلاً... مانس!

كان الشقيق يتربص صدور الأمر، فيندفع بهجوم مباشر ودون أي تكتيك لدرجة أنه يأخذ كارديل على حين غرة، يلقي مانس نفسه عليه ويحيطه بذراعيه بعناق لا يدع لكارديل مجالًا للهروب، ويسقط بعنف ووزن الشاب بأكمله فوقه، ينبطح مانس عليه بصدره وينهال عليه باللكمات، فيحس كارديل بأنفه ينكسر، ويُسِّق حاجبه فيتدفق الدم إلى عينه، ويستدير جونز بسرعة إلى يساره ويتحسس الأربطة التي تثبت ذراع كارديل الخشبية، ويسحبها من كفه فيصير دون وسيلة دفاع، وفي خضم الأصوات المكتومة التي يعرف أنها وقع قبضتي مانس على وجهه، يسمع همسة تكاد أن تكون لطيفة ويرى شفتي جونز قرب أذني شقيقه، فيتوقف الضرب.

- طيب، والآن يا عزيزي مانس، فلنساعد كارديل على الوقوف على قدميه ونرى شدة بأسه عندما يُجرَّد من سلاحه السري.

يمسح كارديل القذارة عن وجهه، ويرمش بعينه حتى يجلو بصره، ويبتسم جونز إليه هازئًا وهو يلقي الذراع الخشبية فوق كتفه فتسقط في

مكان ما جوار الجدار، ويبدأ شقيقه مانس ينهق بحماسة عارمة وهو يلحق
براجم أصابعه، تطن أذنا كارديل، وتميد به الأرض، وعاليًا فوقه تلتمع النجوم،
وتومض الأبراج وتدور، فمه مليء بشظايا أسنانه، ويتساءل عما إذا كان الغبار
النجميُّ هو ما يحس به على لسانه.

يرى كارديل بعين عقله يوهان هجيلم يُخرج من فمه زَبَدًا داميًا، ويسمع
صوت سيسل وينيه المبحوح، وقصف المدافع الروسية يتناهى إلى مسامعه
من بعيد، ويرتجف لمراى الابتسامة الخالية من الأسنان التي تتراقص على
شفتي كارل يوهان المتغضنتين تحت ضوء المقبرة المعتم.

يبدأ في الترنُّح نحو الهيئتين المتمايلتين وهو يشعر بذراعه الميتة تتشكل
إلى جانبه، نابضةً فتيةً، ناضجةً بالألم والكرهية.

- هلم إليّ إذن، أيها الوعدان اللعينان!

الفصل الثالث عشر

انتقلت منشأة غوستاف أدولف سونديبرغ قبل وقت ليس بالطويل إلى "ساحة الخردواتية" من "شارع القبطان" بالقرب من كنيسة كلارا، لكنها ما تزال تُلقَّب بـ "البورصة الصغيرة"، إذ أصبح المقهى ملتقى للبرجوازيين في منطقة رصيف الميناء، كثيرون يشربون أقداح الشوكولاتة الساخنة، لكن غالبية النزلاء، مثل سيسيل ويني، يفضلون الأكواب التي لا نهاية لها من القهوة العربية المرّة، لا سيما مع انتشار إشاعة عن أن الوصي على العرش يفكر في منع المشروب نهائياً في محاولة للحد من القيل والقال والنميمة المستفحلة في المقاهي.

فهنا تتدفق الأقاويل بحرية كما تنساب المشروبات الكحولية، يتبادل الناس الأخبار عن الأمير غوستاف البالغ من العمر خمسة عشر عاماً وسلوكه الشاذ مع خدمه، وعن الدوق تشارلز، الذي يتوق إلى وصال الوصي، الأنسة رودينسشولد، التي يميل قلبها للخائن أرمفيلت، وعن الأديب توماس ثوريلد، الذي يقال إنه سقط من طاولة في لوديك وهو يعلن أن منفاه قد كفل له الخلود الذي لم تكفله له السنوات التي أمضاها ولسانه بين فلقتي مؤخرة البارون ريوترهولم. يقرر ويني أن يمهل كارديل ساعة، وعندما تشير ساعة جيبه إلى العاشرة والنصف، يجد نفسه ما يزال وحده، فيغادر المقهى ويتجه شمالاً حتى يبلغ "زقاق الإوز"، حيث يسأل عن كارديل، ويجد معلومة عند إسكافي منهمك في تغيير نعل حذاء خيالة.

- المراقب المعاق؟ إنه يؤجر غرفة من الأرملة بهيل.

ثمة قطع من الأطفال يلعبون في السلال، والمنزل ليس مزوداً بمدفأة حجرية لكن المدفأة العلوية تشغلها فتاة مهزولة ذات جلد مصفر من اليرقان،

وهي ظلت مريضة بالحمى طوال أسبوع وتعلم أن كارديل غادر غرفته صباح البارحة ولم يعد. لا يجد وينيه خيارًا سوى مغادرة منزل بهيل دون أن يصل إلى شيء، ويتبعه صوت الفتاة إلى أسفل السلالم:

- إذا لم يعد ميكيل قبل أن تعود صاحبة المنزل من أجل الإيجار، فستطرده. يسير وينيه في شارع مؤدي إلى "الساحة القديمة" كي يمنح نفسه وقتًا للتفكير، إذ يرى أن خياراته محدودة دون مساعدة كارديل، يتوقف لبرهة عند البئر، حيث يملأ الخدم والأطفال دلاءهم، وعندما يعاود النهوض، يتجه نحو "القلعة" و"دار اندبتو"، مع وقفة في طريقه.

يبلغ وينيه مكتب مدير الشرطة نورلين في وقت متأخر من العصر، ويستشعر غضب نورلين من خلال الباب، ويفترض أنه لا يُبقى في الانتظار إلا لأن نورلين يحتاج إلى بعض الوقت ليتمالك نفسه. وأخيرًا، يأتي الصوت من الجانب الآخر، وعلى إثره ينتحي المساعد جانبًا ويفتح الباب لوينيه.

- أدخله.

يقعد نورلين خلف مكتبه الفوضوي، الأضرار العلوية من قميصه ومعطفه مفتوحة، وباروكته ملقاة على الأوراق التي أمامه. لم يُجلب كرسيًا لوينيه. ويحك نورلين فروة رأسه ويفرك عينيه المحمرتين.

- لم يمض وقت طويل منذ لقائنا هنا آخر مرة، أتتذكر ما قلته عن الشروط المسبقة لهذه القضية يا سيسل؟ أتتذكر أنني طلبت منك بالباح أن تعمل بسرية؟ بدلاً من هذا تختار أن تقاطع اجتماع "غرفة الشرطة" لتعرض نقشًا خليعًا على قطعة قماش. ألم تر الصحفي بارفود جالسًا في المقاعد مصغيًا وقلمه متأهب؟

- لم أره فحسب، بل وأيقظته من ثمالمته وأقنعتة بمرافقتي إلى "دار اندبتو" حيث وعدته بأن اجتماع "غرفة الشرطة" الصباحي سيقدم له قصة مشوقة لمطبعة هولمبيرغ يمكن إيرادها في عدد الغد من صحيفة إكسترا بوست.

يدفن نورلين وجهه في يديه.

- بارفود مستعد لكتابة أي شيء بين فقرتيه الطويلتين من الإنجيل، وسيطبعها هولمبيرغ في صحيفته المنحطة دون أي تمحيص، بل يُفضّل كل ما هو شائن، واستوكهولم بأسرها تقرؤها. لماذا يا سييسل؟
- لأن معاوني، وهو مراقب لا يعمل اسمه كارديل، يبدو أنه تعرض لمكروه، وتخبرني غريزتي بأن السبب هو اقترابه من الحقيقة. والآن صارت قطعة القماش هي أملي الأخير، وهي غالية وكانت في حوزة شخص ميسور. الذين رأوا النقش من قبل سيتعرفون على الوصف بسهولة عندما يقرؤون عنه في الصحيفة، وإذا سعى شخص نافذ إلى دفن القضية، فسوف يتواصل هذا الشخص معك، وسيطالب برأسي على طبق، وربما رأسك أيضًا، وأنت بدورك يا يوهان غوستاف، سوف تُطلعني على اسم هذا الشخص الساعي لدفن القضية.
- ريوترهولم يقرأ إكسترا بوست مثل جميع متبعي النميمة على هذه الأرض، وسوف يعد البارون هذا الفعل برهانًا على إصراري على منح الأولوية للشؤون الأخرى قبل شؤونه الخاصة، وهذه هي الذريعة التي ظل ينتظرها من أجل التخلص مني. لقد وقّعت وثيقة موتي يا سييسل.
- بالنظر إلى أثر هذا المنصب في صحتك وأحوالك خلال السنة الماضية، أظن أن أيًا كان من يساهم في تقصير مدة توليك المنصب، فهو بالأحرى يطيل أمد حياتك.
- كان ينبغي أن أضع في حسابني طبيعة الشخص الذي أتحالف معه عندما طلبت منك المساعدة أول مرة، فأنت سييسل وينيّه، المستعد دومًا للتضحية بكل شيء وشخص في سبيل مُثله العليا.

تبرق عينا وينيّه.

- أجل، أنت الذي طلبت مساعدتي وأنت تعرف من أنا تمام المعرفة، ربما كان الولاء لك سببًا كافيًا لي لأتولى هذه القضية، لكن حالما اتُخذ القرار، يتحوّل هذا الولاء نفسه إلى الضحية، فهو مسؤوليتي الآن، وليس مكانتك الرفيعة. قبل بضع ليالٍ فحسب، وقفتُ في دار مقبرة كنيسة ماريا لأعابن الجثة، اسمح لي بوصفها لك أنت الذي لم تقع عينك عليها قط، بُترت أطراف الرجل خلال مدة طويلة من الوقت، وقد

مُنح كل جرح الوقت الكافي ليلتئم كي يتحمّل جسده العملية التالية، ظل محبوبسًا لأشهر في مكان ما، طريح نقالةٍ ما، ولا بد أنه صرخ طالبًا النجدة، لكن دون طائل يُذكر بما أن لسانه قُطع، ولا بد أنه حاول إنهاء حياته، لكن لم يُترك له حتى أسنانه، ولا عيناه. يمكنك تخيل شيء كهذا يا يوهان غوستاف؟ يمكنك تخيل أن تكون ممددًا لا حول لك ولا قوة حتى يأتي اليوم الذي تحس فيه بالمنشار على الجزء التالي من جسدك؟ سوف أجد مُقترِف هذه الفِعال، وسوف أعرف السبب. وأنت سوف تخبرني بالأسماء التي أريدها حالما تعرفها، بدلًا من التذمّر بشأن ريوترهولم وشرفك، ألا تستحي؟

يشعر نورلين بالاستسلام يحل محل الخواء الذي خلّفه الغضب. يفتقد زوجته وابنته، وروائحهما، وضحكاتهما. ومن الجانب الآخر من الطاولة، يحدق وينيّه إليه ببؤبؤين يبدوان ضخمين في الوجه النحيل، ينتهد نورلين ويضع يده على ورقة مطوية أمامه.

- تلقيت أخبارًا من باريس صباح اليوم، تقول مصادرِي إن الملكة المترمّلة ستقدّم أمام محكمة ثورية، وتعرف كما أعرف كيف ستنتهي هذه المحاكمة، سوف تفقد ماري أنطوانيت رأسها بلا شك كما فقد زوجها رأسه، وسوف يُلقى بها في قبر حقيير فوق الآلاف من الذين وقفوا قبلها صفاً أمام المقصلة. إننا نعيش أيامًا قاتمة يا سييسل. يلين صوت وينيّه عندما يجيب.

- يوهان، لقد قلتها لي بنفسك في تلك الليلة، ما المغزى من فعلنا ما نفعله إن لم يكن هذا؟

- إنك محق، بالطبع، كدأبك دومًا. «لا تدخل في مشادة مع سييسل وينيّه، فهو على صواب دومًا»... هذا ما كان يقوله الناس في المحاكم الدنيا، كما كانوا يقولونه في الجامعة. سوف يجري الأمر كما تشاء، اتركني الآن حتى أكتب إلى ريوترهولم رسالة تحمل بين سطورها التزلّف الكافي لتوفير بعض الوقت وتهدئة ثائرتة عندما تصل الصحيفة إلى المكتبات. ينحني وينيّه.

- شكرًا لك يا يوهان غوستاف.

الفصل الرابع عشر

يكره السكرتير أيزاك رينهولد بلوم كلَّ جزء من استوكهولم أخطأ بالتوسع متجاوزًا "مدينة ما بين الجسور"، و"المروج هي أسوأها جميعًا. هطلت زخات مطر مبكرة جعلت الشوارع طينًا، الصعاليك والمعوزون والمشردون وأناسٌ كأنهم هياكل عظمية يتراكمون عند الأركان، ويربضون كأنهم يتجنبون موتًا محيقًا بهم، ويتخلل صفوفهم البحارة والجنود بأزيائهم الرثة. يعرف بلوم أنه ما كان ينبغي أن يذهب سيرًا إلى "ضيعة اسپنز" القديمة، فالمياه المتجمعة في برك تتسرب عبر مسامات حذائه حتى تصدر كل خطوة صوتًا كأنه مخض زبدة. يجد بلوم على الدوام أسبابًا تجعله يلعن قدره، فعلى الرغم من سبع سنوات في خدمة "غرفة الشرطة"، يتقاضى مئة وعشرين دالراً سنويًا بالكاد، وكان يتوقع راتبًا أعلى عندما ترقى من كاتب عدل ليحل محل العجوز هولكويست سكرتيرًا للغرفة، لكنه وجد أن عبء عمله قد تضاعف دون تعويض إضافي.

يتناهى إلى مسامعه صوت سعال، فيهدئه قليلًا، ثمّة آخرون ظروفهم أسوأ منه، فسيسل وينيه مثلًا كان بإمكانه بلوغ شأوٍ عظيم بمقدراته، لكنه سيكون محظوظًا إن شهد العام الجديد. تتوقف نوبة السعال الخفيفة عندما يطرق بلوم باب الغرفة، وعندما يُفتح بعد لحظات، يبدو وينيه رصينًا كدأبه دومًا، إلا أن زاوية منديله المطوي في جيب صدريته مبللة بالأحمر، ويعجب بلوم لقوة الإرادة التي يتطلبها المجهود، ويتطرق مباشرة إلى الغرض من زيارته.

- أرسلني نورلين بالمراسلات التي طلبتها من "دار اندبِتو"، ما من نقص في الشكاوى.

يقعد بلوم أمام المدفأة الحجرية ليجفف حذاءه، ويتناول وَيْنِيَه حزمة صغيرة من الأوراق، ثلاث رسائل مكسورة الأختام. يتنحى بلوم ويتابع:

- الأرجح أنها كُتِبَت على عجلة بعد توزيع إكسترا بوست على المكاتب، هدف الجميع واحد، لكنهم يقدمون أسبابًا مختلفة، ثلاثتهم يقدمون أسبابًا يرونها تستوجب إيقاف تحقيقك، الرسالة الأولى من رجل فاحش الثراء قلق بشأن تذبذب أسعار القطن وعواقبه الوخيمة على الأوضاع المالية في المملكة، والكونت إنكرونا من "غرفة التجارة" يود أن يحذرك من التفسخ الأخلاقي الذي قد ينجم عن معرفة عامة الناس بأشياء ما استطاعوا تخيلها قط، وأخيرًا هناك جيليس توسه الذي أعمل عقله وتحجج بأن المسائل الشائنة بطبيعتها تستثير الغريزة الثورية، وتوسه يوبخك ناعيًا إياك باليعقوبي⁽¹⁾.

يدفئ وَيْنِيَه أصابع كل يد في راحة اليد الأخرى بالتتابع.

- أعرف توسه، هل تتذكره أيضًا؟ درس في جامعة أوبسالا مثلنا.

- لا يبدو اسمه مألوفاً.

- إنه متبطل لا يشغل رأسه بالكتب، لكنه ابن أسرة ثرية بما يكفي لشراء منصب له بغض النظر عن مخرجات دراسته، أتذكر مدى تعاليه علينا نحن الذين كنا نتسمر إلى طاولات الدراسة، وأفترض أنه رأى اجتهادنا دليلاً دامغاً على تواضع نسبنا. هل أخبرك مدير الشرطة نورلين عن سبب إرسالك كل هذه المسافة حاملاً هذه الرسائل؟

- لا، لم يكن بحاجة إلى إخباري، إنني لست مغفلاً يا وَيْنِيَه، كنت أدون الملاحظات عندما استعرضت قطعة القماش، وقرأتُ المقالة في إكسترا بوست، إنك تأمل أن أحد هؤلاء السادة الحانقين ربما يُضمر سبباً غير الأسباب التي قالوها، أتخيل أن للأمر علاقة بالجنّة التي وُجِدَت في بحيرة لاردر.

(1) نسبة إلى نادي أو جمعية اليعاقبة في فرنسا، كانوا جماعة سياسية مؤثرة إبان الثورة الفرنسية، عُرفوا بتأييدهم للثورة والجمهورية ومعاداتهم للنظام الملكي. (المترجم).

يضغط وَيُنِيهِ شَفْتِيهِ جَاعِلًا مِنْهُمَا خَطًّا مُسْتَقِيمًا وَهُوَ يَغْمُضُ عَيْنِيهِ وَيَدُلُّكَ حَاجِبِيهِ.

- بالضبط. أَقْرُبُ بِأَنْنِي كُنْتُ أَمَلُ أَنْ تَقْدَمَ لِي الْأَسْمَاءُ صُورَةَ أَوْضَحَ، لَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِهَا، وَلَا أَسْتَطِيعُ تَخْمِينَ الْقَاسِمِ الْمَشْتَرِكِ بَيْنَهُمْ عَدَا عَنِ ثَرَاثِهِمْ.

يَبْتَسِمُ بِلُومٍ لَهُ ابْتِسَامَةٌ مَآكِرَةٌ.

- بَيِّدْ أَنْنِي سَمِعْتُ بِهِمْ، لَكِن لَاشَيْءٍ مَجَانِي فِي هَذَا الْعَالَمِ، لِذَا أُرِيدُ شَيْئًا بِالْمَقَابِلِ.

- لَوْ بَيِّدِي أَنْ أُعْطِيكَ، فَسَوْفَ أُعْطِيكَ يَا بِلُومِ.

- عِنْدَمَا يَحِلُّ الْيَوْمُ الَّذِي تَأْخُذُ فِيهِ صَحْتِكَ مَنَحِي سَيِّئًا، أَوْدُ مِنْكَ إِخْبَارِي -أَنَا وَحْدِي- بِأَسْرَعٍ مَا يُمْكِنُكَ. ثَمَّةَ رَهَانٍ بَيْنَ السَّادَةِ فِي "الْغُرْفَةِ" حَوْلَ مَوْعِدِ رَحِيلِكَ، وَتَبْلُغُ قِيَمَةَ الرِّهَانِ حَالِيًّا ثَلَاثَةَ أَضْعَافِ رَاتِبِي السَّنَوِيِّ.

- إِذَا قَدِمْتُ لِي مَعْلُومَاتٌ مَفِيدَةٌ، فَلَا أَرَى سَبَبًا يَحُولُ دُونَ شَخْصٍ مِنَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ هَلَاقِي، أَعِدْكَ بِأَنْنِي سَوْفَ أُرْسِلُ سَاعِيًّا فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي أَشْعُرُ بِأَنَّ الْحُمَى بَدَأَتْ تَدْبُ فِي جَسَدِي. وَالْآنَ دُورُكَ.

يَحْسُ بِلُومٍ بِإِخْتِلَاجَةٍ فِي بَطْنِهِ إِثْرَ تَخْيُّلِهِ الْمَبْلُغِ الْهَائِلِ الَّذِي سَوْفَ يَرْتَقِي بِظُرُوفِ حَيَاتِهِ ارْتِقَاءً هَائِلًا، وَيَتِيحُ لَهُ إِكْمَالُ كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: ضَرُورَةُ الدِّينِ لِرَفَاهِيَةِ الْمَجْتَمَعِ، لَيْسَ فِي غُرْفَتِهِ ذَاتُ الْبَرْدِ الْقَارِسِ، إِنَّمَا فِي بَذْخٍ بِأَحَدِ أَفْضَلِ الصَّالُونَاتِ فِي الْمَدِينَةِ، وَمِنَ الْمَطْبُخِ تَتَابَعُ أَطْبَاقُ دَسْمَةٍ تَلُو أَطْبَاقَ مِنَ الرَّرْنَجَةِ الْمُدْخَنَةِ وَلَحْمِ الْحَمْلَانِ وَالْيَخْنَةَ الْمُتَبَّلَةَ.

- عَظِيمٌ جَدًّا! هَلْ سَبِقَ أَنْ سَمِعْتَ بِجَمْعِيَةِ اسْمِهَا "يُومِينَايْدِزْ"؟

- سَمَاعًا عَابِرًا فَحَسْبِ. إِنْ لَمْ تُخْنِي الذَّاكِرَةَ، إِنَّهُ أَحَدُ التَّنْظِيمَاتِ السَّرِيَةِ الَّتِي تُؤَدِّي الْأَعْمَالَ الْخَيْرِيَةَ لِمَعُوزِي الْمَدِينَةِ، وَيَقْدُمُونَ الدَّعْمَ الْمَالِيَّ لِمَلَاجِيئِ الْفُقَرَاءِ فِي الْأَبْرَشِيَّاتِ ذَاتِ الْعُجْزِ فِي التَّمْوِيلِ.

- هَذَا صَحِيحٌ، جَمَاعَةُ "يُومِينَايْدِزْ" مَعْرُوفُونَ بِسَخَائِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ سِوَى الْأَثْرِيَاءِ تَحْمِلَ تَكْلِفَةَ عَضُوبِهَا. تَعْرِفُ أَنْنِي أَكْتُبُ الشَّعْرَ، كُنْتُ

على معرفة بشخص يدعى كلايس فون دير إيكن، ورث عملاً تجاريًا وكان يدفع لي بسخاء لألقي قصائدي، وقد كان إيكن عضوًا في ”يومينايديز“، ثم تعرض عمله التجاري لانتكاسة، وعندما أراد تعليق أعماله الخيرية كي يتدبّر شؤونه، تحالفوا معًا وحطّموه، إذ يجب على كل عضو الإيفاء بالتزاماته دون أعذار، ثم طالبه البنك بتسديد قرضه فورًا، وفجأة لم يعد أحد يرغب في تغطية تأمينه. وذات مساء، ظهر متسول عند باب منزلي، وراح يهذي بأن النقود التي تلقيتها مقابل إلقاء قصائدي لم تكن سوى قرض، كان إيكن، وقد صار يعيش فقرًا مدقعًا عندئذٍ. وهكذا بدأ اهتمامي بيومينايديز، تمكنت ذات مرة من إلقاء نظرة على أحد دفاتر عضوياتهم، وذاكرتي تكاد أن تكون قوية كذاكرتك يا وينيّه، جميع الذين كتبوا إليك الرسائل ينتمون إلى هذا التنظيم.

تبدأ قدام وينيّه تنقران على الأرضية على نحو ملحوظ بالكاد.

- ربما تكون قصتك أقل إثارة للدهشة مما تبدو، أتعرف أصل تسمية هذا التنظيم يا بلوم؟

- ”اليومينايديز“؟ لا، لا أظنني أعرف.

- ذات يوم درّسني أستاذ خاص كان شغوفًا بالكتب الإغريقية الكلاسيكية، كما كان ذا أسلوب فريد في استخدام العصا، لذا أمضيت ساعات طويلة عاكفًا على كتب إسخيليلوس. يُترجم اسم تنظيمهم هذا بلغتنا إلى «أولي العطف»، وفي القصة الأصلية هذا هو المسمى الذي يشير به الحكماء إلى الجبابرة، آلهة الانتقام، كي يتحاشوا غضبهم.

يجد بلوم نفسه متمنيًا انتهاء الزيارة ونسيان دوره، ولا يبقيه قاعدًا سوى الجشع.

- ثمة أمر آخر، أعرف أنهم يعقدون اجتماعاتهم في ”دار كيسر“، جوار ”السقائف الحمراء“.

يذرع وينيّه أرضية الغرفة مفكرًا.

- سمعتُ اسم هذه الدار يُردّد من قبل، بوصفها مكانًا لدور دعارة سرية سُمح لها بالعمل بمباركة ”غرفة الشرطة“ شريطة أن يُدار المكان دون

قلاقل، وأجد هذا مكانًا غريبًا بالنسبة إلى تنظيم ينشط في الأعمال الخيرية.

- آه، الأمر أغرب من هذا يا وينيّه، أعرف دون أدنى شك أن التنظيم ليس لديه غرف في "دار كيسر" فحسب، بل ويملكون المبنى بأكمله. يستدير وينيّه متأملًا في النافذة المطلّة على "بوابة جبايات المروج"، وفي أذنيه تتردد آخر كلمات ميكيل كارديل. وبالخارج عند بداية المساء، تهمد الرياح ويسرّبل الصمت الطواحين الهوائية في انتظار نسيمات الليل.
- إنك تعرف الكثير يا بلوم، يا تُرى هل تعرف ما إذا كانت "دار كيسر" تملك محفات خاصة بها؟ وفي هذه الحالة، هل محفاتهم خضراء؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس عشر

تجتاح سييسل ويئيه في الليل أفكار مؤرقة بدلاً من النوم، ويرسم الضوء الذي يسقط على المكتب ظللاً طويلة على قطع ساعة جيبه، فتغدو التروس والأجزاء الصغيرة كأنها حشرات تتراقص كلما داعب اللهب تيار هواء. انقضت مدة طويلة منذ انصراف بلوم، وقد أرغمت زيارته ويئيه على كبت سعاله الفظيع الذي يرضيه منذ الصباح، ومبولة الغرفة بمحتوياتها المشوبة بالحمرة تظل دون تفرغ في مكانها تحت ركن السرير، ويحس بحلقه يتأكله وينهشه نهشاً.

لا يلمس ويئيه في نفسه الحماس للعمل بأدوات ساعته الليلة، تجميع حفنة من القطع المعدنية الميتة لتصبح وحدة كاملة تضم بين ثناياها حياة مستقلة من نوع ما - إذا كان الصانع من الذكاء بحيث يضع كل قطعة بدقة في مكانها الذي تنتمي إليه - عادة ما يسكن أفكار ويئيه، لكنه يجد نفسه مشغولاً بمسار ميكيل كارديل منذ الوقت الذي افترقا فيه عند "بوابة جبايات اسكونز" وذهابه إلى مصيره المجهول.

من القليل الذي يعرفه عن حياة كارديل، يتخيل أن الرجل يجتذب العنف كما يجتذب المغناطيس برادة الحديد، لكنه يتمتع أيضاً بقدرة فائقة على الخروج ظافراً من مثل هذه المواقف، ولا يرجح ويئيه أن يكون اختفاؤه غير مرتبط باستعلامه عن المحفة. فهو ظل يعتمد على التفسير البسيط طوال حياته، وهذا يخبره بأن كارديل اقترب كثيراً من حقيقة محمية جيداً، وتظل التفاصيل عصية على قدراته الاستنتاجية. وحالما يكتمل تركيب ساعة جيبه،

يقيس نبضاته ويجدها مئة وستين نبضة في الدقيقة، ويحس بقلق نابض في صدره، ويجافيه النوم والاطمئنان.

ثمة قارورة في الخزانة التي جوار فراشه، تحتوي على مسحوق نخيل الدوم، ابتاعها من صيدلاني في "الدب" جوار شارع الألعاب النارية قبالة ساحة المدفعية. قطرات من الأفيون في مزيج من الكحول وحمض السكسينيك وملح قرون الأيائل، وظل المحلول معه منذ مدة طويلة لكنه لم يستعمله بعد، وحذروه في "الدب" من عدم تجاوز الجرعة الموصى بها، وقالوا إن الدواء سيخدر أمه وحواسه أيضاً، والليللة يجد نفسه مستعداً للمخاطرة لأول مرة.

يحصي قطرات محلول الأفيون قطرةً قطرةً في كوب، ثم يشرب، وسرعان ما يسري إحساس دافئ في جميع أوصاله، فيراوده أملٌ مريح، وتتلاشى الحكمة في حلقه حالما يسري المحلول عبره، وخارج النافذة، تتشبث آخر خيوط أشعة الشمس بطرف أجنحة الطاحونة الهوائية، ومن ثم تتلاشى، ويتيه وينيه في أفكاره.

يفقد سيسل وينيه إحساسه بالوقت بعد غروب الشمس وساعته قد صارت قطعاً مرة أخرى، ولا يكون مدرّكاً لمقدار ما انقضى من ساعات عندما يداهمه رعب الخطأ الذي اقترفه، يبدو أن كارديل قضي عليه، لقي ميتةً شنيعةً في مكانٍ ما. ومن جانبه، عرّض وينيه نفسه للخطر بالكشف عن نفسه من خلال القصة التي نُشرت في إكسترا بوست.

ألن يخطر لفتنة كارل يوهان الآن أن يتخذوا إجراءً ضده هو أيضاً؟ ما الذي يمكن أن يكون أسهل من إنهاء حياته؟ فحالة وينيه الصحية ليست سرّاً، ولن يتفاجأ أحد عندما يلقي مريضٌ بالسل حتفه المحتوم بعدما عاش مدة أطول مما توقع أفضل خبراء مستشفى سيرافيم. زيارة في الليل... ووسادة على وجهه... ولن تثير نهايته أي شبّهات.

يشعر وينيه بقشعريرة خوف تسري في عموده الفقري، وينهض كي يسترق النظر عبر النافذة، لكنه لا يرى سوى انعكاسه، ووجهه الشاحب دامى العينين، ثم يلقي معطفه على كتفيه، ويحمل شمعة من شمعدانها ويقي شعلتها من تيار الهواء، وفي الرواق، يقرص ذُبالة الشمعة بين إبهامه

وسبابته، ويقف ساكنًا في الظلام ويرهف سمعه. المنزل خال، والخدم ينامون في مكان بعيد، وفي المطبخ طُمرت جمرات الفحم بالرماد تأكيدًا على نهاية اليوم. يفتح وينبئه الباب المفضي إلى الفناء، ويحس برطوبة الهواء، بالنسيم المنعش القادم من الحقول، وقد تخلله الضباب الآتي من البحر، ثم تتكيف عيناه تدريجيًا مع الظلام.

”ضيعة اسبنز“ هادئة ودون إضاءة، أشجار الزيزفون منحنية الأغصان بالخارج، وما من ضوء يُرى من ”مدينة ما بين الجسور“، لا بد أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل، البوابة مفتوحة، وعلى الجانب الآخر، يتدفق ضوء القمر على الحقول والبستان، المشهد ريفي بريء بالنهار بقدر ما هو مؤرّق ومنذر بالسوء في الليل.

هنا دُفن الموتى في خضم زعر عارم في مطلع القرن عندما حل الطاعون باستوكهولم مع تاجر هولندي، وفي مقبرة كنيسة كاتارينا، تراكمت الجثث عاليًا، وسُجّيت بأغطية الأسرّة، ونُثر عليها الجير، وتُركت لأكثر من أسبوع في انتظار إيجاد مكان لها في الأرض المكتظة. وفي ”المروج“ أحسنوا التصرف مع ضحايا الوباء، إذ حفروا الخنادق خلف آخر المنازل وأودعوا فيها الموتى، وحتى اليوم، الأرض هنا أخصب من الأماكن الأخرى، إذ تظل البساتين مُزهرة حتى تساقط الثلوج، لكن كل بستانني يُعلم منذ طفولته ألا يغرس مجرّفته عميقًا في الأرض. وينبئه ليس وحده، يُقبل نحوه شبحٌ من اتجاه المياه، كائنٌ حي داكن لا ينتمي إلى هذا العالم، يدنو ببطء، مترقبًا حذرًا، ويتراجع وينبئه إلى الظلال التي وراء الجدار. كلما احتجب القمر خلف غيمة، ينطفئ المشهد الذي أمامه، وعندما يعود ضوء القمر، يجد الشيء قد صار أقرب. هذه ليست الميتة التي ظل وينبئه يحاول التصالح معها منذ مدة طويلة، ليس الهلاك المتوقع الزاحف الذي ظل يتجلّد استعدادًا له، إنما نهاية عنيفة مخزية، لن يعرف بأمرها أحد، في خضم رعب، بشفرة سكين أو هراوة أو خنقًا.

يمكنه الآن سماع وقع الأقدام، أصوات جرش خافتة، ويسمع نبضات قلبه في أذنيه وهو يجاهد ليتنفس دون صوت. يباشر الشبح الدخول عبر البوابة، ثم يبلغ الفناء تحت الأشجار، ويدرك وينبئه أنه يخوض معركة خاسرة مع اقتراب نوبة سعال، ويتخذ قراره، من الأفضل أن تقع المواجهة هنا، حيث

يمكنه على الأقل أن يخلف بقع دماء لتشهد على النهاية العنيفة، فالعثور على جثته تحت أشجار الزيزفون في الصباح سوف يثير التساؤلات على الأقل.

وعندما لا تفصله عنه سوى خطوتين، يندفع نحو الهيئة ويمسك بها، ويدرك وينيه خطأه عندما تقبض يده على اللاشيء، هذا المخلوق لا جسد له، إنه ليس قاتلاً مأجوراً من المدينة، إنما شبح خرج من قبره ليجوب هذه المناطق في الليل. يحس وينيه بالدماء تندفع إلى صدغيه، وتظهر ومضات من الضوء في مجال رؤيته، وعندما يلتفت الشبح نحوه، يرى أن وجهه ليس بشرياً، فيفقد وينيه وعيه عندما ترتطم جبهته بالأرض الباردة.

يجد وينيه نفسه في فراشه عندما يستيقظ، يتغلغل ضوء الفجر عبر الغبار المتراكم على النافذة، وبضع قطع حطب في المدفأة تططق وهي تتشقق بالحرارة، ويستغرق وينيه بضع لحظات ليستجمع شتات نفسه ويدرك محيطه، وقد زال تأثير الأفيون من جسده وحل محله الألم النابض في رأسه، ويشعر بلسانه ثقيلًا عندما يتكلم.

- حاولت الإمساك بذراعك اليسرى يا جان مايكل، ولم يكن الطرف الخشبي في محله، لذا كان الكم فارغاً.

ينقل كارديل الكرسي من المكتب إلى جوار السرير.

- صحيح، أما أنا فشعرت بجذبة في معطفي، ولم أكد ألتفت حتى رأيتك تشهق وتتهالك على الأرض.

- ظننتك شبحاً، حاولت الإمساك بطيف، يا لي من أحمق! لكن دفاعاً عن نفسي، لم يكن وجهك عوناً كبيراً، ما الذي حلَّ بك؟ أين كنت؟

عينا ميكيل كارديل تغطيهما كدمات كبيرة ومسودتان بحيث يبدو كأنه يضع قناعاً، أنفه مكسور، وشفته مشقوقتان، وتحتهما يلمح وينيه غياب عدة أسنان، إحدى عظمتي وجنتيه تبدو مسطحة، مما غير مظهر وجهه. يرتسم الألم على وجه كارديل عندما يتكلم.

- كنت ألعق جراحي في منزل صديق يعيش قريباً من "بوابة جبايات ورك القط"، لأرسلت لك خبراً لولا أنني نمت لأكثر من يوم دون انقطاع.

وحالما ترنحت وبلغت المنزل، وجدت غرفتي مليئة بأوغاد بولنديين وجميع ممتلكاتي جُمعت في كيس ووضعت على السلال، وبما أنني ليس لدي مكان ألجأ إليه أو أنام فيه، قررت القدوم إلى هنا، لذا أتيت في ساعة متأخرة.

- وماذا عن المحفة؟

- وجدت كلاً من المحفة والحمالين، لم يرغبوا في الإجابة عن أسئلتني إلا بعدما أقنعتهما، الأضخم من بين الاثنين كان أمره سهلاً نسبياً، فهو ساذج وتسهل إخافته لمن يعرف كيف، أما شقيقه فكان صعب المراس، واستغرق تدبُّر أمره وقتاً أطول. عندما كان الاثنان مسيطرين على الوضع، تمكنا من انتزاع ذراعي، لكن عندما وجدتها، استخدمتها هراوة حتى لم تبق منها سوى شظايا، هرب البدين بعدما قاوم بكل ما لديه من قوة في اتجاه بوابة الجبايات، وهو يقفز على ساقه التي لم أكسرهما بعد، وأشك في أن شقيقه سوف يتعرف إليه إذا قابلا بعضهما مجدداً، وللأسف يمكن قول الأمر نفسه عني. ويؤسفني قول إنني عندئذٍ لم أكن في حالة تمكني من منعه من الهروب. ثمة معلومة بسيطة تمكنتُ من انتزاعها منه عندما تسنَّى لي وضع أصابعه تحت حذائي، إنهما يملكان حصة في المحفة، والبقية يملكها رب عملهما الذي يؤديان العمل لصالحه، والمحفة موجودة في مكان غير بعيد عن "السقائف الحمراء" جوار النهر الذي بالقرب من بحيرة كلارا.

- في "دار كيسر"؟

- بالضبط! إذن لا بد أن تحقيقاتك أيضاً قادتك إلى هناك، صحيح؟

- نعم، دعني أستريح قليلاً، سنتناول الطعام بعدما أستيقظ. سوف نستجوب قاتل كارل يوهان الليلة.

الفصل السادس عشر

حل الغسق في "السقائف الحمراء"، وتلاشى ضجيج النهار، ومن بين القوارب التي توصل الغلال إلى الشاطئ الموحل، تبقى واحد لم يكمل تفريغ حمولته، وثمة عاملاً رصيف، كلاهما ثمل، يدحرجان برمياً إلى الشاطئ بصعوبة، وأحدهما يسلي نفسه ورفيقه رافعاً عقيرته بأنشودة بذيئة:

- أوه، كنت أتحسس ما تحت ملابس صبيّة، أغني فال آ دول - فال آ دي أوه، أفعل بها أشياء شقيّة...

يتدفق النُّهير في طريقه إلى البحر عبر المبنى المهجور الخاص بالجسر الكبير، ومن وراء الماء تلوح "قاعة النبلاء" بواجهتها المهيبة، وإلى يمينها مباشرة قمة برج كنيسة الجزيرة، والمصابيح مضاءة في الجزيرة المجاورة، في المبنى ذي تصميم الخطوط المتقاطعة الغريب وقُبَّته المزينة بالأشكال المثلثة. الساحة العامة خالية، ورصيف الغسل هادئ، الأصوات الخافتة وجلبة القباقيب من العمال الذين يلزمون بيوتهم يمكن سماعها من بعيد عند الجسر الذي فوق بحيرة كلارا. يتوقف وينتبه، ملتفتاً نحو "مدينة ما بين الجسور".

- ثمة جمالٌ فيها على الرغم من نفسها.

يوميّ كارديل ضد إرادته.

- المدينة؟! إنها نتنة وتعج بأناسٍ يحتضرون ولا يريدون شيئاً أكثر من تقصير أمد حيوات بعضهم الرخيصة، لكن أجل، في غروب كهذا، إنه

مشهد جميل، وتصير أجمل كلما اتسعت مساحة الماء التي تفصل بينها وبين المشاهد.

يبصق كارديل التبغ في التيار وينعطف يمينا، جوارهما تنتصب "دار كيسر" على نحو يوحي بالوعيد، وجانب المبنى الطويل يواجه الساحة، والجانب القصير يطل على البحيرة، يبلغ ارتفاعه ثلاثة طوابق، وذو مدخل مقنطر، وصورة شمس غاربة تزيّن قوس المدخل الذي فوق رأسيهما، هناك بضع شموع على الطابق الثاني، وثمة شخص يطلق ضحكة ثاقبة. يمسح كارديل طرفه الأبتري العاري في البرد.

- وماذا الآن؟

- ما لم تجلب معك كُلابًا للتحطيم أو معدات حصار، فليس أمامنا سوى خيار واحد، سنطرق الباب.

الرجل الذي يفتح الباب يجعل كارديل يتقهقر خطوة إلى الوراء متفاجئاً، أسود البشرة، وفي الضوء المعتم ذي اللون الكبدي، يبدو لوهلة وجيزة كأنه بلا رأس. رأى كارديل أكثر من مرة بادين الأسود خادم الملك غوستاف، والنغل الذي أنجبه يتراكم جوار السفن على الرصيف، لكنه لم ير أحدهما عن قرب من قبل قط. يلامس وينيه قبعته مَحِيئاً.

- مساء الخير، جنّت لمقابلة سيده الدار.

يرد الرجل الأسود عليه بابتسامة عريضة، ويفتح الباب حتى النهاية ويرحّب بهما بحركة من ذراعه، ثم يرن جرساً فضياً صغيراً، ويشير لهما بالصعود عبر السلم الحلزوني الذي إلى يمينهما، ثم يغلق الباب المصنوع من خشب السنديان وراءهما، ويتخذ مكانه على مقعد تحت شمعدان مضيء. يجدان على الطابق الثاني باباً مفتوحاً، وعنده تقف امرأة شابة، ترتدي فستاناً بسيطاً شفافاً بما يكفي لإظهار تفاحتَي صدرها، وتضع على شعرها شريطاً حريرياً ولا تبدو أنها تضع أي مساحيق تجميل، باستثناء أحمر شفاه خفيف على شفتيها وشامة صناعية في زاوية فمها، تبدو متمرسه على استقبال الزوار وهي تنحني لويئنه وتبتسم له.

- تفضل بالدخول يا سيدي، لا بد أنك أحد المبتدئين الجدد، اسمح لي بأخذ معطفك ومعه أخفف عن كاهلك متاعب هذا العالم، اسمي نانا، خادمتك المتواضعة.

ورق الحائط في الصالة مغطى بزهور بنفسجية وسوداء، ويكسو الأرضية سجاد تركي أحمر، ومن السقف تتدلى نجفة تحمل قرابة دسنة من الشموع، وثمة شمعدانات على طاولات على امتداد الجدار. يدس وينيه عملة معدنية في يدها، فترتسم على شفيتها كلمة «أوه» عندما تستشعر وزنها.

- اسمي وينيه، إنني هنا لمقابلة سيدتك.

- بالطبع يا سيدي! هكذا نبدأ مع جميع معارفنا الجدد، بمحادثة حميمية بوصفها مستهل علاقة مفعمة بالبهجة، تصر المدام عليها، إذ يجب أن تعرف كل تفاصيل رغباتك حتى تستطيع تلبيتها لك على النحو الأمثل، ينبغي ألا تشعر بالخجل، إننا هنا لنخدمك. لا أطلب منك سوى الانتظار هنا بضع لحظات قبل أن آتي لاصطحابك إلى الصالون.

يومئ وينيه، ثم تبدد الفتاة الصمت بعد لحظة وهي تومئ نحو كارديل، الذي ظل واقفاً جوار الباب.

- إنك تحب تأديب خادمك يا مسيو وينيه، صحيح؟ كثيرون من ضيوفنا يتسمون بهذه الميزة، وهذا أمر يسرنا. ما عليك سوى إخبار المدام برغبتك وسوف تتحقق لك!

- هل يمكن للمرء جلد بضاعتكم؟

- أمنياتك أوامر يا سيدي، بلا شك إن الإفراط في الحماسة بهذا الخصوص يمكن أن يؤثر سلبيًا في قيمة بضاعتنا في أعين الآخرين، لكن ما دمت مستعدًا لتعويض خسارتنا، فلك ما تشاء.

- فهمت.

يأتي رنين جرس واضح من شقة بالداخل.

- والآن يا مسيو، هلأ تبعطني من فضلك؟ أتود أن يبقى خادمك هنا؟

- أفضل إبقاءه قريبًا مني، تحسبًا لـ... رغبتني في جلده.

يتبعانها عبر أروقة الدار، وخارج النوافذ يبدو مشهد المدينة رائعاً، الغرفة التي يُصحبان إليها خالية، ثمة أريكة موضوعة قبالة كرسي ذي ذراعين، ويتخذ وينيه مكانه وفقاً لإرشادات الفتاة، وتصب النبيذ في كأس رفيعة وتناول له بابتسامة.

- ستكون مدام ساتشس معك حالاً يا مسيو، أمل ألا تجدها وقاحة مني إذا قلت إنني أتمنى أن نراك هنا مرة أخرى قريباً.

تتركهما الفتاة، فيضع وينيه الكأس ويعبر الغرفة بسرعة إلى الفتحة المقوسة على الجانب المقابل المغطى بالستائر، ويتفحص زاوية القماش المزخرف بنقش هينات متضاجعة.

- أظننا على وشك سماع أشياء أسوأ بكثير مما قيل لنا يا جان مايكل، من المهم جداً أن تسيطر على نفسك، من أجل كارل يوهان. مدام ساتشس هذه فرصتنا الوحيدة لمعرفة أي شيء، أتفهم ما أعنيه؟

يفتح كارديل شفتيه ثم يغلقهما دون كلمة، ويومئ صامتاً ويقف قريباً من الجدار، تتكور يده السليمة على شكل قبضة في جيب معطفه ذي الكم الأيسر المعقود حول طرفه الأبتري.

يصعب التيقن من سن المرأة التي تزيح الستارة جانباً بعد مدة قصيرة، ليس من الواضح إذا ما شاخت قبل أو أنها أو احتفظت بشبابها في سنّها المتقدمة، ترتدي حُلّة مهيبه قرمزية اللون موشاة بزخارف ذهبية، ووجهها مصبوغ بطبقة بيضاء سميكة تغطي بفعالية أي شوائب أو تجاعيد، لكن تحت عينيها كيسين ثقيلين، وشفثاها تبتسمان دون دفء، ويحيط بهما قوسان عميقان، ثمة ندبة حول عنقها، كأنها أثر أنشودة جبل مشنقة، وسرعان ما تتصلب تعابيرها المُرْحبة وتستحيل عبوساً.

- لستما الضيوف الذين كنت أتوقعهم، لا بد أن نانا كانت تشرب، ليس لدي ما أناقشه معكما أو أقدمه لكما، من الحكمة أن تغادرا في الحال. يرفع وينيه يديه بإشارة احتجاج.

- إنك مخطئة يا مدام، اسمي سيسل وينيه، جئت من "دار انديتو"، أدرك أنك تستطيعين إدارة منشأتك بفضل حماية شخص ذي نفوذ، وعلى الأرجح ذي صلات في "وكالة الشرطة"، بيد أن الأنظمة التي تعتمد على درجة من السرية يعيبها قصور ذاتي متضمن فيها، وهناك ما يكفي ممن لا يعرفون بترتيباتك وبمقدورهم إفاء نشاطك قبل أن يتسنى لداعميك الوقت لتلافي الكارثة، يمكنني إحضار عشرين رجلاً إلى هنا في غضون نصف ساعة.

لا يشي وجهها بشيء من مشاعرها، لكن صوتها يستحيل فحياً.

- أتعرف من تتعامل معه؟

- أعرف أن تنظيم "اليومينايدز" يملك الدار.

- إذا كنت تعرف هذا، فأعرف أنك تخادعني ولن تُقدم على فعل شيء، وحتى إن كان ما تقوله صحيحاً، فلن يدعوا مثل هذه الفعلة تمر دون انتقام، وسوف تدفع ثمناً باهظاً.

- إنني أحتضر بمرض السل، ومدير الشرطة الحالي على وشك فقدان منصبه، كلانا ليس لديه ما يخسره. جرّبيني.

تطلق مدام ساتشس ضحكة قصيرة هازئة.

- إنك شاب سانج يا بُني، كل شخص لديه ما يخسره، لكن تهديك التافه هذا لا يمكن أن يعني سوى أنك تريد شيئاً مقابل صمتك، ربما سأرى عرض أكتافك سريعاً إذا أعطيتك ما تريد بدلاً من سلبك كل ما تملك. فلنسمع إذن، ما الذي تسعى إليه؟ حفنة لكل منكما من خزانتي؟ استباحة مجانية لبضاعتي من أجل إنعاش بعض الذكريات المنطفئة عن فراش الزوجية؟

- حُمل رجلٌ مبتور الأطراف من هذه الدار على محفة، وألقي في بحيرة لاردن، ملفوفاً بقطعة قماش من نفس النوع المعلق خلفك، أخبريني بكل ما تعرفينه عنه وعن مصيره.

تنطلق سهام عينيها من وينيه إلى كارديل وتنغرس في طرفه الأبتن.

- فهتم الآن، فقدت مؤخرًا محفة وحماليها، عاد أضخمهما في الليلة قبل الماضية، منتحبًا وقد ضرب ضربًا مبرحًا، وهو عاجز عن النوم في الليل وقد أهلكته الكوابيس الفظيعة، لم يتعلم الكلام من قبل قط، لكن عندما أعطيناه قطعة طباشير ولوحًا، رسم صورة شيطان ذي ذراع واحدة، وأرى الآن أن الواقع ليس مخيفًا بقدر الخيال.

تعيد مدام ساتشس تركيزها إلى وينيّه. رأى كارديل من قبل التعابير نفسها في الكلاب التي تُحرّض على القتال، فقبل اشتباكها تقيس قوة بعضها بعضًا، وتحسب حظوظها، والمقامرون الناجحون يتعلمون من مراقبة أعينها أيّها يختارون المراهنة عليه، وكارديل نفسه راهن من قبل ويجيد اللعبة كما يجيدها الجميع، يستشعر روح المدام القتالية، إنها خصم جبار، أما وينيّه، فمظهره لا يوحي بالخطورة، لكن عينيه تتكلمان لغة مختلفة، وما من خوف فيهما. ويعرف كارديل من سيفوز قبل أن تعرف مدام ساتشس، التي تضحك بمرارة وتطوح بيديها، وعندما تبتسم بضم مفتوح، تبين أسنانها المسوّدة النّخرة.

- انظرا إلى حالكما! كيس عظام ومعاق يرتدي الأسمال، وتجرؤان على النظر إليّ بهذه الطريقة! ما الذي يمكن أن يعرفه أمثالكما عن رغبات الرجال النبلاء؟ رجال نشؤوا في كنف أجيال تتوارث الثروات، ينتظرون ميراثهم من البضائع والممتلكات ومناطق النفوذ والألقاب، هؤلاء الرجال وُلدوا ليحكموا، فالمسؤولية الملقاة على كواهلهم ثقيلة، ويحتاجون إلى ترويح لا يمكنكما تخيله مجرد تخيل، فالواحد منهم ما يكاد يحتلم أول مرة حتى يأمر خادمة الغرفة بأخذ شيء ومداعبته، ثم إحاطته بشفتيها، وعندما يبلغون الثانية عشرة، يكونون قد غزوا كل من في المنزل، وفي الثامنة عشرة، يكونون قد لاطوا بغلمانهم. وبعدها يتذوقون جميع ما تقدمه المدينة من مُتّع، يأتون إليّ. لقد تبولوا في أفواه مفتوحة ليستمتعوا، وضربوا، وأذوا، وسحقوا، ودمروا. يمكنني أن أوفر لهم أشياء أفضل، أبذل لهم كل ما يشتهونه، وفي السهرات الخاصة أمنحهم ما لا يتوقعونه، بما أن كثيرين يقدّرون ما لم يخطر على بالهم من قبل. في حوزتي مجموعة من الخادmates غير الاعتياديات،

بعضهن قبيح كي يُبرزن جمال الأخريات، وبعضهن من أجل زيادة متعة ضيوفهن بوضاعتهن وخنوعهن، أو إذلالهن، أو إيلاهن، أو شقائهن. لدي حُذْب، وأقزام، وذوو شفاه أرنبية، ومشوهون ومسوخ. ندفع للذين يطالبون بالدفع، كما ندفع لبقية موظفينا، وهناك من يخدموننا دون مقابل. المخلوق الذي تتكلم عنه جاء محمولاً في كيس، كان أحدهم، ولمدة كان تُحفتي الفريدة، هل تفهمني؟ إذ ما من شيء يضاويه في تذكير المرء بمتع الحياة، وبالحظ السعيد الذي يستمتع به كل من يشاهده، بعض زبائني كانوا يكتفون بحضوره وهم يمتعون أنفسهم، وآخرون كانوا يختارون استعماله، مستمتعين بما يقدمه، بما أنه لا حول له ولا قوة، وهو لم يكن يخدم برغبته، لكنه كان دون أسنان، فكان زبائني يضحكون وهم يقرصون أنف المخلوق وهو يمضغ أعضاءهم المتصلبة، ويُرغم على ابتلاع ما يُقذف فيه. زبائني رجال يحكمون العالم، فما أهمية التضحية بنصف شخص إذا ما قورنت بمتعتهم؟

يستشعر وينيه العاصفة التي تعتمل بداخل كارديل، فيضع ذراعه حول كتفيه قبل أن يخطو خطوة واحدة، ثم يومئ لمدام ساتشس لتتابع.

- على الرغم من بشاعته وشذوذه، فقد احتفظ بشيء من جماله، إذ كان ذا شعر جميل، ويافعاً، وقد صار بسبب هذا التناقض ذا شعبية. جعلني المخلوق ثرية دون أن أخسر فيه شلناً واحداً، فلمَ لا أكون أول من يندب رحيله؟

- هل أنا محق في استنتاج أن "اليومينايدز" يمثلون مُلاك دارك وزبائنك في آن واحد؟

- نعم، وقبل أن تنصّب نفسك حكماً عليهم، اعلم أنهم يتبرعون من ثرواتهم لجميع الفئات الهشة في مجتمعنا، فمن أنت لتدينهم على ما يحدث خلف هذه الجدران في حين أن نصف ملاجئ الفقراء باستوكهولم ستغلق أبوابها لولا دعمهم؟!

- كيف أصبح هذا الرجل مبتور الأطراف تحت رعايتك؟

- سمعت طرّقاً على الباب ذات ليلة، وجدته رجلاً رفض الإفصاح عن اسمه، وقدم لي هدية: المخلوق. لم يبد أي أسباب، وقال إن من مصلحته

أن يعيش هذا الشيء باقي أيامه تحت رعايتي، ودفع ثمن إقامته وقدم لي إرشادات متعلقة بالعناية به، فهو لم يكن يأكل طواعية، لذا تعيّن علينا فتح فكيه بالقوة وإطعامه مرة في اليوم بصب السخينة في فمه، وكنا نبقيه في خزانة عندما لا نحتاج إلى خدماته.

- هل كان أعمى وأصم؟

- لم يكن لديه عينان، ولا ذراعان، ولا ساقان، ولا لسان ولا أسنان، ولا أعرف بشأن حاسة سمعه.

- وماذا عن حالته العقلية؟

- من عساه أن يعاني مثل هذه المعاملة ويحتفظ بقواه العقلية؟ أفترض أنه كان أبله، وثمة أمر واحد أقنعني بهذا، ذكرت أنه كان يرفض الأكل، وهذا صحيح لكن باستثناء واحد، إذ كان يأكل برازه كلما تغوّط، وبطريقة ما دائماً ما يتمكن من فعل هذا عندما لا يكون مُراقباً. من عساه أن يفعل شيئاً كهذا إلا إذا فقد صوابه منذ أمد بعيد؟!

- وماذا بعد؟ مات؟ وتخلصتم منه بعيداً؟

- بالضبط، كان يذبل وتتدهور صحته يومياً، على الرغم من أننا نطعمه، ورحل ذات صباح. لم يبق معنا في الدار أكثر من أربعة أسابيع.

- لماذا بحيرة لاردر؟ فالنهر يجري قريباً بالخارج.

- حدث أن احتاجت منشأتي إلى التخلص من مخلفات حساسة، ولم نحصل على النتائج المرجوة بإلقاء المخلفات في النهر، فما يوضع في الماء هنا، يصل إلى اليابسة عند أرصفة الميناء، والفقراء الذين لا يكثرثون بما تتغذى عليه الأسماك يلقون بشباكهم في "المستنقع"، لكن لا يجرؤ سوى أبله على الاقتراب من مياه بحيرة لاردر.

يتحرك كارديل قاطعاً الغرفة سريعاً، فلا يجد وينيه الوقت للتصرف، ويطبق بيده السليمة على عنق المرأة، وتلتقي أصابعه خلف رأسها.

- ما مدى إجادتك السباحة أنت نفسك يا مدام؟ ربما ينبغي أن نرى ما إذا كنت ستبلغين اليابسة في أرصفة الميناء أو ستواصلين طريقك إلى البحر. لقد رأيت أكثر من كفايتي من الرجال الغارقين، وسمعتهم

يصرخون بعذاباتهم قبل أن يغطسوا إلى الأبد، كثيرون من الذين لم يُضْمِرُوا مجرد سوء نية يعترفون بخطاياهم في مثل هذه اللحظة، أتساءل كيف سيبدو صراخك.

- إنني لا أخشى الرجال من أمثالك. إذا كنت أعد نفسي ضمن الأحياء، لكنني في مكان آخر، سعيدة وحررة، بدلاً من جمع العملات المعدنية في هذا المكان القميء الذي تجرؤون على تسميته مدينة.

تبصق على وجهه، فيفلتها من الصدمة، وبينما هو يسمح للعباب عن عينيه، يقف وينتبه بينهما، وإليه توجه المدام حديثها عندما تعاود الكلام، بصوت مبحوح إثر خنقة كارديل:

- غادر الآن وخذ معك وحشك ذا الذراع الواحدة، أرى أن القبر ينتظرك بنفاد صبر، واحسب نفسك محظوظاً بأن شأنك مع "اليومينايدز" ينتهي هنا، لأنك لا تسوى شيئاً أمام جبروتهم. أما عن الذي ترك لي المخلوق في الكيس، فلا أعرف أكثر مما تعرفه، إن لم أراه منذئذٍ أو قبلاً قط. وفيتُ بوعدِي، والآن أوفِ بوعدك!

المكان مظلم بالخارج جوار "السقائف الحمراء"، وما من نجوم تلوح في السماء، وبعيداً للأمام، عند "متنزه الملك"، ثمة احتفال يجري تحت إضاءة ساطعة، فكل نافذة محيطية بـ "ساحة المدفعية" مضاءة. وكارديل هو الذي يبتدر الكلام:

- عندما ينتهي كل هذا، سوف أعود وأقتل هذه المرأة. يجيبه وينتبه ساهماً، كما لو أنه يريد منع صوت كارديل من قطع تسلسل أفكاره.

- لقد رأيت موتها في عينيك، كما رأيته يا جان مايكل، وإذا وجدتها هنا مرة أخرى، فذلك لأنها قررت الترحيب بالموت، سوف تسديها معروفًا. يترنح وينتبه وهو يعبر الأرض المرصوفة بالحجر نحو كومة من مواد بناء سياج، ويقعد عليها ووجهه بين يديه، ثم يخيم عليهما صمت طويل قبل أن يعاود الكلام:

- أخشى أننا اصطدنا بحائط مسدود، أحتاج إلى وقت لأفكر، والوقت موردٌ تبقى لي منه النذر اليسير. ثمة أمر يستعصي عليّ إدراكه، أمر يتخبّط خارج حدود وعيي، كأنه عُتَّةٌ على زجاج نافذة، أعجز عن استجلاء معالمه مهما أحاول.

يحين دور كارديل في الرد، لكن يدًا خفية تعتصر حلقة وتقطع عنه الهواء، يقفز قلبه إلى حنجرتة، ويشعر برعب يجتاحه، رعبٌ يعجز عن تفسيره ولا يملك وسيلة لدرئته، وفي الظلام تتشكل ذراعه اليسرى إلى جانبه، وترسل موجات الألم النابض عبر كتفه، ويتعيّن عليه استجماع كامل قوته ليُخرج صوته هادئًا.

- لا بد من وجود آخرين يعرفون المزيد، آخرون لا نعرف بوجودهم بعد. يستدير كارديل بعيدًا ليخفي حالته، وقوة ملاحظةٍ ويُنِيه تخذله هذه المرة وهو يظل مستغرقًا في أفكاره.

- أجل، فدونهم مسعانا هذا محكوم عليه بالفشل.

- هل أنت مستعد للاستسلام؟ أهذا ما تقوله؟

يسحب ويُنِيه ساعة جيبه من صدريته، يمكنه بالكاد تبين عقاربها، لكنه يثبّت نظراته على الدائرة الصغيرة المنبجعة حيث تُحسب الثواني، ويضع إصبعين على الوريد الذي ينبض تحت فكه، ولمدة دقيقة، يحسب نبضات قلبه إلى مائة وثمانين، ثم يلتفت إلى كارديل بالإجابة التي ينتظرها.

- لا، لكن الوقت عنصر جوهري.

الجزء الثاني

الدماء والنبذ

صيف 1793

كل ما في الحياة يدفعنا إلى الشراب
عندما نتمهّل ونفكر بها ملثّياً.
قد تحمل لنا الأقدار أنباءً سعيدة أو تعيسة،
وكلاهما نتعامل معه بالنهج نفسه:
النبذ يزيد السعيد سعادةً،
ويبدد كل الشواغل والمآسي.

كل الأوقات لن تكون إلا كما يجعلها المرء،
والأفكار السوداوية لن تعكّر صفو عقل المنتشي.
امرح مع أصدقائك ما داموا معك،
وودّعهم عندما تخبو بهجتهم.
النبیذ هو السلوان الذي وهبته العناية الإلهية،
من التعميد، إلى الزفاف، إلى الشيخوخة، إلى القبر.
أنا ماريا لينغرين، 1793

الفصل السابع عشر

أختي العزيزة!

أنوي الكتابة إليك في كل فرصة أجدها، لكن بما أنني لا أعرف إلى أين ينبغي أن أرسل كتاباتي، فسيتعين عليك التماس العذر لي على طول المدة حتى أتمكن من تسليمها لك بنفسى.

وعلى الرغم من هذا، إنه لمن دواعي سروري أن أشحذ سن ريشة الإوز وأكتب إليك في هذا اليوم الذي بدأ بداية رائعة، استيقظت باكراً، وقفزت من الفراش، وأخرجت مَبولة الغرفة من مخبئها تحت السرير، ورفعت منامتي حول خصري واتخذت وضعية القرفصاء المعهودة. اتضح أن عملية إفراغ أمعائي هذه تحديداً من نوع ينذر أن أحظى به، إذ تضافرت جميع العوامل للخروج بأفضل نتيجة ممكنة، فعلى الرغم من أن حميتي الغذائية لم تكن مثالية في الآونة الأخيرة، كان القوام نموذجياً: متماسك بما يكفي لإحداث درجة معينة من المقاومة وترك شعور بالإنجاز، وفي الوقت نفسه ليّن بما يكفي لعدم خلق أي مصاعب. وحالما فرغت من شأني، أحسست كأنني قوبلت باحتفاء على شكل هتاف صاخب من الديك الذي في الفناء المجاور، الأمر الذي لم أشعر بأنه غير مبرر تماماً، ثم صرت بأفضل حال عندما غسلت وجهي وارتديت ملابسى.

وسرعان ما وجدت في مزاجي الرائق عوناً، إذ ما كادت تمر لحظة بعد فراغي من أنشطتي الصباحية، حتى سمعت خبطاً على الباب الخارجي كنت أخشاه منذ مدة طويلة، مصحوباً بتحذيرات صارمة: «كْرِستوفر بليكس! افتح الباب حتى يمكننا التفاهم! بليكس! أيها الوغد المشاغب!» قررت ألا ألقى

افهمي هذا يا أختي: ثمة رجل واحد، اختير نظرًا إلى صفاء ذهنه، يتعهد جمال مدينته بالعناية، كأنها حديقة. يا ترى كيف ستغدو بلدتنا بأكشاكها الخشبية إذا أحيطت بمثل هذه العناية؟

حظيت في طريقي عبر مرتفعات الجزيرة الجنوبية برؤية مشهد خلاب لـ "مدينة ما بين الجسور"، واغتبطتُ أيما غبطة، من عساه أن يكون محزونًا إزاء احتمال العيش في مدينة كهذه؟ أبراج الكنائس، نيكولاي، وفرانسيسكس، غيرترود، جميعها تومض فوق الجزيرة، والأمواج تتلأأ وتلتمع، والمباني التي جوار رصيف الميناء تقف إجلالًا للأمواج البحر المالح أسفلها، حيث تربض السفن في مراسيها، وعلى الجانب الآخر من الجزيرة ينتصب قصر الملك، وهو مبنى من الضخامة بحيث تعجز كلماتي عن إيفائه حقه.

قبيل موعد العشاء بوقت قصير، مررت فوق "القنطرة" عن طريق الجسر الأحمر المتحرك، وانعطفت يسارًا بمحاذاة صوامع الغلال وأصابعي تطبق على أنفي اتقاء لرائحة "ملتقى الذباب"، وهو كومة روث كأنها جبل يا أختي، تُجمع هنا تمهيدًا لنقلها إلى الحقول ومعامل تقطير الملح الصخري، وشققت طريقي عبر حشود من المواطنين الراقين والمتسولين أيضًا، جميعهم يلفتون النظر بطريقة أو بأخرى: ساعة ذهبية على الفخذ، أو باروكة أصيلة، أو قدم حنفاء، أو يدان مشوهتان تجعلان المرء يرغب في الإشاحة بناظريه لكنه يعجز لسببٍ ما. ودون أن أشعر ألفت نفسي في الساحة التي أمام "قاعة النبلاء"، وما كدت أجول بعيني في المكان حتى بلغ مسامعي صوت مرح:

- أليس هذا السيد بليكس؟! متجولًا تحت أشعة الشمس! وبالنظر إلى حقيبة الظهر، يبدو أنه يبحث عن مسكن جديد!

التفتُ، وأنا ما زلت أحاذر أولئك الصعاليك ورفاقهم المدججين بالهراوات، لكن لم تسعني الفرحة برؤية صديقي ريكارد سيلفان يسير قاطعًا الطريق المرصوف بالحجر، مرتديًا معطفًا جديدًا ذا ياقة مثبتة وسروالًا طويلًا، ويضع باروكة صوفية حمراء بشعة.

- أوه، السيد سيلفان، خادمك المتواضع. يا ترى هل تعرف جلالتم أي معلومة عن أي منزل جميل ربما يكون متاحًا للإيجار مقابل مبلغ يمكن

تدبُّره أو -ولمَ لا- كومة قش مهملة، عند سيد كريم نأمل أنه لا يمانع
إقراض النقود لشاب كادح يشق طريقه في الحياة؟

ضحكنا بجذل بالغ وتعانقنا.

- للأسف يا كَرستوفر، أنا نفسي أعاني بما يكفي في سبيل إيجاد حشية
فراش، أقصد فراشًا لا يُحْمَل على أرجل آلاف من القمل في الليل
وأجدني في مكان مختلف عن الذي خلدت فيه إلى النوم. لكن القضية
ليست خاسرة تمامًا يا أخي، معي بضعة شلنات في جيبي، وهذا المبلغ
كافٍ لتأمين وجبة لنا ومعها شراب دازينغر ليساعدنا على البلع.

- حمدًا للرب، عرفت عندما استيقظت في الصباح أن اليوم سيكون أحد
أيام سعدي!

سرنا بأذرع متشابكة عائدين إلى البلدة لنجد لأنفسنا شيئًا نتقوّت به.

وعندما بلغنا مقهى "السلام الذهبي"، اكفهر وجه صاحب المقهى حالما
وقع ظلّنا على عتبة بابه، واضطر سيلفان إلى الدخول في مفاوضات قبل أن
يُسمح لنا بالجلوس، وجرى فحص الشلنات التي بحوزته، وفي البداية أراد
صاحب المقهى مصادرة المحفظة بأكملها مقابل أباريق الشراب العديدة التي
تجرعها سيلفان بالدين، لكنه أّقنع بالعدول عن قراره وقبول جزء من المبلغ،
مع تلميحات بأننا نعتزم إنفاق المبلغ بأكمله على مأكولاته ومشروباته. قعدنا
إلى طاولة وتلذذنا بسمك الرنجة المقلي للتو والجة حتى اكتفينا.

بعد كأس شراب، بُحّت لسيلفان بهمومي التي تثقل علي: إنني مدين
لجوناس سيلفر بمبلغ ليس بمستطاعي سداه، وجُلدي على أيدي جامعي
ديونه ليس سوى نذير لما سوف يحدث في سجن المدنيين، حيث سيذهب
جمالي وشبابي هدرًا. واكتفتني حيرة بالغة عندما انفجر سيلفان ضاحكًا.

- كَرستوفر بليكس، ألا تعرف شيئًا عن أبجديات الدين؟!

وضع سيلفان ذراعه حول كتفيّ وتابع:

- اسمع يا كَرستوفر، سأعلّمك أمرًا أو أمرين عن الحياة في المدينة
الكبيرة، وجهلك بهذه الأمور يمكن غفرانه بوصفك وافدًا جديدًا.

اتسعت عيناى وهو يتكلم، إذ شرح ريكارد لى نهجًا بسيطًا ومضمونًا للإبقاء على حياتى علاوة على اقتناص قدرٍ من المتعة. فكما تعرفين يا أختى العزيزة، إنها مسألة وقت ليس إلا قبل أن يُبلِّغ عن الشخص المعدم المثقل بالديون فى المحاكم الدنيا، وعندئذٍ تصادَر جميع ممتلكات التَّعَس المنكود مقابل سداد دينه، وإذا لم تكن هذه الممتلكات تعادل قيمة الدين، فسيزُج بالمسكين فى السجن، ولا بد أن يتعفن فيه حتى يتدبر أقرب وأعز أقاربه جمع مبلغ كاف لإطلاق سراحه.

همس سيلفان:

- الحيلة هى ألا تقترض أبدًا مبلغًا كبيرًا من دائن واحد! فلنقل مثلًا إنك قبضت دالِّرين من جوناس سيلفر، والأمر الطبيعى هو أنك لن تستطيع سداد المبلغ بما أنه أنفق على ضروريات الحياة على شاكلة النبيذ والنساء والطَّرَب، فتقصد شخصًا آخر من معارفك، وتقترض أربعة دالرات من هذا الشخص، ثم ترتب لقاءً مع سيلفر من أجل الوصول إلى اتفاق بشأن سداد المبلغ، وتدفع له دالرا واحدًا مع تطمينات بأن الباقي قادم قبل وقت ليس بالطويل، والآن يا بليكس، ما مقدار المبلغ المتبقي لك للاستمتاع به؟

قلت هامسًا مبهورًا:

- ثلاثة دالرات!

- بالضبط يا كِرستوفر، ما عليك سوى تكرار هذا الأسلوب، وما دمت تحيط نفسك بالرفاق الأسخياء، فسيمضى كل شيء على ما يرام، بما أن الديون الجديدة دائمًا ما يُقتطَع جزءٌ منها لسداد الديون القديمة.

غمز سيلفان وقبَّلتني مداعبًا على خدي، وتابع:

- هكذا ينبغي تدبُّر الأمور فى المدينة الكبيرة يا أختى بليكس! نخب الأصدقاء الجدد الذين قد نتعرف عليهم الليلة وسوف يحرك سخاؤهم من صعاليك سيلفر!

- فى صحة المعلم سيلفان!

صحت بصوت أعلى مما أردت، الأمر الذي أثار حفيظة الزبائن الآخرين.
وأفرغت كأسِي.

لا بد أننا مكثنا وقتًا طويلًا في مقهى "السلام الذهبي"، لكن لا يحضرني مقدار طوله، كان وقت الغسق عندما ترنحنا خارجين إلى الشارع، ونحن نستند بعضنا إلى بعض لنحتفظ بتوازننا، خيمت الظلال على الساحة والأزقة، لكن السماء كانت تصبغ قمم المباني باللون القرمزي، وأضاءت طريقنا. التقينا بمجموعة رفاق من الذين يشاطروننا التفكير والتوجهات عند البئر، وانضمنا إليهم في طريقهم إلى حفل راقص في "تل القلعة"، واستغرقت مفاوضات دخولنا وقتًا أطول مما توقعت، وقت استغلتته في تخليص نفسي من بعض آثار ما شربته تلك الليلة.

هتف سيلفان بحماسة: "كل نعيم الدنيا زائل"، وأنا أمسح عن فمي بقايا قيء، وحالما صرنا بالداخل، وجدت قاعة الحفل في غاية الأبهة والجمال يا أختي، الأسقف عالية كأسقف الكنائس في بلدتنا، وبها شرفات حتى منتصف المسافة بين الأرضية والأسقف، حيث يشرب أعضاء المجتمع البرغندي من كؤوس بلورية فخمة، وكانوا يرفعون كؤوسهم إلينا بالأسفل. خطر لنا أنه إذا تزلف إليهم أحدنا وناشدهم، لأمكن إقناعهم بإفراغ كؤوسهم علينا حتى نتلقى المشروبات بأفواهنا، وهذا ما حدث، وتضررت باروكة سيلفان ضررًا كبيرًا لعدم مقدرته على تحريك فمه سريعًا بما يكفي لتلقي المطر، وأصدر الصوف المبتل رائحة نتنة، لكن فيم يهم كل هذا عندما يجري كل شيء بدافع المرح؟! تسلى جميع من في الحفل بالأعبينا. وبحلول هذا الوقت، كانت الصالة تدور حتى دون الرقص، وتخليت عن محاولات الاحتفاظ بتوازني بعدما كدت أقلب طاولة بأكملها.

قعدت قليلًا ولا بد أنني غفوت متكئًا على الجدار، وبعد برهة جاء رجل يرتدي زيًا وهزني ثم طردني إلى الخارج.

كانت الساعة تقترب من العاشرة، وهو الوقت الذي يجب أن ينتهي فيه الحفل وإلا لخاطروا بإثارة سخط الشرطة. وبالخارج في "الساحة القديمة"، رأيت أناسًا يتسكعون ويتجادبون أطراف الحديث، على الرغم من أن الفوانيس

التي في الزوايا تضيء بالكاد الأرض التي أسفلها. لم تكن لدي فكرة عن مكان اختفاء سيلفان والبقية. وبما أنني ليس لدي ما أفعله، انضمت إلى رفقة سادة يقعدون على السلالم التي تقع خارج ”البورصة“، وكان ثمة رجل منهم يأبى الحديث إلا عن الموسيقى التي عُزفت في الحفل، لم أكن متلهفًا لجعل نفسي أبدو ساذجًا من الريف، لذا اتخذتُ موقفًا ناقدًا، إذ بدا النقد أيسر وسيلة لجعل نفسي أبدو خبيرًا، ومما سرّني أن تحفظاتي قوبلت بشيء من الاهتمام، وأصررت على أن العازفين بدا عليهم أنهم يجدون صعوبة في متابعة النوتات الموسيقية وأن حِسَّهم التنغمي لم يكن شافيًا، وبما أن الرجل بدا شديد الاهتمام بدور البوق الفرنسي في الأوركسترا، عاجلته بالإشارة -بازدراء- إلى أن هذه الآلة لا يوارى صوتها النشاز حتى عندما تحاط بمجموعة من العازفين أصحاب الموهبة الفائقة، بحلول هذا الوقت اعتادت عيناى الضوء ولاحظت أن الرجل يقعد على صندوق مريح، ونظرت فيما حولي فلم أر مقاعد مشابهة، وفي أثناء حديثنا خطر لي أن شكل الصندوق الخارجي يشبه إلى حدٍّ ما شكل البوق الفرنسي، ووجدت صعوبة في اعتقاد أن هذه مصادفة لافته في ضوء موضوع نقاشنا عندما تلقيت لكمة عنيفة أصابتني فوق شفتي.

زعم الرجل الذي اتضح أنه أطول مني بذراع عندما نهض:

- أيها الوغد الحقير! سأجعلك تغني وعندئذٍ يمكننا سماع حسك التنغمي! أطلقت ساقى للريح، لكنني لامست وترًا حساسًا بملاحظاتى، فعوّض الرجل مواضع قصوره الفنية بما يملك من عناد شديد، لأنني ظللت أسمع وقع أقدامه الذي يتخلله عواؤه المتوعد إلى أن بلغت ”الشارع الجديد“.

وبما أنني تمكنت من إغماض عيني قليلًا في أثناء الحفل، لم أشعر بالرغبة في إيجاد مكان لأمضي فيه الليلة، فتهاديت ماشيًا عبر ”القنطرة“ نحو أبرشية كاتارينا لأنتظر شروق الشمس. تناولت الرغيف الذي تبقى لي، وهأنذا -متكئًا على شاهد قبر بين العشب الفواح- أكتب إليك، يا أختي العزيزة، بحبر صنعته في كعب حذائي من قطعة فحم وقليل من الماء، والآن تشرق الشمس، ولم تخب ظني، أبراج الكنائس بقممها وصلبانها تعكس الضوء، ومرة أخرى توشح استوكهولم بردائها الذهبي، وعارٌ على كل من تُعكّر صفوه مجرد شفة مشقوقة!

الفصل الثامن عشر

أختي العزيزة... انقضت بضعة أيام منذ أن سحت لي الفرصة لأكتب. بما أنني لم أعد أجرؤ على الاقتراب من منزل الأرملة بيك، ظللت أمضي ليالي بالخارج حيثما بدا لي المكان مناسبًا، وهكذا تمكنت من الاستمتاع بطقس بداية الصيف الصحو، كما يمكن للمرء غالبًا أن يختلس بضع ساعات نوم في الحانة، لكن إذا كان صاحبها يقظًا، فثمة وفرة في الأماكن التي لا تتطلب الكثير، لا يكلفني الأمر سوى نزهة منعشة حتى أجد حظائر وأكوام قش وحقولًا ومفارش من كلاً، من عساه أن يطلب أكثر من أن يُسلم رأسه إلى حضن الطبيعة متوسدًا أوراق الأشجار وملتحفًا السماء؟ وفي الصباح، توظف أجراس الكنائس المدينة برنينها الصافي، وأعود عبر الجسور لأجد شيئًا أتبلِّغ به وأتناول شربة ماء من البئر، والآن أكتب إليك من أحد المقاهي العديدة، منتعشًا بكوب صباحي وكسرة خبز وأنا أغمس قلمي في بقايا القهوة.

انضمت مع صديقي ريكارد سيلفان إلى مجموعة شبان جميع آبائهم يشتغلون بالتجارة على امتداد رصيف الميناء، وهؤلاء السادة ذوو أموال وفيرة، وبما أنهم يجدون أفاعيل سيلفان وأفاعيلي مسليّة للغاية، فهم يعاملوننا بسخاء عظيم. نتنافس أنا وسيلفان على من يمكنه الظفر بأكبر قدر مما يقدمونه. من يستطع الوقوف على ساق واحدة لدقيقة كاملة يتوّج ويُخلع عليه لقب "جلالته" لبقية الليلة، ويوضع على رأسه وعاء حساء تيرين. يضحك السادة حتى تطفر الدموع من أعينهم. إنني أعيش ليالي ذهبية يا أختاه! بهجتنا لا تنتهي، وكذلك المشروبات على ما يبدو، مزيج الكحول والعصائر ومشروب الأكوافيت تتدفق دون أن يعيقها عائق، لكن النبيذ هو

عشقي يا أختي العزيزة، ندياً أحمر، كأنه قطعة من الشفق أغريت بالدخول إلى القناني والكؤوس. الحانات تُعد ولا تُحصى، مصطفة جنباً إلى جنب، وتندلق أضواء شموعها إلى الأزقة، جاعلةً من الليل نهاراً، تنتقل من حانة إلى أخرى، وأذرعنا تحيط بأكتاف بعضنا بعضاً، نثرثر سعداء حتى ننسلخ عن بعضنا واحداً تلو الآخر، ثم نهيم كلُّ إلى مأواه. لا يشاركني ريكارد سيلفان -وهو ربيب المدينة- ولّعي بالهواء الطلق، وينام متكوراً جوار المستوقد في منزل قريبٍ له بمكانٍ ما بعد الجسر الجديد.

بينما نحن مشغولون بإخماد ظمئنا في سرداب قرب الأرصفة، اندلعت جلبة عظيمة فجأة، وقذف أحدهم قدحاً زجاجياً أخطأني بالكاد وتهشم إلى شظايا على الجدار الذي خلفنا، كانت مجموعة من البحارة الأجانب يزعمون بعضهم ببعض بلغة غريبة، وقبل أن نفهم ما يجري، نشب الشجار، فاحتميت تحت طاولة، وعندما تهالك أحد الرجال على الأرضية، لاذ البقية بالفرار، ومن مخبئي رأيت أن الرجل الذي سقط مجروح، والدماء تنبجس من معصمه كأنها خرطوم مياه إطفاء، وقد أصيب عندما وقعت يده على قنينة نبيذ مكسورة. وعندما بدا لي أن الخطر قد زال، زحفت إلى الرجل وألقيت نظرة على إصابته. بدا لي أن المعصم هو أكبر مشكلاته، وجرحه من نوع اعتدته من سنواتي التي قضيتها في كارلسكرونا، فعلت ما دُرِّبت عليه وضغطت على الجرح، ووضعت فوقه ضمادة من قماش الكتان مزقتها من كُم البحار، وفوقها لففت بقية كمه وعقدتها، وعندئذ توقف النزيف. طوال هذا الوقت لم يعرني البحار انتباهاً، ظل قاعداً منحنيًا على الأرضية، متمائلاً من جانب إلى جانب، متممًا بلغته كاسف البال.

قال رجل ذو أنف أحمر كان يراقب الأحداث باهتمام:

- نعت أصدقاؤه زوجته بالعاهرة، وقد استندوا في ادعائهم إلى حجج تبدو معقولة، وهي لن ترعوي عن العُهر عندما يعود زوجها بوجه مهشم.

وضحك مستطرفاً نفسه.

- فلنقدّم شراباً لهذا الرجل المسكين ونهّل لمُعالجه، يحيا الطبيب!

وعندئذ عبّر بقية الزبائن عن استحسانهم، شربوا وبدأ أن كل واحد منهم يريد أن يبتاع لي شرابًا ويرفع نخبًا. الرجل المصاب نفسه لم يبارح مكانه حتى ساعده تلميذ نجار على الوقوف على قدميه، ثم ترنح خارجًا إلى الظلام، بنظرات خاوية، ودون أن يتفوه بكلمة. ذكّرني هذه الحادثة بالفرض الأساسي من مجيئي إلى استوكهولم، لكن عليّ أن أقر بأن كل من قدم لي نخبًا سرعان ما جعلني أشرد إلى أفكار أخرى.

قررت -مستمداً الثقة والشجاعة من شعبيتي- أن أحاول وضع وصفة سيلفان موضع التنفيذ، تشاركت تدخين غليون مع أحد السادة الذين وصلنا برفقتهم وطلبت منه إقراضي عشرين شلناً كي تساعدني على ترتيب مسكن أفضل لي، ولم تكن ردة فعله هي التي توقعتها، امتنع وجهه وبدأ مُحَرَجًا نوعًا ما، ثم استأذن وانصرف عن الطاولة دونما جواب، فصرت في حيرة من أمري لأن المبلغ الذي طلبته تافه بالنظر إلى اللامبالاة التي يتعامل بها رفاقه مع نقودهم. كان رأسي يدور من كثرة المشروبات وتخليت عن التفكير في الأمر. بدا الحشد في الطاولات يخف تدريجياً مع تقدم الأمسية، وعندما لم أعد أرى أيًا من أصدقائي، قررت أن الوقت قد حان لإيجاد مكان أمضي فيه الليلة. خرجت إلى الشارع ووجدت ريكارد سيلفان في انتظاري، وما كدت أضع ذراعي حول كتفيه حتى أمسك بتلابيبي ودفعني إلى الجدار وارتطم رأسي بالقرميد.

- بليكس، أيها الأحمق! هل صحيح أنك ذهبت إلى والين وطلبت قرصًا بقيمة عشرين شلناً حتى لا تضطر إلى النوم في العراء الليلة؟

لم أستطع نكران هذا. أفلتني سيلفان متأوّهًا بمرارة، وانزلق قاعدًا وظهره إلى الجدار، وغطى وجهه بيديه. ظللت واقفًا مشدوّهًا ولم أحر ما أقوله حتى التفت سيلفان إلي ورأى التشوش الذي اعترى وجهي، فأشار لي مستسلمًا بالعودة وأحاطني بذراعه.

- كريستوفر، عندما طلبت مبلغًا ضئيلًا كهذا، فهم والين أنك فقير معدم، وقد جعلته سابقًا يعتقد أن أسرتينا تُقْتَران في الإنفاق علينا وأننا سوف نرث الممتلكات ذات يوم. وأنت، من ناحية أخرى، لم تدع مجالًا للشك في أننا نصّابان وضيعان يعيشان فقرًا مدقعًا.

- لكن ما الذي كان ينبغي لي فعله؟ إننا مفلسان تمامًا!

تنهّد سيلفان وبدا عليه الامتعاض.

- ما كان ينبغي لك فعله، يا كرسْتوفر، هو أن تخلق سبباً لحاجتك إلى قرض أكبر - فلنقل مثلاً باروكة جديدة أو عقد لؤلؤ لأمك - لأنك أنفقت مصروف جيبك على حلي أخرى، مع عرض طلبك كأنه أمر عادي للغاية. فمن هؤلاء السادة من الأسهل اقتراض ثلاثة أو حتى خمسة دالرات بدلاً من استجداء بضعة شلنات.

- لكن ماذا عن ملابسنا؟ إننا نرتدي الأسمال! كيف يمكن لأي أحد تصديق أننا أبناء أسر ميسورة الحال؟

- ما عليك سوى جعل الشخص المعني يرغب في تصديق أكاذيبك. يتطلب تلفيق الأكاذيب المُحكمة شخصين، أحدهما يقول ما يجافي الحقيقة، والآخر يستمع راغباً!

لم أحر جواباً على قوله، ولبثت واقفاً فاغراً فمي حتى لم يسع سيلفان سوى الضحك.

- ربما تكون مغفلاً منحوساً يا كرسْتوفر، لكنك شريف على الأقل، وهذا أمر سنتمكن من تداركه عما قريب، ومن الآن فصاعداً عليك مشاورتي قبل محاولة اقتراض أي شيء من أصدقائنا.

أدخل سيلفان -الذي استعاد سجيته المرححة الآن- يده في صدريته وأخرج محفظة منتفخة.

- بينما كنت تُخزيننا أمام والِن، خَفَّفْتُ عن مونتيل مبلغاً معتبراً، قلت إنني أحتاج إليه كي أشتري عصا مشي ذات طرف فضي، وإنني في عجلة من أمري لأنني رأيت مُقدماً في الجيش يلقي عليها نظرات راغبة، وإنني حريص جداً على شراء العصا لأبي لأهديها له عندما أزوره في فينزابنغ.

- لكن كنت أظن أن والدك كان...

وتوقفت عندما رأيت سيلفان يهز رأسه ببطء.

- إنني أخشى على مستقبلك أحياناً يا كرسْتوفر بليكس.

ثم رمقني بنظرة عتاب قبل أن يأخذ بذراعي، ويردف:

- ما زال الوقت مبكراً، فلنذهب إلى البئر لنغتسل ثم إلى المقهى لنتناول إفطاراً.

الفصل التاسع عشر

أختي العزيزة... فوجئت اليوم بموجة طقس قاسٍ جلبت بردًا لم أشعر بمثله منذ بدايات أبريل، تجمعت مياه الأمطار وانسربت إلى عُشِّي الصغير، واستيقظت عندما لعق النُّهير خدي، تبللت ملابسِي وصرت أرتجف، وحتى أدفئ نفسي قليلًا رحت أمشي واقفًا في مكاني ومرفرفًا بيدي. وتمثّل إفطاري في شيء من فتات الخبز وقطعة جبن صلبة. انتظرت الشمس، لكن خاب ظني عندما لم يتمكن ضوءها ولا دفؤها من اختراق الغيوم الكثيفة، ومن حسن الحظ بدأ المطر يخبو، ولم أر مغزى من الانتظار لوقت أطول، فشرعت في السير نحو المدينة. لطالما كان الطقس يؤثر في مزاجي، كما تتذكرين بالطبع. ثم قررت -إثر تفكير مطوّل- مواجهة ما ظلت أُرَجِّه للمستقبل منذ أمد بعيد.

أوصلتني خطواتٌ حثيئات إلى مشهد ريفي، ثم إلى "المروج" ببيوتها المعرّضة للتيارات الهوائية الباردة، وفجوات ألواحها التي تكون أحيانًا من الاتساع بحيث تمكّن المرء من دس يده عبرها وملامسة النائمين بالداخل، الأحياء ما تزال مقفرة، لكن ثمة ضجيجًا وحركة عند "ساحة المدفعية"، يتراكم الجنود جيئةً وذهابًا أو يسرون بخطوات منتظمة تحت إمرة ضباط صارمين.

رأيت من سوق السمك النساء اللاتي يشتغلن بالغسل بالأسفل عند رصيف "خليج القلط"، حيث يكشطن الأقمشة القذرة حتى تستعيد بياضها ويضربونها حتى تجف بقدر الإمكان في الهواء الرطب، وقد جعلتني رؤيتهن أفكر بمظهري، أنا المكسو بالسخام والمعفر بالتراب، إذ سوف يكون المظهر

اللائق عوناً لي في مستشفى سيرافيم، حيث أعتزم الذهاب، فحفّزتني الفكرة لأقفز إلى الرصيف بهدف إقناع إحدى النساء بأن تُولي قميصي شيئاً من عنايتها، معظمهن كن أكثر انشغالاً من أن يكثرن بوجودي، واللاتي أكثرن انتهرنني. كانت إحداهن عند الشاطئ تراقب مجموعة أطفال، أصغرهم صغير جداً محمول بين ذراعيها، وتغني له وهي تلقمه ثديها، وكان لحن أغنيتها سوداويًا كئيبيًا، وكلماتها التي سمعتها جديّة قليلاً بالنسبة إلى تهويده.

”هكذا كُتبت أقدارنا، وها هي أعمارنا تفوت. في أي لحظة قد نلفظ آخر أنفاسنا، ثم نُسجى في التابوت“.

لاحظت، عندما توقفت لأستمع، أن إحدى النساء على الرصيف قد أوقفت عملها والدموع تتثال على خديها، نظرت إليّ دون أن تقول كلمة، ومن ثمّ مدت يدها، ربما فقدت ابناً وربما أشبهه. تملّصت من معطفي سريعاً، وخلعت قميصي وأعطيته لها، فغمسته في حوضها المشبع بالصابون، وفرحته سريعاً، ثم شطفته عند حافة الرصيف، وأعادته لي بعد عدة ضربات بعصاها. انحنيت لها شاكرًا، ثم ارتديت القميص، وقد صار نظيفاً أبيض.

شيد رصيفٌ يخترق مياه بحيرة كلارا الضحلة، مزود بألواح خشبية، ويمتد بطول قرابة سبعين ذراعًا كيما يتيح لمواطني البلدة السير إلى ”جزيرة الملك“ دون أن يتعرضوا للبلل. ظللت مدة طويلة أقدم رجلًا وأؤخر أخرى عند الحاجز الذي جوار ”السقائف الحمراء“، وبعيدًا في الماء تتشكل قمم الأمواج البيضاء وتبلغ الجدران الحجرية وتبلل الحواجز الخشبية، وضحكت امرأة تمسك بقيد خنزير مغطى بالوحل، وقالت:

- توخ الحذر يا فتى! إذا تشبّثت جيدًا، فستتمكن من العبور دون أن تغرس مخلوقات السُّلكي⁽¹⁾ فيك أسنانها وتسحبك إلى الأعماق!

ازدردتُ ريقِي بصعوبة، وأحكمت أصابعي التي ابيضت مفاصلها حول الحبل المثبت على كل جانب، وبدأت أسير إلى الشاطئ البعيد.

(1) كائن خيالي في الميثولوجيا الاسكندنافية. (المترجم).

وحالما بلغت اليابسة، ألفت نفسي عند وجهتي مباشرة: باب فخم في ممشى مقنطر يرتفع من الجانبين حتى يلتقي عند نقطة بالأعلى، وفوق الباب يمكن قراءة الكلمات: "المستشفى الملكي"، وأسدان يحملان شعار نبالة ذهبي بينهما، وجوار الباب شجرة كستناء جميلة في أوج إزهارها. خطوت إلى الداخل، وسرت عبر الممشى المقنطر لكن سرعان ما توقفت لأحدق مبهورًا، ينتصب المبنى الرئيسي بارتفاع أربعة طوابق، يحيط به مبانٍ جانبيين، هذا هو "مستشفى سيرافيم الجراحي"، أو "السيراف" كما يُعرف لدى جميع من في البلدة، وخلف أبوابه الأمامية وجدت ردهة استقبال شاسعة، واعتذرت لاعتراض طريق شاب يهرع في طريقه لإنجاز أمر عاجل، وقلت له اسم الشخص الذي أبحث عنه، "البروفيسور مارتن"، فأجاب الشاب:

- لم يُرَ هنا في السيراف منذ عام 1788، وهذا هو عام رحيله.

انعقد لساني، فألقى الشاب عليّ نظرة تعاطف، وقال:

- هل تبحث عن رولاند مارتن شخصياً أم أن بديله سيفي بالغرض؟ في هذه الحالة، ستجد البروفيسور هاغستروم في المسرح التشريحي الشمالي.

لم أعرف ما عليّ فعله سوى أن أومئ.

- اصعد طابقاً واحداً ثم انعطف يمينا.

عندما بلغت منتصف المسافة في أثناء صعودي السلالم، زكمت أنفي رائحةً أعرفها تمام المعرفة ولن أنساها أبداً، رائحة الموتى. رأيت باباً موارباً وعبر الفجوة استقبلت بمشهد مروع، على الطاولة تتمدد جثة رجل، مشقوقة من رأسه إلى نهاية جذعه، وقد طوي الجلد للخلف ليكشف عن أحشائه، يُنبّت الصدر مفتوحاً بكلايين قويين، ومن وجهه لم يتبق سوى النصف بعد الكشف عن الجمجمة وعضلات الوجه، وثمة كُرتان بيضاوان كالحليب تحمقان إلى السقف. ولم ألاحظ إلا أخيراً الرجل الواقف جوار النقالة.

سألني وهو يستأنف تنقيبه في صدر الرجل الميت:

- هل تبحث عني؟

- أبحث عن البروفيسور هاغستروم.

لاحظت أن صوتي تهدج قليلاً، ويعود السبب إلى حضور البروفيسور أكثر من وجود الجثة. قدّرت أن عمره يناهز الأربعين، وهو يبدو بصحة ممتازة، لا يرتدي سوى صدرية فوق قميصه، مشمراً عن ساعديه، ويحيط خصره بمئزر جلدي.

- في خدمتك. تفضّل بالاقتراب ما دام هذا المشهد لا يضايقك كثيراً.
وضع مبضعه وراح يغسل يديه في وعاء خزفي.

- كيف يمكنني مساعدتك؟

- اسمي يوهان كِرستوفر بليكس.

أنزلت قلنسوتي عن رأسي سريعاً قبل أن أتابع:

- كنت في كارلسكرونا عام ثمانية وثمانين، متدرباً لأصير جراحاً في البحرية على يد المُعلّم هوفمان.

- إمانويل هوفمان؟

- نعم يا بروفيسور.

- إذن لا عجب أنك لم تتأثر كثيراً بمشهد الجثة الذي جعل كثيراً من الزوار تشحب وجوههم وينحنون خارج النافذة. إذا كنت قد أمضيت سنوات الحرب في كارلسكرونا، فأنت البروفيسور إذن وأنا التلميذ، على الأقل عندما يتعلق الأمر بمشاهد الموت والخراب.

دعاني البروفيسور هاغستروم للقعود، وسألني بتهديب عن تجاربي في كارلسكرونا بينما هو يدق الجرس طالباً إبيريقاً من القهوة، التي جاءت محمولة بعد بضع دقائق بين يدي امرأة ملتحفة بالبياض. تدفقت الكلمات من لساني. لم أحداث أحدًا عن سنوات الحرب الفظيعة، حتى أنت يا أختي العزيزة، إذن حان الوقت لرواية حكايتي.

عاد الأسطول البحري من بحر البلطيق في شتاء 1788، وقد غنم من الروس سفينة في هوغلاند، اسمها فلاديسلاف، سفينة حربية ذات أربعة وسبعين مدفعاً، وما كاد الأسطول يصل إلى مينائه الرئيسي حتى هطلت الثلوج، ونزل الرجال من فلاديسلاف مصابين بمرض ما لم يُعرف من قبل، سرعان ما سقط المصابون فريسة للحمى والارتعاشات، واصفرت جلودهم، وظهرت بقع على

أذرعهم وسيقانهم، وعند البعض توغل المرض إلى رئاتهم وراحوا يسعلون حتى تزرُق شفاههم. ثم اختفت الحمى فجأة كما ظهرت، وعادت بعد نصف أسبوع وقد استعادت عنفوانها. رأيتُ أقوى الرجال ينجون من قرابة عشر دورات كهذه قبل أن يفارقوا الحياة، وقد صاروا عندئذٍ هَرَمين بظهور محدّوبة ونظرات خاوية. كان شتاءً قاسياً، وصار كل لوح خشب سريزاً لأحدهم، وسقطت أعداد متزايدة من المرضى، ليس من البحارة فحسب، بل وأيضاً من مواطني بلدتنا، حتى لم يعد يوجد موطنٌ قدم في مستشفى القوات البحرية. بدأتُ أعمل ساعياً، ولاحقاً عند بداية السنة الجديدة، صرت تلميذاً متدرباً على يد المعلم هوفمان حتى وفاته، وبعدها مكثت في المستشفى ثلاث سنوات أخرى.

كان المعلم يأمل أن ينحسر الوباء في الربيع، لكنه اشتد ضراوة، فمات الآلاف، بينما يستمر تدفق المجندين الجدد من أجزاء أخرى من البلاد ليحلوا محلهم، ثم يمرضون بدورهم.

قاطعني البروفيسور:

- هل نوبات الحمى المتكررة هي التي أودت بحياة هوفمان؟ لا أعرفه إلا من سُمعته.
- لا، كانت قذيفة روسية من عيار ستة وثلاثين رطلاً هي التي تسببت في هلاك معلّمي.

وفي يونيو، أبحر الأسطول شرقاً ليوصل الحملة على الروس ورافقهم هوفمان. وسُمح لي بالذهاب معهم نظراً إلى نقص المسعفين الميدانيين، كنت على متن السفينة كاريج، التي بناها تشابمان في كارلسكرونا وتحمل أربعة وستين مدفعاً. التقينا بالروس جنوب أولاند وتبادلنا إطلاق النيران قبل أن يلوذ العدو بالفرار مع الرياح المواتية. كنت قد تسلقت حبال الأشرعة والصواري بما أنني لم أشهد معركة في البحر من قبل قط، ولم أستطع مقاومة الإغراء. ساعدت المعلم على نثر نشارة الخشب على الأرضية كي تمتص الدماء وتقينا من الانزلاق ونحن نعنتي بالمصابين، وعندئذٍ انتهزت فرصة انشغال الجميع. كنت عالياً جداً بحيث أرى الكاريج بكاملها، ورأيت قذيفة المدفع تحلّق فوق الماء، وارتطمت بجانب سطح السفينة، فرأيت جثةً خربةً تطير إلى الجانب الآخر في سحابة من نشارة الخشب المحترقة.

هكذا كانت نهاية هوفمان، وكنت مع طاقم السفينة ممتنين لانتهاؤ المعركة بتلك القذيفة لأنني لا يمكن أن أصبح جراحًا لسفينة بأكملها دون إرشادات المعلم. عاد الأسطول إلى كارلسرونا وبقيتُ هناك حتى نهاية الحرب، غدت الحمى أسوأ من ذي قبل، وأنشئت مدينة خيام من أشعة السفن، كبيرة بما يكفي لخمسة آلاف رجل، وقد حمدنا الله لأن خريف عام تسعة وثمانين كان من البرودة بحيث أمكننا تخزين الجثث بالخارج. وفي ذلك الربيع شهدنا عدد حالات أقل، وبدا أن الأسوأ قد انتهى. بقيتُ هناك للمساعدة إن كانت ثمة حاجة إليها، وعندما دُفنت جثث الشتاء، كنا نتنقل من بيت إلى بيت لناخذ الموتى من أسرّتهم حيث ظلوا ممددين منذ أن أخذهم المرض.

تطلع البروفيسور هاغستروم إليّ بنظرات ثابتة عندما انتهيت من قصتي. - ومن ثمّ جئتُ إلى استوكهولم. هل أنا محق في اعتقادي أنك جئتُ أملاً في مواصلة مهنتك في مجال الطب؟ - لا يمكنني الإنكار. تنهّد هاغستروم.

- إننا نرى الكثيرين من أمثالك يا بليكس، كثيرون جدًّا. في سنوات الحرب كانت الحاجة ماسّة وكل من لديه يدان كان أفضل في الجراحة من عدمه، لكن الوضع لم يعد هكذا، انظر إلى مستشفانا هنا! لقد انتزعنا الطب والجراحة من أيدي الحرفيين وجعلنا منه علمًا.

نهض البروفيسور، وقد اشتعل حماسه بخطبته، واقترب من الجثة.

- بليكس، أيمنك إخباري باسم هذه العظّمة؟

اضطرتت إلى الاعتراف بأنني لا أعرف.

- أين هو أفضل مكان لشق الشريان الذي يمر من هنا؟

ومرة أخرى، لم يسعني سوى هز رأسي.

- هل أخبرك إمانويل هوفمان عما يعتقدده فيما يتعلق بمنشأ الحمى؟

تهلّلت أسارييري إثر سماع هذا السؤال، إذ صار بمقدوري أخيرًا قول شيء.

- أخبرني المعلم أن سببها هو الأبخرة المنبعثة من البرك الراكدة والأراضي السبخة.

ابتسم هاغستروم لكن عينيه ظلَّتا حزينتين.

- هكذا كان فهمه، اليوم لدينا تفسير آخر، أخشى أن معارف مُعلِّمك قد عفا عليها الزمن، كان متمكِّناً من استخدام سكينه لبتز الأطراف عن أجساد أصحابها التعساء، وبالكاد يعرف شيئاً غير هذا.

نظر هاغستروم فيما حوله، ومن أحد الأرفف حمل كتاباً مُجلِّداً سميّاً وناوله لي، وسألني:

- أتفهم شيئاً من هذا؟

بدت الحروف مألوفة، لكنها لم تشكِّل أي كلمات يمكنني استقاء معنى منها. قلت لهاغستروم هذا، فتهدَّلت كتفاه إثر إجابتي.

- أخشى أنه ليس باليد حيلة في الوقت الراهن يا بليكس.

لكن عندئذٍ، وحاجباه ما يزالان معقودين بتقطيعة، بدا أنه تذكَّر شيئاً للتو، فلانت قسما وجهه.

- انتظر هنا قليلاً.

طلب مني الانتظار ودار على عقبه تاركاً إياي مع الرجل الميت.

في تلك اللحظة اختلستُ شيئاً يا أختاه، أعترف بهذا، وقد ندمت على فعلتي في نفس لحظتها، لكن حالما مددت يدي إلى حقيبة ظهري لأعيد الشيء المسروق، سمعت صوت هاغستروم في الدهليز وفات الأوان، دخل عليّ حاملاً كُتَيْباً مكتوباً بلغة أمكنني فهمها.

- ثمة رجال أسوأ منك أصبحوا جرّاحين أكفء دون أن يكون بمقدورهم القراءة بالفرنسية.

ووضع الكُتَيْب في يدي، وتابع:

- هذا المُلخص شيء كتبته بمبادرة مني لمساعدة طلابي على الدراسة، إذا اجتهدتَ ربما تتأهل لبداية دراستك العام القادم، بيد أنني لا أستطيع أن أعدك بأي شيء.

دقق هاغستروم النظر إليّ مرة أخرى بنظرة تركيز على مُحيّاه الذكي الصبوح.

- سترتك ملطخة بالدماء يا بليكس، أهي دماؤك؟

هززت رأسي، فاقترب هاغستروم خطوة ومال نحوِي.

- عيناك بهما صُفرة حيث ينبغي أن تكونا بيضاوين، كيف تعيش حياتك يا بليكس؟ هل تعاقِر المشروبات الكحولية القوية؟

أحسست بنفسِي أحمرُّ جِلاً، فعرف هاغستروم إجابة سؤاله.

- تعال إلى هنا يا بليكس، وانظر إلى هذا.

رفع رقعة من الجلد على جثة الرجل الميت، وكشف عن ليف نتن تغطيه أورام متكتلة.

- هذا هو كبد الرجل، وهو ما أنهى حياته، إذا كان متعلِّلاً وشرب باعتدال، لكان حياً بيننا. أعضاء الجسد التي بهذه الحالة من الدمار مخفية في كثير جداً من البطون في هذه المدينة، وهي تجرُّ الرجال إلى قبورهم كالمغناطيس. فليكن هذا درساً لك في فضيلة الاعتدال.

لا بد أن الارتياح كان جلياً على وجهي، فارتسم التعاطف على عيني هاغستروم، ثم أخرج من جيب صدريته محفظة مطرزة وراح يحسب العملات واحدة تلو الأخرى على الطاولة، ثم بدا أنه غير رأيه وأفرغ جميع محتويات المحفظة.

- خذ هذه النقود يا بليكس، واحرص على الاعتناء بنفسك حتى أتشرَّف برؤيتك في قاعة محاضراتي في الربيع القادم.

بُهِتُ. لا بد أن المبلغ كان عشرين دالراً تقريباً، جمعت العملات ووضعتها في جيوبي، وأنا أنحني مراراً وتكراراً، وأحرقَت الدموع خديَّ من الامتنان، جزئياً، لكن سببها الأساسي هو الخزي من سرقتي هذا الرجل الفاضل، هذا السيد العطوف الذي جازيت معرفته بالجدود. حتى إنني رأيت عينيه تلتمعان تأثراً بانفعالاتي، ومد لي يده فأخذتها وقبَّلتها.

وعندما كدت أجتاز الباب، طرح عليَّ سؤالاً أخيراً بصوت متهدِّج:

- ثمة أمر أخير يا يوهان كريستوفر، كم تبلغ من العمر؟

أجبتُه بالصوت المتهدِّج نفسه:

- سأبلغ السابعة عشرة بحلول الشتاء القادم، بمشيئة الرب.

الفصل العشرون

أختي العزيزة... هأنذا أعيش أيامًا وليالي رائعة تفيض بهجة! ودَّعتُ لياليَّ تحت الأشجار في "المروج" وبين القبور أسفل برج كاتارينا، وبقدْرٍ يسير من عملات هاغستروم، استأجرت غرفة في حي بومونا عند "زقاق التريزي". حبس المنظر أنفاسي، من نوافذ الغرفة العلوية، رأيت الأسقف النحاسية والقرميديّة تمتد في جميع الاتجاهات على مد البصر، وتتألق كالذهب تحت الشمس. إنني الآن في فراشي، في أعلى قمة بهذه المدينة الذهبية، وهنا تظل الشمس ساطعة بعدما تخيم الظلال على الأزقة بوقت طويل، وفي الليل تومض لي مصابيح الشوارع من هواتها السحيقة، وعندما أرنو ببصري إلى السماء تبدو النجوم أقرب بكثير من ذي قبل. وأفردتُ مكانًا لسيلفان بالقرب من المستوقد الحجري، فتحنا قنينة شراب، وناقشنا ظروفنا الجديدة وكيفية استغلالها الاستغلال الأمثل حتى أصبح مستعدًا لبدء دراستي في السيراف. كنا نتحدث بصخب ونقاطع بعضنا بعضًا ونضحك ملء قلوبنا ونحن نربث على ظهرينا ونتبادل الأنخاب.

سرعان ما توصلنا إلى تفاهم بشأن الكيفية الأمثل لإدارة ثروتنا، ما لديّ من عشرين دالرًا ودالرات ريكارد الأربعة التي تمكن من اقتراضها من كليمنز مونتيل، وهذا المبلغ لم يكن كافيًا لإعاشتنا للأبد، يجب أن يتضاعف كل دالر. - يتعيّن علينا أولًا - من أجل جني المزيد - أن نعطي الانطباع بأننا لسنا ما نحن عليه في الواقع: ابنا عائلتين ثريتين، يقترّر علينا آباؤنا لكننا سوف نرث ثروة، بعبارة أخرى، شابّان كل قرص يُمنح لهما يعدّ استثمارًا مستقبليًا حكيماً.

مع هذه الكلمات، أخذ سيلفان بذراعي واتجهنا إلى محل ملابس، وكنا قد أخذنا حفنة من النقود وخبأنا الباقي بعناية في حشية فراشي. كان صاحب المحل فظاً في بادئ الأمر، لكن سلوكه تغير إلى التزلّف والمداهنة عندما أسمعناه رنين العملات المعدنية القابعة في محفظتنا، بحثنا بحثاً مستفيضاً في الخزانات والأدراج عن ملابس من أفخم نوع، مستصحبين خبرتنا في الحرص على سعر معقول، وقد كان تجريب هذه الملابس متعةً لن أنساها عما قريب، كنا نتحرك كأننا شبابان من طبقة النبلاء، نصفق بأيدينا ونتظاهر بإطراء بعضنا بعضاً بالفرنسية ونحن نتبختر أمام المرأة.

- رائع يا مشيو بليكس!

- لستُ بأروع منك يا سيلفان صاحب السمو.

اخترنا صدريات مزخرفة بالقرمزي والبنفسجي، وسترة لكل واحد ذات كفة كُم نهبية، وقمصاناً جديدة وسراويل تبلغ الركبتين من الجلد الناعم، وجوارب طويلة، وأحذية جلدية ذات إبريمات مبهرجة، وعثر سيلفان على باروكة شعر خيل بحالة أفضل بكثير من باروخته الحمراء، وأنا فضّلت ترك شعري الأشقر كما هو منتهياً بذيل طويل، لكنه صار الآن ممشطاً بعناية بمشط مصنوع من قرون الأبقار ومعقود بشريط حريري عند مؤخرة عنقي. كدنا ألا نصدق أعيننا ونحن واقفان إزاء المرأة، وتعانقنا متأثرين باللحظة، ثم راح سيلفان يساوم مدة طويلة في السعر الفاحش الذي طوّلنا به، وبعدها حسبنا المبلغ على طاولته وانصرفنا.

وداعاً ليس للأسمال القذرة والنوم تحت النجوم فحسب، بل وأيضاً للأماكن التي كنا نتردد عليها من قبل، حيث السكارى وحتالة القوم من الرعاع الذين يتقيؤون على بعضهم، ويُعدون بعضهم بالمرض الفرنسي بتبادل العاهرات، ويلجؤون إلى قبضاتهم إثر أدنى استفزاز. بدلاً من هذه الأماكن غدونا نرتاد "البورصة"، وأشهر سراديب المدينة، والحفلات الراقصة التي تقام في القصور. من الغريب أن الجميع يرغب في مساعدة الذين لا يحتاجون إلى أي مساعدة، وفي الوقت نفسه يبذلون كل ما بوسعهم ليتجنبوا المحتاجين المائلين أمامهم. سرعان ما أصبحنا أصدقاء حميمين لأبناء الكونتات والبرجوازيين والأمراء وأعضاء النقابات، مخاطبين إياهم كأنهم إخوتنا، وكنا

نجاهد كي نكون دومًا مؤنسين وفكّهين ومسلّين. أتتذكرين يا أختي ما روّيته لك عن الحفل الأوّل في ”تل القلعة“؟ حيث ارتضينا لأنفسنا بسعادة أن يُسكب علينا النبيذ من الواقفين في الشرفات بالأعلى؟ تلك الشرفات صار بمقدورنا الوصول إليها، وصرنا -أسوة بمعارفنا الجدد- نتعجب من مدى السهولة التي يُذلّ بها الأوباش بالأسفل أنفسهم في سبيل تذوق النبيذ.

تعاهدنا على ألا ندفع مليمًا مقابل ما نأكله أو نشربه، أيًا كان، وصرنا نلتمس صُحبة الذين يجدون الشرف في إظهار سخائهم علينا.

أمضينا العديد من ليالي الصيف على هذا النحو، وعندما جعلنا أنفسنا مميزين في كل تلك التجمعات ويُسأل عنا متى ما لوحظ غيابنا، بدأنا نستدين. كنا غالبًا ما نكتب مستندات تعهدية للديون، ونوقعها بتوقيعنا اللذين تدرّبنا عليهما عند الطاولة نفسها وبنفس الريشة المهترئة التي أكتب بها الآن. لم يبد أي من أصدقائنا الجدد أدنى تردد، فالمال لا قيمة له عندهم، وصارت صداقتنا وصحبتنا تجد المزيد من الحفاوة والتقدير. كنا في الأمسيات نفرغ جيوبنا على الفراش بغرفتنا في ”زقاق التريزي“ ونرى دالراتنا الأربعة وعشرين تصبح ثلاثين، ثم أربعين، ثم تتضاعف. كنا نحتفظ بسجل لديوننا، وننحّي جانبًا حصة من أرباح الأمسية كي نسدّد منها الديون القديمة، وفي خلال وقت وجيز، تزايدت ثقة الناس بنا، وإذا أبدى أي أحد شيئًا من التردد، نلوح ببساطة لأحد الذين تعاملنا معهم سابقًا ليشهد لنا. وعلى هذا المنوال تضاعفت العملات المعدنية في حشية الفراش: الخمسون تصبح سبعين، والسبعون تُمسي تسعين.

قال سيلفان ذات يوم عقب عودته من نزهة تحت الشمس جوار رصيف الميناء:

- عزيزي كرسّوفر بليكس، أخي الحبيب وصديقي الصدوق، قل لي، هل سمعت بـ ”أومبريه“ من قبل؟

- بالطبع، إنها لعبة ورق، أليس كذلك؟ مثل ”فارو“؟

- نعم ولا، "فارو" لعبةُ الفائز فيها من اختيار الحظ، وفي أومبريه -أو "إل أومبريه" حسب التسمية الدقيقة- المهارة هي الفيصل و"سيدة الحظ" لا شأن لها.

- لِمَ هذا الاهتمام بالألعاب يا ريكارد؟

سألته وأنا أظطجع على فراشي، متنعمًا بالدفء مثل قط حظيرة. وعندئذٍ طفق يخبرني عن أن الكثير من السادة مولعون بلعبة "أومبريه"، وأن مبالغ ضخمة من الأموال تنتقل من جيب لآخر كل أمسية في صالونات لا تستطيع سلطات الشرطة بلوغها. اعترضتُ في الحال على فكرة المخاطرة بنقودنا، إذ بدا احتمال الخسارة أكبر بكثير من أي فرصة في الفوز.

احتجَّ سيلفان:

- مهلاً يا كرسْتوفر، إنك تتعجل في استنتاجاتك! ألعاب الورق ليست كلها سيان. قابلت بلوك في "الساحة العاصفة" تتذكره من الأوبرا في الأسبوع الماضي، صحيح؟ أخبرني عن فعالية بعينها يستضيفها صديقه كارستِن فيكاريه، وفيكاريه هذا يدعو ضيوفه من شتى البقاع بناءً على ثلاثة معايير: الثراء، وضعف تحمُّل الكحول، والسذاجة. يقعد خمسة لاعبين عند الطاولة، لكن أربعة منهم متأمرون على الضيف، الذي -بالتالي- لن يجد بُدًا من خسارة جميع أمواله، ويُسمَّى هذا الأحمق المسكين بـ "الأرنب"، بحسبان أن البقية هم كلاب الصيد، يتواصلون دون كلمات بالإيماءات والإشارات، ثم يقسم المتواطئون الغنيمة مع المضيف، الذي يحصل على حصة مضاعفة.

- طيب، وما علاقتنا بهذا؟

سألته، لكن لا يمكنني إنكار أن اهتمامي بدأ يتعاضم.

- المكان في الطاولة مجاني يا كرسْتوفر، وقد عُرض عليّ مقعد. درجة المخاطرة ضئيلة، وقد أكَّد بلوك لي أن فهمي للعبة ليس بالضرورة أن يتجاوز الأساسيات. إذا كان "الأرنب" سمينًا بما يكفي، فسوف يمكننا على الأرجح مضاعفة ثروتنا في ليلة واحدة يا كرسْتوفر. مائتا دالر!

أحسست كما لو أن بطني امتلأ فجأة بسرب من النحل، واعتدلت جالسًا بسرعة لدرجة أنني شعرت بدوار، ثم تناولت قنينة نبيذ وكأسين، وملأتهما، رفعنا الأنخاب ولامسنا كأسينا. هتفت:

- في صحة سيلفان وبليكس! شابان ووسيمان وعمما قريب ثريان كما لم يسبق لهما الثراء!

- في صحة سيلفان وبليكس! وفي صحة مائتين أو أكثر!

خرجنا لشراء مجموعة أوراق لعب في اليوم نفسه ولعبنا جولة بعد جولة من لعبة أومبريه، وفقًا للقواعد التي شرحها كارل غوستاف بلوك سريعًا لريكارد، حتى حان وقت التألق بأزهي ملابسنا والسير إلى "الساحة القديمة" وترفيه الأمسية. لم تبدُ اللعبة صعبة، من بين أربعين ورقة، تُمنح ثماني ورقات لكل لاعب، وبالترتيب، يعرض أحدهم رهانًا بناءً على توقع عدد الجولات التي يتوقع ربحها من الجولات الثماني، والأجرأ يختار أي مجموعة ورق ستكون الرابعة.

- كما يحدث في الحياة نفسها.

قال سيلفان وأفرغ كأسه.

الفصل الحادي والعشرون

في ذلك المساء، وقد كان يوم ثلاثاء، تهيأنا للخروج بعدما وضع كل واحد منا المساحيق على شعره وارتنى ربطة عنق جديدة، تفحصنا بعضنا بتدقيق بالغ ومشطنا خصلات الشعر الشاردة ونفصنا قشرة الشعر عن ياقتي السترتين، ثم أفرغنا حشية الفراش من كنزها. قرّر أن يجتمع اللاعبون عند السابعة في غرفة حجزها كارستن فيكاريه خلف تيرا نوبا عند "الممر المتشعب"، وقد كان المكان حانة عادية ذات يوم، والآن لا يُفتح إلا أمام البحارة وقلة من الضيوف المدعويين. رن جرس برج كنيسة نيكولاي معلناً السابعة إلا ربعا ونحن نخرج إلى "زقاق التريزي" ذي الأرض المرصوفة بالحجر، والحر الخانق والصّهد المتصاعد، وكنا نحمل قلوبنا في أيدينا خوفاً على ما يحمله سيلفان، فأى هجوم من الظلال سيكفل للمجرم ثروة حياته.

لكن قلقنا لم يكن مبرراً، سرنا متجاوزين "ساحة الخردواتية" نحو القصر دون أي عقبة. وعند تيرا نوبا رحّب بلوك بنا وعرفنا على فيكاريه، ولم يسع بلوك سوى أن يغمز لسيلفان ويميل رأسه مشيراً إلى "الأرنب"، الذي بدا ألمانياً، يرتدي زياً باهظاً، ويضع سلسلة ذهبية على صدريته. قدّم لنا النبيذ حيث جُهّزت الطاوات، وبعدها تبادلنا الأنخاب وشربنا، أرشدتنا امرأة تثني ركبتها احتراماً إلى الغرفة، وما إن هممت باجتياز عتبة الباب، أحسست بيد على صدرتي، وعندما رفعت بصري فوجئت بأنه كارل غوستاف بلوك، وهو يهز رأسه، وهمس في أذني:

- اللاعبون فقط، من فضلك، لا نريد إخافة فريستنا بحضور شخص آخر
قد يقرأ أوراقه من فوق كتفه.

التقت نظراتي بنظرات ريكارد، الذي دخل الغرفة وكان يهم بالقعود على كرسيه المخصص له.

- لا تقلق يا كْرِستوفر، انتظرني في حانة "الملاذ"، سأتي إليك حالما تنتهي اللعبة.

أعطاني بضعة شلنات، ولم يسعني فعل شيء سوى هز كتفي، وتمني حظ سعيد للاعبين، والاستدارة على عقبي.

وفي حانة "الملاذ"، على الجانب الآخر من مبنى البنك، كانت الاحتفالات على أشدها، ثمة رجل لحيم ذو أنف أحمر داكن يلوّح بقوس أحمر على التشيلو، يرافقه أصلح تتقافز أصابعه على مزار طويل، وتتناغم الآلتان معاً على نحو جميل. قعدتُ إلى طاولة ووجدت أنني لست وحيداً، وكانت الموسيقى أكثر من مُرضية. دفعت اثنا عشر شلناً وطلبت جعة دازينغر، وأوصيت الساقية بمراقبة إبريقي وإعادة ملئه حالما ترى قعره.

كان مزاجي غريباً، فعندما أشرب عادةً، تفيض بهجتي وأدوخ قليلاً كما يحدث بعد رقصة دوارة، لكن هذه المرة كانت مختلفة، تذكرت الأورام التي أراني البروفيسور هاغستروم إيهاها في بطن الرجل الميت، وجُلت بناظريّ فيمن حولي من إخوة وأخوات الشراب، ولحظتها لم يعودوا جميلين أو طريفيين، يبتمون فيكشفون عن أسنانهم البُنّية، أعينهم حولاء بالجشع والفسوق، وفي المرآة التي خلف شمعدان مثبت على الجدار، رأيت مظهري أنا نفسي، ما زلت شاباً، لم يكتمل نموي بعد، ذو بشرة بيضاء وأطراف جميلة، لم أصبح منهم بعد، لكن في تلك اللحظة داهمني خاطر أنني سوف أنضم إلى زمرتهم على الأرجح، ما من تعويذة تُلقى علي لتحميني من تفسُخ الجسد، سوف يتورم أنفي أيضاً ليغدو كعنقود عنب، وسوف ينتأ بطني وقد انطوى على ورمٍ قاتل، يتغذى على المشروبات الكحولية القوية.

أقسمت عندئذٍ أن هذا المصير لن يكون مصيري، سوف آخذ نصيبي من المائتي دالر وأستخدمها في شيء آخر، سوف تكون النقود كافية لإعادة ما منحه لي هاغستروم، وكافية لسقف متواضع فوق رأسي حتى الربيع وبعده، وكافية لمعلم خاص يدرسنني الفرنسية، التي ستتيح لي الغوص في طلاس

الكتب الطبية، وكافية لإعانة زملائي الطلاب بالعشاء والمشروبات ونحن نسعى جاهدين معاً لإتقان التركة التي خلفها العلماء لينيه، وشيله، وأكريل. سوف أكرس حياتي لمساعدة جميع طبقات المجتمع، والفقراء، والمنبوذين، دون المطالبة بتعويض مقابل خدماتي. وعندما تصل الحرب إلى شواطئنا، سوف أكافح مع إخوتي الأوبئة والموت نفسه، لن يضطر اليتامى إلى حفر القبور في الأرض المتجمدة وملئها ببني جنسهم، وعندما أكبر سوف أتخذ زوجة وأجلب أطفالاً إلى العالم، وسوف أكون أباً صالحاً، ليس جلفاً لا مبالياً، ليس سكيّراً متوعداً، لن أضرب أبداً، ولن أجلد أبداً، وسوف يترعع أطفالى وهم لا يعوزهم شيء.

انتشلتُ من أحلام يقظتي عندما سقطت مجموعة من الراقصين على طاولتي، لا بد أنني لبثت قاعداً في مكاني مدةً أطول مما ظننت، وقد غادر معظم الزبائن. سألت عن الوقت رجلاً ذا شارة شرطة معلقة من سلسلة ساعته، فأجاب بلسان ثقيل أننا في منتصف الليل. لم يظهر سيلفان بعد، ربما عاد إلى "زقاق التريزي"، ظناً منه أنني مللت وذهبت إلى مسكننا، لكن لم أجد ريكارد سيلفان بالغرفة في "زقاق التريزي"، فتحت النافذة على مصراعها أملاً في تنسّم نسمة، وفوق الخليج كان القمر مضيئاً بجلالٍ مهيب وقد انتثرت حوله النجوم الدقيقة، والمشهد بأكمله منعكس بروعة على المياه الساكنة. دسست نفسي في الفراش، محققاً إلى هذا المشهد المذهل، حتى استنزفت أي مجهود لإبقاء عيني مفتوحتين.

استيقظت مبلاً بالعرق وظمآن كأني بحار تحطمت سفينته، ودون وسيلة لمعرفة الوقت، لكن القمر قطع شوطاً طويلاً من رحلته. أرهفت سمعي في الظلام محاولاً التقاط أنفاس ريكارد، وتحسست الأرضية بقدمي، لكنني كنت وحدي. نهضت ووجدت سطل الماء في السلالم، وأوقدت عقب شمعة كي لا أنكبّ على وجهي وأنا أهبط إلى الطابق الأسفل، وعندئذٍ تناهت إلى مسامعي أصوات لم أقدر على الجزم بما إذا كانت أصوات إنسان أم حيوان، وبعدما بلغت أسفل السلالم، رأيت ظهر ريكارد سيلفان المرتجف، كان ينتحب

بمرارة ووجهه بين يديه، وعندما التفت رأيتُ دموعه قد رسمت خطوطاً في المساحيق، صار شعر الباروكة أشعث، والملابس الجميلة عُفرت بالتراب. حمله على الكلام تطلّب مني وقتاً طويلاً، ولم أنجح إلا بعدما وضعتُ الشمعة على الأرضية، وأحطته بذراعيّ ورحت أهدده حتى كف عن الارتجاف وخفت نسيجه. همس:

- أنا يا كْرِستوفر... أنا كنت "الأرنب".

لقد احتالوا علينا يا أختاه... كارستن فيكاريه، وكارل بلوك، ورفاقهم، والألماني، الذي كان من استوكهولم كأبي واحد منا، لقد نصبوا علينا لأنهم مثلنا تماماً. في خضم كل المكر والخداع الذي كنا نمارسه، عرّضنا أنفسنا للخطر، وظننا أننا الوحيدان اللذان يمكنهما جني الذهب بالاحتيال. لاعبو الورق لم يكونوا من أبناء البرجوازيين الأثرياء كما جعلونا نظن، إنما كانوا مثلنا، مولودون في الحضيض، ووجدونا -أنا وسيلفان والمائتي دالر- لقمة سائغة. دفعوا سيلفان للمقامرة بأموالنا بوصفها جزءاً من الخدعة، لكن عندما انتهى اللعب، كانت أمواله هي التي اقتسموها وهم يتبادلون الضحكات الساخرة، وعندما احتجّ، ضربوه وألقوه في الشارع.

قال سيلفان وهو يستند بجبينه إلى كتفي:

- ضِعنا هذه المرة يا كْرِستوفر. عندما تحين المواعيد التي كتبناها في الإشعارات التعهّدية، سوف يزجون بنا في سجن المدينين للأبد، ولن نعرف الحرية حتى نغدو عجوزين، سنرغم على العمل في الإصلاحية، وسنمضي بقية حياتنا مقيدين بالأغلال إلى مقاعد المصنع وحول أعناقنا كدمات ناجمة عن حزام رئيس العمال.

لذت بالصمت، وفي أعماقي أصرخ بكل كياني، وعندما انطفأ عقب الشمعة، أشعلت مخيلتي ضوءها في الظلام، ورأيت -كما رأيت في حلم يقظتي في "الملاذ"- الضباب يكتنف أرض ميعادي المستقبلية.

الفصل الثاني والعشرون

بقينا على السلام حتى الفجر، ومع بزوغه تبددت سحابة القنوط التي سربلتنا وهرعنا إلى غرفتنا، جمعنا بسرعة تلك الأوراق التي كتبنا فيها ديوننا ووجدنا توارихها تنذر بالسوء، فالكثير من الإشعارات التعهدية التي تحمل توقعاتنا قد اقترب موعد سدادها، وإذا لم نسدها جزئيًا على الأقل، فسيتفشى الغضب بين دائنينا، وسيبدؤون الحديث فيما بينهم ويخلصون إلى أننا محتالان جمعًا أخيرًا ما يكفي ليهربا، وسيذهب واحد أو أكثر إلى المحاكم، ويقدمون الإشعارات ويطلبون عون السلطات في رد الدين، ستتراكم القضايا، وسيُعرف المبلغ الإجمالي ويُبحث عنا بالباح متزايد.

همس سيلفان وعيناه تترقرقان بالدموع:

- يجب أن نغادر يا كْرِستوفر، سريعًا، قبل أن يُعرف مكاننا.

- لكن أين عسانا أن نذهب؟

- علينا أن نفترق ونذهب في اتجاهات مختلفة، الحراس المنتشرون في الشوارع ورجال الشرطة سيبحثون عنا ويتوقعون أننا نرتدي ملابسنا الأنيقة، وإذا افترقنا ستزيد حظوظنا في عدم التعرف علينا.

- وماذا بعد؟ لا يمكننا البقاء بعيدًا للأبد.

- إننا مضطران إلى مغادرة المدينة يا كْرِستوفر، تفهم هذا، صحيح؟

فكرت بقلب مثقل بكل ما ضحيت به كي آتي إلى هنا من كارلسكرونا، بالطرق الوعرة التي أبلت نعلَي حذائي، وبالسفر على متن عربات دفعت ثمنه بتقديم خدمات كنت أفضل ألا أنخرط فيها. ربما يكون سيلفان -الذي عاش

كل أيامه هنا وتسنن له الحياة في المدينة كهبة من القدر- مستعداً لمغادرة استوكهولم، لكن بالنسبة إلي، مثل هذا الهروب يعني التخلي عن حلم ظللت أناضل من أجله طوال حياتي. لم ير ريكارد فقر المناطق الريفية وضيق أفق قاطنيها البائسين. قلت له هذا لكنه لم يرغب في سماع شيء، وقال:

- سوف أغادر عن طريق "بوابة جبايات اسكونز"، وسأواصل طريقي إلى فردريكشالد، وبمشيئة الرب سوف أبلغها قبل نهاية الصيف.

حزمتنا متاعنا القليل، أنا في حقيبة الظهر نفسها التي وصلت بها، وسيلفان في صُرة ملفقة من قميص، وقبل صياح الديك وارتفاع الشمس بكاملها، كنا نقف في الزقاق، كلانا عاجز عن وصف مشاعره بالكلمات، وتعانقنا مرة أخيرة، بأعين دامعة، ثم ذهب كل منا في طريقه، سيلفان إلى الشمال، ليحاول الحصول على بضعة شلنات من قريبه ليستعين بها في رحلته، واتجهت أنا نحو البحر لأقابل تاجر الملابس في "زقاق فيرك". لم يظهر قبل ساعة متأخرة من الصباح، وتظاهر بأنه لم يتعرف عليّ أو على الملابس التي أرتديها، وبدا لي -كعهدي بمعظم التجار- كأن لديه حاسة سادسة ترصد يأس الزبون، إذ سرعان ما أدرك أنني لست في حالة تمكّني من التفاوض. استبدلت بالملابس الأنيقة التي اشتريتها ملابس أكثر تواضعاً: سترة خشنة دون أكمام تليق بعامل مزرعة، وسترة صوفية مرقعة عند المرفقين، وبنطال وحذاء صنّع ليديوم مدى الحياة، وقبعة بسيطة. تظاهر الرجل بالدهشة عندما سألته عن المبلغ الذي سيدفعه مقابل الفرق بين الملابس.

- أتريد نقوداً مقابل هذه الأسمال الملطخة؟ لا بد أنك تمزح أيها الشاب! وفي نهاية المطاف دفع لي حفنة شلنات لا لشيء سوى التخلص مني. جذبت القبعة فوق أذنيّ لأخفي شعري، ثم سرت إلى رصيف الميناء، ونظرت فيما حولي.

أين عساي قد أذهب الآن؟ لم يعد بإمكانني التجول بوجه مكشوف في "مدينة ما بين الجسور"، إذا صادفني أي أحد في زقاق ضيق، فستنتهي حكايتي. حتى إنني أمضيت أوقاتاً طويلة جداً هائماً في أنحاء "المروج". بدت "الجزيرة الجنوبية" هي خيارى المتاح الوحيد، وبما فيها من حشود لن أكون وحيداً في تعاستي. سرت بمحاذاة خط الميناء المستقيم نحو "القنطرة"،

وتجاوزت عجلات الطواحين الأربع الضخمة التي تروّض التيار المندفَع تحت الشارع ومن ثم إلى الجسرين المتحركين.

على الرغم مما كنت أظنه، حياة المتشرد المعدّم كانت أسوأ في "الجزيرة الجنوبية" مقارنة بالأماكن الأخرى في المدينة، نظرًا إلى الأعداد الكبيرة من المتشردين والمعوزين المنتشرين في كل مكان، فالعاملون في الحانات والسرايب اكتسبوا حاسة ثاقبة في التعرف على الذين لا يقدرّون على الدفع، ويرصدون فورًا الذين يدخلون إلى الحانات الدافئة لينالوا شيئًا من فقات الأطباق وفضلات الكؤوس أو ليحاولوا اختلاس لحظات من الراحة في الأركان. كنت أتعرض للطرْد دون رحمة وأحرّم من الدخول ما لم أظهر عملة معدنية عند المدخل. وهذا يعني أن كل ركن وجحر يمتلئ ليلاً، وينتشر الخدم لمراقبة أكوام القش والحظائر. وصرت أمضي الليالي تحت الأشجار في دانتو أو قرب "بوابة جبايات الشتاء". النقود التي تلقيتها من تاجر الملابس كانت كافية للحصول على بقايا المطابخ والخبز البائت الذي يمكنني ترطيبه بالماء ثم التهامه. لا أحد يمكنه المطالبة بالنقود مقابل مياه الخليج، فكنت أغسل وجهي ويدي في أمواجه، وعندما احتجت إلى مكان بارد لأستجم فيه، هيأت لنفسي مكان نوم بين أفرع أشجار الصفصاف التي تميل نحو الخليج.

ظفروا بي ذات مساء يا أختي العزيزة، عندما خلدت إلى النوم. كما يحدث كثيرًا، رأيت وجهك في حلمي، لكن صورتك استحالت إلى ابتسامة ساخرة على وجه شخص يحدق إليّ من فوق، ثم هوى حذاء ثقيل على كتفي وألصقني عاجزًا بالأرض، ورُفَع فانوس إلى وجهي وانتزعت القبعة عن رأسي.

- حسنًا، حسنًا، أوليس هذا كِرستوفر بليكس؟! مساء الخير، انتهت غفوتك.

حاولت التلويّي والتملّص من تحت الحذاء، لكن بلا جدوى.

- لم أسمع بأي شخص اسمه بليكس، اسمي ديفيد جانسن، ضللت طريقي في أثناء عودتي من لاست شيلينغ واضطجعت هنا في انتظار الصباح.

- آه، هكذا إذن، ما اسم والدك؟

- جان ديفيدسن، إنه نحّاس بارع في أبرشية هيدفيغ إليونورا، ووالدتي إلسا فريديريكا، وُلدتُ في غودمُندسوتر.

ذكرتُ أبعد كنيسة خطرت لي أملاً في أن يؤخِّد بكلامي دون تحقُّق، لكن خاب أملِي.

- طيب، من يدري؟ وأين منزل والديك؟

- وراء "تل المستنقع"، جوار الطواحين.

- إننا متأكدون من أنهما سيسعدان بمعرفة أنك حظيت برفقة في طريقك عبر هذه الأحياء الخطيرة.

أُمسكتُ بإحكام من تحت ذراعِي وأُنهضت على قدمي، دون أي مجال للإفلات والهروب بين الأجمات. كان الذين قبضوا عليّ ثلاثة رجال، الذي تكلم معي ضخم ذو ساقين قصيرتين خشنتين، فمه مليء بالتبغ، وقسمات وجهه يصعب تبيُّنها تحت الأوساخ المتراكمة عليه، سار في المقدمة حاملاً الفانوس، بينما رفيقاه الصامتان يقتادانني بينهما، اللذان لم أستطع رؤيتهما بوضوح، إذ كنت أنال صفة حارقة على قفائي كلما حاولت الالتفات إلى أي اتجاه، وعندما أتعثر يقرصني أحدهما بأصابع كالزردية، وكادت أنفاسه تجعلني أتقيأ عندما فحَّ في أذني:

- امشِ بثبات أيها المُخنَّت التافه، وإلا فسأدق عنقك.

وما كدنا نتجاوز بحيرة لاردر حتى أدركت أن خطتي فشلت، وأنني سأدفع الثمن بتعريض وجهي للكدمات إذا قطعنا كل المسافة إلى "تل المستنقع" قبل أن أرغم على الاعتراف بأنني لا أعرف هناك أحداً، ناهيك بوالدي.

- مهلاً لحظة، لقد كذبتُ، أنا هو الذي تبحثون عنه.

استدار الرجل الذي يحمل الفانوس.

- أنت الأخير من بين دسنة من الصعاليك ممن يقاربونك في السن الذين اضطررنا إلى جرّهم عبر شوارع المدينة طوال الأسبوع الماضي، إذن هذا خبر عظيم.

أتى بإشارة ما، على إثرها انفجر ألم مبرح أمام عيني وارتطم خدي بأرض الشارع المرصوف بالحجر، ومع سقوطي سمعت ضحكة كأنها صهيل حصان، ولمحتُ هراوة ملطخة بالدم قبل أن يتذبذب وعيي ويتلاشى.

استيقظت برائحة أملاح نفاذة تحت أنفي، ووجدتني أقتعد كرسيًا، ثم أفلتتني القبضتان اللتان كانتا تسندانني من كتفيَّ عندما صرت قادرًا على الاحتفاظ بتوازني، كان رأسي ينبض، وألمني الجرح الذي في مؤخرته عندما لمستهُ، تبدت لي الغرفة بعدما اتضحت رؤيتي تدريجيًا، ثمة أقمشة نجود معلقة على الجدران الحجرية، وسجاد جميل مفروش على الأرضية الخشبية، ما من نوافذ، والكرسي في منتصف الغرفة أمام مكتب أنيق ذي أرجل منحوتة، وعلى الجانب الآخر من المكتب ثمة رجل يقتعد كرسيًا وثيرًا ذا ذراعين. بدأت أدرك -بقلق متزايد- أن كرسيَّ لم يوضع على السجادة مباشرة، إنما فوق قطعة قماش ملطخة مبسوطة تحتي. لاحظ الرجل نظراتي وقال:

- إذا كنت تتساءل بشأن الملاءة، فهي لوقاية سجادي التركي من التلخخ بالآفطار بشتى أنواعها، فكثير من الضيوف الذين قعدوا حيث أنت قاعد الآن، يا كرسٲوفر بليكس، عجزوا عن السيطرة على أنفسهم، من لم ينزف أخرج السوائل بطرق أخرى.

ابتسم ابتسامة هازئة عندما أجفلت جزعًا.

- تبدو مرتاعًا يا بليكس، هذا أمر مفهوم، لكن مصيرك الآن يقع على عاتقك جزئيًا، ضع هذا في اعتبارك عندما تجيب عن أسئلتي، وإذا لم تهتم بمصيرك، فمن أجل سجادتي على الأقل.

كان يرتدي ملابس باهظة، والشعر الخشن القصير على وجهه يماثل شعر رأسه المنحسر أعلى جبهته، عيناه ذاتا زرقة عميقة، وذو صوت أجش، خمنت أنه تجاوز الأربعين من عمره.

- اسمي دوليتز، أتعرف من أنا؟

هزرت رأسي. تناول دوليتز قارورة من مكتبه وصب لنفسه مشروبًا في كأس، خمنت من لونه أنه ماء.

- كنت تهذي منذ مدة يا بليكس، ويخيّل لي من لكنتك أنك لست من استوكهولم، من أين أنت؟
- كارلسكرونا.
أوما.

- إذن بيننا قاسم مشترك، وهو أن كلينا بعيدان عن مسقط رأسينا.
شرب من كأس الماء، ولم يسعني -أنا الضمآن- سوى المشاهدة.
- في أيام طفولتي في بولندا، كنت أعمل في مجال المصنوعات الزجاجية يا بليكس.
لفظَ الرجل اسمي كأن له مذاقًا سيئًا.

- كنت أجعل التنانين والأسود والكائنات الأسطورية والراقصات تخرج من الجمرات وأبردّها لتصبح أعمالاً فنية، جئت إلى هنا بحثًا عن ملاذ عندما صارت ديارى دُمية في أيدي الروس، ووجدت أن أمثالي محظور عليهم ممارسة حرفتهم، وقد أصدر الملك بنفسه هذا المرسوم، بلا ريب كي يخلق لنفسه شعبية بين نقابات الحرفيين، وما زلت عاجزًا عن استيعاب كيف لأولئك الأوغاد البائسين الذين يقطعون زجاج النوافذ أن يظنوا أنني أضايقهم في مجالهم. ولحسن الحظ كنت ثريًا عندئذٍ، وفي خضم انشغالي بالتفكير في خياراتي، سمعت طرقة على بابي ذات مساء، فتحت الباب ووجدت شابًا، لا يختلف عنك كثيرًا، فدعوته للدخول، وقدمت له خبزًا ونبيدًا، وأخيرًا أفصح عن غرضه قائلاً: "أريد قرضًا". فوجئتُ وقلت له: "لدي بالفعل بعض النقود التي لا حاجة لي بها، لكن لماذا جئت إلي؟" أجاب: "إنك يهودي، أليس كذلك؟" في لغتكم يا بليكس، ومنذ مئات السنين، اليهودي هو شخص يقرض الأموال مقابل فائدة، لذا فإن حقيقة أنني لم أقترض أو أقرض نقودًا في حياتي قط لم تكن تهم ذلك الشاب كثيرًا، أنا يهودي، فبالتالي يمكن لأي أحد أن يقصدني طالبًا قرضًا، وهذا دون إظهار أي امتنان، إذ يقال إن إقراض النقود جزء من طبيعتنا.

تناول دوليتز في أثناء حديثه غليونًا وعبّاه بالتبغ وأشعله من شمعة.

- لم يكن ضيفي - المتلهّف للاستدانة - حريصًا على سداد القرض الذي منحته إياه بدافع الشفقة، وعندئذٍ أدركت أنني وجدت مهنتي الجديدة. ارتسم ظلٌّ على وجهه.

- لستُ مجرد محاسب بسيط أدير أعمالٍ بحساب معدلات الفائدة يا كريستوفر بليكس، إنني أتاجر في بضائع أخرى، فعندما أصبح دين ذلك الشاب كبيرًا، أدركت أنني أملكه، ويمكنني أن أفعل به ما أشاء ما دام المصير الذي سأختاره له أفضل من قذفه في الزنازين الباردة الرطبة في سجن المدينين. كنت ذات يوم أصنع من الزجاج الأشكال التي أحبها، واليوم أرسم معالم حيواتكم بالطريقة نفسها.

إثر هذه الكلمات نحى غليونه المنطفئ جانبًا، وأخرج من درج آخر ملفًا جلدًا، فتحه أمامه، وبدأ يتلو عليّ محتوياته ببطء، دون أن يشيح بنظراته عني لحظة واحدة.

- هل تميّز ما أقرؤه يا بليكس؟

كانت الإشعارات التعهدية، كل إشعار وقّعه باسمي، وقد بلغ مجموع قيمتها ما يفوق الخمسين دالرًا.

- لقد اشتريتُ ديونك، والآن أملكك أيضًا يا كريستوفر بليكس، جسدًا وروحًا.

استغرقت وقتًا لأعثر على صوتي، وسألته:

- ما الذي ستفعله بي؟

أجابني وهو يُمعن في اللامبالاة.

- ما الذي يمكنك أنت فعله؟ ما هي مقدراتك ومهاراتك؟ تحديد هذه النقطة هو هدف نقاشنا الأول، قيمتك بالنسبة إليّ.

أخبرته بكل شيء. ماذا عساي أن أفعل غير هذا؟ أخبرته عن سنوات كارلسكرون، سردت له كل ما تعلمته وكل ما أعرفه، وكنت أمل أن يكون هذا كافيًا. غمس دوليتز ريشة بيضاء لامعة في دواة وكتب بعض الكلمات التي تستحق التدوين على ما يبدو.

سألني عندما فرغت جعبتي.

- أهذا كل شيء؟ إذن، سوف تكون عند عتبة بابي كل ليلة عندما تعلن الساعة منتصف الليل، وسيستمر هذا الوضع حتى أقرر الطريقة الأمثل للاستفادة منك.

غُمرتُ بارتياح بالغ لم أشعر بمثله قط لفكرة أنني سأتمكن من مغادرة هذه الغرفة المقيتة، ولو مؤقتًا، وتنشق الهواء المنعش، وتبديد الذعر الذي يغص به حلقي، والإحساس بالهواء على وجهي.

- فكرة الهروب مني ستكون أول ما يخطر لك، لذا أريد أن أشدّد على أنني سوف أجدك وأنتي سأ... فلنكتفِ بهذا القدر بما أنك لم تلطّخ الملاءة حتى الآن. يا رأسك! رافق بليكس إلى الخارج من فضلك.

قُبضتُ من مؤخرة عنقي ورُفعت لأقف على قدمي، واضطر الرجل إلى الإمساك بي لأن ساقِي لم تحملاني، وظل ممسكًا بي حتى ترنّحت خارجًا عبر الباب، وعلى الرغم من هذا تمكنت من طرح سؤال أخير ملتفتًا للخلف:

- ماذا حدث لصديقي ريكارد سيلفان؟

لم يغيّر دوليتز تعابير وجهه عندما أجاب:

- وجدناه قبلك بوقت طويل، الكثير من البقع على هذه الملاءة منه هو، ولم يكن نقاشنا مثمرًا على الرغم من جهودي، وقررت في نهاية المطاف أن قيمته أقل من ديونه، ثم أمهلته عشرين يومًا ليسدد لي دينه، وبعدها سأتركه للمحاكم، لتحكم عليه بعقد أو عقدين في الإصلاحية والموت البطيء بالعمل في المصنع.

خارج منزل دوليتز، وبعدها أُلقيت حقيبة ظهري خلفي، جثوت على أطراف الأربعة في التراب وتقيأت في مصرف المياه كل ما بجوفي حتى العصارة الصفراء.

الفصل الثالث والعشرون

أتذكر ذلك اليوم بأسى بالغ يا أختي العزيزة. رفعت رأسي بالخارج في الشارع حيث أفرغت معدتي من محتوياتها، ومسحت فمي، ورأيت أن منزل دوليتز قريب من "الساحة الجنوبية"، وأدركت أن جلاوزته لم يحملوني مسافة بعيدة عن المكان الذي تكالبوا عليّ فيه.

لم أدري ما ينبغي لي فعله عندما تنقضي الليلة الفظيعة ويحل فجر يوم جديد على استوكهولم، لم تكن لدي وسيلة لمعرفة المصير الذي سيختاره دوليتز لي، وجدت نفسي أسير بغير هدى في "شارع البوق" نحو أرباض المدينة، حتى اعترضت طريقي "رابية أنسغار"، كان الشارع مقفراً، ومن حين لآخر أرى قلة من السكارى وفتيات الليل ينسلون ملتصقين بالجدران بعد مغامراتهم الليلية في "حديقة النجار"، ثم قادتني قدماي حول سفح التلة التي أقف أمام منحدراتها التي ترتفع فوق "كهف الدبّاغ"، وشرعت في التسلق كأنني أرغب في الابتعاد عن جميع التجمعات البشرية، حتى بلغت قمة المنحدر، وصارت استوكهولم منبسطة تحت قدمي، وعندما تتبعت خط المدينة فوق جزيرة "الشبح المقدس" إلى الشمال ثم إلى جسر "جزيرة الملك"، أحسست بوخزات تأنيب الضمير عندما رأيت جدران "السيراف"، لم أحتملها وتهاكت قاعدًا على صخرة، وأحطت ركبتيّ بذراعيّ وأسندت جبهتي إليهما.

كان الأسبوع الماضي دافئًا، وبدا لي أن الضغط الجوي الذي ارتفع بالحرارة قد بدأ ينخفض، إذ ظهرت سحب داكنة من ناحية الأرخبيل، وسمعت قصف رعد قادمًا من بعيد، وتردد صداه من جميع الاتجاهات.

الشيء الذي سرقتَه من البروفيسور هاغستروم كان ما يزال في حقيبتِي، فتحتها وأخرجت غنيمتي ورفعتهَا أمامي تحت ضوء الفجر، قارورة صغيرة من زجاج شفاف، بداخلها عذاءة ميتة سابعة في سائل وذيلها يلامس قعر القارورة، كان هوفمان أيضًا يحتفظ بهكذا أشياء ويحرص عليها حرصًا شديدًا، إذ يمنع الكحول تحلل ما بداخل القارورة، نجح معلمي في حراسة قواريره لكن هذه أصبحت بحوزتي الآن. كانت العذاءة من نوع لم تقع عيناى عليه من قبل قط، جسدها سميك، سوداء ولزجة، فمها مفتوح ولسانها متدل، وعلى ظهرها بقع صفراء متشابكة الأشكال، وبدت عيناها السوداوان، المستديرتان كالحصى، كأنهما تتفرَّسانني بخبث من الجانب الآخر من الزجاج وتتحديانني:

”يا لك من وضع جبان يا كريستوفر بليكس! لقد سرقتني عبثًا، لأنك لن تجرؤ على أن تفعل بي أي شيء“.

كسرتُ الشمع الذي يغلق القارورة، وحللت لفات الخيط التي تثبت غطاءها، وفتحتها أخيرًا. كانت رائحتها مألوفة، نتانة الكحول الطبي، لكن ثمة شيئًا آخر فيها، شيء لاذع وحلو في آن واحد، أخرجت بأصابعي العذاءة اللزجة العصية على الإمساك، وارتعدتُ عندما لامست جلدها الميت، الذي كان أملس تمامًا دون أي حراشف، ثم ألقيتها على جانب الجرف، ورفعت القارورة إلى فمي وشربت حتى لم تبق فيها قطرة.

سرى مفعول الكحول في عروقي سريعًا. لستُ حديث عهد بالشراب يا أختاه، بل ولم أشرب من قبل قط مقدار ما شربت في هذه الأشهر منذ أن وطئت قدمي أرض العاصمة، لكن هذه المرة أثار الكحول فيّ تأثيرًا لم أعده من قبل قط، كأنها المرة الأولى، اتسعت عيناى وحملقتا إلى عالم آخر محجوب خلف عالمناء، لم يكن ضوء الصباح هو ما ينعكس على الخليج! رأيت المدينة جائمة في بركة دماء، ومزيد من الدماء تسيل في شوارعها، وأمام عيني استيقظ الموتى. لا يكاد يخلو شبر في المدينة لم تنفذ فيه أحكام الإعدام، أو يُحفر فيه قبر جماعي لدفن ضحايا الطاعون، أو خندق عريض لطمر جثث الجنود المشوهة في أعقاب حرب شعواء، فرأيت أيدي الموتى -بعضها عظام

بيضاء وبعضها نخرها الدود أو مهترئة بتشبعها بالماء بعد غرق أصحابها- تمتد من بين حجارة الرصيف كالحشائش غير المرغوبة، وتتخبط لتتشبث بأقدام الأحياء.

وفي تلك اللحظة اندلعت العاصفة فوقى، تساقطت قطرات مطر ثقيلة على استوكهولم، منهمرةً على الأسقف والخليج والتلال، يصاحبها قصف رعد يصم الآذان، وعلى إثرها شقَّتْ خيوط البرق صفحة سماء المدينة، فرسم الركام الرعدِيُّ خنفساء عملاقة ذات ظهر أحذب، وشق المخلوق طريقه بين المنازل بأرجلٍ من نار زرقاء، كأنه يتلمس طريقه عبر المنازل كما كنتُ أتنقَّل من باب إلى باب في كارلسكرونا وعلى أنفي منديل في ربيع 1790، عندما بدأتُ جثث ضحايا الحمى تذوب في أكواخها، وكنت أتبع الرائحة حتى أبلغ مخادعهم حيث تنتظر الجثامين المنتفخة في أسرَّتْها، لأجد مئات الجرذان التي لم تعد تخشى البشر تُصدر فحيحها دفاعًا عن وليمتها.

رأيت والدوار يكتنفني النساء الحوامل يحتشدن في مقابر استوكهولم، ويلدن جثثًا صغيرة شاحبة، تتلوى من أرحامهن إلى القبور رأسًا، بسرعة بالغة حتى إن حبالهم السُّرية تسحب أمهاتهم معهم إلى تحت الأرض. ومن القصر عند رصيف الميناء ومن المنازل الفخيمة، أقبل عليه القوم بملابس مترفة، وأسنان حادة مستدقة، يضحكون، وطاردوا المتسولين والمعوزين واليتامى ونساء الغزل والخدم، ومزقوهم شر ممزق، وأقاموا وليمة من لحومهم حتى انشقت بطونهم كبثور ضاقت بما فيها من صديد.

لم تكن الشمس عندئذٍ هي التي تُصلي أسقف المدينة، إنما شواظ الجحيم نفسه، رأيت إمانويل هوفمان يخرج مترنحًا من بين ألسنة اللهب، في بطنه ثقب أحدثته قذيفة المدفع، ساحبًا أحشاه خلفه، ورأسه مائل فوق عنق مكسور، يتلمس طريقه بيديه في الهواء متعثراً، «أين ملقطي يا كرسْتوفر؟ أين منشاري؟ تعال هنا لأجلدك حتى يسيل دمك أحمر كي لا تنسى مرة ثانية أبدًا».

استيقظت دائحًا محمومًا في مجرى مائي إثر سماعي صوتي أنا نفسي، والمطر يبلل وجهي، كنت أنادي اسمك بلا انقطاع.

الفصل الرابع والعشرون

سُح لي بالدخول ثالث مرة وقفت فيها أمام باب منزل دوليتز، في الليلتين السابقتين لم يُفتح الباب إلا بمقدار شق ضيق، ظهر من خلاله وجه يهتز يمينًا ويسارًا، وقد حجب الضوء الساطع من خلفه كل ملامحه، ثم أُغلق الباب، لأنصرف وأجد مأوى لي حيثما يمكنني. كنت ما أزال أشعر بآثار الكحول الذي تجرعه، لا بد أن العظاءة قد أفرزت مادةً ما لها القدرة على التأثير في العقل. وعندما رنوت ببصري إلى السماء المرصعة بالنجوم، اكتنفتني إحساس بالدوار كما لو أنني لا أنظر إلى الأعلى، إنما إلى غُورٍ سحيق حيث ترسم النجوم صورًا مؤرقة.

عدت للمرة الثالثة إلى المنزل الكائن بـ ”شارع الباعة المتجولين“، وهذه المرة حدث ما كنت أخشاه، انفتح الباب حتى النهاية، وتنحى الرجل البهيمي جانبًا ولوَّح لي بإشارة الترحيب، وسرعان ما وجدت نفسي في غرفة القبو التي بلا نوافذ التي كنت فيها المرة السابقة، لم أر الكرسي ولا الملاءة، ووجدت في غيابهما شيئًا من العزاء، وكان دوليتز قاعدًا إلى مكتبه كأنه لم يبارح مكانه منذ لقائنا السابق، رفع نظراته من دفتر عندما دخلت الغرفة، وخُيِّل إليّ -عندما سقط ظلُّ على وجهه- أنني لمحت أنيابًا بين شذقيه وقرنين ينتآن من جبهته وكل أصابعه تنتهي بمخلب.. حتى فركتُ عيني لأستعيد الواقع.

- السيد بليكس، كنتُ في انتظارك.

- ماذا سيحدث لي؟

سألته بصوت متهدج ونبضات قلبي تدوي في أذنيّ كالطبول، فألقى دوليتز عليّ نظرة عدم اكتراث.

- بعثك يا بليكس، ديونك الآن بين يدي الذي اشتراك، وكذلك حياتك.

- من اشتراكي؟ ما الذي يريدونه مني؟

- هل يسأل الخباز زبائنه عما يعتزمون فعله برغيفهم؟ أيستعلم الجزار عما سيحدث لنقائه؟ إنها تُستهلك، وتؤدي الغرض منها، المشتري له مطلق الحرية في فعل ما يشاء بالبضاعة التي يشتريها، وينطبق الأمر نفسه عليك يا كرسنوفر بليكس.

أغلق دوليتز دفتره، وتابع:

- لحظاتنا الأخيرة معًا تقترب، وعليّ قول إنك ستذهب غير مأسوف عليك لأن الليالي التي أمضيتها في الحقول جعلت وجودك مستفززًا لأنفي وعينيّ، لا أعرف شيئًا أكثر مما تعرفه عما تخبئه لك الأقدار في قادم الأيام، لكن أسدني ونفسك معروفًا بعدم الظهور أمامي في حال نيلك حريتك ذات يوم.

جاء رجل هابطًا السلالم، ولم أدِرِ عندئذٍ ما إذا كانت عظمة هاغستروم ما تزال تعبث بعقلي، لكن مرأى الرجل جعل شعري ينتصب. لا أعرف أفضل طريقة لوصفه، فهو لا بالطويل ولا بالقصير، ليس عجوزًا ولا شابًا، يرتدي ملابس كانت جميلة ذات يوم لكنها تعاني إهمال صاحبها، طرفا كُمّي المعطف باليان وتتدلى بعض خيوط زركشته، وعدد من أزرار عرق اللؤلؤ التي كانت تزيّن صدريته مفقود، لا يضع باروكة، وشعره ناعم وخفيف. وعلى الرغم من أنه لم يأتِ بأي إشارة القصد منها الوعيد، اجتاحني على الفور رعبٌ أعجز عن سبر غوره.

أحسست بكل ذرة من كياني أنّ ثمة شيئًا ينقصه، راودني شعور قوي بخواء يحيط به، غيابٌ ما، كما لو أنه ليس بشراً، إنما شيء مات منذ زمن سحيق ثم قرر تجاهل حالة موته لأسباب تخصه، أو شيءٌ فضيع اتخذ هيئة كائن بشري لكنه يعجز عن أداء دوره أداءً مثاليًا. وجهه يفتقر لأي تعابير، كأن العضلات والأوتار التي تتحكم بملامحه قُطعت فأسلّمت قسّمات وجهه للشلل. حيًا دوليتز الرجل بإيماءة وأشار إليّ.

عندما أدار الرجل رأسه نحوي، كان كأنه لا يرى، إذ تغاضى عني كما لو أنّ لا شيء يشغل حيّزي سوى الهواء، كأنني قطعة أثاث، أو نقطة على ورق الحائط الذي خلفي، ثم تكلم بصوت رتيب لا يفصح عن أي انفعال، كانت السمّة الوحيدة التي تميّزه هي تأتأة غريبة، كأن أصواتاً بعينها لا تجسر على عبور شفثيه وتعلق في فمه مرغمة إياه على التوقف كي يختار كلمة أخرى تطاوعه.

- المبلغ بكامله أوراق بنكية، يمكنك استبدالها حيثما شئت.

سلم الرجل ظرفاً إلى دوليتز، الذي فضّه وتفقد محتوياته، ولا بد أنها نالت رضاه، لأنه أوماً ثم ناول بدوره الرجل لفافة لا بد أنها تشتمل على الإشعارات التعهدية التي فات أوان سدادها وصارت تمسك بزمام حياتي. أودعها الرجل في جيب صدريته، ودون أن يتفوه بكلمة، استدار وأشار لي بصعود السلالم أمامه، فنزعت قبعتي وتوقفت أمامه.

- اسمي يوهان كريستوفر بليكس...

التفت إليّ وصوبّ نحوي نظرة مباشرة لأول مرة، وقد كانت كافية لإسكاتي، إذ إن عينيه الممتعتين - اللتين بدتا لي أكبر وأوسع بالنسبة إلى الوجه الذي تغوران فيه - كانتا مجردتين من أي شفقة أو تعاطف، وتنطويان على كراهية لم أستشعر لها مثيلاً من قبل قط، كراهية كالتّي قد تحس بها أرض صحراوية قاحلة إزاء المسافرين الأحياء، كراهية مريرة وقاهرة كالأبدية نفسها. أشحت بعيني لكنني أحسست بنظراته تكوي وجهي، واقترب مني خطوة، كانت كافية لأشعر بأنفاسه على جبّتي، وحتى إذا أردت التراجع قليلاً، لما تجاسرت على التحرك قيد أنملة، وبعد مدة طويلة، بدد الصمت:

- أفرغ شخص ما مَبولة غرفته في الزقاق بالخارج، والفوانيس لا تضيء الأرضية الحجرية إضاءة كافية، وفي أثناء سيرِي بدأت أشم رائحة بران، هلاً تلطّفت بتنظيف حذائي؟

انتصب حاجز الصمت بيننا في أثناء ترديدي، وفي مكانٍ ما بالخلفية، كان دوليتز وبلطجيّه يتابعان هذا المشهد، لكن الرجل لم يلقِ لهما بالاً. وعندما وجّدت نظراتي الحائرة طريقها إلى وجهه، استقبلتني العينان الميبتان

نفسهما، وانتظر حتى تهالكت على ركبتيّ وجذبت كم قميصي لأستعمله خرقه تنظيف... هزُّ رأسه.

- لا، ليس هكذا.

لم أستوعب مقصده في بادئ الأمر، وكلما حاولت مد يدي نحو قدميه لأزيل البراز، كان يصحّحني بالطريقة نفسها، والنبرة الأمرة نفسها. وبعدها استنفدت جميع الاحتمالات الأخرى، خفضت وجهي نحو جلد حذائه الملطخ ومددت لساني، وللمرة الأولى لم يبدي اعتراضاً، لم يتحرك أي حركة، لم يحرك قدمه بوصة لمساعدتي في عملي، وتوجّب عليّ الزحف حوله، بينما أكافح حتى لا أتقيأ بسبب المذاق المقزز... كنت أنتحب بصمت، وهو لم يُظهر أي متعة أو نفور إزاء نشيجي أو استماتتي حتى لا أتقيأ، كأنني لم أعد موجوداً. ثم وقفت على ساقين مرتعشتين عندما انتهيت. أوقفني.

- هذا لم يكن الحذاء الذي قصدته.

وبعدها، عندما انتهيت، كرر إشارته نحو الباب دون كلمة، وصعدت السلالم مترنحاً.

بلغنا الزقاق، فرأيت عربة تجرها أربعة خيول، مقفلة وبها فتحات جانبية يمكن إغلاقها بستائر جلدية مثبتة على امتداد الإطار، وكان الحوذي قد ترجّل من مكانه ويطعم الخيول من جراب. أشار لي الرجل الذي صار يمتلكني لأصعد على متن العربة، وقد كان حديثه مقتضباً حتى مع الحوذي.

- فلنعد.

- كل تلك المسافة الآن؟ حسناً سيدي، الرحلة طويلة، ألا ترغب في المكوث بمكانٍ ما للراحة؟

- لا. سنواصل السير، لن نتوقف في أي حانة أو نُزل.

غمغم الحوذي برد لم أتبيّنه، ثم سمعت رنين عملات معدنية تنتقل من يد إلى أخرى قبل أن يقعد الرجل قبالي، وإثر طقطقة لسان وفرقعة من أعنة الخيول، تحركت العربة، فهبطنا التلة نحو الماء، وعبرنا الجسر الذي عند "القنطرة" وتابعنا السير بمحاذاة رصيف الميناء.

تتابعت مشاهد المدينة جواري، وقد عرفتها من حلم يقظتي وأنا على قمة التل فوق "كهف الدباغ" عندما سالت الدماء في مصارف المياه، وساحة الصيد حيث لاحق الأقوياء كل من مر بطريقهم. لمحت ريكارد سيلفان تحت ضوء فانوس، كان يتكئ على جدار في الزقاق الذي يقصده الرجال والصبيان ليبيعوا أنفسهم، لم يرني، وفي عينيه لم ألمح شيئاً مما كان يجعلهما تبرقان، لا شيء من بريق المكر الاحتياالي، لا شيء من بهجته، ولا من حماسه المُعدية، ولا ألمعيته العابثة، انطفاً كل شيء، ولم يبق سوى جُبَّين مدلهمين يطفحان يأساً، كانت نظرة شخص خَبَتْ جذوة الحياة بداخله، على الرغم من أن الجسد يواصل الترنح والتشبث، والرتتان تواصلان الشهيق والزفير... كاد قلبي أن ينفطر.

وصلنا إلى "بوابة الجبايات الشمالية" التي بجوار حانة "قِيم الإسطل" بعد رحلة استغرقت أقل من نصف ساعة، وتوقف الحوذي عند مباني الجمارك هناك، كنا أسفل مدخل بوابة مزخرفة بباب ذي قمة مقوَّسة، كبير بما يكفي لمرور العربات. طَرَق ضابط ثمل على جانب العربة وأمال فانوسه ليلسط الضوء على قمرة جلوسنا، ثم قال بصوت خشن:

- مساء الخير، نساقر في وقت متأخر، ألسنا كذلك؟

كبح تناؤبه ثم تابع:

- هل لي أن أكلفكم عناء إخراج أوراقكم؟

أخرج الرجل ورقة من جيبه، أما أنا، يا أختي العزيزة، فلم يكن معي جواز سفر لأنني لم أبرز جوازاً عندما دخلت المدينة، لجأت لأقوال تجافي الحقيقة لِيُسمَح لي بالدخول، ولم أجرؤ على الاقتراب من بوابات الجبايات مُذْ ذاك. وعندما لم أقدم مستنداتي واكتفيت بالقعود في مكاني، لا بد أن ضابط الجمارك افترض أن الرجل هو الوصي عليّ لذا وجّه إليه السؤال بدلاً من توجيهه إليّ.

- ماذا عن مستندات السيد الصغير؟

تحركت عينا الرجل الهامدتان لأول مرة واخترقتا عيني ضابط الجمارك، ثم تكلم بصوته المجرد من الحياة، كأنه كائن يقلد لغة البشر دون أن يكون قد سمعها كما ينبغي.

- أخبرني باسمك واسم رئيسك المباشر.

- أنا يوهان أولوف كارلسون يا سيدي، واسم رئيسي أندرس فريس.

- كما ترى يا يوهان أولوف، إنني وحدي في هذه العربة، ما من أحد آخر هنا.

بادله الضابط النظرات لوهلة لكنه سرعان ما غَضَّ بصره، وألقى نحوي نظرة خاطفة وأنا قاعد ساكنًا في مكاني، ملطخًا وخائفًا، واستشعرت لديه شفقة حوّلت الدماء في عروقي إلى جليد. ثم ناول الضابط جواز السفر للرجل، دون أن يتفوه بكلمة، واستدار مبتعدًا عنا وخبط جانب العربة في إشارة للحوذي. استغرقت برهة لأدرك ما حَزَّ في نفسي، وهو أنني لم ألمس أي نبرة تظاهر أو ادّعاء في كلام الرجل، واستشعرت أنه يقول الحقيقة من وجهة نظره، أي أنني لست شيئًا بالنسبة إليه. لكن ما يعتزم فعله بي ظل أمرًا فوق مقدرتي على الاستيعاب، اضطرم عقلي بأفكار فظيعة، وخالجني توجُّس لم أحس به من قبل قط. حتى إبان سنوات الحرب في كارلسكرونا، كنت أرى الرعب والموت وأميّزهما بسهولة، هذا أمر كنت أفهمه.

اهتزاز العربة في الليلة الصيفية جعل النعاس يتسلل إليّ، وغفوت على الرغم من أنني كافحت لأقاوم النوم. أجفلت مستيقظًا عندما انحرفت عجلات العربة في مسارها قليلًا، و تعذّر عليّ معرفة المدة التي ظلت خلالها نائمًا، لم تسافري إلى مكان أبعد من تخوم بلدتنا يا أختاه، ولم يحدث أن وجدت نفسك بعيدة عن الجمرات عندما يهبط الليل، لكنني سافرت، وهنا ثمة ظلام من نوع يبتلع كل شيء ويطمس كل ملامح العالم، يبدو الوجود كأنه انمحي، ويمسي المبصر كفيفًا، حتى ضوء النجوم لا يقوى على بلوغ الأرض التي تصير كتلة هلامية، وفي أثناء سيرنا تمكنت بصعوبة من تبيّن هياكل أشجار الراتينجية والصنوبر في صفوف لا تحصى، ومنطقة شاسعة من غابة لا يلوح فيها أي بصيص ضوء.

لم يتحرك الرجل، ظل قاعدًا بوجهه المتخشب، يحدق خارجًا إلى الظلام الذي نسير فيه، دون أن تقع نظراته على شيء.

الفصل الخامس والعشرون

لا بد أننا وأصلنا السير طوال الليل في الدروب الوعرة نفسها، والعلامات التي تبين المسافات تمرُّ تبعاً، إذ وجدت أن جحافل الظلام قد تبددت قليلاً عندما استيقظت، وكدت أقدِّف من مقعدي عندما توقفت العربية. كانت السماء متَّسحةً بالرمادي، وبدا أن حر الصيف قد تلاشى بين ليلة وضحاها، ووجدت الرجل قاعداً منتصباً قبالي، كأن الإرهاق لا يعرف إليه سبيلاً، ودون كلمة فتح باب العربية وترجل، فتبعته.

سأله الحوذي بتعابير تنم عن الاستنزاف:

- هل توجد حظيرة هنا يمكنني سقي خيولي فيها وكومة قش أغمض عيني عليها قليلاً؟
- ما من شيء هنا لك أو لخيولك.

أجابه الرجل وهو ينقب في جيبه ويخرج عملة معدنية ويلقيها إليه، فبدا حوذي راضياً بهذا، ولوى أَعنَّةَ خيوله واختفى عائداً أدراجه عبر نفس الطريق الذي جئنا منه.

كنا نقف في فناء مفروش بالحصى، في مركزه نافورة بها تمثال امرأة جالسة يحيط بها عدد من الحوريات والدلافين، لم تعد المياه تتدفق منها، لكن تتسرَّب من شقوق الأسفل وتغذِّي طُحْلُباً بُنِّيًّا، بدا لي أن حجر التمثال نفسه يبكي، وهو منتصب في بركة من الاعتكار بحيث لا يُرى قاعها. وعلى الجانب البعيد من الفناء، ثمة منزل عال ذو جناحين على جانبيه، والمكان حولنا

محاط بغابة أشجار الراتنجية وحقول تُركت بورًا وقد تحللت محاصيلها عائدة إلى التربة، والمنزل الذي كان جميلًا بلا شك ذات يوم، أضحى متداعيًا. تساقط الجص المشقق من واجهة المبنى، واستطالت الحشائش في فجوات الحجارة في الفناء، ما من إشارة لحياة في المباني الخارجية العديدة، وفي مكانٍ ما ثمة كلب ينبح، اجتاحني الرعب والاستيحاش، إذ لا بد أن فاجعة ما ألمت بهذا المكان وأحالت الأراضي خرابًا وسط المشهد الطبيعي، لا بد أن المكان كان جميلًا ذات يوم قطعًا، لكن تلك الأيام ولّت، وخرجت الكلمات من فمي قبل أن أتمكن من إمساك لساني:

- أين جئنا؟ ما هذا المكان؟

قفزت للخلف متفاديًا عصاه عندما أدركت أنني تكلمت دون إذن، لكن الرجل فاجأني بإجابة سؤالي من حيث يقف في الفناء، ملتفتًا نحوي كأنه ينتظر ردة فعلي وعيناها تفيضان غمًا.

- هذا مقر أسلافي... لم تعد الطيور تغني هنا.

لم أفهم مقصده، لكن لم تكن لدي النية في استيضاحه.

لَوْح لي لأتبعه، لكن ليس إلى البيت الكبير، إنما سرنا نحو صف من المباني الواطئة إلى اليسار، عند حافة الحقول، رفع عارضة خشبية وسمح لي بالدخول، عانت عيناها في سبيل التكيف مع الظلام، لكن عندئذٍ استشعرت حضورًا، وراودني شعور أن أحدهم يراقبني وينتظرني بالداخل ولا يبشرني بخير. كانت هناك نتانة هواء راكد، وتقهقرت خطوة عندما سمعت زمجرة خافتة أمامي، ثم رأيت، هيئة ضخمة، تسير جيئةً وذهابًا، كان كلبًا بشعًا، أضخم كلب وقعت عيناها عليه، خمنت أن رأسه يبلغ كتفي وأن وزنه يفوق وزني بكثير، وتحت فروه عضلات مفتولة كعقد حبل المرساة، رأيت اللعاب يتقطر من شذقيه وموتي يترأرأ في عينيه، لكن قبل لحظة من انطباق فكيه على عنقي، تجمّد في الهواء، وأدركت إثر سماع صليل معدن واحتكاكه بخشب أنه مقيد. وعندما اعتادت عيناها الضوء الشحيح، رأيت سلاسل صدئة ملتفة حول عنقه السميك، وطرفها الآخر معقود حول عمود خشبي. خارت ركبتاي وارتطمتا بالألواح الخشبية، وحبوت متراجعاً وعيناها تدمعان من رائحته، وقد تناثر على وجهي اللعاب المتطاير من الوحش مع لهائه.

- هذا ماغنَس.

جاء صوته من خلفي، ثم أحسست بقبعتي تُنزع عن رأسي، ورأيتها تُقذف في الظلام حيث انقض الوحش عليها.

تابع مُضيفي:

- سوف تمل من ضيافتي بمرور الوقت، وإذا قررت مغادرة هذا المكان دون موافقتي، فاعلم أن القيود التي تُبقي ماغنَس تحت السيطرة سوف تُحل، وهو لن ينسى رائحتك أبدًا، يمكنه اشتمام رائحة خوفك والبول الذي يسيل على ساقك، وسوف يجدك وحدك تحت الأشجار حيث لن يحميك أحد، وسوف يمزقك أشلاء ويترك رفاتك للغربان.

سار مضيفي وتجاوزني خارجًا من المبنى، وسرت في أعقابها.

كما أوحى لي ظاهر المبنى، يا أختي العزيزة، كان البيت من الداخل يسوده الخراب، العديد من ألواح النوافذ مشققة، ولم يبق من قطع قرميد السقف سوى شظايا، وتنبعث من المكان رائحة العفن الفطري، ولا بد أن المياه تنهمر إلى الداخل عبر الجملونات عندما تنفتح أبواب السماء، وورق الحائط غشيته الرطوبة التي شوهدت نقوشه حتى صارت تزيغ العين، وألواح الأرضية غير متساوية وتصدر صريرًا شنيعًا مع كل خطوة، الغرف شاغرة وغير مضاءة، وصار قماش الأرائك والكراسي رثًا ممزقًا حتى اندلقت حشياته، وعندما بلغنا الصالة الكبرى، وجّه مضيفي إليّ بضع كلمات فوق كتفه قبل أن يدير لي ظهره ويتابع السير.

- سيبدأ عملنا غدًا.

ثم سمعت وقع خطواته في الفناء وألفيت نفسي حائرًا فيما ينبغي لي فعله.

وبما أنني لم يُخصَّص لي مكان للنوم، لم أر خيارًا سوى تدبر أمري بنفسي.

شُيد مدخل المبنى الشاسع ليكون مكان ترفيه، ثمّة صالة واسعة مخصصة للرقص، مقفرة ومعتمة، وفيها كراسي مكومة فوق بعضها، والطاولة الطويلة

في غرفة الطعام تتسع لعشرين شخصًا على الأقل، لكن سطحها مشقوق من بدايته حتى نهايته. ثمة لوحة زيتية معلقة فوق المدفأة، لكن أحدهم شوهاها، وبدا لي من الملابس أنها تصوّر رجلًا، ملتفتًا نحو الرائي، يقف شامخًا أمام أرض خصبة مترامية الأطراف، يدها تكسوهما الخواتم، وحول عنقه يتدلى شريط حريري ينتهي بميدالية، لم يعد وجهه موجودًا يا أختاه، اقتطعه شخص ما من القماش، فلم يبق فوق الكتفين سوى فجوة ذات حواف مهترئة، ولاحقًا بعد وقت طويل سوف أجد بقايا البورترية بين الرماد بالأسفل.

في الطابق العلوي وجدت بانتظاري الغرفة تلو الغرفة، جميعها خاوية، واخترت واحدة لنفسى، وجدت الفراش رطبًا والسرير متضعضًا، فقررت النوم على الأرضية، متخذًا من حقيبة ظهري وسادة، بعيدًا عن الباب ما أمكنني، وظهري إلى الزاوية.

تابعت استكشافي، وفي الطرف القصي من المبنى وجدت غرفًا أكبر، بلا شك كانت مخصصة لأسياد المنزل، وفي الجانب الغربي وجدت لوحة أخرى، هذه المرة لامرأة، ترتدي فستانًا عتيق الطراز، باسطة يديها بإشارة ترحيبية، كأنها تدعو المشاهد إلى الدخول في اللوحة، وجهها أيضًا اقتطع، لكن بعناية خلافاً للتمزيق الغاضب الذي أفسد لوحة غرفة الطعام. لم أستغرق وقتًا طويلًا لأجد قطعة القماش المفقودة، ففي السرير الضخم الذي بجوار الجدار، رأيت لفافات ملابس مرتبة بحيث تكوّن شكل جسد امرأة، كأنها مستلقية على ظهرها، وقد وُضع الوجه المقتطع من البورترية على رأسها بعناية، كان وجه الدمية يبتسم ابتسامة ودودة، لكن على محياها شيئًا آخر، شيء بدا موحياً بعواطف أخرى، ولا أدري إن كانت هذه السمة موجودة في صاحبة اللوحة نفسها أم أن الرسام قد أخفق في إيفائها حقها. وفي السرير الذي إلى جوار هذه الهيئة الغريبة، رأيت على الفراش أثر رقاد أحدهم، وأدركت أن مضيبي يمضي ليلاليه هنا، مضطجعًا على جانبه واضعًا ذراعه حول الدمية، وتأكّد ظني في الليالي اللاحقة، لأنني كنت أسمع من خلال أبواب الغرفة الموصدة، كان يتحدث إلى الدمية في الليل، لكنني لم أتمكن من تبين الكلمات التي يقولها، وأحيانًا كنت أسمع أصواتًا أخرى، ولم أدر إن كان يضحك أم يبكي.

عدت إلى غرفتي مشوشًا بما رأيته، ووضعت كرسيًا خلف الباب، ثم زحفت إلى زاويتي، وجذبت ركبتي إلى تحت ذقني، وتكومت مرتجفًا من الرعب والاستثارة حتى جرفني النوم أخيرًا. أختاه... في الليل امتلأ المنزل بالهمهمات، كأن الصالات تسكنها أرواح الذين عاشوا هنا ذات يوم، لم أنم سوى فترات متقطعة، وقد راودتني أحلام تتخللها ذكريات كما يحدث غالبًا على تخوم النوم واليقظة، وخُيِّلَ إلي أنني سمعت وقع أقدام في الرواق، وصرخات متعة وألم وابتهالات استرحام وضحكات وأصدااء احتفالات تلاشت منذ أمد بعيد، وظننت أنني لمحت رجالًا ونساء يضعون أقنعة غريبة ويلعبون الغموضة في أرجاء الغرف، وبالخارج تعوي ريح موحشة في أعطاف الظلام، ثم بدأت السماء تمطر في منتصف الليل، بعدها تشبَّع الهواء داخل المنزل بالبرد والرطوبة، وسمعت الماء يتدفق عبر الطابق الأعلى، فوقي بطابقين.

الفصل السادس والعشرون

استيقظت تحت وطأة الثقل الأثيري الذي ينجم أحياناً عن نظرة تُسلط على المشاهد، فعندما فتحت عيني، وجدت مضيفي قاعدًا على الفراش الذي زهدتُ فيه مفضلاً الأرضية.

قال لي:

- الوقت بين يدينا.

نهضت وِجلاً حالما فركت عن عينيّ القذى، وسرت في أعقابه إلى خارج الغرفة، وهبطنا السلالم، ثم اجتزنا الفناء قاصدين المباني حيث كان ماغنس يحتفي بالصباح بنباحه الذي يصم الآذان، فخشيت مواجهة أخرى مع الوحش، لكننا تجاوزنا سقيفته المتداعية، واتجهنا نحو كوخ حجري صغير، وفتح مضيفي الباب بمفتاح حديدي ضخم وأشار لي بالدخول.

خلف الصالة، في حجرة كبيرة بها مدفأة منطفئة مكسوة بالسناج، كانت هناك طاولة، ممدد عليها رجل لا يكاد يكبرني كثيرًا، يداه وقدماه مقيدة بحبل مربوط أسفل الطاولة يمنعه من التحرك، وبين أسنانه أقحمت عصا مثبتة بأربطة حول رأسه، وخلف العصا قد يلحم المرء قطعة قماش محشورة في فمه لإلزامه الصمت، وعيناه معصوبتان. لم يكن مستيقظًا، وجوار الطاولة عدد من القناني تفوح منها رائحة النييد الحامضة، إلى جانب قمع، فافترضت أنه سُقي قدرًا كبيرًا حتى فقد وعيه. قسامته متناسقة ووسيمة، وشعره يبلغ كتفيه ولونه -مثل شعري تمامًا- أشقر كنسيج من الذهب. ولم أكد أستوعب هذا المشهد المفزع حتى جاءني من الخلف الصوت الرتيب:

- قيل لي إنك عملت جرًا حادًا متدربًا، أخبرني، كم عدد الأطراف التي قطعتها من أجل إنقاذ حيوات المصابين؟
أجبت مرتاعًا:

- لم أستخدم المنشار والسكين بنفسني إلا في مناسبتين، لكنني كنت حاضرًا في مرات لا تحصى عندما أجرى معلّمي هذه العمليات.
أوماً مضيئي.

- هذا مريضك الآن يا كرستوفر بليكس، أريد أن تُبتر جميع أطرافه عن جسده كما لو أنها مُزقت بشظايا قنبلة أو حربة، كلتا الساقين، كلتا الذراعين، وعلاوة على هذا، أريده أن يكون أعمى وأصم، وأريد قطع لسانه. هذه هي المهمة التي أكلفك بها مقابل سداد دينك. روحه بين يديك، وإذا أزهقتها -سواء بدافع الشفقة أو عدم العناية الكافية- فإن مصيره سوف يبدو رحيماً مقارنة بمصيرك. سأوفر لك جميع الأدوات والمستلزمات التي تطلبها. هل يوجد أي جزء مما قلته لك لم تفهمه؟

كان رأسي يدور، عجزت عن تصديق ما سمعته للتو، كما لو أن مشاهد الكابوس الذي رأيته من "كهف الدباغ" قد عادت لتلوعني، وجعلني ارتياحي أنسى توجّسي وتحفظي وأتخلى عن حذري.

- لا! لن أفعل هذا مهما يكن الثمن، ولو كان حرّيتي! أعدني إلى استوكهولم ومحاكمها وإصلاحيتها، أفضل أن أعيش عشرين سنة في الإصلاحية! هزّ رأسه.

- عودتك لم تعد خيارًا متاحًا. إذا تحدّيتني في هذا الأمر، فسألقيك للكلب، حيًا، وأجعله يلتهم قدميك أولاً.

- لكن ما الذي فعله الشاب؟ هلأ أخبررتني؟ لا أحد يمكن أن يستحق مصيرًا كهذا!

ظل الرجل واقفًا صامتًا لبرهة قبل أن يقول:

- اتخذ قرارك.

سمعت أنفاسه البطيئة خلال نشيجي، ومسحت وجهي بكُمّي. لم يكن بحاجة إلى إجابتي، إذ كان كلانا يعرفها. عاود الكلام:

- إنه مخدّر بالنيبيذ، وسيظل هكذا حتى المساء، أودُّ رؤية لسانه مقطوعًا مع غروب الشمس، وبعد ذلك يمكنك مواصلة عمك بالترتيب الذي تراه مناسبًا، ينبغي أن تنجز مهمتك بأسرع ما يمكنك دون المجازفة بحياته. ستجد تحت الطاولة صندوقًا خشبيًا من النوع الذي يستعمله جراحو القوات البحرية، جميع الأدوات مشحونة وفي حالة جيدة، كل ما قد تحتاج إليه أريد معرفته حالما يخطر لك.

لم أستطع الكف عن البكاء، لكن تذكرت، والدموع والمخاط يسيلان حتى ذقني، تعنيف إمانويل المستمر لي، والأشياء التي كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أنها تبعد غازات المستنقعات التي تهدد دومًا بنشر التعفن في جروح الرجال المصابين، فقلت:

- أغصان العرعر لتبخير الغرفة، وأغصان التُّنُوب لفرشها على الأرضية، واخل.

الفصل السابع والعشرون

تُركت وحدي في الغرفة مع الرجل المقيد، ضاق صدري، وبعد عدة دقائق عندما استعدت أنفاسي، سمعت أنفاسه. أطلقت العنان لذكري خيالاتُ الأفعال المروعة التي أُقبل على اقترافها بحق هذا الشاب الذي كان يمكن أن يكون أخي، فهرعت خارجًا من الكوخ الحجري، لم تقع عيناى على مضيقي، وكنت قد قلت له الحقيقة، إذ رأيت إمانويل هوفمان يزيح الجلد والعضلات إلى الخلف بيدين واثقتين حاذقتين، ثم يثبت نفسه بوضع ركبته على كتف الرجل المصاب، وبعد حركتين بالمنشار يسقط العضو التالف على الأرض، وبعدها يخيط الجرح. ولم يكن كثير من ينجون من هذا التدخل الجراحي، والناجون يصيبهم الهزال في أثناء شفائهم، إذ كان التعفن يجد طريقه بين الغرز، ويجعل الطرف الأبرتر داكنًا نتنًا، ثم يأتي الموت خلف برائن الحمى. لم يدعني هوفمان قط أجري هذه العملية بنفسى، وكلانا كان راضيًا بدوري في مناولته الأدوات البعيدة عن متناوله. فكيف عساي أن أؤدي هذه المهمة؟ سلكت الطريق الذي يمر أمام السقيفة المُصَفَّد فيها ماغنس الرهيب، كان الجدار الخشبي متداعيًا وظهرت فجوات بين قطع الخشب، قوَّست كَفَيَّ حول عينيَّ وحدثت إلى الظلام، وسرعان ما تمكنت من رؤيته، نهض ببطء عندما نَبَّهته حاسةٌ حيوانيةٌ ما بأنه يُشاهد، وتراءى لي أنه ينظر إلى عينيَّ مباشرة ويبادلني التحديق بعينين جاثعتين، يلهث وفكه متدلُّ، وبعد هنيهة بدأ اللعاب يتقاطر من بين أنيابه الصفراء. رأيت نفسى على الأرض وهو يعتليني، وقدماي بين شدقيه، ويبلغ ساقَيَّ قضمَةً إثر قضمة، ثم يقرمش رضفتي ركبتي كأنهما حبَّتا كستناء. أجهشت بالبكاء مجددًا يا أختاه، عندما

أدركت أنني لا أحتاج إلى الشجاعة كي أقطع أطراف إنسان آخر، إنما إلى جُبْن إنقاذ حياتي بأي ثمن، أدركت هذا بسرعة.

جوار النافورة تذكرت الكُتيب الذي أعطاني إياه هاغستروم، فهرعت صاعدًا إلى غرفتي، وقلبت حقيبة ظهري رأسًا على عقب وشرعت في القراءة بأسرع ما يمكنني، وهنا وجدت عونًا في إرشادات وصور العديد من العمليات الجراحية، بما فيها البتر والأدوات اللازمة له. ربما أصبحت مراعاة البروفيسور سببًا لخلاصي مرة أخرى. لكن اللسان؟ لا يوجد أي ذكر له في الكتيب، ولاخ لي أن عليّ تدبر أمري بنفسني. بدا لي أن التحدي الأكبر يتمثل في إيقاف النزيف. كان جعل المرء ينزف مفيدًا للحفاظ على توازن صحي لسوائل الجسم، لكن إلى حد معين.

وبما أن كتيب هاغستروم لم يُنجدني في هذا الصدد، قررت اتباع ما تعلمته من هوفمان. يسميها نظرية الميازما، تلك الغازات غير المرئية التي تنبعث من القاذورات التي تحت الأرض وتجد طريقها إلى رئات الأصحاء وجروح المصابين. دائمًا ما كان يرسلني لأجلب الأشياء التي لها الأثر الأكبر في تخفيف أثر الغازات، لذا ذهبتُ لأبحث عن مستودع المؤن، ولم أعر على شيء رائحته تشبه رائحة الخل، لكن وجدت بابًا وراء الرفوف الفارغة، خلفه سلالم تفضي إلى قبو، ثم عثرت على عدد صغير من المشاعل لأضيء طريقي تحت الأرض، وعندما رفعت الشعلة فوق رأسي، رأيت صفوفًا تلو صفوف من القناني المغبرة، هذا كان قبو نبيذ، وعلى الرغم من أن مطلبي هو الخل، حدث عدة مرات أن عالجت لهوفمان أوعية النبيذ في غرف مغلقة حتى يتخمر ويتحول إلى خل. جمعت أكبر عدد من القناني يمكنني حمله.

وجدت أغصان التنوب في الغابة، وكذلك العرعر، فرشت التنوب على الأرضية حول الرجل المقيد، وأشعلت أغصان العرعر حتى صار يحترق دون لهب مطلقًا دخانًا أبيض كثيفًا، ثم انتظرت حتى ملأ الدخان الغرفة قبل أن أطفئ بقدمي الجمرات المتوهجة.

وفي الصندوق الذي أسفل الطاولة وجدت جميع الأدوات التي عرفتُها من هوفمان، بيد أن هذه أنظف ولا تبدو كأنها استُخدمت من قبل، الكماشة،

والمنشار، والسكاكين، ثم اختبرت شفراتها على ظفر إبهامي الأيسر فوجدتها حادة.

وعندئذٍ نويت إخراج لسانه يا أختي العزيزة، حللت الرباط الذي يثبت العصا بين أسنانه، وأخرجت كرة القماش التي كانت مقحمة في فمه، ثم أرخيت عصابة عينيه. أوقدت نارًا صغيرة في المدفأة الغائرة، ووضعت سطرًا فيها بحيث تعلقه السنة اللهب، وبيبء توهج محمراً، ثم مال لونه إلى البياض مع ارتفاع الحرارة. نحتُ وتدًا خشبياً ووضعت بين أسنانه كي يبقى فكيه مفتوحين، ثم أملت رأسه إلى الجانب حتى لا يتدفق الدم إلى حلقه. وعندما رفعت السكين، رأيت يدي ترتعشان حتى تملكني اليأس. أدخلت أصابعي في فمه الدافئ الرطب، وتحسست، لكن استحال علي قبض اللسان قبضةً مُحكمة، إذ ظل مرارًا ينزلق من بين إبهامي وسبابتي، وخطر لي إحساسي وأنا أحاول الإمساك بالعظاءة وهي في وعائها الزجاجي. أخذتُ إحدى قناني النبيذ -ماركة توكاي- وهشمت عنقها لعدم وجود وسيلة أفضل لإخراج سدادتها، وتجرعتها حتى أحرقني حلقي وتلطح قميصي الكِتاني الأبيض.

انحدرت الشمس نحو المغيب، لم يحل المساء بعد لكنه اقترب، واقتعدت الأرض وذراعاي تحيطان بركبتي، متأرجحًا للأمام والخلف، وعندئذٍ سمعته خلفي، لم يُصدر سوى بضع كلمات متلعثمة وهو في حالة السكر الشديد الذي أرغم عليه، كان يتكلم في نومه، يتمتم: "إننا مدينون لـ...".

كنت أعاني صعوبات جمة في أداء المهمة التي أوكلت إليّ ومريضى فاقد وعيه، وإذا استيقظ، لعجزت عجزًا تامًا. انطلقت من مكاني، متشجعًا ومنتعشًا بالنبيذ، وقد ملأ السُّطام المتوهج الغرفة برائحته، المميّزة على الرغم من رائحة العرعر الطاغية، وفي خضم ياسي، قلبت صندوق الأدوات الطبية رأسًا على عقب ورحت أنقب باحثًا بين الأدوات العديدة، ومن الغريب أنني -في غمرة طيشي- تمكنت من مساعدة نفسي، إذ سرعان ما عثرت على الأدوات التي كان يجدر بي استخدامها من البداية، الكماشة والمقص، فحملتهما وأمسكت باللسان بإحكام، وأدركت أن جذر اللسان ما يزال بعيدًا عن شفرتي المقص، فركضت عائدًا إلى الأدوات والتقطت مطرقة صغيرة

وإزميلاً ذا طرف مسطح. وما كنت أستعد لفعله عندئذٍ هو أمر رأيت هوفمان يفعله لبعض مرضاه التعساء، على الرغم من أن معدتي كانت تنقلب من المنظر. حركت رأس الرجل حتى تكون عظمة الفك ملتصقة بسطح الطاولة، ووضعت حدَّ الإزميل على الأسنان على امتداد الفك، وضربته بالمطرقة حتى سمعت انخلاع الجذور، ثم حركت الإزميل وضربت مرة تلو أخرى، وأخيراً لم يبق حيث كانت الأسنان سوى لثة مهتكة وفجوات مملوءة بشظايا شاحبة. فتهياً المجال للمقص، وقطعت لسانه من أقرب مكان ممكن من جذره، وعندما مددت يدي لأتناول السُّطام، كنت مبلبل الخاطر وأمسكت به بيدي العارية، فشمت -للمرة الأولى منذ مغادرتي كارلسكرونا- نتانة اللحم المحترق، فأطلقت سباباً، ثم استخدمت كُمي ووضعت طرف المعدن المتوهج الأبيض على موضع الدم المنبجس من فم الرجل المقيد.

لم يصرخ إلا في هذه اللحظة يا أختاه، وصراخه لم يكن أسوأ شيء، اللحظة الأفظع كانت عندما فتح عينيه ونظر إليّ مباشرة. سوف تلاحقني تلك النظرة إلى قبوري.

الفصل الثامن والعشرون

أحظى بمتسع من الوقت لأكتب الآن، يا أختي العزيزة، مع اقتراب نهاية الصيف، فالمهمة التي أوكلت لي تتيح لي ساعات فراغ طويلة، إذ تحتاج الجروح إلى وقت لتلتئم، وعليّ أن أولي مريضى عناية خاصة حتى يستعيد قواه، وفي معظم الأوقات تقتصر واجباتي على رعايته اليومية، أطعمه الحساء، وأغسله وأعتني بكل احتياجاته، وغالبًا ما أسقيه النبيذ عندما ينزعج ويبدا العواء، لكنه لا يرغب في شربه دومًا، فأضطر عندئذٍ إلى استخدام القمع، إذ لا طاقة لي بسماعه، ويتسلل إليه الهدوء مع سريان مفعول الكحول.

وينطبق الأمر نفسه عليّ، إذ أواظب على زيارة قبو النبيذ لأجلب قناني جديدة وأشرب كلما أمكنني بأكبر قدر أجرؤ على شرابه، ولا يبدو أن ما أفعله في أوقات فراغي هذه يزعج مضيفي، فهو كثيرًا ما رأني أتعثر في الأروقة مترنحًا جيئةً وذهابًا بين قبو النبيذ وغرفتي، ولم يتفوه بكلمة. لا أجنبي أي متعة من سُكري، لكنه على الأقل أفضل من صفاء ذهني، على الأقل يجعل الصور التي تتلاحق أمام عين عقلي ضبابية قليلًا، أيمكنك تخيل رعب وضع نصل مدية على عين شخص والضغط عليها حتى تشعرى بأنها بلغت مكانًا تضيع فيه الأشياء للأبد؟ يمر شريط مشاهد كهذه في ذهني كلما أغمضت عيني.

عندما أزيل عضوًا جديدًا أعطيه لماغنيس، وأشاهد أصابع اليدين والقدمين تختفي في بلعومه الأحمر، وأستمع إلى تهشم العظام بين فكيه، ثم يحدق إليّ من زاويته كأنه يحاول إخباري بشيء: "أنت التالي".

آثار النبيذ الدائمة تصعب عليّ التفريق بين اللحم والواقع، تتموج نقوش ورق الحائط، وتبدو عندما أمر بجانبها كأنها تتحرك كمجسات حشرة عملاقة، متحفزة لاحتبالي إذا اقتربت. وفي القبو، عندما ذهب ذات ليلة في وقت متأخر لأجلب المزيد من النبيذ، رأيت "ملك جردان" تحت ضوء الشمعة، مجموعة قوارض تطلق صريرًا وذيولها متشابكة في عقدة، أم أنني حلمت بهذا؟ زحفتُ بمحاذاة الجدار بضجيجها الشنيع واختفت في ركن، ويقال إن هذه الظاهرة نذير شؤم. أفرط في الشراب قبل أن أوي إلى فراشي، كي أنام سريعًا ولا أصحو بذهن صاف.

استيقظت ذات ليلة إثر صوت قريب مني، وأدركت أنه مضيبي، الذي كان قد دخل غرفتي وفتش أغراضي، ثم جلس على السرير وشرع في قراءة ما كتبتَه إليك يا أختاه، هذه الرسائل غير المرسلة الموجهة لك دون سواك. إن لم يكن هذا حلمًا أيضًا، فقد سمعته يضحك.

وجدت في كتاب هاغستروم عونًا كبيرًا لي في عملي، فيه رسوم توضح الكيفية الأفضل لبتّر الأطراف عن الجسد، موضع القَطع بالسكين وكيفية استبقاء قطعة من الجلد ثم طيها فوق الطرف الأبتّر. أولًا، أربط عاصبة لمنع النزيف تدبرت أمرها من رسن جلدي أخذته من الإسطبلات، ثم أعالج الجلد بالشحم ليصير لدنًا ولا ينقطع عندما أشده بقوة.

إنني فاقد الشهية يا أختي العزيزة، وهذا أمر جيد نظرًا إلى أنني أضطر إلى الحفر لإخراج طعامي من الحقول الممتدة، ولا أدري ما يتقوّت به مضيبي، ربما لديه مخازن طعام لا يعلم بمكانها سواه. يتدلى قميصي على بدني المهزول، وأعاني في سبيل منع سراويلي من الانزلاق، ومؤخرًا تعين عليّ استخدام خيط لأبقيه فوق وركي. تورقني لوحة البورترية التي في غرفة الطعام، وقد قال لي مضيبي إنه والده، ويقول إنه يكرهه. في أحلامي أرى رجلًا يرتدي ملابس أنيقة يتحسس طريقه مادًا يديه أمامه في أرجاء غرف

المنزل، ولا شيء في المكان الذي ينبغي أن يكون فيه رأسه، يبحث عن ابنه، إما ليخنقه وإما ليعانقه، لا أدري أيهما.

فرغت بالأمس من التحضيرات اللازمة لبتن الذراع اليسرى عن كتفها، ولم يبق معها سوى الساق التي على الجهة المقابلة. وبعد هذا اليوم يجب أن أجد طريقة جديدة لإبقاء مريضتي مقيداً إلى الطاولة لعدم وجود أطراف أخرى يمكن ربطها بالسلاسل المكسوة بالجلد. شحذت سكينتي واختبرت كل سن من أسنان المنشار، ثم رششت الخل على الأرضية والجدران، وجلبت أغصان تنوب جديدة وبخرت الغرفة حتى تطهر الهواء، وبعدها عقدت أنشودة من الرسن الجلدي وأدخلت فيها قطعة خشب لأدير الرباط وأحكام شدة، وعندئذ لاحظت شيئاً، سقطت أشعة الشمس والتمتع شيء في إصبع الشاب، كان خاتماً يا أختاه، حول الإصبع الصغير باليد اليسرى، لا بد أنني لمحتة من قبل لكنني لم أعره اهتماماً، انحنيت لألقي عليه نظرة من كثب، مصنوع من الذهب وذو سطح إطراره بيضاوي، بصقت على اليد وانتزعت الخاتم، حاولت اليد أن تنهشني بأظفارها القذرة لكنني تفاديتها بسرعة. رأيت في وسط الخاتم حجراً داكناً على سطحه شعار نبالة منقوش بدقة، فدار رأسي كأنني ضربت بشيء مائي، ثم تركت الرسن متدللاً وسرت خارجاً لأقعد على السلم الحجري الذي أمام الباب الأمامي.

تناهى إلى مسامعي نعيق غراب بعيد، في أعلى فروع شجرة بتولا، ظللت قاعداً مدة طويلة، محدقاً إلى الخاتم، الذي كان من النوع الذي يضعه النبلاء مع شعار نبالة ليمثل نسل الأجداد، وعلى الرغم من أنني لم أعرف اسم الشاب، يمكنني التحقق منه بسؤال شخص قادر على قراءة فن شعارات النبالة.

بدأت أرتعش وتلبّد عقلي بالأفكار، منحنى القدر هذه الفرصة لأحسن -ولو بقدر ضئيل- إلى هذا الذي لا اسم له واقترفت بحقه موبقات أفزع مما يمكن أن يقترفها أي شخص بحق ألد أعدائه. لكن كيف؟ رحلت أذرع المكان خارج الكوخ، وقد صعب النبيذ الذي شربته عليّ التفكير، وعندما سمعت صوتاً خلفي، ظننت أنني سأصاب بسكتة قلبية وأخر صريعاً في الحال.

- كيف تسير عملية الذراع اليسرى؟ أرى أن قميصك لم يتلطح بعد، لماذا التأخير؟

كان مضيبي يقف خلفي مباشرة، وهو بمقدوره التحرك بصمت تام. أحسست بشعر عنقي ينتصب، وشدت قبضتي على دائرة المعدن الصغيرة، وسمعت الكذب في صوتي عندما أجبته:

- ما من سبب يا سيدي، كنت على وشك البدء.

وكالعادة، لم يعترّ تعابير وجهه أي تغيير، عيناه جامدتان كبحيرة جبلية تحت سماء الليل.

- ما الذي تقبض عليه بشدة في يدك؟ مفاصل أصابعك مبيضة، أرني.

أحنيت رأسي، ومددت يدي أمامي ثم فتحت راحتي كفي، كلتاها فارغة، إذ كنت قد ألقيت الخاتم بين العشب خلفي لمعرفة بحاسة الرجل الخارقة تجاه كل ما يحاول المرء إخفائه عنه.

حدق إليّ مدة طويلة وأنا أقف باسطة يدي المرتعشتين في الهواء.

- كف عن إهدار وقتي، إنك تزداد نحولاً بمرور كل يوم، ولن تكون ذا نفع لي إذا مت جوعاً قبل انتهاء مهمتك.

ألقي هذه الكلمات واستدار مغادراً، وعندما سمعت وقع أقدامه في الفناء، ألقيت بنفسي على الأرض بحثاً عن الخاتم، وقد ألهمتني كلماته الأخيرة فكرة ما كنت لأجرؤ عليها سابقاً.

عدت إلى الداخل، ووضعت يدي على خد المريض، كان وجهه ما يزال جميلاً، على الرغم من المحجرين الفارغين خلف الضمادات والخدين الغائرين حيث كانت أسنانه، لم يسبق لي أن لمست بهذه الطريقة، وبدا لي أن لمستني تهدئة. أمسكت بالخاتم بين إبهامي وسبابتي وألصقته بشفتيه، وحالما أحس بشكله، أدخلته في فمه وتناولت كأس ماء، وجعلته يشرب واستمعت إلى صوت تجرّعه، ثم باعدت ما بين شفتيه ونظرت، فلم أر لمعان ذهب، ابتلعه.

يدبّر مضيبي أمراً لهذا المسكين، وهذا التشويه والتمثيل المقصود لا بد أن يكون جزءاً من خطته، لكن مريضني الآن سيحمل في بطنه دليلاً على اسمه وعائلته. لا أدري كيف بعد، نظرًا إلى أنني قريباً سأبتر طرفيه المتبقيين وأكون قد سلبته أي مقدرة على التعامل مع العالم، لكن ربما ينجح شخص ما في العثور عليه وتعبه إلى هنا، إلى الوحش المسؤول عن هذا المنكر.

لست متأكدًا من قدرة مريضى على السمع، ففي اليوم الثالث، امتثالًا لأوامر محددة ومفصلة من مريضى، أقحمتُ قشةً في أذنى مريضى إلى أبعد نقطة ممكنة، ثم اختبر مريضى بنفسه قدرة المريض على السمع بأن صَفَّقَ قرب رأسه، دون ردة فعل. لكن على الرغم من هذا، انحنيت وقرَّبت شفتى من إحدى أذنيه وقلت:

- إذا خرج الخاتم، فسأعطيه لك مجددًا كي تبتلعه بعدما أغسله، وعندما يمضى كل منا في سبيله، فسيتعين عليك تولي هذه المسؤولية إذا رغبت في الاحتفاظ بالخاتم، ولا أدري كيف لك أن تتدبر الأمر.

لم تدبر منه إشارة إلى أنه فهم. بعد ذلك قطعت ذراعه اليسرى، وحملتها في دلو إلى سقيفة ماغنس، ثم واصلت طريقي إلى قبو النبيذ لأغيب عن الوعي بالشراب. ما زلت عاجزًا عن النوم، وكما ظلمت أفعل منذ مدة طويلة، أحضرتُ حبري من السناج والماء، وأغمس فيه ريشتى وأكتب إليك يا أختى العزيزة، يا صديقتى الوحيدة.

أتذكرين يا أختى العزيزة، عندما كنا نتحدث عن عالم آخر وراء هذا العالم، في ليالى الربيع عندما كنت أجتو بجانب فراشك حتى تبدأ زقزقة العصافير عندما تطل أولى خيوط الشمس عبر النافذة؟ وعندما كنا نتخيل مروجًا وادعة منبسطة وراء وادي البؤس هذا، حيث اعتزمنا أن نركض فيها ذات يوم بيدين متشابكتين وسط زهور الصيف دون شواغل أو مخاوف، مكان لا يعرف الأسى والخصام إليه سبيلاً، وعندما تكلم سيقاننا نلوذ بظلال الأشجار ونأكل من التفاح وتوت العليق البري ملء بطوننا، حيث كنا سنضحك معًا بعيدًا جدًّا عن كارلسكرون الموبوءة بالحمى، التي تأتيها الزوارق يوميًا وأسطحها مغطاة بجثث داكنة مُزرقَّة وتفرغ حمولتها على الشاطئ، لكننا سعداء معًا سعادة لا يحظى بها إلا أخ وأخته.

لم أعد أحلم بالمروج والتوت البري يا أختاه، فقد أُفسد عليَّ هذا اللحم للأبد، يقال إن البراءة حالما تُفقد فلا يمكن استعادتها أبدًا، وهذا الصيف سلبنى أحلامي، كيف عساي أن أشعر بسعادة أو بهجة مجددًا بعد كل ما شهدته واقترفته؟

انقضت أربع سنوات تقريبًا منذ أن حرمتني الحمى منك يا أختي العزيزة، وتوقف نبض قلبك. كانت الملاءة التي غسلتها للتو ما تزال تغطي صدرك عندما أدركت أنك لم تعودي تتنفسين، وأن ما من شيء يمكنني فعله سوى حفر قبرك، وحياسة إكليل من زهور الربيع لأضعه على التربة، وربط غصنين على شكل صليب لينتصب فوق مرقدك الأخير.

لم أعد أبتهل كي تكوني بانتظاري في ظل تلك الشجرة، بخدين متوردين وأنت ترتدين الفستان الكتاني الأبيض الذي أهدتك إياه أمانا في عيد ميلادك الأخير، إنما صرت أبتهل كي تظلي مستلقية في التربة حيث تركتك، وألا تكون بانتظارنا حقول فردوسية بعد الموت، حتى لا تعرفي أبدًا ما اقترفته يداي، وأبتهل أن أجد لنفسي قريبًا السلوان في حفرة مظلمة، حيث يطويني النسيان، ولا شيء آخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الثالث

العُتَّة واللَّهَب

ربيع 1793

أيتها المشاعر! أيتها الحياة! أين ذهبتما؟
في هذه الغياهب التي أهوي فيها،
الآن ترغمني الظلمات على تذكر الأوقات
التي انقضت منذ أمد بعيد.
هذا الدرب المظلم الذي هو قدرتي،
وهذه الغيوم التي صارت تكتنفي مؤخرًا،
وهذا البرد الذي يجمد عروقي، وهذا الضعف،
جميعها تدل على أنني في القبر بالفعل.

الفصل التاسع والعشرون

تعرف أنا استينا أن النار لعبة زوايا ومساحات، وأن ما سيُحرق، أيًا كان، يجب أن يُرتَّب بعناية، وتتخلله فراغات يمد اللهب ألسنته عبرها، فالنار أشبه بكائن حي، وأسوة بكل الكائنات الحية يجب أن تتنفس. النيران التي كانت تشعلها أنا بالحطب المكسر بعناية في المدفأة الأرضية بأبرشية كاتارينا، تمثّل تحديًا أكبر مما تقف أمامها الآن، الكومة مكونة من حزم القش والأخشاب التي سينشب لهيبها حالما تُشعل. القس الذي يتولى المناسبة في انتظار دقة الساعة السابعة، وعندما يهتف المراقب الذي عند برج كاتارينا معلنًا الساعة، ستُضرم هذه النار من أجل القديسة فالبورغا.

كانت أنا استينا تخشى النار، فهي الوحش دائمًا في الحكايات التي سمعتها في طفولتها، كما يصفها الذين شهدوا بأب أعينهم منازل المدينة الخشبية تستحيل رمادًا، لكن أنا استينا ابنة زمن آخر، ترعرعت في استوكهولم مشيدة من الحجارة، وليس الأخشاب، ومع مرور الأعوام، يصعب إدراك العلاقة بين تلك العاصفة النارية الضارية وجمرات الطبخ المفيدة المدفئة، كما هو الحال في هذه الأمسية، عندما يُسمح للنار بالتعاظم، لكن تُبقى مروضة، وتُطعم، وتُحرس، وتحاط بالخراطيم والدلاء.



الأمسية دافئة، لكن نسيماً منعشاً يهب من جهة البحيرة، وهو مستحسن لا سيما أنه يوقف ريح "مرجة الأطفال" العكسية القادمة من بحيرة لارد، التي ذابت بما يكفي لانبعاث نثانة تكاد تُرى على هيئة غيوم الذباب. والآن بين الربيع والخريف، يلوح ضوء المساء بهيجًا، ولت شهور الشتاء ذات الظلام

الحالك، عندما يضطر الساري إلى تلمُّس طريقه في الشارع بمد ذراعيه أمامه، وعندما يسقط شيء، يضيع للأبد في المجاري، ولا أمل للمرء في استعادته إلا بالتزُّف إلى حمالي الماء في الصباح التالي، أو ببساطة أن يظل واقفًا في مكانه حتى بزوغ الفجر. تفضُّل أنا الربيع على جميع الفصول، فهو حافل بالوعود التي لم تسنح الفرصة للعام بالنكوث بها بعد، وكل شيء يبدو ممكنًا.

وهي ليست وحدها في ابتهاجها، فالمروج مليئة بالناس، الأطفال والفقراء والمشردون من أبرشية كاتارينا وماريا يقتعدون العشب، وجوارهم عمال المصانع، الذين بقيت لهم طاقة ووقت عند نهاية اليوم، وعلى مبعده قليلاً، يتجمع عليّة القوم، مَلَأَ المصانع وأصدقاؤهم من "مدينة ما بين الجسور"، ولفيف من النبلاء ونساء يرتدين ملابس جميلة من الساتان والدانتيل. جوار أنا يجلس أندريس بيتر، ابن جارهم، وهو يكبرها ببضع سنوات، وقد بدأ يتدرب ليسير على خطى والده بركوب البحر، ذات يوم سوف ينزل عن الرصيف ويسير على سلم السفينة المتحرك، حيث ستأخذه الأشعة البيضاء إلى ما وراء البحار، وأنا تحسده، وتشعر بأنها مقيدة بالمدينة بأغلال خفية مُحكمة.

تشدد الريح القادمة من الماء، فتسحب ركبتيها إلى تحت ذقنها، وفي الوقت نفسه تسمع الهتاف من الأعلى، فتقرب الشعلة من قاعدة كومة الحطب، حيث تلعق ألسنة اللهب بنهم الأغصان والفروع، وسرعان ما تضطرم وتتسلق للأعلى. تندلع جلبة بين المتجمعين عندما يتضح أن الهتاف لم يأت في الواقع من برج الكنيسة، إنما من أبناء الشوارع الذين قلدوا الصوت، لكن حدث ما حدث، انطلق أحد الحراس بهمة فاترة إلى أعلى المنحدر ليطارد الصبية الجانحين، الذين تفرقوا في كل الاتجاهات بأسلوب يوحي بالتمرس وهم يطلقون الضحكات، لكن القسيسين القائمين بالمراسم لم يكثرثوا كثيرًا، عمّت البهجة، ودارت قناني البراندي من يد إلى أخرى، تكاثفت عتمة الغسق، فصارت النار مخلبًا ساطعًا يحاول نهش النجوم، وصعبت رؤية أي شيء سوى الصور الظلية، إحداها كانت مميزة، هيئة مهتاجة في قبضة نائب مأمور الشرطة الذي يبقيه على مسافة بمقبض طويل ينتهي بكُلاب يطبق على عنقه، يتخبط الرجل ويحاول الفرار إلى هذا الاتجاه ثم إلى ذاك، كلامه

البديء ومشاكسته كفلا له حشدًا من المشاهدين الضاحكين، وعندئذٍ عندما يمر الحشد، تلاحظ أنا استينا أن أندريس بيتر وضع يده على يدها.

لطالما عرفت أنا استينا أن هذا اليوم آتٍ لا محالة، فهي ليست ساذجة، ظل أندريس بيتر رفيقًا طيبًا عندما كانا يلعبان معًا، لكنهما الآن كبرا واهتمامه بها تجاوز الصداقة منذ أمد بعيد، وهي لا تأخذ عليه شيئًا، فهو ودود سهل المعشر وحسن المنظر بشعره الأسود وعينه الزرقاوين، لكنها لا تشعر بأنها مستعدة للخطوة التي يريد اتخاذها، فهي لا تتوق للارتباط، مثل أمها، ماجا، التي تدبرت أمرها وحدها طوال حياتها. ربما في أمسية أخرى، قد لا تكون في المستقبل البعيد، لكن ليس الليلة. ظلت منذ مدة طويلة تتوقع لحظة كهذه، وكانت تتقلب في فراشها في الليل وتتساءل عن كيفية إفهامه رفضها دون إيذاء صداقتهم. والآن فوجئت بأن ردة فعلها بدرت عنها تلقائيًا، أسرع مما تصورت فلم تستطع السيطرة عليها، إذ سحبت يدها بعيدًا عنه، وفي الصمت الذي أعقب هذا، لم تدري ما عليها قوله، وقد كانت ممتنة لأن الظلام كثيف بما يكفي لإخفاء احمرار وجهها. فابتدر أندريس بيتر الكلام:

- تعرفين أنني مولع بك يا أنا، ولطالما كنت.
تخذلها الكلمات.

- ستبلغين سن الزواج قريبًا يا أنا، وأمك لم تعد بصحة جيدة، لن يكون معك أحد عندما ترحل. يمكننا الذهاب إلى القس يا أنا، ليتلو علينا إعلان الزواج...

يتلاشى صوته تدريجيًا حتى ينقطع، وأنا ما تزال لا تدري ما عليها قوله، فتكره نفسها لعجزها، وتحس بجرحه يتعمق بصمتها، وتحس بنفسها كأنها كتلة رخام تُدحرج على روابي "مرجة الأطفال" في طريقها إلى إزميل سيرغيل العظيم.

يستثيرها نشيجه، لم تعد تستطيع رؤيته لكنها تسمع الصبي نفسه الذي كانت تواسيه عندما يחדش مرفقيه أو تغطيه الكدمات الزرقاء الداكنة بفعل أبٍ يعرف كيف يستعمل عصا غصن شجرة البندق. في طفولتهما لم تكن أبرشية كاتارينا هي البلدة المتداعية التي صارا يريانها مع تقدمهما

في السن، إنما كانت مكاناً رائعاً مليئاً بالمرح والمغامرات. هي من كانت تأتي بالأفكار، لكن لما تحققت لولاه، كانت تجعل من سقف أي سقيفة سطح سفينة مبحرة إلى الهند والصين، والحجارة ورقائق الخشب يمثلان ثروتها من الخزف والجواهر، وكانا يكافحان النيران جنباً إلى جنب عندما تتسبب الأمطار الصيفية في الخراب عندما تنحدر المياه من جانب الجبل، تصف أنا استينا النيران التي لا يراها سواها، وأندريس بيتر يجاهد ويضحك حاملاً دلوًا يسرب المياه، وهكذا ظلت تعيد تشكيل أيامهما بمخيلتها، ولمدة طويلة كانت تظن أنه يستلطفها لهذا السبب.

ومرة أخرى تأتي ردة فعلها نابغة من قلبها مباشرة، دون تفكير أو تدبر، تستدير وتعانقه، تحيط جسده المرتجف بذراعيها الصغيرتين، وتحس به يخفي وجهه بين يديه، وتتمايل به يمنة ويسرة كدأبها دومًا، فيتجاوب معها، يضمها بين ذراعيه، ويضع وجهه على عنقها وهي تداعب شعره. يتعانقان عناقًا شافيًا، ويتسنى لآنا استينا الوقت لتظن أن كل شيء سينتهي، قبل أن تبحث شفتاه عن شفتيها، يقبلها وذراعاها تضمانها بقوة، وعندما تبعد وجهها عنه، يلاحقها، ويسقطان معًا على العشب، فيغير وضعيته فوقها، ضاغطًا إياها على الأرض بوركيه الثقيلين، وعندما تهم بالاحتجاج، يقبلها بعنف.

تحس أنا استينا بالتشوش، كأنما بينهما سوء تفاهم، ثم يجتاحها الخوف. يعرف أندريس بيتر أنه قيل له لا، وربما يأمل أن يتمكن من تغيير رأيها في غمرة القبلات، ويظن أن حياءها وشرفها هما السببان الوحيدان اللذان يدفعاها لرفضه، وأنها في الحقيقة ممتنة لإصراره حتى يمكنها التظاهر بأن المسؤولية تقع على عاتقه وحده. أي صوت تحاول أنا استينا إصداره يكتمه فم أندريس بيتر، أولاً محاولات التكلم معه، ثم استنجاها. عندئذٍ أحست بالذعر، إذ يثبتها صدر أندريس بيتر وكتفاه بالأرض وركبته تحاولان مبادعة ما بين فحذيها. إنها على وشك فقدان شيء لا ترغب في منحه، وما من شيء يمكنها فعله حيال الأمر.

لا. تتحسس شفته السفلى وتغرس فيها أسنانها بكل ما لديها من قوة، فتتذوق ملوحة حارة كأنه معدن منصهر، وعندما يبتعد عنها تتمكن من ضربه، لكمة، ثم لطمتين. الذراعان اللتان كانتا تثبتانها على ظهرها انشغلتا

بأيقاف تدفق الدم، وخف الضغط الجاثم عليها بعدما تدرج أندريس بيتر على العشب.

كلاهما يبكي، وتتوقف أنا استينا أولاً، تمد يدها لتلامس أندريس بيتر مجدداً، بوصفه صديقاً، كما لو أنها تقول إن ما حدث يمكن غفرانه، لكن أندريس يجفل مبتعداً كأن يدها تكوي كتفه، ثم ينهض ويركض صاعداً المنحدر.

بعد ذلك، ما تزال أنا استينا تتذكر الأفكار العديدة التي مرت بخاطرها في أثناء تلك اللحظة الوجيزة، ومشاعرها المتضاربة، كان جزء منها يهمس بأن الخطأ خطؤها، وأن ما كان يحدث أمر طبيعي، وأن مبادرات كهذه ينبغي أن تكون موضع ترحيب، فهما يعرفان بعضهما طوال حياتيهما، فلماذا تمنع هذه الطريقة؟ المرء يرى هذا الأمر في كل مكان بأحياء أبرشية كاتارينا الفقيرة، يرى علاقات الطفولة تنضج فتغدو علاقات أكثر جدية، كم منها لم تبدأ بمشاهد كهذه؟ عندما يعرف الصبي الذي أصبح رجلاً ما ينبغي فعله، والفتاة التي أصبحت امرأة ينبغي إرغامها على قبول الواقع؟

تنتظر أنا استينا لحظات قبل أن تنهض، بالأسفل جوار الشاطئ، صارت النار جمرات متوهجة ستصبح رماداً سريعاً، وترى رجلاً عجوزاً أدرّد ذا قبعة مائلة ولحية متشابكة يقتعد الأرض على مقربة ويبتسم لها، واضعاً يده في بنطاله، المتسخ بالتراب والقيء، ظل قاعداً في مكانه طوال الوقت، ويرسل زخات من عصير التبغ من الفجوة التي بين أسنانه الأمامية.

- كنت أمل أن يكون العرض أفضل، لكنني متأكد من أنك قريباً ستجدين شريكاً أكثر ألمعية من صاحبك ذاك، وعندئذٍ سوف أكون شاكراً إذا أرسلتِ خبراً إلى هذا البائس الذي سيكون سعيداً بدفع شلن ليشاهد.
يضرب فحذه براحة يده ضاحكاً من كلماته، فترتعد أنا من الاشمئزاز، وتنفض العشب عن ملابسها وتسلك نفس الطريق الذي سلكه أندريس بيتر، نحو أبرشية كاتارينا.

الفصل الثلاثون

مع الربيع يأتي الطقس الدافئ، ومع الطقس الدافئ تأتي الحمى، التي سرعان ما تنتفي، وعلى الرغم من أنها تصيب العجائز والصغار، والأغنياء والفقراء، فهي أشد بطشًا بالضعفاء. حسبما تذكره أنا طوال حياتها، ظلت أمها ماجا تعمل غاسلة ملابس في "مرجة الأطفال"، منكفئة على الصوف والكتان، كتفًا إلى كتف مع نساء أخريات، وكل ربيع تسقط فريسة للمرض، وظل هذا حالها دومًا، يبدو أن الحمى تجد طريقها بسهولة إلى دور المصانع على الرغم من أنهم يبقون النوافذ مغلقة اتقاءً للغازات الضارة المنتشرة في المدينة، ودائمًا ما تكون ماجا كذاب من بين المصابين، تبدأ الأعراض بألم في الحلق مع تورم على جانبي الفك، وفي أثناء الليل ترتفع حرارة ماجا، فتركل الأغشية وتتعرق عرقًا غزيرًا، وعندما يأتي الصباح، تظل في فراشها، تتقلب بين التجمد بردًا والتلطي، ويتعين على أنا استئنا، التي تشاركها البطانية نفسها، قبول العناق أو الدفع بعيدًا، ولا ترغب ماجا في أكل أي شيء، تزدرد كل لقمة بصعوبة بالغة، وتشرب بالكاد.

تهذي بلا انقطاع أحيانًا، يتدفق الكلام منها كأنها عاجزة عن السيطرة على لسانها، أحيانًا تلفظ كلمات لا يفهمها أحد، وأحيانًا تتحدث بوضوح كأنها مستيقظة وبكامل حواسها وقواها العقلية. والليلة، بينما تحاول أنا استئنا إطعامها بضع ملاعق حساء، تتكلم عن الحريق، وهي، مثل معظم كبار السن في المنطقة، تسميه "الديك الأحمر"، الطامة التي كادت أن تفني كل أبرشية ماريا عام 1759، عندما كانت ماجا كذاب تبلغ من العمر بضع سنوات. سمعت أنا استئنا القصة مرات أكثر من أن تُحصى، لكن ليس كما سمعتها الليلة، إذ

تحدث ماجا كئاب، وهي في قبضة رعشاتها، بطلاقة مستصحبة تفاصيل جلية كأنها ماثلة أمام عينيها. قصة مجيئها إلى أبرشية كاتارينا.

وُلدت ماجا كئاب في أبرشية ماريا، وكانت في بيت أسرتها يومذاك، ذات صيف عندما تحول الطقس الدافئ من نعمة إلى جفاف وشقاء، كانت في الباحة التي بين المنازل، تبني بيت مزرعة من أكواز الصنوبر والعيدان، جاعلة من حجارة الرصف مباني، ومن أشواك الصنوبر سياجًا. أبوها وأمها ليسا في البيت، يعملان في الحقول التي وراء دانتو، وزوجة جارهم، العجوز التي لا تسمح لها سنها بفعل أي شيء، يُفترض أن تراقب الطفلة بين غفواتها، فكانت ماجا تلعب ساعات في ظل شجرة الزيزفون.

كان الوقت عصرًا عندما بدأت أجراس ماريا ترن رنينًا هستيريًا، رنّان واضحتان، مرارًا وتكرارًا، قبيل الساعة الرابعة، وسرعان ما جاء صوت جرس برج كاتارينا، وبعد لحظة جاءت الإشارة من جميع الأبراج الثلاثة في "مدينة ما بين الجسور"، ثم من الجانب الآخر من "الخليج المُذهَّب"، وكلارا، وجايكوب، وهيدفينغ، ثم الساعة التي على قمة "نتوء برونكيه"، وأعقبها مدفع من حوض السفن بطلقتين حادثتين متكررتين، ورُفعت الأعلام في جميع أنحاء المدينة لتوضيح أماكن انتشار الحريق، وألوانها تحذّر من الاتجاه الذي ينبغي تجنبه. جاءت الرائحة بعد مدة قصيرة، رائحة الدخان الحادة، لسعت عيني ماجا، ثم بدأ أول الراكضين يظهرون في الشوارع، أناسٌ حملوا أهم ممتلكاتهم في عربات أو على ظهورهم، وفي خلال نصف الساعة الأولى، كانوا قليلين بما يكفي لمنح الذين يعيشون جوار الكنيسة الأمل في أن النيران يمكن إخمادها، ثم تبدد كل أمل مع ظهور الجرذان.

جاءت الجرذان على هيئة موجة رمادية، متدفقة من السرايب ومخازن المتاجر ومستودعات الميناء، كلها مندفة باتجاه البحر، وكما يعرف الجميع، عندما يفر الإخوة الرماديون للنجاة بحيواتهم، فهذا يعني أن الأمر قُضي وانتهى، ومعهم جاء الذعر. بعد ساعة من بدء قرع أجراس الكنائس، اشتدت الرياح، دافعة الدخان أمامها، ومسربةً أبرشية ماريا بأكملها بغشاء رمادي.

جاء صبي راکضاً لیساعد علی إبعاد الجیران، ولم یلق بالآ لماجاً ولو بنظرة، ولم یرغمه ضمیره علی التوقف إلا عندما خرج.

- یا بنت! اركضي! النار قادمة من دانتو و ”بوابة جبایة هورن“، اركضي نحو ”القنطرة“!

لكن بما أن لديها توجيهات صارمة بعدم الخروج إلى الشارع وحدها، تختار البقاء، حتى يجعل الدخان عينها تدمعان وتسعل بلا انقطاع، وفي الشارع تضل طريقها سريعاً، إذ لم يسبق لها أن اجتازت عتبة باب بيتها، وقد محا الدخان معظم المعالم التي تتذكرها، قمم أبراج الكنيسة، والطواحين الهوائية. تفرعها الحشود، في كل مكان حولها أقدام ثقيلة تنتعل القباقيب، وعربات تجرها دواب، وعربات يد. فتختار، بدلاً من التعرض للدهس في الطين، أن تختبئ في فجوة بين جدارين، وفي مخبئها قريباً من الأرض تجد هواءً ما زال بارداً صالحاً للتنفس، ثم تنتظر وهي تلصق خدها بالتراب. ومن العتمة ناحية الغرب، تناهت إلى مسامعها أصوات فظيعة، إذ كانت الأبقار والخيول التي تُركت مقيدة تُشوي في أماكنها وتئن في أثناء احتضارها. ظلت ماجا في مخبئها أربع ساعات حتى مالت الشمس نحو المغيب وانقطع تدفق الناس الفارين، وعندئذ تجاسرت على الزحف خارجاً، ورأت السماء المشتعلة. وعند وقوفها في الشارع المرصوف بالحجارة رأت ”الديك الأحمر“ أول مرة، أعلى من برج كنيسة ماريا، يرمي بشرره إلى عنان السماء، متسلقاً المنحدر من حافة الخليج حتى أعلى التل وهو يصدر زئيراً مُرعداً، مبتلعاً كل ما يجده في طريقه. انتشرت ألسنة اللهب من أخشاب المنازل المتضععة، وحاقت بمباني الأغنياء الحجرية من كل الجوانب، وأنشبت مخالباها السناجية في الأعمدة والواجهات المزخرفة، وهشمت النوافذ، وأحالت الغرف إلى أتون ساخن أشعل الأثاث وأقمشة النجود، وعندما حميت صفائح الأسقف النحاسية لمدة كافية، انخلعت من الدعائم وحلقت في الهواء الساخن كأنها خفافيش حمراء ذات أجنحة ممزقة. ظهرت البثور على جلد ماجا من أنفاس ”الديك الأحمر“ اللافحة، لتترك ندوباً عليها مدى الحياة.

وعلى مبعده في الشارع، رأت رجلاً ذا ساق واحدة يكافح بعكازته والنيران في أعقابها، وعندما علقت عكازته بين الحجارة وانفلتت من قبضته، حاول أن

يزحف، وبدأ الدخان ينبعث من ملابسه وباروكته وهو يطلق صرخات صامته، ثم اشتعلت باروكته فجأة، واستمرت صرخاته الحادة مدة من الوقت، وعندئذ بدأت تركض أخيراً لتبتعد عن السعير، وأطلقت العنان للبكاء والعيول، ورسمت الدموع خطوطاً على وجهها المسود، ومن حولها تتطاير الشظايا المشتعلة وتبدأ حرائق جديدة أينما وقعت، وبدا لها أنها تركض عبر غابة في الخريف، يتساقط فيها الشرر بدلاً من الأوراق.

كانت أمها تنتظر يائسةً في "الساحة الجنوبية"، حيث أرغم السكان على التوجه نحو "القنطرة" والاحتشاد، محاطين بحراس المدينة الذين يحملون الجراب، ولم ترَ أباهما مجدداً قط.

ظلت النار مستعرة حتى اليوم التالي، كانت ماجا وأمها تقفان على تبرعات الأبرشية، ولاحقاً أشفق عليهم مالك الأرض في دانتو. لم يبق شيء من منزلهم، وتعدّر تمييز جثة أبيها عن جثث الآخرين. أصبح جيل بأكمله متشرداً بائساً بين ليلة وضحاها، محكوم عليه مدى الحياة بأن يهيم في الطرقات، أشباح ثملة ترتدي الأسمال. ثلاثمئة منزل وضيعة مُحي من الوجود، وقرابة عشرين مربعاً سكنياً سُوي بالأرض.

وعندما كبرت ماجا كنان، رأت البيوت تنهض من الرماد، لكنها صارت تُشيد بالحجر، وأضحت منازل طفولتها الخشبية شيئاً من الماضي. تضور النجارون جوعاً، وأصبح البنّائون بالحجارة أثرياء. اضطرت ماجا كنان إلى الانتقال إلى أبرشية كاتارينا، حيث ما تزال المباني الشقية السكنية المتداعية قائمة، وقد صارت فوضى عشوائية مع الإضافات والاستراحات التي سُيدت كيفما اتفق حتى يجني أصحاب المنازل المزيد من الأموال، ولا تتطلب سوى شرارة شاردة حتى تصبح بؤرة موت لقاطنيها التعساء. استقرت ماجا، ووجدت رجلاً، وحملت بابنتها، ثم اختفى الأب حالما بانَت بطنها.

تضع أنا استينا يدها على جبين أمها، وماجا كنان محمومة، وأنفاسها واهنة، لا بد أن حر الحمى هو ما جعلها تتذكر أبرشية ماريا وهي في قبضة براثن "الديك الأحمر". تحس أنا استينا بغصة في حلقها، لا ترغب في ترك

أما وحدها، لكن لا خيار أمامها، عليها أن تركض لتطلب المساعدة على الرغم من أنها لا تملك شيئاً لتقدمه مقابلها.

وعندما تلقي وشاحها على كتفيها وتفتح الباب لتهرع خارجاً، تتفاجأ بوقوف شخص أمامها، بومان، قَدُلُفت كنيسة كاتارينا، وهو شاب يأمل أن يتولى منصب راعي الأبرشية ذات يوم، تفوح منه رائحة كحول قوية لا بد أنه تجرعه قبيل لحظة من فتح أنا استينا الباب، لكنها لم تكن تتوقع أي مساعدة، وتتساءل عن طلب من قارع الجرس القدوم، لكن ليس لديها وقت تهدره في إبداء الامتنان.

- أُمي ماجا مصابة بالحمى، أرجوك ادعُ لها ريثما أركض إلى العطار.

تعود أنا استينا بعد نصف ساعة خالية الوفاض، فجوزيف كارلسون، العطار، يمضي أمسيته بالخارج، وكان رأي زوجته أنه سيكون تحت تأثير المشروبات الكحولية، وركض أنا استينا إلى حانة "الراعي الملكي" لإحضاره لن يجديها نفعاً.

يخيم الصمت على أنحاء المبنى السكني، حتى الأسر التي تشاركهم المبنى تقف صامتة في الأروقة عندما تعود أنا استينا. يقف بومان جوار الفراش وهو يضم يديه في أثناء صلواته. غُطِّي وجه ماجا بالملاءة، وفي بادئ الأمر لم تستوعب أنا السبب. يتنحج بومان وتخرج كلماته رسمية متكلفة بصوته الشاب.

- والدتك العزيزة رحلت عنا يا أنا استينا، فليتعمد الله روحها برحمته.

يتمم بوضع كلمات أخرى لا تسمعها أنا استينا، وتحس بركبتها تخوران، تنقطع أنفاسها كأنها لُكِمَت في بطنها، تعجز عن احتمال ما حاق بها من عَسَف، ماجا كنان، التي أعالت ابنتها وحدها طوال حياتها، التي كابدت بصبر ازدياء رعايا الأبرشية لها بسبب طفلتها غير الشرعية، التي أفنت جسدها في العمل الشاق اليومي - هل قاست كل هذا لتموت وحدها دون أحد يواسيها؟ يفوق الهول قدرة أنا استينا على التحمل، ويرتعش جسدها بأكملها. يكافح بومان في سبيل العثور على الكلمات المناسبة وهو يعاود الكلام:

- لم آتِ إلى هنا الليلة من أجل ماجا، أتيت برسالة من راعي الأبرشية، ويجدر بآنا استينا معرفة أنه ما كان لأحدنا أن يعرف مقدماً ما كان يخبئه القدر في هذه الأمسية، أرى أن العناية الإلهية شملت الأم ماجا بحضور رجل دين جوارها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

يصمت بومان ويتعين عليه تدليك جسر أنفه قليلاً قبل أن يتابع:

- تلقينا رسالة فحواها شهادة ضدك، وبمقتضاها استدعيت للمثول أمام "المجلس الكنسي" لتواجهي اتهامات بممارسة الدعارة ونية إغواء البريئين للوقوع في الخطيئة. يود راعي الأبرشية أن يتحدث معك أولاً.

الفصل الحادي والثلاثون

- وكيف تكسبين قوت يومك يا أنا استينا؟

إلياس ليساندر رجل قصير ممتلئ، عرضه يكاد يساوي طوله، ويناهز الخمسين من عمره، معطف الرهبان الأسود مشدود حول صدره وبطنه، ولغده متدل فوق ياقته. الغرفة التي يستقبل فيها زواره معتمة الإضاءة، وجدرانها مكسوة بأقمشة كتانية غشيها السناج والأوساخ في العقود الماضية، وما كان القصد منه خلق انطباع الرصانة والهيبة ضاع في خضم الفوضى، الكتب والدفاتر مكومة جوار المحابر والغلايين الفخارية. يستقبل ليساندر أنا استينا قاعدًا خلف مكتبه، وهي تقف على الأرضية أمامه، غير معتادة رؤيته بعيدًا عن منبر الوعظ، ويبدو لها أضخم مما تتذكره ومتقلصًا في آن واحد، ومن هذه المسافة، تنبعث منه رائحة العرق والدخان وسمك الرنجة الذي تناوله في الصباح، وفي الوقت عينه، تحس أنا استينا بوطأة السُّلطة التي يجسدها بما أنها عندئذٍ غير موجهة نحو جمهور، إنما نحوها هي وحدها. صوته هو نفسه، صوت قوي فخيم يسترعي الانتباه، وبالمقابل تعجز عن إيقاف تهذُّج كلماتها عندما تجيبه:

- أبيع الفواكه متجولة بسلة، ويُسمح لي بالاحتفاظ بحصة من الأرباح. يومئ ليساندر كما لو أن هذه الإجابة تؤكد ما يعرفه سلفًا، ويُطرق مدة طويلة قبل أن يتابع الكلام، مثبتًا نظراته على أنا استينا، التي لا تعرف ما إذا ينبغي أن تبادله النظرات أم لا.

- أخبرني القندلفت بومان بأن والدتك ماريا كئاب رحلت عنا.

- ماجا... أُمي اسمها ماجا.

صوت أنا استينا خافت وضعيف. يصوب ليساندر بعينه المحققنتين بالدماء نظرة ناقمة إلى أولوف بومان، الواقف في زاوية ويده خلف ظهره، متصنعاً الجهل. تستعدل أنا استينا ظهرها في الصمت الثقيل.

- كان اسمها.

يتخلص ليساندر من انزعاجه.

- الرب هو المعطي والرب هو الآخذ يا أنا استينا، ويجدر بك أن تجدي العزاء في أن والدتك الآن في مكان أفضل.

يبدو ليساندر مرتبكاً لوهلة بشأن كيفية تغيير مجرى الحديث من هذه المواساة الحزينة إلى المسألة التي بين يديه. وهو يعاني آثار شراب الليلة السابقة، والكؤوس التقليدية التي ترافق إفطاره لم تفلح في تخفيف صداعه، فيقرر نكداً، لعدم وجود حل أكثر كياسة، أن يدخل مباشرة في صلب الموضوع.

- هل فكرت في كيفية إعالة نفسك في غياب والدتك؟ لم تكن ماجا كذاب متزوجة، والدك لم يُسمع عنه شيء قط، ولا يلوح في الأفق أي خاطب لك على الرغم من أنك بلغت سن الزواج.

سبق لها أن طرحت على نفسها السؤال نفسه، وتشك في أن الإجابة التي لم تقنعها هي نفسها سوف تكون كافية لإلياس ليساندر. انقضى يوم بالكاد منذ حمل ماجا على آلة حدباء إلى خارج بيتهم في طريقها إلى مقبرة الفقراء في الكنيسة، وقد تحملت أنا استينا نفقات دفنها بقدر استطاعها.

- ربما أتمكن من الاحتفاظ بغرفتي مقابل إيجار أقل، أو ربما لدى صاحب البيت غرفة أصغر لي، هكذا أظنني بمقدوري تدبّر غرفة وسرير، وأعتقد أنني سوف أتمكن من بيع المزيد إذا سمح لي البقال جانسن، ومستعدة للعمل لساعات أطول.

يتبادل ليساندر وبومان نظرات ذات مغزى.

- وأي نوع من الفاكهة تبيعين يا أنا استينا؟

تستشعر التهديد المبطن في نبرة صوته.

- الليمون عندما يكون متوفرًا، أو الخوخ والتوت، والتفاح في الخريف ونهاية الصيف.

يرمقها ليساندر بنظرة صارمة.

- يا أنا استينا، أتعرفين ما يُقال عن الشابات اللاتي يبعن الفواكه من السلال؟

تعرف، ولا تقدر على النظر إلى عينيه عندما تجيب.

- كثيرات منهن يبعن أجسادهن مقابل المال ولا يكدن يحملن أي فواكه.

قابلتهن بنفسها في الشوارع والساحات، ورأت فتيات عملت معهن من قبل يهبطن من السلال وشعرهن منفوش وفساتينهن فقدت هدامها ومعهن كمية الفواكه نفسها التي كانت في سلالهن في الصباح. جميعهن يحملن بإيجاد عشيق، وجميعهن يعرفن القصص، التي دائمًا ما تُحكى عن صديقة صديقة: كانت واحدة منهن ذات يوم، ثم صارت ترقص وسط البارونات وهي تضع عقود الجواهر وشعرها معقود بتسريحة عالية لدرجة تلامس الثريات عند مرورها تحتها، بعض الفتيات يبرعن في نسج شباكهن في الأسرة والمخادع أفضل من الأخريات، يتحلين بموهبة فطرية، وأخريات يعانين، وقلة منهن يدمن مدة طويلة، يختفين، ولا أحد يدري أين يذهبن، وبعضهن يتخلين عن سلالهن ليس من أجل قاعات الحفلات الراقصة وصفوة المجتمع، إنما من أجل بيت سيئ السمعة حيث يتبرأن من أسمائهن الحقيقية ويمضين أيامهن ولياليهن مستلقيات على ظهورهن والزبائن يتناوبون على اعتلائهن، وفي أزقة المدينة يُعرفن باسم "فراشات الليل"، وفي كل ليلة يطرن أسرابًا.

- أنا استينا، يبدو أنك ووالدتك ماجا كنتما تعيشان حياة مريحة إلى حد ما دون وجود رجل في البيت، وكلتاكما جئتما إلى هذا العالم عبر

خطيئة، ويبدو لي أنك جنيت ثروة من بيع البضائع من سلتك، والآن

تقفين هنا أمامي وتقولين إن ليمونك هو ما ينشده زبائنك؟

تحس أنا استينا بالدماء تتصاعد إلى وجهها، وربما يُقرأ احمرار وجهها بوصفه دليلًا على جُرمها. لا تُحر جوابًا، فالحقيقة التي قالتها يبدو أنها وُسمت بالكذب قبل أن تنطق بها. يميل راعي الأبرشية ليساندر للأمام، ويضم أطراف أصابعه للأعلى ويردف دون انتظار إجابتها:

- يجدر بك أن تلزمي الصمت يا بُنيّتي، يشهد آخرون على أفاعيلك الآثمة. ربما تكون أبرشية كاتارينا منكوبة بالفقر، لكن إذا ظننت أن ما من أناس فاضلين هنا متأهبين للذود عن كل ما هو صائب وقويم، فأنت مخطئة بشدة.

يجد إلياس ليساندر نفسه متمنياً لو أنه ترك لينعم بالسلام في هذا الصباح، وحده مع تبغه يقتعد كرسياً في الحديقة. يرى أن هذه العملية مرهقة بقدر ما هي متوقّعة، كيف تجرؤ الفتاة على نسج أكاذيبها السافرة أمامه؟ هو الذي يعيش ويعمل في أبرشية كاتارينا منذ سنوات ويعرف هذه القصة القديمة المكررة بحذافيرها، الابنة بغيّ مثل والدتها، يتوارثن البغاء جيلاً عن جيل منذ هبوط الإنسان على الأرض. إنهن من طينة لا تخشى الله، لا يميّز الصواب من الخطأ، ضعفاء أمام شهوات الجسد، لا دين لهن ولا يؤمنن إلا بمتع الحياة الدنيا والعريضة. استفحل التهتك مع نهاية القرن، ويصبح العبء أثقل على كاهل ليساندر مع مرور كل عام.

قذف حريق عام تسعة وخمسين بأبرشية ماريا في وهدة بؤس وفقر مدقع، وعندما ارتفعت المنازل الحجرية ومعها ارتفعت الإيجارات الجديدة، وقع على عاتق كاتارينا إيواء البائسين، ووقع على عاتق إلياس ليساندر تحمل مسؤولية هذه الأرواح أمام الله، لكن مجهوداته لا تكفي مهما بلغ كدحه، وأسوأ ما في الأمر جلسات "المجلس الكنسي"، حيث يُنشر غسيل أبرشيته -الذي ما انفك يزداد اتساحاً- أمام قساوسة من جميع أنحاء المدينة، من كلارا، وماريا، وجيكوب، ونيكولاي، وهيدفيغ إليونورا. وبدأ يستعين على مثل هذه المناسبات بالمشروبات الكحولية، لكن حتى البراندي لا يكفل له تبيد الإذلال الذي يحس به أمام زملائه الذين يراقبون ناقمين ما هو واضح للجميع، وهو أن إلياس ليساندر راعٍ ضعيف لرعيته، فها هو حَمَل آخر ضل طريقه، وهو لا حول ولا قوة لإعادته إلى سواء السبيل. فجأة ينتابه غضب من ظلم الوضع الذي وجد نفسه فيه.

- لا جدوى من الكذب يا أنا استينا كئاب، لأن ناتانيل لُنْدستروم وزوجته كلارا صوفيا -وكلاهما مواطنان يخشيان الله، وأسهما في تحسين

أحوال الأبرشية بالتبرعات والدعوات - أدليا بشهادة مكتوبة بشأن محاولتك إغواء ابنهما، البحار المتدرب أندريس بيتر، وجرّه إلى التهتُّك، إذ استدرجته بعيداً بكيدك النسائي، ونضوتِ ثوب الحياء، وأظهرتِ له مفاتنك، وبذلتِ نفسك بكل الأساليب لإغوائه حتى يقع في الموبقات، فأنت مثل نساء كثيرات قبلك، لا تريدين شيئاً بقدر ما تريدين آدم لحواء التي بداخلك، لتغويه وتضليه السبيل. ما تفعليه بسلكك واضح للجميع، وآل لندستروم يعرفونه تمام المعرفة، ولا أجد سبباً يدفعني للشك في شهادتهما.

يوقف ليساندر نفسه، ويلهث من موعظته الطويلة، ويشعر بتسارع دقات قلبه. تظل الفتاة واقفة في مكانها رافعة فستانها الكتاني الأبيض حتى ربلي ساقيها كي لا تجره على التراب الذي تضطر إلى السير عبره يومياً، رأسها منحني تحت الوشاح الذي ربطته حول رأسها، صامته وممتعة. وعندما يعاود ليساندر الكلام، يتكلم بصوت أخفض قليلاً، بدافع مصلحته هو نفسه، كأنه يقول: فلتجلب مومسات "المروج" ومنحدرات "نتوء برونكيه" العار إلى سجلات رعاة أبرشياتهم هذه المرة.

- على الرغم من أن مسلكك خطير، لا أود رؤيتك أمام "المجلس الكنسي"، ما تزالين شابة، وقد يشفع لك جهل الشباب، سيكون من الأفضل أن نجد حلاً لهذه المشكلة هنا ضمن حدود الأبرشية، لكن لن يُخلى سبيلك دون كفارة مناسبة، وعليه أقترح التالي: أن تتوبي عن خطاياك أمامي وأمام القندلفت هنا، وتصالحي أندريس بيتر وأسرته بدعوات الغفران والتعهد بإصلاح مسلكك، وبعدها لن يبقى سوى غرامة الكنيسة، ومع معرفتنا بأنك لا تملكين الكثير من النقود وعدم رغبتنا في خروجك بالسلة لبيع المزيد مما تسمينه بالفواكه، سوف نقبل بمبلغ رمزي. هل تفهميني يا أنا استينا؟

تحس أنا استينا بالشلل نفسه الذي أحست به جوار فراش موت ماجا، تعجز عن التنفس ولا تقوى على التحرك، لا يسعها فعل شيء سوى الوقوف

ساكنة في أثناء تملل أولوف بومان واصطبغ وجه راعي الأبرشية بدرجة أغمق من الحُمْرة.

- هل فقدتِ لسانك؟ ألا تستوعبين ما أتجشمه من عناء في سبيل تجنيبك المعاناة؟ سوف تعترفين بما فعلته وتؤدين كفارة عُهرِك!

ربما تفعل أنا استينا ما تفعله لضيق ذات يدها، ويبدو لها أن أحدًا آخر ذا سعة قد يكون مستعدًا لبيع الحقيقة بثمن بخس، لكنها، أمام نظرات ليساندر الحانقة، تحس كأن الحقيقة هي كل ما تملك، وتكاد لا تصدق أنها لا ترغب في التخلي عنها، إنها ملكها هي، وصارت تعني لها كل شيء، ماجا كُتاب مية، وعندما تتخذ أنا استينا القرار الوحيد الذي يمكنها اتخاذه، تشعر لأول مرة بالارتياح منذ رحيل أمها، فتحت الأرض ترقد ماجا بسلام بعيدًا عن الكارثة التي تحيق بابنتها. تخرج همسة واهنة من شفيتها:

- لا.

تغمض أنا استينا عينيها وتنتظر الانفجار، لكن ليساندر لا ينفجر، تجد كل شيء كما كان عندما تفتح عينيها، ليساندر محشور في كرسيه، وبدنه يفيض على حوافه، وبومان يتظاهر بأنه غير موجود، ويومض مقتُ صامت في عيني ليساندر، أكثر إثارة للربح الآن وهو يسيطر عليه، إذ لا يرفع صوته، بل ويكاد يتكلم بنبرة ناعمة:

- اغربي عن وجهي يا أنا استينا كُتاب.

لا تشرع في البكاء إلا بعدما توليه ظهرها، وتقطع عهدًا مع نفسها بأن هذه الدموع هي آخر دموعها.

لن تفي بعهدا.

الفصل الثاني والثلاثون

- سأل رجلان عنك!

تعرف أنا استينا الفتاة باسمها الأول فقط، أولاً، ولا أحد يعرف اسم عائلتها، حتى هي نفسها على الأرجح. تستغرق أنا استينا بضع لحظات لتستجيب للكلمات التي ترافقها لثقة. أولاً ليست بكامل قواها العقلية، ويسهل تجاهل كلماتها دون الاكتراث لمعناها، ومثل أنا استينا، تبيع البضائع من سلة، لكن بعيداً نحو الجنوب في أبرشية ماريا. وضع البقال إفرايم جانسن نظاماً لفتياته، يلزم كل فتاة بمسار معين، وصارت هذه المسارات مناطق محروسة، وكل من تحاول التعدي عليها لا تلوم إلا نفسها، فمن يقبض عليها متلبسة تُطارَد حتى تحاصر في زاوية ضيقة ويُشد شعرها وتُضرب وتُخرِبش.

ومع هذا تتقابلان أحياناً حيث تتقاطع مساراتهما، كما هو الحال الآن، تسير أنا استينا من شواطئ "الخليج المذهب" نحو "شارع الدماك" غرباً ثم إلى شارع كاتارينا جنوباً، وأولاً تدور حول بحيرة لاردر حيث لا تطأ قدم أحد المكان طواعية. تلتقيان عند قمة "تل ناظر البريد" المطلّة على "القنطرة" و "مدينة ما بين الجسور". سلة أنا كادت أن تفرغ، وبيعض الحظ ستمكّن من بيع ما تبقى في طريق عودتها إلى جانسن، القريب أسفل التلة، أملاً في أن يعطيها المزيد، وإذا أسرع يمكنها إنهاء جولة أخرى قبل مغيب الشمس.

تحقق أولاً مضيقه عينيها إلى أنا استينا، فاعرة فمها، لا تعرف أنا استينا عنها الكثير، فهي تتجول بالسلة منذ الربيع، والأسابيع التي أمضتها في الشوارع تركت عليها آثارها، إذ تسمّر جلدها بالشمس والغبار، وانحنى ظهرها من الحمل الثقيل، وبالكاد تبيع ما يكفي لاحتفاظها بمسارها ودائماً

تويّخ في نهاية اليوم عند الجرد والاضطرار إلى تخفيض سعر البضائع قبل أن تفسد. رأتها أنا استينا تخرج مترنحة من سقائف وحظائر حيث يستغلها الرجال، وستانها غير مرتب وقبعتها ذات الألوان الفاقعة مجعدة. تعود أفكار أنا استينا إلى "ليلة فالبورغا"، إلى الحقل وأندريس بيتر، وترتعد عندما تخطر لها كثرة الذكريات المماثلة المحفورة في ذهن أولاً، وأن عدم حملها بطفل حتى الآن ليس سوى رحمة إلهية.

وجدت أنا استينا، طوال ساعات الليل البطيئة، الوقت لتفكر ملياً في كلمات ليساندر، وحاولت تخيل أجزاء القصة التي لا تستطيع معرفتها على وجه التأكيد، تخيلت عودة أندريس بيتر إلى البيت في ذلك المساء، مستاءً من رفضها له، وتخيلت سخط والديه، تعرف عن ناتانيل وكلارا صوفيا لندستروم ما يكفي لتخمن الباقي، الأم على وجه التحديد ظلت تنظر إلى أنا استينا بارتياب متزايد طوال سنوات صداقتها مع أندريس بيتر، على الأرجح خشية منها أن ابنها سوف يُغزّر به ليتزوج فتاة شوارع بسيطة بدلاً من الانتظار حتى يصبح مساعد قبطان ويتودد إلى إحدى بنات البرجوازيين، وإذا لم يقل أندريس بيتر لها الحقيقة، فلن تجد صعوبة في وسم أنا استينا بالانتهازية التي تسعى لاستدراج ابنها البكر بالوسيلة الوحيدة المتاحة لها، والأسئلة التالية ستسفر عن الإجابات التي تنشدها، فأندريس بيتر -الذي لا بد أنه ذرف دموعه مرة واحدة على الأقل- لن يكلف نفسه سوى إيماءات ليؤكد جميع مخاوف أمه. تنخر أولاً ويسيل المخاط على شفتها العليا الشبيهة بالصوف، فتجفل أنا استينا وتنتزع من تسلسل أفكارها.

- أي رجلين؟

تمسح أولاً أنفها بكُم فستانها السمل.

- كانا يرتديان ملابس غريبة، وتنقصهما عين.

- ما الذي يريدانه مني؟

- سألاني إذا كنت أعرف فتاة اسمها أنا استينا، فقلت أي واحدة؟ كنان أم

أندرسن؟ فقالا كنان، التي تتجول بسلتها في أبرشية ماريا.

- أين قابلتِهما؟ ماذا قلتِ لهما؟

تجعدُّ أولاً وجهها كي تستجمع التركيز الذي تتطلبه الإجابة عن سؤالين دفعة واحدة.

- سابقاً، قبل منتصف النهار، لأن ساعة البرج لم تكن قد دقت بعد، لسمعتها بوضوح لأنني ذهبت إلى بئر الكنيسة لإحساسي بالعطش.
- لماذا لم تذهبي إلى البئر التي جوار الساحة؟ إذا رأتك ”الحيزبون“ جوار الكنيسة لأوسعتك ضرباً مرة أخرى، يجدر بك أن تكوني أدري من الأخريات.

تبتسم أولاً، وبفخر ترفع شفتها العلوية لتكشف عن الفجوة التي خلفها غياب الثلاث أسنان التي كسرتها كارن إرسن -المعروفة بالحيزبون، بما أن هذه المنطقة تقع ضمن المسار المخصص لها- بضربها بحجر عندما شردت أولاً عن مسارها.

- سألاني إذا كنت أعرف أنا استينا كنان وإذا كنت أعرف أين يمكن العثور عليها. فسألت عما حدث لعين الطويل منهما وساق القصير، فقال القصير إن من الأفضل أن أمسك لساني وأجيب عن أسئلتها بدلاً من طرح أسئلتني، وعندئذ قلت إنني سأحاول لكن من الصعب إمساك لساني والإجابة في نفس الوقت، فشد الطويل شعري.

ترفع أولاً زاوية قبعتها لترى أنا استينا بقعة حمراء خالية من الشعر خلف أذنها.

- تألمت بشدة لدرجة أنني ألقيت سلتي وكدت أجهش بالبكاء، لكن خطر لي أن أنا استينا لطالما عاملتني بلطف، وفكرت أن هذين الاثنين على الأرجح لا يريدان لها خيراً، ثم قلت لهما إنني أعرف أنا استينا، وهي فتاة ضخمة ذات شعر أسود وحذاء تتجول بسلتها فيما وراء ”دغل الدببة“.

الوصف لا يشبه في شيء شعر أنا استينا النحاسي وظهرها المعتدل ومسارها الغربي عند ”شارع الدماك“، ومن ناحية أخرى، لا يختلف كثيراً عن وصف كارن إرسن ومسار ”الحيزبون“.

تفترق الاثنتان، تهرع أنا استينا في الضوء المتضائل عبر الشوارع المرصوفة بالحجر، وفي البقالة تجد إفرام جانسن مشغولاً بإنهاء مهام اليوم والاستعداد للصباح. تغير أنا استينا رأيها بشأن العودة إلى مسارها ومحاولة إفراغ سلة أخرى، ويتبرّم البقال بشأن بضاعته التي تعود دومًا.

- فهمت، إذن الأنسة كنان الرقيقة تريد العودة إلى البيت لوضع المساحيق على وجهها والتعطرُ بماء الورد؟!

اعتادت رؤية وميض الجشع في عينيه وهو يراجع الأرقام في دفتره.

- الراوند الذي أرجعته في الرmq الأخير، ولن يُباع بنفس السعر غدًا، تعرفين هذا تمام المعرفة، سأضطر إلى خصم فرق السعر من أجرك.

تتلقى أنا استينا قطعتين نقديتين مقابل ما تمكنت من بيعه، وهو مبلغ أقل مما كانت تأمل. بالخارج فوق "تل ناظر البريد"، استطالت الظلال، ومالت الشمس نحو المغيب على الجانب الآخر من المرتفع، والضوء الشحيح المتبقي مال لونه للبرتقالي. تنظر أنا استينا فيما حولها جيدًا قبل الخروج إلى الشارع، لكن ما من رجال ينطبق عليهم وصف أولاً، سواء أعلى المنحدر أو بالأسفل باتجاه الساحة و"القنطرة"، فتسير صاعدة التل نحو أبرشية كاتارينا، وتتجاوز المقبرة ومصنع ريو تينك للملابس، وفي طريقها تمتد فوضى المنازل الخشبية، والممرات والأزقة التي لا يعرف أسماءها سوى سكانها، ووسط هذه الفوضى يقبع الكوخ الذي تخشى أنا استينا أنها لم يعد بمقدورها العيش فيه.

تراهما في نفس اللحظة التي يريانها فيها، ينتظران خلف ركن منزل متقشر ومتضعع، يرتديان زيين أزرقين، دون شارات، بأزرار حتى عنقيهما، وغطاء ساقين يبلغ ركبتيهما، يحمل القصير سيفًا معقوفًا قصيرًا، والطويل هراوة وحبلًا، يدخل القصير من غليون فخاري وتسمعه أنا استينا يطلق سبابًا عندما يجعله اللقاء المفاجئ يكسر مبسم الغليون بين أصابعه، فتستدير وتطلق ساقها للريح، ويشرع كلاهما في مطاردتها دون أن يتفوها بكلمة. تنزلق أنا استينا بين مبنيين، تزداد الفجوة الضيقة ضيقًا، لكنها تخرج أخيرًا إلى فناء صغير، وترى رجلًا عجوزًا معوج الساقين يقعد جوار جدار، مستغلًا آخر لحظات ضوء النهار في نحت شيء، ولا تصدر عنه سوى صيحة

ذعر قبل أن تبلغ أنا استينا الجانب الآخر من الفناء وتقفز فوق السياج، وخلفه تجد الشارع غير معبّد مثل معظم أنحاء الحي، مجرد طبقة من التراب، ثم تنعطف إلى اليمين دون تفكير وتركض بأقصى سرعة، ومن خلفها يرتفع صوت -توقف! لص!- قد يكون صوت مطارديها في محاولة منهما للاستعانة بآخرين أو صوت الرجل العجوز الذي يعرف من خبرته أن من يركض في أبرشية كاتارينا غالبًا ما يكون حاملًا شيئًا مسروقًا.

تلمح أنا استينا ألواح خشب في انتظار إزميل النجار مستندة إلى حظيرة وتحتها مساحة تتيح لها الزحف بين الخشب والجدار، وتنتظر رابضة حتى يهبط الظلام. وعندما تطل برأسها، ترى النجوم فوق أبرشية كاتارينا، أكثر من أن تُحصى، تلوّح متلائية بما أن قلة من أصحاب المنازل في المنطقة يكلفون أنفسهم شراء فوانيس شوارع. لا بد لها من مغادرة المكان، لكن ليس دون أغراضها، إذ ما تزال تملك حفنة شلنات مُدخّرة، معقودة في صرة مع بروش من ماجا وسوار مزخرف أُهدي إليها في يوم تسميتها وبضع كرات زينة رخامية، ولديها أيضًا بعض فتات طعام، قد يقيم أودها بضعة أيام، حتى تعبر "القنطرة" وتختفي في "مدينة ما بين الجسور"، أو في التلال التي وراء "جسر المسلخ".

تبقى قريبة من الجدران، وتسير راسمة دائرة عريضة حول المربعات السكنية حتى لا تعود من نفس الطريق الذي جاءت منه. أُضيفت للبيوت أبواب أمامية إضافية بعد تشييد المزيد من الجدران الداخلية لتوفير سكن للمزيد من الأسر. تتبع أنا استينا أحد مجاري المياه وتنزلق عبر فجوة في سياج، تبقى مستلقية بعض الوقت، متيقظة لرصد أي تحركات. ما من شيء.

الباب الذي يستخدمه النجار المتلمذ ألمّ وزوجته الخنوعة مغلق، لكن من السهل رفع المزلاج بعضا، تخطو أنا استينا إلى الرواق المظلم، متسللة عبر الأرضية الخشبية التي يغطي أنينها شخيرُ ألم، وتبلغ باب الغرفة التي كانت تشاركها إياها أمها ماجا، لا تحتاج إلى الرؤية كي تجد ما تبحث عنه، وفي طريق عودتها إلى الخارج تتوقف، في المطبخ لديها قدر طبخ نحاسي،

مهترئ من كثرة الاستعمال لكنه كلف مبلغًا استغرقًا أشهرًا لسداده، تقطع نصف المسافة إلى المستوقد، وعندئذ يلامس طرف سيف كتفها.

- أوه، أنا استينا، بدأنا نظن أنك لن تعودى إلى البيت الليلة، أليس كذلك يا تيست؟

تتكيف عيناها مع الظلام، وترى أن القصير هو الذي يتكلم، وتيست، الطويل، يتمم بكلمات غير مسموعة، فيهز القصير كتفيه.

- لم يقدر الرجل على تكوين جملة صحيحة واحدة منذ أن أُرعبه الروس حتى نسي الكلام، أما أنا، فاسمي فيشر، وقدرتي على الكلام تعوّض صمته، وهذا من دواعي سرور كلينا. هلاً تلتطفتِ وقعدتِ على هذا المقعد ريثما يشعل تيست شمعة، وربما لديك في كيسك الصغير لقمة فتُكرميننا بها.

يصدر تيست شرارات مستخدمًا قطعة فولاذ وحجر صوان، وينخر عندما تضيء الشعلة الغرفة، أحد محجري عينيه فجوة مظلمة، وفيشر، قصير وممتلئ، ذو شعر خفيف ممشط فوق قمة رأسه الأصلع، ولديه شارب مسود قليلاً لا يخفي الندبة المرسومة على شفته، ينقّب في كيس أنا استينا والتقرز بارٍ على وجهه، ويمدد ساقه اليسرى ذات الركبة المتخشبة أمامه على الأرضية.

- سمك متعفن، وخضروات فاسدة... حسنًا، على الأقل توجد حفنة قهوة هنا. تيست، هلاً أوقدت المستوقد، يمكننا على الأقل أن نعد لأنفسنا شيئًا نشربه.

فوق رف المستوقد توجد مطحنة قهوة، يرفعها فيشر من مكانها، ويضعها على ركبته ويفرقع أصابعه ليجذب انتباه أنا استينا، ممسكًا ببضع حبات بُن في قبضته.

- سأعلمك درسًا بسيطًا في طبيعة الأشياء، فلتكن حبات البن الصغيرة هذه أنا استينا كتاب وصويحباتها اللاتي يتسللن في أنحاء الحي ويباعدن ما بين سيقانهن مقابل ملاليم.

يشير إلى المطحنة.

- وهذه أنا وتيست، وتوسّعًا، كل السُلطة والنفوذ الذي نجسده.

يصب حبيبات البن بين أسنان المطحنة، ثم يدير المقبض، فتتقطع الحبيبات وهي تُسحق.

- هذه هي العملية التي توشكين على التعرض لها، ربما تبدو لك بغیضة في بادئ الأمر، لكن انظري!

يجذب فيشر صندوق المطحنة من الأسفل ويربها المسحوق الناعم، ويتشممه باستمتاع.

- آه! قهوة، جاهزة للغلي وإمتاع عليّة القوم. صار الطالح صالحًا، وهذا هو مالك يا أنا استينا، عندما تُلقنين الدروس الصحيحة لتقويم مسلك المعوج.

يمضي بعض الوقت قبل أن يبدأ غليان القهوة في القدر. تحدق أنا استينا إلى الأرض، ويميل فيشر للأمام متخليًا عن نبرة حديثه الهزلية، وعيناه تقدحان شررًا.

- تعرفين من نحن، صحيح؟

تعرف أنا استينا. فباستثناء أولاً، لا يوجد أي أحد في أبرشية كاتارينا لا يعرف أصحاب المعاطف الزرقاء، الذين غالبًا ما يكونون عُرجان أو مبتوري أحد الأطراف أو مشوهين بطريقة ما تجعلهم لا يصلحون للخدمة في الشرطة أو الجيش، ليلاً ونهارًا يطاردون الشحاذين، وصغار اللصوص، والمشردين، وبائعات الهوى، وكل من لا يخدم غرضًا من وجهة نظر نظام المدينة الحاكم. معظم أصحاب المعاطف الزرقاء لا يمثلون أي خطر، بما أن أي قطعة نقود يجنونها تُنفق في الحانات، وفي معظم الأوقات يمكن رشوهم، أو إقناعهم بغض الطرف عن جنحة ما بمساعدة نفس السلوك الذي وُظفوا للحد منه. فرقة "حرس المدينة" تُعرف بـ "الفرقة"، وبين الناس هؤلاء الرجال أيضًا يطلق عليهم اسم.

- أنتما خنزيران.

يطلق ضحكة تفتقر إلى روح الدعابة.

- هكذا نُسّمى، وقد ضربت بائسات أضعف منك يا أنا استينا لتلقي إهانة هذه الكلمة دون أن نستحقها، فنحن يقع على عاتقنا الخوض في أحوال

هذه الأحياء المقيتة واقتيادكن إلى طريق الشرف والفضيلة، لقد سئم إلياس ليساندر منكن أنتن العاهرات الوضيعات، اللاتي يستشرين بين رعيته كالبراغيث، وأصبحن يبدأن العهر في سن مبكرة على ما يبدو، سئم راعي الأبرشية من التعرض للخزي أمام "المجلس الكنسي"، وبمساعدتنا لن يتعرض له، فنحن نقبض على المومسات مقابل عمولة، ولن يُساءل راعي الأبرشية عن شيء. ما علينا سوى انتظار أولى خيوط الفجر، وعندئذ سنسير إلى دار القضاء ونقف عندها وقفة قصيرة قبل أن نستأنف طريقنا بمحاذاة "الخليج المذهب". لن تضطري إلى الانتظار مدة طويلة، سوف ترين.

لا تجرؤ أنا استينا على طرح الأسئلة التي تعرف إجاباتها سلفاً، لكن لم يعد بمستطاعها كبجها مدة أطول، فيخرج صوتها بالكاد:

- ما الذي تريدانه مني؟ إلى أين ستأخذانني؟
- نريدك أن تقومي مسلكك. لا، كذبت... أنا وتيست نريد أن نقبض عمولة القبض عليك، ولا أكثرث البتة بمصيرك.

يصدر تيست صوت مزيج من الحشجة والقهقهة وفيشر يردف:

- وفيما يتعلق بالوجهة، فأنت، يا أنا استينا كئاب، سوف تُقيدين بحبل وتُقْتادين إلى دار الإصلاح، إنك فراشة ليل صارت مهیضة الجناح للتو.

الفصل الثالث والثلاثون

يجري كل شيء بسرعة كما قال فيشر، تُقتاد أنا استينا هبوطاً عبر تل كاتارينا في الهواء المشبع بالندى، مع حبل مربوط بمعصمها الأيمن، تلاحقها هتافات ساخرة من العمال الذين تجرعوا مصيراً مماثلاً ذات يوم. ينتظرون في دار القضاء الجنوبية من أجل جلسة سماع تنتهي في غضون دقيقتين، بعد شهادة موجزة مكتوبة سلّمها ليساندر سلفاً وأوضح فيشر تفاصيلها بنفسه، وإثر بضع كلمات توبيخ، يُحسم مصيرها.

تُدان أنا استينا كذاب بتهمة الدعارة، وترحيلها إلى دار الإصلاح يعضده مبرر آخر، وهو حقيقة أنها فقدت الوصي عليها، وبالتالي فقدت من يعيها، لا سيما مع عدم رغبة البقال إفرام جانسن في التعامل معها. القاضي ذو بشرة محمرة ووجه متورم وعليه آثار الثمالة، يطارد قملة على صدره تحت قميصه وهو يردد الكلمات التي تنساب منه بسلاسة توحى بالتمرس:

- تأمل المحكمة أن تكون مهارات مهنة الغزل التي سوف تكرس كذاب لها نفسها في دار الإصلاح كافية لتوظيفها في مجال صناعة الملابس. مع وضع هذا في الاعتبار، ستكون العقوبة عامًا ونصف، بعدها ستكون بلا شك غازلة على جانب من المهارة.

يطلق ضحكة خافتة راضيًا عن نفسه وألمعيته ومطرقتة تهوي، ويتفحص القملة التي سحقها بين إبهامه وسبابته، ثم يمسح يده على حاشية رداؤه.

تُقَاد أَنَا اسْتِينَا بَعِيدًا عَنْ مَنْصَةِ الْقَاضِي قَبْلَ أَنْ يَتَسَنَّى لَهَا الْوَقْتُ لِلِاحْتِجَاجِ أَوْ طَرَحِ أَيِّ أَسْئَلَةٍ، وَخَلْفَهَا صَفٌ طَوِيلٌ مِنَ الْمَرَاقِبِينَ، جَاهِزِينَ لِتَقْدِيمِ غَنَائِمِهِمُ اللَّيْلِيَّةِ أَمَامَ الْقَانُونِ. يَقْتَادُونَهَا بِصَمْتٍ مِتْجَاوِزِينَ صَفُوفَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، بَعْضُهُمْ مَخْمُورُونَ لِدَرَجَةِ عَجْزِهِمْ عَنِ الْوُقُوفِ، وَبَعْضُهُمْ يَعْتَنِي بِكِدْمَاتٍ دَامِيَّةٍ مِنْ شَجَارَاتٍ وَقَعَتْ مَوْخِرًا. وَخَارِجَ دَارِ الْقَضَاءِ تَمْتَدُّ "السَّاحَةُ الرَّوسِيَّةُ"، يَتَنَاقَبُ فِيشِرٌ تَحْتَ شَمْسِ الصَّبَاحِ، وَيَمُدُّ سَاقَهُ الْمِتْخَشِبَةَ وَاضِعًا يَدَهُ أَسْفَلَ ظَهْرِهِ.

- عَلَيَّ اللَّعْنَةُ إِذَا قَطَعْتَ الْمَسَافَةَ إِلَى "النَّدْبَةِ" سَيْرًا، فَلْنَسْتَقِلْ وَسِيلَةً مَا. يَوْمِي تَيْسَتْ، وَيَحَاوِلُ فِيشِرٌ بَلَا جِدْوَى إِعَادَةَ إِشْعَالِ غَلِيُونِهِ الْمَكْسُورِ، لَكِنَّهُ يَتَوَقَّفُ عِنْدَمَا يَرَى عَرَبِيَّةً مَحْمَلَةً بِحَطْبِ النَّارِ قَادِمَةً مِنْ نَاحِيَةِ الْمِينَاءِ، يَجْرُهَا ثُورٌ عَلَى مَهْلٍ. يَهْرَعُ لِيتَكَلَّمَ مَعَ الْحُوذِيِّ، وَبَعْدَ مَحَادَثَةٍ مَقْتَضِبَةٍ يَلُوحُّ لِتَيْسَتْ، وَيَجِدَانُ مَكَانًا بِالْخَلْفِ، فَوْقَ جَذُوعِ أَشْجَارٍ قُطِعَتْ قَبْلَ وَقْتِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ، يَمْسِكُ فِيشِرُ الْحَبْلِ الَّذِي يَقِيدُ أَنَا اسْتِينَا وَيَعْقِدُ طَرَفَهُ بِإِحْدَى عَوَارِضِ الْعَرَبِيَّةِ.

- إِنِنَّا نَنْتَظِرُ رَاكِبَةً أُخْرَى، لَنْ يَسْتَعْرِقَ تَيْسَتْ سِوَى لِحْظَةٍ لِلذَّهَابِ وَإِحْضَارِهَا.

وَعِنْدَمَا يَعُودُ تَيْسَتْ خَارِجًا مِنْ بَوَابَةِ دَارِ الْقَضَاءِ، يَعُودُ وَمَعَهُ كَارِنُ إِرْسَنِ عِنْدَ الطَّرْفِ الْآخَرِ مِنَ الْحَبْلِ، "الْحِيْزِيُونُ"، وَيَوْمِي فِيشِرٌ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ أَنَا اسْتِينَا عَرَفْتَهَا.

- حَصَلْنَا عَلَيْهَا بِوَصْفِهَا عِلَاوَةَ عَلَى الصَّفْقَةِ، بِفَضْلِ فَتَاةِ السَّلَةِ الْبَلْهَاءِ، وَهَذِهِ الْغَنِيمَةُ لَمْ تَرْغَمْنَا عَلَى الْمَطَارِدَةِ، كُلُّ مَا فَعَلْنَاهُ هُوَ تَتَبِعُ حَمْحَمَةَ صَانِعِ جِرَارٍ مَسْتَثَارٍ، وَتَمَكَّنَا مِنَ الْقَبْضِ عَلَى الْآنَسَةِ إِرْسَنِ مِتْلِبَسَةً بِالْجُرْمِ، إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ.

وَعِنْدَمَا يَقْتَرِبُ تَيْسَتْ، تَرَى أَنَا اسْتِينَا "الْحِيْزِيُونُ" مِنْ كَثْبٍ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْذُ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، فَسْتَانَهَا مِتْكَتَلُ بِالطَّيْنِ الْجَافِ، وَظَهَرَهَا الْمَعُوجَ يَكُونُ حُدْبَةً فَوْقَ إِحْدَى كَتْفَيْهَا، هَيْئَةً تَعْلَمْتُ جَمِيعَ فَتَيَاتِ السَّلَالِ تَحَاشِيَهَا مِنْ بَعِيدٍ، تَبْدُو "الْحِيْزِيُونُ" فِي حَالَةٍ أَزْرَى مِمَّا رَأَيْتُهَا أَنَا اسْتِينَا آخِرَ مَرَّةٍ، فَجَسَدُهَا الطَّوِيلُ

المهزول ازداد نحولاً في فترة الشتاء، وشعرها متشابك بأقذار الشارع لدرجة أنه يبدو شائبًا، وقفها مكسو بدم جاف، ملابسها رثة، وقدمها حافيتان ومقرحتان، لا بد أنها ظلت تنام بالخارج منذ أسابيع، عيناها الزرقاوان الداكنتان مفتوحتان على اتساعهما وتحملقان، وقد رأَت أنا استينا النظرة نفسها في أعين الدببة المروضة التي تقيّد بالسلاسل وترغم على الرقص في "المنتجع الملكي" ومدربوها يفرقعون بسياطهم، عينان مخضلتان بغضب مكتوم، عاجز ويائس لكنه متأهب للاشتعال كالكبريت، مع مزيج من جنون منسوج بعناية لإبعاد الخوف.

يدفع تيست "الحيزبون" أمامه إلى العربة، فتصوب نظرة خاطفة نحو أنا استينا قبل أن تثبت تحديقتها على عُقدة في الخشب. يضرب السائق الثور فيتحرك وتبدأ العربة التدحرج أعلى التل، يمر الطريق بسجن المدينين قبل أن ينعطف نحو الخليج، ويتجاوز طاحونتين هوائيتين عتيقتين، وعندما يتعرج الطريق مرة أخرى، ترى أنا استينا جزيرة "الندبة" للمرة الأولى، بعد "جسر المشغل" مباشرة، الجسر الذي سمعت أنه يُطلق عليه اسم "جسر التنهّدات".



الجزيرة صخرية قاحلة، وما عليها من تراب يغطي الصخور لا يكفي ليكون مهد أي حياة، وعند الجانب البعيد من الجسر تصطف سلسلة مبانٍ وخلفها يلوح المشغل نفسه، لم تر أنا استينا شيئاً مثله في أبرشية ماريا ولا كاتارينا، على مقربة منها ينتصب برج مصلى المشغل، ويتدلى جرس وحيد أسفل سقف يرتفع فوقه صليب وراية مثلثية، وخلف البرج تمتد أجنحة ذات نوافذ مزودة بقضبان. يقول كبار السن إن بعض الأماكن تحتفظ بذكرياتها وقواها، تصدق أنا استينا هذا القول، إذ شعرت بقشعيريات باردة في ساحة الإعدام في هامرباي وقرب المقابر الجماعية لضحايا الطاعون، وشعرت ببقايا ارتياح عالقة عند الحصان الخشبي وسيراق التشهير، حتى إنها استشعرت شيئاً في أرجاء المصانع، كما لو أن قطع القرميد مشبعة بالغل، وعندما تعبر الجسر تجتاحها موجة مشاعر شبيهة بما شعرت به سابقاً، تغمرها من جدران المشغل دفقة كراهية قديمة، كراهية تتراكم منذ عقود. إنه مكان شقاء.

تسمع صوتًا قادمًا من يسارها، آخر صوت تتوقع سماعه في هذه الأجواء الكالحة، شخص يغني، يأتي الصوت واضحًا في هدأة الصباح، يتيح للمرء معرفة أن المغني كان بارعًا في شبابه، الألحان مضبوطة على الرغم من أن الصوت الجهوري فقد معظم جرسه.

- إله الليل هنا يتأهب لأخذ فريسته...

تأتي الأغنية من بيت ضيعة عالٍ جوار الطريق عبر نافذة مفتوحة، الجزء الخارجي من المبنى مطلي باللون الأصفر المزرق المنتشر في جميع أنحاء "مدينة ما بين الجسور"، لكن حالته تدهورت لقربه من الماء، إذ أنشبت الرطوبة والتلوج مخالبهما في الجص وانتزعت منه كُتل ضخمة. وعندما تدنو العربة من المبنى الرئيسي، ترى أنا استينا أن حالته مماثلة، ثم يتلاشى الصوت خلفهم:

- في أعماق الغياهب المدلهمة، هناك سوف أجد طريقي...

يوقف الحوزي ثوره، ويحل فيشر وتيست واثاق "الحيزيون" وأنا استينا وينزلانها من خلف العربة، ثم يلقي فيشر نظرات خاطفة على جانب الطريق قبل أن يتكلم مع الحوزي:

- ها نحن يا صديقي، حان وقت سداد أتعابك. أيتها الفتاتان! من فضلكما ارفعا تنورتيكما لرجلنا الصالح هذا وكونا سخيّتين معه.

تتردد "الحيزيون"، لكنها تهز كتفيها، ثم تطلق ضحكة عالية وتخرج لسانها للحوزي وفي الوقت نفسه تفعل ما أمرت بفعله. يعتري أنا استينا الإحساس نفسه الذي كانت تحس به عند وقوفها أمام ليساندر، امتعاض مرير مما يُسلب منها، هذا الشيء الصغير في أعين العالم لكنه عظيم الأهمية عندها. ومرة أخرى تقف كأنها مشلولة، تكوّر قبضتيها بشدة حتى تنغرس أظفارها في يديها، ويشير الحوزي نحوها متهمًا ويعرب عن امتعاضه:

- ماذا عن تلك الصغيرة؟ هذه الشمطاء لا تسر النظر، وإذا كانت وحدها لما وافقتُ أبدًا على قطع كل هذه المسافة إلى هنا.

يحدج فيشر أنا استينا بنظرة مسمومة ويشير صامتًا إلى تيست، الذي يحل هراوته من حزامه، وعندئذٍ يفتح بابّ خلفهم، ويخرج منه رجل يرتدي

عباءة القساوسة السوداء، يتوقف عندما يرى المجموعة الصغيرة جوار العربية ويتفحصهم بتساؤل. القس طويل نحيل، ذو شعر رمادي أشعث، عيناه جاحظتان، بؤبؤاهما معلقان وسط البياض، وجفناه يرمشان بانتظام خارق، يبدو كأنه يستشعر خطبًا ما، فيسير مقتربًا ويحدق إلى فيشر وتيست بنقمة بادية.

- تكلم.

ينتزع فيشر قبعته الزرقاء بسرعة ويجيب بنبرة توقيف:

- فيشر وتيست، رقم اثني عشر وخمسة وعشرين من الحرس، أتينا لتسليم مبتدئتي غزل جديدتين إلى عناية المفتش بجوركمان.

ينخر القس ويقترب منه حتى لا يفصل أرنبة أنفه عن أنف فيشر سوى عرض إصبع، ويفرس الأخير كاحليه في الأرض كي لا يترنح للوراء.

- عناية المفتش بجوركمان قلت لي؟ لا أصدق أنك تقصد نفس المفتش بجوركمان الذي يمضي أيامه في الخوار بأناشيد قديمة من زمن منسي على مسرح الأوبرا، ربما مراثيات للعاهل الذي عينه في منصبه لا لشيء سوى إشباع شراهته التي لا يؤثر عليها شيء سوى النييد والاستمئاء. ليس هذا المفتش بجوركمان بلا شك.

يقف فيشر مخزيًا لا يدري ما ينبغي له قوله، وعيناه تكادان تترقرقان بالدموع عندما يحاول النظر إلى عيني القس.

- تبدو كأنك فقدت لسانك يا فيشر، اسمح لي بتنويرك، حتى يمكنك الإجابة بنفسك عندما يأتي أحدهم على ذكر المفتش بجوركمان مرة أخرى. بجوركمان قواد لقيط، خنزير في إرهاب بشر لن يتردد في أن يدخل إلى حظيرة ويتسافد مع البقرات، ويتمرغ في الطين منتشياً، ثم يُفزع سكان أبرشية ماريا أيما فزع بشخيره الرعدي.

يعلو صوت القس مع كل كلمة، ويتطاير اللعاب من شفثيه كلما لفظ حرفًا ساكنًا. تدرك أننا استينا أن نظراته النارية ليست ما تجعل عيني فيشر تدمعان، إنما رائحة الكحول الحارقة التي تنبعث منه وتبلغها الآن، على الرغم من أنها تبعد عنه مترين ويهب نسيم خفيف من المياه.

- لكن بالنظر إلى بطنك يا فيشر، ربما تكون مخلوقًا من الطينة نفسها.
يشرح القس في السير حول فيشر، ويدها خلف ظهره، كأنه قائد عسكري صارم يجري تفتيشًا.

- حسنًا يا فيشر، هل ألقىت أي نظرات اشتهاة نحو ماشيتنا في طريقك إلى هنا؟ ربما لمحت ثورًا مهتاجًا ورغبت في القفز فوق السياج لتأخذ مكانك وعجيزتك في الهواء. البهائم ليست ضمن مسؤولياتي، وما إذا كانت لديها أرواح يمكن إنقاذها أم لا، هذه مسألة لا أقدر على البت فيها، لكنني أعدك بأنني لن أتردد في رميك في الجحيم لو أن لي سلطة. وفي الحقيقة أحتك على الذهاب إلى الجحيم الآن، بسرعة، حالما تدخل غنائمك عبر البوابة وتنتهي من تسجيلها.

يتفصد العرق على جبين فيشر من جهده ليتمالك نفسه، فيهرع ممتنًا ويحل قيود ذراع أنا استينا، ثم يقرب شفثيه من أذنها ويهمس بكلمات الوداع:
- إذا التقينا مرة أخرى يا أنا استينا كنان، يجدر بك أن تبتهلي لجميع الآلهة أن تكوني أنت من ترينني أولاً.

يدفعها مع "الحيزبون" إلى داخل البوابة حيث ينتظر حارس يرتدي الزي الأزرق نفسه، ويختفي القس خلفهم متجهًا إلى البيت الذي جوار الجسر، مترنحًا قليلًا في مشيته ومتمتمًا مع نفسه كأنه ما يزال يقرع فيشر، الذي يبصق فوق كتفه.

- إذن ذلك هو القس نياندر، سمعت أن الرجل فاقد صوابه، والآن صرت متيقنًا.

يضحك المراقب الذي عند البوابة بخبث، وهو أكبر سنًا، وذو جلد غشيته البقع، ودون شعر أو حاجبين.

- يؤسفني سماع هذا، كل زميل تتقاطع طرقه مع نياندر فهو عاثر الحظ بلا شك.

- ما خطبه؟

- عدا عن افتقاره إلى الحس السليم، سمع مؤخرًا أن مغنينا ذا الصوت الجهير ومفتش المشغل بجوركمان قد قدم استقالته، وينوي التقاعد في سافولاكس.

- لكن بالنظر إلى شعوره حيال المفتش، قد يظن المرء أنه سيبتهج بابتعادهما عن بعضهما.

- أوه، هذان الاثنان لهما تاريخ معقد، إذ أمضى القس أعوامًا في كتابة الخطابات النارية احتجاجًا على بجوركمان وإرسالها إلى كل سلطة قد تخطر على بالك، حتى جلالة الملك الراحل غوستاف نفسه، وهذه كلفته غرامة مقدارها عشرون دالرًا عقابًا على نبذة رسالته التي لا تليق بأصحاب السمو. ويقال إنه رفع نخبًا بالشمبانيا في نفس ساعة سماعه بأن الملك أردي قتيلاً بطلق ناري. تخميني هو أن نياندر مستاء من أن بجوركمان -باستقالته- سيفلت من الانتقام الذي ظل القس يطبخه له منذ أمد بعيد.

- من سيحل محل بجوركمان؟

- لا أحد يدري، لكن قد يستغرق الأمر الخريف بأكمله، وربما مدة أطول. من بحق الجحيم يريد الاستقرار في هذه الجزيرة؟ وبجوركمان، بطبيعة الحال، ظل يهمل واجباته منذ عشرين عامًا، وإهماله هذا، على الأرجح، كان الطريقة الوحيدة للحفاظ على رشده. لا أظنني رأيت في المشغل منذ الشتاء. يقيم نياندر صلواته صباحًا ومساءً، وعادة ما يكون ثملًا ولا يمكنه تلاوة شيء ليخلص روحه هو، وفي كل الأحوال لا يكثر البتة بالنزليات إلا إذا أمكن استعمالهن ذخيرة في معركته مع بجوركمان. على أي حال، بيترسن هو من يدير هذا المكان، كما تعرف، ولن يتغير هذا الوضع بسهولة لأن مفتشًا جديدًا وُلِّي علينا.

- اللعنة! يا لها من بؤرة بؤس! الرب يعلم أنني ليس لدي الكثير مما أمتن له، لكن اجتناب عش الدبابير هذا إحداها. إليك غازلتان جديدتان، عاهرتان كلتاها. حظًا موفقًا يا صغيرتي.

يلامس فيشر حافة قبعته، ثم يدور على عقبه ويعرج خارجًا عبر البوابة.

الفصل الرابع والثلاثون

المراقب ذو الوجه المحروق ينادي زميلًا له أصغر سنًا، ويجذب المزلاج ويدخل ثلاثتهم إلى الفناء الداخلي، المنبسط حول بئر مزودة بمضخة، تبدو السماء المربعة فوقهم بعيدة كأن أنا استينا تنظر إليها من قاع منجم، ومن خلف نوافذ الأجنحة، المزودة كلها بقضبان، تلمح هيئات شبحية منكفئة على عملها. والجانب البعيد من الساحة يشغله مبنى قديم، مشابه لبيوت الضياع التي رأتها أنا استينا على تخوم الجزيرة الجنوبية، التي سُيدت قبل أكثر من قرن من أجل رفاهية الأثرياء، لا بد أن المبنى كان هنا أولًا ثم صار جزءًا من المشغل مع تشييد بقية المباني. يتوقف المراقب على الحصى، إذ يتعين عليهم انتظار الناظر.

الناظر ليس في عجلة من أمره. وإذا كانت "الحيزبون" تشعر بالتوتر نفسه الذي تشعر به أنا استينا، فهي لا تظهره، إنما تزعج أحد المراقبين الذين أرسلوا لمرافقتهم، تتقافز وتساءل عن المرحاض، ويهز المراقب كتفيه.

- يجدر بك أن تلزمي الصمت إذا لديك أي عقل في رأسك، سيكون بيتر بيترسن هنا عما قريب، ومن مصلحتك بذل كل ما بوسعك حتى لا تغضبيه.

ترمقه "الحيزبون" بنظرة ساخطة، وتكشّر عابثة حالما يشيح بوجهه عنها. ينتظرون.

الناظر رجل ضخم، منكباه أعرض من ذراعي أنا استينا وهما ممدودتان، والزي الأزرق لا يحتوي جسده، إذ يرتدي قميصه مفتوحًا، وتشك أنا استينا في قدرته على إغلاق الأزرار حتى إذا أراد، يتصبب عرقًا من الحر، وجهه

ضخم مستدير، ويشقه فم واسع يمتد من الأذن إلى الأذن، وذو أنف عريض ومعوج يبدو كخطم حيوان، وعينان ثاقبتان تستقران عميقًا في لحمه المنتفخ، كتلة شعره السميقة معقودة عند عنقه، جلده مكسو بندوب قديمة، وصوته جهوري أجش.

- مرحبًا بكما في سقيفتنا المتواضعة يا صغيرتي، اسمي بيترسن وأنا ناظر هذا المكان بالتعاون مع زميلي هايبينيت، وقد قرّر حضوركما إلى هنا من أجل تقويم مسللككما المحفوف بالخطايا. ما اسماكما؟

المراقب الشاب هو الذي يشير ويجب:

- أنا استينا كئاب، وكارن إرسن.

يلقي بيترسن عليهما نظرة فاحصة، فتغض أنا استينا بصرها بالطريقة التي تعلمت أن الرجال يفضلونها، في حين تبادل "الحيزبون" التحديق بتحدٍ، متمائلة في مكانها مع رغبتها في قضاء حاجتها المُلحّة، فيشير إليها بيترسن بكف ضخمة كفخذ خنزير.

- ما بال الأنسة إرسن؟

- تقول الفتاة إنها بحاجة إلى التبول.

- أهذا صحيح يا آنسة إرسن؟ لا بد أنك معتادة التجول وحرية التبول متى ما شئت وحيثما شئت كسباع البرية.

تنتظر "الحيزبون" قليلاً قبل أن تجيب، وتستشعر أنا استينا التحدي المُضمر الذي تنطوي عليه كلمات بيترسن، على الرغم من أنه يتكلم بنبرة لطيفة ساخرة، وتبتهل سرًا أن تتحلى كارن إرسن بما يكفي من التعقل فلا تقبل التحدي، لكنها تقبله، تميل ذقنها وتبصق بإجابتها:

- ليس من شأن أي أحد أن يتدخل في كيفية إفراغ مثانتي.

تنعقف زاويتا فم بيتر بيترسن بابتسامة تبعث القشعريرة في جسد أنا استينا، يبدو كقط حظيرة ضخم وقد ظفر للتو بفأر بين مخالبه، يرطب شفثيه ببطء بطرف لسانه وهو يسير مقتربًا منها.

- دعيني ألقى نظرة عليك.

يمسك بذقن كارن إرسن بين إبهامه وسبابته ويرفع وجهها نحو الضوء.

- أه... أعرف مثيلات الأنسة إرسن، إنهن يُضفين البهجة على حانات المدينة ومواخيرها. أتحبين الرقص؟

ترغب أنا استينا في إخبارها بالأبتلع الطعم، وأن تمسك عليها لسانها أملاً في أنه سيمل من هذه اللعبة، لكن ليس بيدها حيلة، تبتسم "الحيزبون" ابتسامة واثقة.

- بالطبع يمكنني الدوران بضع مرات على ساحة الرقص. يتصنع بيترسن الإعجاب ويلتفت إلى زميله.

- أليس هذا ما ظننته؟ إنني أعرف فتيات مشغلي تمام المعرفة. هل أنت راقصة بارعة يا أنسة إرسن؟ أم تميلين على شريكك مثل جوال بطاطس وتشعرين بالتعب بعد جولة أو جولتين من الرقص؟ تطلق الحيزبون ضحكة مريرة.

- من تقف أمامك يمكنها الرقص طوال الليل في حين تُنهك الأخريات ويتساقطن على الأرضية! يوميء بيترسن.

- هذا ما تقولينه! وددت لو أمكنني تصديقك، لكنني تعلمت أن الناس كثيرًا ما يبالغون في تقدير مقدراتهم، هلاً رقصت لي قليلاً هنا؟ من أجلي فقط.

تتردد "الحيزبون"، وبعد مدة لا تدري ما عساها أن تفعله سوى التقافز قليلاً وهي واقفة في مكانها، فيهبز بيترسن رأسه.

- لا، لا. حول البئر، هكذا نُؤدي رقصاتنا هنا في "الندبة"، لم لا ترقصين حولها مرتين حتى نرى مدى براعتك؟

يقدم لها مرفقه، وينحني ويفرك قدمه، ثم يقودها إلى البئر حيث تميل المضخة فوق حوض حجري لجمع الماء المتدفق. في البداية تبدو "الحيزبون" غير واثقة من نفسها، لكنها تستجمع عزمها، وابتسامة تضع ذراعيها حول شريك غير مرئي وتشرع في الرقص على إيقاع ثلاثي لا يسمعه سواها، تدور حول البئر مرة مع دورانها حول نفسها بلا انقطاع، فيصفق بيترسن ويصفّر.

- مرحى! يا للأداء الرائع! اتضح أن الأنسة إرسن يمكنها الرقص في نهاية المطاف، هل لنا أن نطلب جولة أخرى بالأداء المُقنع نفسه؟

جولتها الثانية تشبه الأولى، لكن عندما يطلب بيترسن جولة ثالثة ثم رابعة، تتلاشى الطرافة والحماسة، تسأم "الحيزبون" من اللعبة، وتتدلى ذراعاها إلى جانبيها ويتباطأ إيقاعها، وعندما يصفق بيترسن ويطالب بدورة أخرى حول البئر، تبطئ سرعتها حتى تتوقف، وتعدد ذراعيها أمام صدرها.

- رقصت بما فيه الكفاية الآن، لم يعد الأمر ممتعاً، وما زلت بحاجة إلى الذهاب إلى المرحاض أو إلى أجمة إذا لم يوجد غيرها، أو خلف أي زاوية.

دون أن تتزحزح عيناه عن كارن إرسن، يفرقع بيترسن أصابعه للمراقب الواقف جوار أنا استينا، فيسير الشاب دون كلام قاطعاً الفناء ويخرج عبر باب أحد الجناحين. يتجرد صوت بيترسن من أي نبرة هزلية عندما يعاود الكلام:

- يمكنك التبول لاحقاً، الآن سترقصين، هيا يا آنسة إرسن، جولة أخرى، سيعود لوف حالاً، وسيجلب معه مفاجأة صغيرة لنا، أمامك وقت لجولة إضافية قبل عودته، أو ربما جولتان إذا حالفك الحظ.

لا تعود حركاتها تشبه الرقص في شيء، إنما أقرب إلى هرولة تتخللها قفزة من حين لآخر، وعندما يعود لوف، المراقب، يعود حاملاً كيساً صغيراً فوق كتفه، ويخطو بيترسن بضع خطوات مقترباً من "الحيزبون"، يناوله لوف الكيس، فيرفعه أمام "الحيزبون" بذراع سميكة كجذع شجرة.

- "المعلم إريك" في هذا الكيس، سوف أعرفكما إلى بعضكما حالاً. ومن الكيس يُخرج سوطاً جليدياً مجدولاً طويلاً ذا مقبض متين، يبلغ طوله قرابة ذراعين، وينتهي بطرف رفيع مستدق.

- ربما لم تَرِي سوطاً كهذا من قبل. لن نحتاج إلى مساعدة "المعلم إريك" ما دمنا نحافظين على إيقاعك، أريد جولة أخرى الآن، مع المزيد قليلاً من التأرجح، من فضلك.

ترقص "الحيزبون" ثلاث جولات ونصف قبل أن يهوي بيترسن بضربته الأولى، وكانت قد أبطأت سرعتها حتى صار بمقدور بيترسن مجارة سرعتها بخطواته البطيئة الواسعة، يتردد صدى فرقعة السوط بين جدران الساحة، ويعقبه صراخها، طرف الجلد الرفيع عند نهاية السوط يقع فوق كاحلها ويرسم كدمة حمراء، تعض شفتها كي تكبح دموعها، لكن من سماع تنفسها المضطرب يمكن للمرء معرفة أن كارن إرسن على وشك البكاء، وهذا ما يلاحظه بيترسن أيضًا.

- أوه، لكنك لم تزي شيئاً بعد يا آنسة إرسن، بمقدور "المعلم إريك" إنزال ألم أفضح بكثير، تابعي الرقص وسنرى ما إذا سيضطر إلى أن يكون شريكك في الرقص مرة أخرى.

تطل وجوه من النوافذ المحيطة بالساحة، وجوه كالحة مهزولة. ترقص "الحيزبون" خمس جولات إضافية، ثم يضرب بيترسن مجدداً، هذه المرة على ريلة ساقها، بقوة تجعلها تنزف، وبعد سبع جولات أخرى، تفقد "الحيزبون" سيطرتها على مثانتها وترقص بتنورة مبللة، ويلسع الملح قروحها، فيبدأ البكاء، بصوت يكاد لا يُسمع في بادئ الأمر، ثم يتصاعد النواح، وسرعان ما لا يكاد المرء يميز أصوات العويل التي تصدرها عندما تقع جلدة عن بقية عوائها، تتضرع وتنتحب، وتعد بيترسن بشيء تلو الآخر، فلا يلقي لها بالاً، وأخيراً تنادي أمها بصيحات طويلة مستنزفة، كل البأس الذي اكتسبته "الحيزبون" طوال سنوات حياتها في شوارع أبرشية ماريا يُجرّد منها بالسوط، طبقة تلو طبقة، كما لو أن بيترسن يقشر بصلة أخذها من سلة أنا استينا، وسرعان ما لا يبقى من كارن سوى طفلة مرعوبة، وبعد ساعتين لا تقوى سوى على الزحف، وبيترسن ينهال بمعلمه على فخذها وظهرها. وعندما تبلغ الشمس كبد السماء، يُقرع جرس البرج، فتجرجر الغازلات أقدامهن إلى خارج الحجرات ليُطعمن، بعضهن يشرن ويضحكن على رقصة "الحيزبون"، ومعظمهن لا يقوين على مجرد النظر إليها. وفي أثناء وقوف أنا استينا في مكانها مغمضة العينين، منسيةً وقدماهما ترتعشان من جهد طول مدة وقوفها فحسب، تحس بشيء بداخلها يتخذ اتجاهًا معاكسًا، تتشكل قوقعة صلبة حولها، تسمع الرجل المتوحش يعذب فتاة من أجل متعته والقانون يسانده، دون أن يحرك أحد

ساكنًا ليحتج، بيترسن من نفس فصيلة أندريس بيتر في ”مرجة الأطفال“،
وليساندر في مكتبه، والقاضي في المحكمة، وفيشر وتيست مع هراوتهما
وحبلهما وسيفهما. وفي أثناء رسم ”الحيزبون“ دائرة دماء حول البئر، تقسم
أنا استينا على ألا تكون تلك الفتاة العاجزة أبدًا، أيًا تكن العواقب، وأن تعمل
على مغادرة هذا المكان الدنيء، بسرعة قبل أن تفقد ذاتها وتصبح كالغازلات
اللاتي صرن قطيعًا من الموتى الأحياء الذين يجرجرن أرجلهن، فات الأوان
بالنسبة إلى كارن إرسن، وتعرف أنا استينا أنها لن تعود حيزبونًا بعد الآن.

يلهث بيترسن ويعلو صدره ويهبط تحت قميصه، من جهده، وأيضًا، كما
تدرك أنا استينا مرعوبة، من فرط استنارته. يتوقف ليمسح العرق عن حاجبه،
فيقع بصره على أنا استينا الواقفة جوار لوف، الذي يتململ في وقفته في حر
منتصف النهار.

- أنت! جوناتان! اصطحب هذه الفتاة وجد لها سرييرًا ومكان أكل وعجلة
غزل، واجلب لي قنينة عند عودتك، التأديب عمل يسبب العطش،
ويراودني إحساس بأن إرسن ما تزال قادرة على أداء جولة أو جولتي
فالس، حتى لو لم تصدق هذا بمجرد النظر إليها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الخامس والثلاثون

تتعلم ببطء كيفية سير الأمور في المَشغَل، الغزل هو ما عليها فعله، يومًا تلو يوم، عاكفة على عجلة غزل جوار كثيرات مثلها، عجلة تصدر صريرًا وبالية بعد ساعات عمل لا تحصى. يوقظن عند الرابعة فجرًا، ويُجمعن في المصلى، الذي يتولاه القس الذي حيَّاهم عند البوابة، وعادة ما يعاني آثار ما بعد الشراب لدرجة أن يديه ترتعشان عندما يعتلي المنبر، ومن ثم يُقدِّم إليهن إفطار قوامه قطع خبز وقليل من الجعة في نفس الحجرات التي يعملن فيها، وفيها أيضًا ينمن ليلاً في أسرة ضيقة مرصوفة على امتداد الجدران، يُقدِّم الغداء عند الثانية عشرة، والعشاء عند التاسعة مساءً بعد انتهاء عمل اليوم، قطع يابسة من اللحم المملح وسمك الرنجة الفاسد، مع الشوفان المنقوع واللفت. تقدِّم الوجبات على صحاف خشبية قديمة تتشاركها أربع نساء، وهي لا تكفي لإخماد جوع واحدة، وسرعان ما تكتشف أنا استينا السبب، عند كل وجبة يحضر مراقب وعن طريقه يمكن طلب طعام إضافي، ويسجل المراقب الطلبات في دفتر ضخم. مقابل كل بكرة خيط مكتملة، تتلقى النزيلة راتبًا ضئيلًا يُفترض أن تشتري به الطعام الذي لا يُقدِّم مجانًا، أي الزبدة والجبن والحليب واللحم الذي لم يمضِ شهرًا في محلول ملحي، جميعهن يشترين بهذه الطريقة، فالبديل الوحيد هو مواجهة الموت البطيء بالتضور جوعًا.

وحدة قياس عملهن تسمى "الجديلة"، وهي كل بكرة خيط مكتملة يبلغ طولها ثلاثة آلاف ذراع. تستغرق أنا استينا اليوم الأول بأكمله لتغزل ألف ذراع. يسهل عليها استخدام يدها اليسرى، فصعَّب هذا عليها التعامل مع عجلة الغزل، تكون الأنسجة التي تخرج من بين أصابعها سميكة جدًا أو رفيعة جدًا،

وينقطع الخيط مرارًا وتكرارًا، ويتعين عليها وصل الأجزاء المقطوعة بسرعة لأن مشرف الطابق يتحرك بينهن دومًا ليراقب عملهن. وبحلول المساء تدرك أنها لا تتعلم بالسرعة الكافية، وإذا لم تبدأ غزل خيوط أطول وأفضل، فلن تحصل على الطعام الكافي، وإذا لم تتغذَّ بما يكفي، فلن تقوى على الغزل بالمعدل المطلوب، والجوع ليس غريبًا عليها، وتعرف جيدًا مدى تأثيره السلبي في العقل والجسد معًا.

تتباين أعمار الثلاث الأخريات في مجموعة الأكل التي انضمت إليها أنا استينا، إحداهن عجوز، متغضنة الجلد وهرمة لدرجة أن جسدها يبدو كأنه صار امتدادًا لعجلة الغزل، كما لو أن كيانها بأكمله صار مكرسًا لهذه المهنة ولا يصلح لأي شيء آخر، تتمم مع نفسها في أثناء عملها، ويغطي إحدى عينيها غشاء أبيض حليبي، وتحقق الأخرى إلى الخواء، وتبدو يداها كأنهما تتحركان من تلقاء أنفسهما.

امرأة أخرى في نفس سن أمها ماجا أُجِلست على مبعدة قليلًا، نحيلة ومذعورة دومًا، كلما مر المراقب في أثناء جولاته، تدور عيناها نحو سوطه ويصير تنفسها سريعًا مجهدًا، وعندما يصير المراقب خلف ظهرها، ترفع كتفيها حول عنقها لتحميه من أي جَلدة مفاجئة، وأحيانًا تجفل دون سبب، بعنف حتى ينقطع خيط الصوف الذي في يدها.

والفتاة الأقرب إلى أنا استينا ليس من المرجح أن تكون أكبر منها بسنوات عديدة، ذات شعر فاحم السواد وعينين داكنتين كشعرها، تبقي رأسها منحنيًا على عملها لكن عينيها تتحركان في كل الاتجاهات، تتذبذبان يمينًا ويسارًا وهما مخفيتان تحت خصلات الشعر المتدلية فوق جبينها، تحس أنا استينا بهما يراقبانها وهي تُقاد إلى مكانها وعندما تبدأ الغزل أول مرة، لكن الفتاة سرعان ما تشيح ببصرها. وعندما يدير المراقب ظهره ليحدث زميله الذي جاء لاستلام المناوبة، تميل أنا استينا نحو الفتاة.

- علميني كيف أغزل.

تنظر الفتاة إلى أنا استينا دون أن تغير إيقاع قدمها على دواسة تحريك العجلة التي تجذب الصوف إلى البكرة. ينهي المراقبان حديثهما ويذرع

المراقب الجديد الحجرة جيئة وذهاباً، وعندما يبتعد عن مجال السمع، تهمس الفتاة:

- أريد أجر أول جديلة أساعدك على غزلها.

يلتفت المراقب، لا بد أنه سمع شيئاً لكنه لا يستطيع تحديد مصدر الصوت، وبعدها يجول بناظره بين قرابة العشرين امرأة اللاتي في الحجرة، يستسلم. ويمر بعض الوقت قبل أن تطمئن أنا استينا وتجيب، وقد تسنى لها الوقت لتفكر في عرضها المقابل:

- يمكنك أخذ كامل أجر أول جديلة ونصف الثانية، لكن عليك أن تمهيني وقتاً قبل أن أقبض أجري الأول.

تنظر الفتاة إليها متشككة، وتبادلها أنا استينا التحديق، وتردف:

- إذا لم أحسن طعامي عما قريب، فكلانا لن تجد شيئاً.

تميل الفتاة للأمام وتمد يدها وإبهامها منتصب، تتردد أنا استينا لوهلة قبل أن تمد لها إبهامها، وعندما تتلامس إصبعاهما لتوثيق اتفاقهما، تضيف:

- إذا انقطع الخيط أو شابته العُقد، فسأحتفظ بأجري، ويجب أن تكون الجديلة الأولى جاهزة بحلول مساء الغد.

تبتسم الفتاة ابتسامة باهتة وتنخر.

- اتفقنا، لكن إذا هلكتِ جوعاً قبل أن تتعلمي، فسوف أخذ فستانك وكل ما تتركينه.

تدير عجلتها برفق حتى يمكن لآنا استينا أن ترى، وتغير إيقاع قدمها على الدواسة وتجعل كل حركة أبطأ. تساعد أنا استينا.

لاحقاً في تلك الأمسية، في الطريق إلى صلاة المساء وفي أثناء أدائها، تسنح لهما الفرصة للحديث همساً بين المقاعد. الفتاة اسمها جوانا، تسأل:

- إذن ما رقمك؟

- عام ونصف.

تطلق جوانا ضحكة قصيرة خافتة دون بهجة، وتصمت لوهلة كي تتأكد من أنها لم تلتفت انتباه المراقبين.

- إنك جديدة، هنا لا تُقاس عقوبتنا بالأعوام أو الأيام، بل تُقاس بالجدائل. قَصَدَ عضو المجلس أَلْفَ جديدةٍ عندما قال عامًا ونصف، ويقال إن بإمكاننا غزل سبعمائة جديدة في العام إذا ثابرنَا، جدِلتان في اليوم، أي ستة آلاف ذراع. حتى "العنزة"، العجوز الشمطاء ذات العين الواحدة التي تقعد جوارنا، لا يمكنها إنجاز هذا الرقم، وهي التي أفنت عمرها كله في هذا العمل.

تطرق أنا استينا وهي تجري الحسابات في رأسها، تحاول رؤية مستقبلها القريب، وتحس بالصوف في يديها، تتوقع مدى تحسن مهارتها في الغزل مع تعاقب الليل والنهار، تتخيل قدمها ويدها تعملان بأقصى سرعة ممكنة، وتحاول أن تتصور ألف جديدة، ثم تحس بالنتيجة كأنها لكمة في بطنها.

- ثلاثة أعوام! وربما أكثر.

صمت جوانا مشبع بالتعاطف، صمت من أجزت الحسابات عينها بنفسها وتتذكر الإحساس. تهز كتفيها.

- ربما أربعة أو خمسة. إذا خلقت أعداء هنا، فسوف يفرغون حنقهم على أصابعك أولاً، ثم ستغزلين بكرة واحدة في الأسبوع وتضطرين إلى السرقة كي لا تموتي جوعًا، وإذا قبض عليك فسوف يزيدون عقوبتك. حولهما تحاول النزيلات الأخريات اقتناص بضع دقائق قبل أن يجدهن المراقبون الذين يجوبون الممر بعصيهم الطويلة. تظل الفتاتان صامتين في المقاعد والقس نياندر يقرأ متلعثمًا بضع فقرات من الإنجيل، ثم تميل جوانا نحو أذن أنا استينا مرة أخرى:

- لماذا أرسلتِ إلى هنا؟

- الدعارة، لكنني بريئة. ماذا عنك؟

- للظن أن بريئتين قد يُخصص لهما عجلتا غزل جوار بعضهما.

تهز جوانا كتفيها مرة أخرى عندما تتابع:

- توجد قاتلات وسارقات هنا، وكل ما فعلته هو الاضطجاع مع رجال مقابل ملايم.

عاليًا فوق الفناء، تهيم النجوم في سماء المساء الشاحب. حالما يوصل المراقبون النزيلات من المصلى إلى حجراتهن، يغادرون ويأخذون فوانيسهم معهم، ويُسلمونهن للظلام، وتوصد أبواب الحجرات، يتسلل ضوء شحيح عبر النوافذ فتلقي قضبانها شبكة ظلال على الأرضية. تضطجع أنا استينا مستيقظة، قش فراشها تفوح منه رائحة ننتة ويعج بالقمل، تتراكم الجردان بمحاذاة الجدران بحثًا عن فتات الطعام. يرخي الليل ضبط النفس الذي تمارسه الغازلات بصعوبة في ساعات النهار، ويُسمع نحيب كثيرات منهن وبكاؤهن، وأخريات يشخرن أو يتكلمن في نومهن، أنا استينا أيضًا تحس بوخز الدموع، لكنها تتذكر الوعد الذي قطعته لنفسها فتحقق بقوة إلى السقف. وبعد مدة، تتراقص أشكال وألوان أمام عينيها، جوانا صاحبة السرير الذي جوارها، وتهمس في الظلام:

- هل أنتِ مستيقظة؟

تمضي بضغ لحظات قبل أن تتلقى أنا استينا ردًا.

- نعم، يصعب النوم في الليل على الرغم من عمل النهار الطويل.

- من الاثنتان اللتان تأكلان معنا؟

تتنهد جوانا من سريرها، فهي على الأرجح تُفاضل بين محاولة النوم وفكرة إلهاء نفسها بالتفكير في شيء آخر، وتستغرق بعض الوقت حتى تختار.

- إحداهن ليزا، وهي مختلة العقل قليلًا، كانت متزوجة لكن يقال إن زوجها دفعها إلى الجنون، وجدوها تسير في الشارع ذات صباح ولا تسترها قطعة قماش واحدة، كان يُفترض أخذها إلى المستشفى في "خليج الدنمارك"، لكنهم أرسلوها إلى هنا، لا تقدر على الغزل بسرعة كافية، وقد صارت هزيلة، وقد عُقد رهان حول ما إذا كانت ستنجو حتى سقوط آخر ورقة من شجرة الكستناء في المروج بالخارج، والبعض يقترح الرهان نفسه حتى يبدأ تساقط الثلوج، لكن لم يراهن أحد.

- والعجوز؟

- يسمونها "العنزة"، لأن لديها لحية كما إنها تضع قطعاً صغيرة من الصوف في فمها وتمضغها طوال الوقت، نادراً ما تتكلم بصوت عالٍ، على الرغم من أنها تحدث نفسها وآخرين لا يراهم سواها، وهي الأقدم هنا، تتذكر ما كان هذا المكان يبدو عليه عندما لم يكن سوى ضيعة مملوكة لأهلستيدت، قبل تشييد الجناحين والكنيسة. لقد قسّمونا، كما تعرفين، العاهرات واللصات هنا، واللاتي ارتكبن أفعالاً أفضح هناك، كانت "العنزة" مع المجموعة الأسوأ لسنوات، لكنها صارت عجوزاً غير مؤذية الآن، فقرروا نقلها إلى هنا، وستظل هنا حتى يضطروا إلى حملها إلى الخارج.

- أتعرفين ما فعلته لينتهي بها المطاف في هذا المكان؟
- يقولون إنها ألفت أطفالها في بئر.

تظنان راقدين ساكنتين لمدة دون أن تقولوا شيئاً.

- لا أستطيع البقاء هنا يا جوانا.

ما من رد.

- لا بد من وجود مخرجٍ ما.

تسمع أنا استينا الضحكة الخافتة المريرة مرة أخرى.

- لا يوجد مخرج سُمع به في الآونة الأخيرة، في العام الماضي تمكنت

امراتان في الركن الجنوبي الغربي من خلع قضيب من النافذة، وكنّ

سبعة اللاتي تجاسرن على القفز والركض عبر الجسر، كان حدثاً جليلاً،

والمرة الوحيدة التي رأيت فيها المفتش في المشغل، صوته جميل لكن

يا لصراخه وزعيقه! تحققوا من كل نافذة، وأزالوا أي قضبان صدئة

ووضعوا قضباناً جديدة محلها، وحسبوا جميع المفاتيح، وعينوا لنا

المزيد من المراقبين، وصاروا يجلدوننا لأتفه الأسباب. منذئذ لم تتمكن

أي واحدة من الهروب.

تشعر أنا استينا بأن الأمل بداخلها صار كشمعة في مهب الريح، ويمر

بعض الوقت قبل أن تهمس جوانا بتعليقها الأخير.

- في الحقيقة هربت واحدة، كان اسمها ألما، ألما غوستافسدوتر، كانت في نفس مجموعة "العنزة" قبل أن أحل محلها. ويجدر بك معرفة أنه لا يمر وقت طويل قبل أن تُعاد الهاربات إلى هنا على أي حال، إذ ما على المراقبين سوى التجول بضع مرات في أحيائهن القديمة، ثم يجدوننا ويربطون عقدة جديدة حول أذرعنا ويجروننا إلى العجلة مرة أخرى، فتمتلئ حجورنا بالصوف. لكن ليس ألما، لا أحد يدري كيف فعلتها. تتناهى إلى مسامعها صيحة مفاجئة من جهة الخليج. كانت ماجا كتاب تقول إنه الصوت الذي يصدره البحارة الغارقون، يهتفون من الأعماق بتوقهم إلى اليابسة المقدسة.

الفصل السادس والثلاثون

ينقضي أسبوعان قبل أن ترى أنا استينا "الحيزبون" مرة أخرى، لكن رؤيتها لها تكون بالصدفة، إذ كان من السهل أن تجول بعينيها بين مجموعة النزيلات دون أن تعرفها، صار جسد "الحيزبون" الهزيل منكسماً ومنكفئاً على نفسه، إحدى ساقها معوجة بزواية ترغمها على السير مقوسة الساقين حتى لا ترتطم قدمها ببعضهما، وكل بقعة جلد ظاهرة تحت فستانها يتباين لونها بظلال من الأزرق الداكن والأصفر تتخللها جراح لم تلتئم تمامًا بعد، وتبدو كأنها غير قادرة على إيقاف ارتعاشها. صُيرت "الحيزبون" عجوزاً طاعنة في السن في غضون بضعة أيام، وعندما تلتقي عيناها بعيني أنا استينا، لا يبدو عليها ما يشير إلى أنها عرفتتها. إذا لم يتوقف ارتعاشها، فلن تقدر على الغزل، وقد رأت أنا استينا عواقب العجز عن الغزل في نساء أخريات في حجرتها، تتباطأ حركاتهن تدريجياً حتى يقعدن أخيراً بخمول وتبلد، يكدن لا يلمسن الصوف إلا إذا هدهن المراقب بعصاه، يقل مقدار ما يغزلنه يوماً بعد يوم، فلا يتلقين أجرًا، ولا يستطعن تعزيز وجباتهن، ومع مرور الأيام، يهجر اللحم عظامهن، وفي النهاية يتهاككن ويحملن إلى المستوصف لمدة وجيزة في طريقهن إلى القبر.

بدأت أنا استينا تحمل قطع جبن وخبز في كم فستانها، وعندما تمر بـ "الحيزبون" في الساحة، تحاول إعطاءها الطعام قبل انتباه المراقبين، فتجفل "الحيزبون" كأنها ضُربت، وتعتري وجهها أمارات التشوش والقلق. ويبدو الناظر، بيتر بيترسن، مبتهجاً أيما بهجة بالخنوع الذي صارت إليه الفتاة الوقحة التي لم يقابلها سوى قبل أسبوعين، يستمتع بالتسلل إليها ثم

القفز أمامها صائحًا ”بوو!“، فيضحك أزلامه من المراقبين، لكنهم على الرغم من هذا مختلفون عنه، إذ تُصدّر العقوبات كل يوم، وكل واحد منهم يبرع في استعمال ”المعلم إريك“، لكن لا أحد يضرب بقوة بيترسن المسعورة واستمتاعه.

تهمس جوانا بأن الناس بدؤوا الرهان على كارن إرسن أيضًا، فهي لا تأكل حتى الطعام الذي يُقدم إليها، ولا تدافع عن لُقيماتها عندما تسرقها الأخريات من طبقها، سوف تكون معجزة إذا بقيت على قيد الحياة أسبوعين آخرين. هذا يؤكد ما تعرفه أنا استينا من ذي قبل، لكن كارن إرسن تمضي بوتيرة أسرع، تهرع إلى القدر المكتوب لكثيرات منهن، ربما يُطلق سراح النزليات عندما تدفع عجلات غزلهن الجداول التي حُكم عليهن بإنجازها، لكن قلة قليلة منهن يغادرن ”الندبة“ بأي معنى حقيقي للكلمة، ففي حين يتشبث الجسد بالحياة، يزوي شيءٌ بداخله، ويُعاد تشكيله حتى يلائم حياة مشابهة في المصانع الخارج. ربما كان التحجّر الذي شعرت أنا استينا به بداخلها في أثناء جلد ”الحيزبون“ هو المرحلة الأولى من هذا التحول، الذي ربما يساعدها على النجاة، لكن بثمن ينبغي ألا يرغم أحد على دفعه.

لا تجرؤ سوى في الليل على الكلام بأريحية مع جوانا في الحجرة المظلمة، حيث تختبئ همساتهما بين أصوات النحيب والتأوهات. كلتاها لن تدعو الأخرى بالصديقة، ليس بعد، تعرف جوانا هذا، وتحس به أنا استينا، فمثل هذه العلاقات تصير بسهولة نقطة ضعف، فجوة في الدرع قد يدخل عبرها الخطر، بناء الصلات الوثيقة هنا يمهد الطريق للأسى والخيانة، لذا تقنعان بالاحترام المتبادل. ترى جوانا فيها إرادة النجاة، وتتمكن أنا استينا من شراء معرفة لا تُقدر بثمن، مجرد وجود رفيق لتجاذب أطراف الحديث يكفي، مع رسم حدود حول الأسرار.

- أخبريني بالمزيد عن الفتاة التي اختفت.

- لا أعرف أكثر مما أخبرتك به، يمكنني الاستعلام إذا أردت معرفة المزيد، لكن تحركاتي قد تحفها المخاطر عندما يكون بيترسن متنبهًا، ولن أؤدي المهمة مقابل أقل من نصف جديدة.

مهارة أنا استينا في الغزل أفضل من ذي قبل، بمساعدة جوانا، وما زالت بعيدة كل البعد عن إكمال حصتها كالأخريات، لكنها ماهرة بما يكفي لشراء الزبدة واللحم في أيام الأحد. وعلى الرغم من أن أجر نصف جديلة ثمن باهظ -إذ سيجعلها تبيت على الطوى عدة ليال متتالية- فالقرار سهل.

- افعلها إذن.

لا تعود أحلام أنا استينا كما كانت من قبل، تضطجع مستيقظة بعدما تنتظم أنفاس جوانا ويبدأ غطيها، تحديق إلى السقف وترى أفكارها تتخذ صورًا، ترى أمها ماجا ترقد شاحبة ميتة على الأرض، وترى أندريس بيتر وليساندر والقاضي والمراقبين، ويسخرون منها من عليائهم، ثم يتسلل النوم إليها. تتذكر أنا استينا أنها ظلت تحلم أحيانًا بالحريق العظيم، عن الكارثة التي ظلت ماجا كذاب تصفها لها منذ طفولتها، من أجل تعريفها بمخاطر الحرائق، وبالقدر نفسه لأن ماجا نفسها لم تكن قادرة على الهروب من ذكرياتها عن الحريق. وجدت النار طريقها إلى أحلام أنا استينا، سابقًا بوصفها مصدر رعب، والحلم هو نفسه الآن، لكن الأدوار انعكست، الآن هي نفسها "الديك الأحمر"، تُخلف كل ما في أعقابها رمادًا، المشغل والمصلى والمباني السكنية والضياء والمحاكم، تحيل كل شيء خرابًا ودخانًا، وتشعر ببهجة عارمة، تلتهم أعداءها في أتونها الهادر الذي هو بطنها، وعندما تجفل مستيقظة في ظلام الليل، تجد قلبها ينبض بحبور مسعور. الهدف من المشغل هو تعليم غزل الصوف وغرس قيم الفعالية والإنتاجية التي تسعى إليها المدينة، لكن أنا استينا تتعلم -كما لم تتعلم شيئًا آخر- فن الكراهية.

تستغرق استعلامات جوانا أسبوعًا كاملًا، وتعتاد أنا استينا حقيقة أن الصوت الذي يهمس إليها من السرير الآخر لا وجه له، وتفضل الأمر على هذا النحو، ففي مخيلتها تستطيع منح جوانا وجهًا أفضل من وجهها في الواقع، وجه متمتع بالصحة وأكثر استدارة.

- بعض النساء يتذكرن ألما غوستافسدوتر، ولو أن كثيرات من اللاتي كن هنا عندئذ لا يتذكرنها، وبعض اللاتي لم يكن هنا يتخيلن أنهم

يتذكرنها من سماع القصص التي تُحكى عنها. كانت تؤدي غزلها في نفس جناحنا، وتتناول وجباتها في نفس مجموعة "العنزة"، جاءت هنا في الخريف الماضي واختفت في مارس، كانت مصابة بالمرض الفرنسي وكثيرًا ما تُدخَل إلى المستوصف، وجُلدت ذات مرة في الشتاء عندما اتهمت بالسرقة، لكنها كانت محظوظة بعدم الوقوع في يد بيترسن.

- وماذا عن هروبها؟

- يتفق الجميع على أمر واحد، وهو أن ألما كانت بين المقاعد في أثناء صلاة المساء، وتناولت عشاءها كالجميع، ثم أوت إلى فراشها عندما حُملت الفوانيس إلى الخارج، وفي الصباح وُجد سريرها خاليًا. لم يخطر للمراقبين أي تفسير، قلبوا الحجرة رأسًا على عقب، وكوّموا المفارش في منتصف الأرضية، تحققوا من الجدران، واختبروا قضبان النوافذ. كنا نراهم عبر الزجاج في وقت لاحق من ذلك اليوم، صف طويل من الرجال يضربون الأجسام بعصيهم وسيوفهم. لكن ألما غوستافسدوتر لم يُعثر عليها قط.

تحس أنا استينا بوخزة إحباط، إذ لا تتضمن القصة شيئًا من شأنه مساعدتها، ما من خيط يقودها إلى طريقة هروب ألما.

- أهذا كل شيء؟

تسمع صوت جوانا يحمل نبرة رضا مختلفة عندما تعاود الكلام.

- لا يستحق الأمر إنفاق أجر نصف يوم، صحيح؟ اهدئي، سأخبرك بالمزيد. تكلمت مع الفتاة صاحبة السرير الأقرب إلى الباب، وقالت إنها تعرف ما حدث بالضبط، وهي ليست عجوزًا جدًّا لكن لسوء الحظ ليست ذكية جدًّا، بيد أنها تقول إنها أوقظت بضع مرات في منتصف الليل قرابة الوقت الذي اختفت فيه ألما، كان شخصٌ ما عند الباب يعبث بالقفل وافترضت أنه شبح يحاول دخول الغرفة ليخمد جوعه، وظل يعود ليلة تلو ليلة، وهي تدس رأسها تحت الأغطية وتكز بأسنانها، وأخيرًا تمكن الشبح من فتح الباب، فأحست بتيار الهواء البارد، وتسلسل

داخل الحجرة و -بحسب كلام المرأة- ابتلع ألما المسكينة تحت جنح الظلام وعاد إلى مغارته في رابية ما.

- قلت إن ألما اتُّهمت بسرقة شيء، ماذا سرقت؟

- وفقاً لما سمعته، فُقدت ملعقة قصدير ولم يُعثر عليها قط، بالإضافة إلى قارورتي دواء من المستوصف زعمت أنها أخذتهما لأن ضررها يؤلمها. الآن صرت تعرفين كل ما يعرفه الجميع عن ألما غوستافسدوتر، عدا عن الشبح الجائع بالطبع. أعرف أنني لم أخبرك بالكثير، وعلى الرغم من هذا أريد أجري.

تحس أنا استينا واثقة بوجود شيء في خضم كل هذا، المرأة، والملعقة، والمستوصف، وألم الأسنان، وصوت قفل الباب في الليل. تسأل سؤالاً أخيراً:

- هل تكلمت مع ”العنزة“؟

- ماذا؟! لم يتكلم أحد مع ”العنزة“ منذ سنوات، فهي لا تكلم إلا نفسها.

وفي اليوم التالي، بعد وجبة الإفطار الضئيلة، تبدأ أنا استينا دفع عجلة غزلها رويداً رويداً لتقترب من ”العنزة“، التي تحدق أمامها مباشرة بعينها السليمة وهي تغزل بثقة، تصيح أنا استينا سمعها محاولة فهم تمتات العجوز التي لا تنقطع، والخافطة لدرجة أن المراقبين لا يكفون أنفسهم عناء إسكاتها، إذ تذوب كلماتها بسهولة في جلبة عجلات الغزل وطنينها. تضطر أنا استينا إلى أن تميل قريباً منها حتى تسمع، تبدو تمتاتها كأنشودة دون لحن، تُردّد على إيقاع دواسة عجلة الغزل:

- ثلاثة أشباح وثلاث رشّات وثلاثة عقود، ثلاثة عقود وثلاثة آلاف ذراع من الصوف في اليوم، كل الأشياء الجيدة ثلاثة.

عندما يغادر المراقب الحجرة لحظات، تهمس قريباً من أذن ”العنزة“:

- أتقصدين أطفالك بالثلاث رشّات؟

تجفل ”العنزة“ قليلاً وتفقد إيقاعها، وتدور عينها السليمة وتقع على أنا استينا كأنها تراها أول مرة، وبعد لحظة تعقد حاجبيها وتستأنف غزلها، ثم تعود الأنشودة حالما تعمل بإيقاعها المعتاد.

- ثلاثة أشباح وثلاث رَشَّات وثلاثة عقود، ثلاثة عقود وثلاثة آلاف ذراع من الصوف في اليوم، كل الأشياء الجيدة ثلاثة.

- هل مر على وجودك هنا ثلاثة عقود؟

يتشتت انتباه "العنزة" مرة أخرى وتلقي نظرة ثانية على أنا استينا.

- أتتذكرين ألما غوستافسدوتر من الخريف والربيع الماضيين؟ المرأة التي كانت ضمن مجموعة طعامكم.

يبدو على "العنزة" أنها تفاضل بين خياراتها، لكنها أخيرًا تميل نحو أنا وفي عيناها السليمة وميض خبيث.

- يقولون إنني فعلتها لأنني كنت أكرههم، أتعرفين؟ لكن العكس هو الصحيح، فعلتها بدافع الحب، كي أجنّبهم كل المعاناة التي يخبئها العالم لهم، كل يوم أسوأ من سابقه، ولهذا أنا سعيدة، فكل يوم تشرق فيه الشمس يثبت أنني فعلت ما هو صائب.

لا تدري أنا استينا بم تجيبها، فتكتفي بالإيماء، وتغمز "العنزة" لها عندما تستأنف الغزل مجددًا.

- ثلاثة أشباح وثلاث رَشَّات وثلاثة عقود، ثلاثة عقود وثلاثة آلاف ذراع من الصوف في اليوم، كل الأشياء الجيدة ثلاثة.

يجتاح أنا استينا إحساس باليأس، "العنزة" خيط آخر لا يفضي إلى أي مكان، مخلوق آخر سُجِّق تحت رحي المشغل حتى استحال غبارًا، فقدت صوابها، ولم تعد تصلح إلا بوصفها امتدادًا لآلاتها. لا ترى أنا استينا مبررًا لتخاطر بوقوعها في قبضة المراقبين، وتقرر الانتظار حتى المساء، فتحرك عجلتها إلى مكانها الأول المحدد بخطوط الطباشير. وعندما تبادرها "العنزة" بالكلام بعد العشاء، تتفاجأ، تكلمها المرأة على نحو يكاد لا يُلاحظ، بالإيقاع الرتيب نفسه كأنها تردد أنشودتها، ويبدو أن ما تقوله سلسلة ذكريات من سنواتها العديدة التي أمضتها في المشغل.

- يعتقدن أن غزل الصوف عمل شاق، لكنهن لا يعرفن شيئًا، ويعتقدن أن الطعام قليل، لكن ليست لديهن أدنى فكرة. في عام اثنتين وسبعين، نفس عام تولي الملك غوستاف عرشه، أرادوا توسيع ضيعة أهليستيدت،

واللاتي كن هنا منا اشتغلن بالسحب والحمل... الجذوع وكتل الحجارة المنحوتة والملاط والجص، كان الناس يهلكون كالذباب، لكن ليس ماريا العجوز، لا، كانت قوية، حتى عندئذٍ... تمضغ أصابعها، وتتناول حفنة من الحصى عندما لا تجد ما تأكله... يعتقدن أن بيترسن بلاء، لكنه ليس مجنوناً كما كان العجوز بندكتيوس... هو و فون توركين والعجوز يوهان ويك، الذين كانوا يجوعوننا، ويقتلوننا شغلاً، إننا نحفر قبورنا بأنفسنا... عاشت العجوز ماريا مدة أطول منهم جميعاً... كان من المقرر أن يسكن المفتش هناك، لكن لم يحدث شيء...

تبتسم "العنزة" من ذكرياتها، وتخفض أنا استينا بصرها وتنتظر إلى يديها الشبيهتين بمخيلين وهما تتحركان بالبكرة والخيط، وترتعد عندما ترى أن أصابعها ما تزال تحمل آثار أسنان.

- لم نتمكن سوى من إنهاء الأقبية في ذلك الربيع، كان صيفاً جميلاً... أخذني أحد العاملين في مشغل الرجال إلى الأجمات وكان رفيقاً طيباً، مات جوعاً قبل نهاية العام لكنني ما زلت أتذكره... واصلنا البناء طوال الصيف في حين كانت المدينة تحتفل بالطبول وطلقات المدافع، وعندما حل الخريف لم نجد وقتاً لإكمال كل شيء، على الرغم من أن بندكتيوس كان يزار ويمزق شعره... كان علي حمل الصخور التي ساعدت في جلبها إلى هنا، واضطررنا إلى حفر ثقب في جدار القبو من أجل تصريف المياه عندما كان المنزل دون سقف في الشتاء... لم يكن هذا كافياً... تسلت الرطوبة إلى كل الأماكن وتشبعت بها الجدران، وكانت التيارات الهوائية الباردة تهب من الثقب، فلم يرغب لا المفتش ولا القس في الانتقال إليه... والآن هناك جوالات اللفت، تتعفن بمرور الأيام...

تستغرق أنا استينا بعض الوقت كي تغربل ما تسمعه وتذكر قيمته، وحالما تفعل، تندفع الدماء إلى رأسها وتنحني مقتربة لتسمع صوت "العنزة" متخللاً نبضات قلبها التي تسمعها في أذنها.

- سيدتي، هل قلتِ كلامك هذا لآلما غوستافسدوتر؟ المرأة الأخرى التي كانت تقعد حيث أقعد الآن.

تبدو "العنزة" متفاجئة.

- ثلاثة أشباح وثلاث رشّات وثلاثة عقود، ثلاثة عقود وثلاثة آلاف ذراع من الصوف في اليوم، كل الأشياء الجيدة ثلاثة. كان رقيقًا طيبًا... هذا هو الحل، في مكان ما يوجد قبو فيه نفق يمر عبر الأساسات، سُيد لتصريف مياه الأمطار والثلوج الذائبة عندما كان المبنى دون سقف في شتاء عام اثنين وسبعين، ثم أُهمل بعدما استؤنف البناء. عرفت ألما غوستافسدوتر بهذا، ولم تحتج سوى إلى وسيلة تبلغ بها القبو تحت جناح الظلام، ثم تزيح جوانات اللفت، وتزحف بضعة أذرع نحو الحرية، فتختفي إلى الأبد.

الفصل السابع والثلاثون

يجافي النوم أنا استينا في الليل، فتحاول بدلاً منه تصوّر الأشهر الماضية عندما كان الشتاء ينشب مخالفه في "الندبة"، حينما كانت الشمس تجاهد حتى ترفع نفسها بالكاد فوق الأفق لتلمّع جليد "الخليج المذهب" وتضطر النزيلات إلى العمل في شبه ظلام، يتباطأ الزمن، وتستطيل الساعات، وتشعر ألما غوستافسدوتر بالملل، لا بد أنها حرّكت عجلتها مقترية من "العنزة" حتى تبدد الوقت بالاستماع إلى تمتماتها، وعندها عثرت مصادفةً على وعد بالحرية. كم من الوقت استغرقت ألما لتحضّر لهروبها؟ جاءت في الخريف واختفت في الربيع، من الممكن أن تكون "العنزة" قد روت قصتها في وقت مبكر عندما كانت ألما حديثة عهد بالمكان، لكن في هذه الحالة لا بد أن ألما كانت من الذكاء بحيث انتظرت حتى تذوب الثلوج، لأن المخاطرة ستكون جسيمة إذا وجدت الثقب في الجدار مسدودًا بالجليد أو مغطى بركام ثلجي من الخارج مُصلدً بالريح الباردة التي تهب من المياه. إذن فقد انتظرت ألما وقتها.

تحاول أنا استينا اقتفاء خطوات ألما غوستافسدوتر قبل اختفائها، الطريق نفسه الذي عليها أن تسلكه الآن. أين موقع القبو؟ تخمن أن العثور عليه سيكون الجزء السهل، إذ كان جزءًا من ملحق بالضيقة القديمة، منزل صانع الجعة أهليستيدت القديم الذي بيع وحوّل إلى مشغل، لا بد أن البناء الجديد يقع في جهة الأراضي الخلفية. ذكرت "العنزة" جوانات اللفت، وكل الطعام الذي رآته أنا استينا يُحمل إلى أسفل سلالم المنزل القديم، لا بد من وجود مطبخ هناك، وعلى مقربة منه تُخزّن جميع الإمدادات الغذائية. تنهض أنا استينا لا إرادياً من سريرها وتسير ببطء على أمشاط رجلها بين عجلات

الغزل الصامته حتى تبلغ النافذة، وتلصق خدها بالزجاج وتحاول النظر نحو منزل أهليستيدت، فلا ترى ما وراء زاوية جناحها، لكن حالما تهم بالاستسلام، تلاحظ الظلال التي يرسمها القمر، وتبدو أرض "الندبة" ظاهرة للعيان بوضوح، سقف جناحها يبدو أسود، ويتغير الظل إلى شكل المنزل الأقدم، ثم يستأنف السقف امتداده منخفضاً في الاتجاه المعاكس. إنه هناك! تنتظرها حريتها بالأسفل، وما عليها سوى شق طريقها إليها.

تمر الأيام وأنا استينا تواصل الغزل، جديلة تلو جديلة، ولم تعد تحسب عددها، إنما تصبح شديدة التركيز على روتين المراقبين وإجراءات المشغل وجداوله الزمنية. انتقلت إليها شواغل ألما وتحدياتها، وأولها باب حجرة الشغل، الذي يوصد بعناية كل ليلة، تُمضي ليلتين في التفكير قبل أن ترتب كل ما تعرفه في تسلسل أحداث يبدو منطقياً لها، الحل هو ملعقة القصدير، الملعقة التي تسببت سرققتها في جلد ألما لكنها لم تُستعد قط، ربما استخدمتها لتشكّل منها مفتاحاً، وزيارات الشبح الليلية المتكررة إلى ثقب المفتاح كانت محاولات اختبار تجريب ما صنعه حتى تيقنت من أنه سيفتح.

ترهف أنا استينا سمعها كلما يوصد المراقبون الباب ليلاً، القفل صدئ، والمفتاح المتدلي من علاقة مفاتيحهم ثقيل، لم يُزيّت القفل منذ سنوات بحسب الصوت الذي يصدره. القصدير ليّن، وتشك أنا استينا في أن ملعقة واحدة تكفي لإدارة القفل دون أن تنحني، ربما كانت ألما تعرف طريقة لجعل المعادن اللينة صلبة، وربما لهذا السبب سقرقت دواء ألم الأسنان في أثناء تردها على المستوصف، بيد أن هذا لا يهم أنا استينا، إذ لم تر سوى ملاعق مصنوعة من خشب هش، وليس لديها شيء حاد، ومعرفتها بالقصدير قليلة قلة معرفتها بالأقفال، وعلى الرغم من هذا لا بد أن تجد طريقة لتجاوز الباب الموصد ليلاً، فهذه هي العقبة الأولى، الأولى من بين أربع.

هل ستجد أبواباً أخرى موصدة في طريقها؟ إذا كانت أنا استينا محقة، فلا بد أن ألما تدبرت أمرها بمفتاح واحد، فباب منزل أهليستيدت أعلى السلالم عادة ما يُترك موارباً حتى يسهل صعود المراقبين إلى الأدوار التي يقيمون فيها، فلا يضطرون إلى السير عبر حجرة غزل. وإذا لم يكن باب الضيعة

الأمامي موصدًا حتى في الليل، فبمقدور كل من يخرج إلى الفناء أن يواصل السير عبر المنزل القديم ويهبط إلى القبو، لا بد أن هذا ما فعلته ألما. هل روجعت الإجراءات منذئذ في أعقاب غضب بجوركمان؟ إن كان هذا قد حدث، فأنا استينا لا ترى أثرًا لأي تغيير، وبالتالي لا يعترض طريقها سوى قفل واحد، وشق طريقها إلى القبو دون أن يلحقها أحد يمثل لها التحدي الثاني.

والثالث هو العثور على الفجوة نفسها، أي نفق التصريف القديم في الجدار والتسلل عبره، لم تكشف تمتمات "العنزة" الكثير عن موقع الفجوة بدقة، ولا بد أن الفتحة من الصُّغر بحيث يهملها جميع المراقبين الذين تعاقبوا على مدى عشرين عامًا.

أما التحدي الرابع والأخير، فهو أنها لا يمكنها العودة إلى أبرشية كاتارينا أو ماريا حيث يعرفونها، وحيث سيبحث فيشر وتيست وزملاؤهما عنها، هذا ما قالته جوانا، وما من سبب يدفع أنا استينا لعدم الثقة بها، فاللاتي يتمكن من الهروب يعاد القبض عليهن سريعًا، وتضاف المزيد من الجدائل إلى عقوباتهن. إذا بلغت الجانب الآخر من الجدار، فلا خيار أمامها سوى بدء حياة جديدة في مكان بعيد لا تطاله أيدي أعدائها. لكن كيف؟ لا تدري.

عندما يحل يوم الأحد، يُنحَى العمل جانبًا من أجل قُداس الكنيسة الطويل، ويظهر القس نياندر، الذي ظل مؤخرًا يفوض مساعده لأداء صلوات المساء، بمظهر أسوأ من المعتاد، ينسى متى يُنشد سفر المزامير ومتى تُردّد الصلوات، وينسى متى ينبغي البدء في الموعظة ومتى تُغفر الخطايا، ويبدن مرتعتين يتناول نبيذ القربان المقدس دون اكتراث بمن يراه، يقرأ من الإنجيل بصوت عال، وهو يتلعثم ويرمش بعينيه اللتين تدمعان من إجهاده، يقرأ من كتاب متى عن عودة يسوع إلى القدس، جميع الحاضرين سمعوا هذه الآيات من قبل، ويعاني نياندر عندما يبلغ الإصحاح الحادي والعشرين، حيث يُطرد التجار من المعبد.

”مكتوب: بيتي بيت الصلاة يدعى... وأنتم جعلتموه مغارة لصوص.“

يقف بينغت نياندر عند هذه الكلمات، مستغرقًا في التفكير فجأة، وتكفهر عيناه بين حاجبيه الغزيرين وجلده المجعد.

- بيتي، مغارة لصوص.

يفلق الإنجيل بصوت عالٍ يوقظ النائمين خفية، فيبادلونه النظرات مذعورين، وهو يحدق غاضبًا إلى صفوف المقاعد. بقية الموعظة لا يتلوها من الكتاب المقدس، إنما يرتجلها في أثناء كلامه، وكلما استرسل، ازداد غضبه، يعلو صوته فيستحيل هديرًا عن المنافقين والنسّاخ، وعن التجار والرومان، وعن جميع الذين يستفيدون على حساب الصالحين والمطيعين. يظهر القس أسنانه البنية بابتسامة باردة وهو يغير مجرى حديثه من الأراضي المقدسة قبل قرابة ألف وسبعمائة عام إلى ما يراه بعينه في "الندبة" اليوم، ومحاولاته لوصم المفتش هانز بجوركمان بوصفه عدوًا ليسوع يقل تلميحتها ويزداد تصرّيحها.

- ربما لدى عبدة الشيطان أصوات جميلة، لكن ألسنتهم مشقوقة، وقد أتقنوا فن الخداع والإغواء حتى بلغوا فيه شأواً بعيداً.

وعندما يكون من المستحيل أن أحدًا من الحاضرين - حتى أقل النزليات عقلاً - لم يعرف من المقصود بكلمات القس، يشعر مساعد القس بأنه مُلزم بإنقاذ نياندر من نفسه، وعندما يتنحّح يائسًا يدرك أنه لا حول له أمام صوت القس الرعدي، ولا يجد بُدًا من قرع الجرس مبكرًا، فينتشل الرنين نياندر، ويستعيد السيطرة على نفسه بصعوبة.

كجميع الحاضرين تستمع أنا استينا مشدوهةً إلى مواظ القس العنيفة، ثم تدرك أنه يمكن أن يكون طوق نجاتها، فهذا العجوز المشبع بالمرارة يلتمس المواساة في الشراب وهو يرى نفسه يُحرّم من الثواب الذي يستحقه. تتذكر أنا استينا كلمات المراقب في أول يوم لها في "الندبة": "صارت أيام هانز بجوركمان معدودة، بعد عشرين عامًا من سوء الإدارة، وقريبًا سيبحر إلى فنلندا". تتلمل في مقعدها حتى نهاية القداس. وحتى تنجح فيما تنوي فعله، عليها أن تتصرف بسرعة، وأن يكون الحظ حليفها، فحالما يُقال «آمين»، سيبدأ المراقبون باقتياد قطع الغازلات إلى الفناء ومنه إلى حجراتهن.

ينتهي القداس، فينهض الجميع عن مقاعدهم ويجرّرون أرجلهم إلى الممر، وتشق أنا استينا طريقها بساقين مرتعشتين عكس اتجاه الناس، نحو المذبح حيث يفرغ نياندر آخر قطرات النبيذ من الكأس في فمه، وترى الناظر

بيتر بيترسن يقف في المقدمة، ماسكًا بناظريه المشهد أمامه والمُصلى يفرغ من الحاضرين، يلوح لها ضخماً كما تتذكره، ويقف في طريقها مباشرة، وعندئذ يراها، فيعتبره مزيج من الدهشة والغضب، لا تجد أنا استينا وقتاً للتفكير قبل أن تروغ إلى اليسار، منحنية تحت ذراعيه، وتهتف للقس نياندر: - ماذا لو وُجِدَت طريقة للرب ليعاقب بها التجار على خطاياهم قبل أن يغادروا المعبد؟

لا تبلغ أبعد من هذا الحد قبل أن يقبض بيترسن على عنقها، يكاد يرفعها عن الأرض، فتغمض عينيها وهو يرفع يده الأخرى ليضربها. - يا للعار! أنزل الفتاة!

ما يزال صوت نياندر قوياً كما كان في أثناء الموعظة، فيوقف بيترسن عند حده. - حتى الناظر ينبغي أن يعرف حُرمة ارتكاب العنف في بيت الله، ألا تخشى الرب؟

لا يحر بيترسن جواباً، ويعقد حاجبيه ممتعضاً.

- من الأفضل لك أن تدعها يا بيتر بيترسن، اترك رجلاً عند الباب ليصطحبها إلى جناح المشغل الذي تعمل فيه، هذه الفتاة مثقلة بشواغل دينية، وبوصفي راعي روحها، تقع على عاتقي مسؤولية تبديد شواغلها.

ينخر بيترسن، ويرخي قبضته ببطء شديد ليبرهن على قوته الخارقة التي تمتد حتى أطراف أصابعه.

- بالطبع أيها القس، تعرف أنني لا أرفع يدي على فتاة عاجزة...

يسير بضع خطوات في الممر قبل أن يلتفت ويحدق إلى عيني أنا استينا. - ...ونحن في بيت الله.

ينتظر بينغت نياندر حتى يخرج جسد بيترسن الضخم عبر الباب الأمامي. - تكلمي بسرعة يا بُنيّتي، أشعر بصداع. ليست لدي نصف قوة السيد بيترسن، لكن إذا أهدرتِ وقتي عبثاً، فسأحرص على مغادرتك بثلاث لطمات لا واحدة.

شعرُ نياندر أشعث، يبدو كأنه لم يغتسل منذ عدة أسابيع، تتغلغل الأوساخ في جميع تجاعيد وجهه، الذي شاخ قبل أوانه بتقطيية امتعاضه الدائم. وإلى جانب رائحة النبيذ، تشم أنا استينا روائح مشروبات كحولية أقوى، كما تستشعر أن صبره على وشك النفاد، فيجب أن تخاطر بالدخول في صلب الموضوع مباشرة.

- سيترك المفتش بجوركمان منصبه عما قريب دون أن يلقي العقاب العادل على خطاياها، وأنت تريد أن تكون منقذًا لمشيئة الرب قبل فوات الأوان. أعرف طريقة.

- وما شأن غازلة مبتدئة بمسائل تخصني أنا والمفتش؟ هاتي ما عندك!
- المفتش يخضع بالفعل للمراقبة بعد حوادث الهروب العام الماضي، وحتى الآن لم تنجح أي نزيلة في تجاوز إجراءاته الأمنية الجديدة، لكن إذا هربت واحدة، فسوف يتعرض للإذلال، وربما يفقد منصبه الحالي والمستقبلي.

إنها تخمن تخمينات جريئة، وتأمل أن تكون على حق، يرمقها القس بنظرة ماكرة وصارمة في آن واحد، ثم يلوِّح لها لتدخل حجرة المقدمات بعدما يشير للمراقب الذي جوار الباب بأن يظل واقفًا، وحالما يجتاز الباب يخرج قنينة معدنية من معطفه ويأخذ جرعة نِهمة، وتدمع عينا أنا استينا من الرائحة الحادة عندما يعاود الكلام.

- إنك أذكى مما يوحي به عمرك، لكن أخشى أنك تبالغين في تقدير سُلطتي، فالقس غير مخوَّل بإصدار الأوامر للمراقبين، ولا يُعهد إليه بأي مفتاح. وحتى إذا كان لدي مفتاح، فالمراقبون يقفون عند المدخل الرئيسي في الليل، وما تقترحينه سبق لي أن فكرت به عدة مرات يا بنيتي، وإن كانت بيدي حيلة، لأفرغت المبنى أكمله بحلول هذا الوقت. ما الجدوى عندما تعود الساقطات إلى عجلات غزلهن في غضون يومين؟ لكن بجوركمان -فلتحل اللعنة على اسمه- ذكي بما يكفي ليعرف نياتي، وفي هذا المكان تمكن من فصل الشؤون الروحانية عن الأمور الدنيوية. أمل لمصلحتك أن تكوني قد فكرت فيما يمكن فعله غير هذا.

- يوجد مخرج، من طريق آخر، إنني متأكدة منه، لا أحتاج سوى إلى المساعدة في فتح باب الجناح الجنوبي الغربي.

- إنك تكذابين، أي طريق هذا؟

- تمكنت فتاة من الهروب في الربيع الماضي، أعرف كيف، هناك فجوة في جدار القبو، لا بد أن المفتش بجوركمان عثم على اختفائها قبل انتشار الخبر، لكن إذا استعددت بتقرير هذه المرة، فلن ينجح في التعقيم على الهروب مرة أخرى.

يتفرسها بينغت نياندر لمدة طويلة وهو يفكر ملياً، ثم يبدأ في التآرجح للأمام وللخلف على عقبيه، وهو يتمم مع نفسه، وساهماً يمضغ خصلة من شعر لحيته.

- هاربة أخرى، بعد كل التمويل الذي طلبه المفتش من "المجلس" لاحتواء الوضع... حسناً، حسناً. باب واحد؛ مفتاح واحد فقط. يفرك عينيه بإبهاميه ويتفل لحيته.

- سبق أن فعلت أمراً مماثلاً لما تقترحينه، أغريت إحدى النزليات من أجل النكاية ببجوركمان، لكن الخطة ارتدت عليّ، إذ أرسلت شكوى باسمها، لكن أعضاء "المجلس" عرفوا خط يدي. ربما يجدر بي التعلم من أخطائي.

يضحك ويرفع نخباً لنفسه قبل أن يأخذ جرعة أخرى من قنينته.

- أو ربما العكس هو الصحيح، ربما كان خطئي الوحيد هو استخدام بندقية في حين أن مدفعاً كان ليؤدي غرضي على نحو أفضل. ما تقترحينه ليس مستحيلاً، عليّ الاستعلام عن بعض الأشياء، وعندما أعرف المزيد سأرسل في طلبك بعد صلوات المساء. أمر آخر، التفتي إلى هذا الاتجاه.

يلطمها نياندر اللطمة التي منع بيترسن منها. لا تشك أنا استينا في أنه ليس قوياً قوة بيترسن بأي حال من الأحوال، وعلى الرغم من هذا يؤلمها خدها وتطن أذناها.

- هذه من أجل خطاياك، وأيضًا حتى تفهمي أنك لن تخذعيني، ولأن هذه الضربة هي أقرب فعل لمصافحة عاهرة بالنسبة إليّ، علاوة على أنني لا أريد أن يُقال عني إنني أفعل أمورًا غير لائقة مع أمثالك، خذك المُحمرُّ سيتكلم عن نفسه.

يرافق أنا استينا إلى الخارج ويسلمها إلى المراقب الذي ينتظرها، فيأخذ بذراعها، ثم تسمع نياندر يصفّر مع نفسه وهي تُقاد إلى الفناء الخارجي.

الفصل الثامن والثلاثون

يقع مقر بيتر بيترسن في الركن الشمالي الشرقي من ضيعة أهليستيدت، في الغرفة الأفضل من بين غرفتين متماثلتين، وجواره يوهان فرانز هايبينيت، الذي يشارك بيترسن مهامه. وعلى الرغم من أن النافذة مفتوحة على مصراعها مطلة على الجروف والخليج، فالحجرة ساخنة كفرن في حر الصيف الذي حل مبكرًا هذا العام، التعرق المستمر لا يكفي لتبريد جسد بيترسن الضخم، المتمدد على السرير بعدما خلع سترته وقميصه، يحدق إلى السقف حيث نحت أسلافه في المنصب -أو أيًا كان الحثالة الذين أقاموا في الغرفة قبله- أسماءهم أو خيالاتهم في العوارض الخشبية من أجل تبديد الضجر، اسم وعام هنا، قطعة قرميد غائرة هناك، جميعها بهتت واستحالت رمادية بمرور الأعوام. نهاية العام الثاني عشر لبيترسن في "الندبة" تقترب بسرعة، وظلت هذه الغرفة مستقرة طوال فترة وجوده، تولى منصبه قادمًا من مصانع الجعة الملكية عام واحد وثمانين، حيث كان يشغل منصبًا بعد تسريحه من الجيش، ومُذ ذلك الوقت استرخى هنا بين زملائه أصحاب الأزياء الزرقاء والصفراء، وعلى الرغم من أن منصب الناظر ليس جزءًا رسميًا من شرطة المدينة، فقد وجد بيترسن أن سلامته الجسدية بين المراقبين المعاقين والمشوهين تُمثل إعاقة في حد ذاتها، حتى هايبينيت يعاني آثار قذيفة مدفع انطلقت بالخطأ فلا يستطيع ضم كفه اليمنى إلا بصعوبة، فهنا يشعر بيترسن بالخزي من جسده السليم. تسريحه من الجيش كان بسبب عوامل أخرى، وهو مقتنع أن المراقبين -المولعين بالقييل والقال- لم يسمعوا أو يخمنوا قصته. أرسل بيترسن إلى بيته لأنه عدُّ عبثًا، فهو ضخم وقوي وعدواني مكر، يتسم

بعنف دفعه مرارًا إلى استغلال تفوقه الجسماني في أذية الآخرين، فلم يعد أي ضابط يرغب في التعامل معه، وتخلصوا منه متذرعين بشكليات تافهة، منها أن تسبُّبه في كارثة حقيقية مسألة وقت ليس إلا. بيترسن معتاد سماع الاتهامات، لكن لم يسبق أن أقسم أحدهم زورًا لا لشيء سوى النكاية به، وظلت ذكرى الظلم الذي تعرض له تجعل دمه يغلي حتى يومه هذا، إذ لم يعد يصلح إلا ناظرًا لمشغل في هذه الجزيرة الصخرية الموحشة.

المنصب ترافقه فوائد بعينها بطبيعة الحال، وقد تمسك بها كأنها أعز ما يملك. في عام ثلاثة وثمانين، قبل أن يتعلم ضبط نفسه، انهال ضربًا على إحدى النزليات، اسمها لوهمان، حتى فارقت الحياة. وقعت الحادثة ذات صباح مبكر، كانت مهمته إيقاظ النزليات، وبدلًا من استخدام صوته، أطلق العنان لـ "المعلم إريك" بين الأسرّة، وعلى الرغم من هذا، رفضت لوهمان التحرك، وبعد قرابة عشر ضربات، ظلت متمددة، فجن جنونه كثور يُلَوِّح أمامه بقماشة حمراء، وتوالت ضرباته دون انقطاع، وفي النهاية استخدم طرف السوط السميك بدلًا من لسانه المجدول المستدق.

لم تنهض لوهمان من سريرها قط، وعندما اضطر بيترسن إلى إدخالها المستوصف، ظلت ممددة، تنتحب، وعندما حان وقت الغداء، كان الزبد يخرج من فمها، ثم لفظت أنفاسها الأخيرة. كان كثيرون مستعدين للشهادة بشأن ما حدث، واضطر بجوركمان إلى استدعائه والتحقيق معه، وأصر بيترسن على أن الجلد لا يمكن أن يكون وحده سببًا لموت لوهمان، ولا بد أنها تأثرت بمرض ما أصيبت به في الليل، وعلى الأكثر اجتماع هذين السببين. وحُكِم عليه بالسجن أربعة عشر يومًا وأن يقتصر طعامه على الخبز والماء.

يتذكر تلك الأيام، أسبوعان طويلان في زنزانة والجوع ينشب مخالفه في بطنه، في العتمة يستعيد كل ضربة، وكل خط أحمر يتركه السوط على جلد لوهمان، وعندما رأى ضوء الشمس مرة أخرى وعاد إلى أداء مهامه، عرف أن الأمر كان يستحق، تعلم أن يكون أكثر حذرًا لكنه لا يستطيع العيش دون عنف، إذ يتراكم ضغطٌ بداخله لا يمكن تنفيسه إلا بالسوط، بالقوة المطلقة، وجسده الضخم يشمخ فوق إحدى النزليات الضاويات، والجلد المجدول في

يده. ينعظ بمجرد التذكر وهو في غرفته، فيحل أضرار بنطاله ويفرك منفرجه، وتنتهي هذه المتعة الضئيلة بسرعة، وكما هو الحال دومًا، لا تكفيه.

ومثل المراقبين الآخرين، يبحث عن إحدى الغازلات ويحاصرها في ركنٍ ناءٍ من المبنى، فهذا هو السبب الذي جيء بهن إلى المشغل، ومعظمهن يبذلن أنفسهن طواعية لأي واحد يعرض عليهن مشروبًا أو قطعة لحم. لكن حتى هذه الممارسة كانت محبطة له، فبعدما فرغ، عندما رفع بنطاله ورتب قميصه، ابتسمت له، المومس الصفيقة، كأنها صارت لها سلطةٌ ما عليه. استدار وغادر، متضايقًا لأسباب هو نفسه لا يستوعبها.

ما ترغب الغازلات في تقديمه له طواعية لا يثير اهتمامه بقدر ما ينتزعه منهن عنوة. الرقص حول البئر أمر مغاير تمامًا، ويستمر وقتًا أطول، أفضل بكثير من بضع حركات سريعة من الوركين، متعة لحظية، كأنها عطسة من حوضه. أما في أثناء الرقص، فيغدو في عالم آخر، يفضل المراقبون الآخرون أن يشيحوا بأبصارهم. لم يرقص مع أي واحدة منذ رقصة تلك الفتاة إرسن، التي تطوعت تقريبًا بصفاقتها ولسانها السليط، هذا هو نوعه المفضل من النساء، أي اللاتي ما زلن يحتفظن بشيء من ثقتهن بأنفسهن ويعتقدن أن لهن قيمة، فضرب الموتى الأحياء أمرٌ عبثي كتطرية اللحم. كانت إرسن تغييرًا مرحبًا به، والآن تعرج في أنحاء المشغل، خائفة من ظلها، وينبض منفرجه بدفء كلما رآها.

يطلق بيترسن تنهيدة ثقيلة، فالإحباط الذي يثقله لم يخف ولو قليلًا بالتفريغ الجسدي، وبدأ الضغط يتزايد بداخله مرة أخرى، على نحو أسوأ الآن بعد قداس ذلك القس الثمل الذي يبدو كأنه يسخر منه بابتسامته، ذلك العجوز السكير الذي يتجرأ على توبيخه أمام الغازلات. سينفجر صدره إذا لم يجد مُتنفَسًا في أقرب وقت، يعرف كيف، فقد صوب سهمه، وجد الفتاة، تلك الوقحة التي في مجموعة العجوز الشمطاء، رأى في عينيها جذوة كبرياء وتمرد، واستشعر أنها تخطط لشيء، يعرف هذا، وقریبًا سيدعوها للرقص، قريبًا، لكن ينبغي ألا يستعجل، فكلما طال صبره، عظمت مكافأته.

يجري الرهان في جناح الرجال، أولئك الذين يعرفون بيتر بيترسن، وربما يجمعهم تفاهم بشأن الكيفية التي يلبي بها رغباته التي يعرفونها

جيدًا، انقضت أسابيع منذ أن جلد تلك الفتاة الجديدة، وسريعًا سيحين وقت انفجاره، لكن من ستكون التالية؟ التي دلقت عصيدتها متلهفة للوصول إلى ذيل سمكة الرنجة؟ الفتاة الأكسل التي غزلت بالكاد جديلة واحدة طوال أسبوع؟ يراقبونه من كئيب، ويلاحظون أي الفتيات تتعلق عيناه بهن، محاولين قراءة أفكاره. من يرغبوا في الرهان يمكنهم المراهنة على الجناح الذي تعمل فيه الفتاة، أو مجموعة طعامها، أو اسمها، على الرغم من أن الخيار الأخير نسبة المخاطرة -والريح- فيه عالية.

جوانا هي التي تخبر أنا استينا.

- أنت المرشحة المفضلة، لن يكسب أو يخسر أي أحد مبلغًا كبيرًا إذا اختارك بيترسن، يقولون إنهم رأوه يحدجك بنظرات نارية كلما غادرنا الحجرة، وأنتِ جئتِ مع تلك الأخرى، التي رقص معها آخر مرة، فصاروا متيقنين أن الدور عليك.

الرقصة في حد ذاتها -أي الدوران حتى الإنهاك حول البئر والجلد المبرح بالسوط - ليس ما يخيف أنا استينا، ما تخشاه هو أنها لن تنجح في الهروب أبدًا بعد رقصة بيترسن. ربما يكون الناظر قد صار ماهرًا بما يكفي لعدم قتل ضحاياه، لكن قول إنه يتركهن أحياء ليس صحيحًا أيضًا، "الحيزبون" ما زالت تجرر قدميها في الأنحاء بساقيها المعوجتين وحوضها الخرب، متحدية الذين راهنوا على موتها الوشيك، لكنها لم تعد تتكلم، وتجفل من أبسط شيء، وتحرمها كوابيسها من النوم، وتفزع من أي شخص وأي شيء، حتى إذا شفيت ندوبها وإصاباتهما، فلن تستعيد وعيها طوال حياتها، فلماذا قد يكون مصير أنا استينا أفضل من مصيرها؟

تنتهي صلاة المساء، ويتوجب عليها الانتظار حتى الصباح قبل أن تتكلم مع نياندر من أجل تسريع خططهما، تبتهل أن يتمكن بيترسن من كبح نزوته ليوم واحد فقط، تعجز عن النوم عندما توّصد الحجرة ويسودها الظلام، وتسمع أنفاس جوانا فتعرف أنها أيضًا ما تزال مستيقظة.

- جوانا، إذا حدث أن نجحت في الهروب من هنا، فما الذي ستفعلينه لتجنب القبض عليك مجددًا؟

لا تجيبها جوانا على الفور.

- إنكِ تخططين لشيء، ربما تظنين أنني لم ألاحظ، لكنني لاحظت، لا تقلقي، لن أشي بك.

- هناك مهرب، على ما أظن، وسأجرب حظي إذا سنحت لي الفرصة، يمكنك المجيء معي.

تضحك جوانا.

- تبقت لي أقل من مائة جديلة حتى أكمل عقوبتي، وإذا تجنبت المتاعب، فسأخرج قبل نهاية الصيف، غزلتُ الكثير، يجدر بي إكمال الباقي.

لا تستطيع أنا استينا أن تدحض منطقتها، ثم ينقضي وقت أطول قبل أن تجيب جوانا عن سؤالها الأول.

- معظم اللاتي ينتهي بهن المطاف هنا عديمات الفائدة، وأنت ظللت رفيقة طيبة لي، لذا سأخبرك بشيء. كانت لي صديقة في طفولتي، كان أبوها يدير حانة طوال حياته، وما زال، الحانة اسمها "العابث"، ليست بعيدة عن "القنطرة الحمراء". وقبل سنوات، نشب خلاف بين والديها لم يتمكن أحد من تسويته، على الرغم من أن قس أبرشية نيكولاي حاول بنفسه، وانتهى الأمر بمغادرة الأم، واصطحبت معها صديقتي، الأم من مكان ما خارج البلاد ولا بد أنها عادت إلى أبويها. فقدت صديقتي لكن الأب كانت خسارته أفدح، إذ انفطر قلبه، ولم يعد على طبيعته منذ ذلك الوقت، على الرغم من مرور سنوات طويلة، يقف خلف نضده ويصب المشروبات عندما يطلب زبائنه شيئاً، لكنه يؤدي حركاته كأنه شبح. اسمه كاليه توليب، ويلقَّب بـ "امرئ الزهر"، على الرغم من أن معظم زبائنه المنتظمين يعتقدون أن لقب "الزهرة الذابلة" هو الذي يليق به. وصديقتي اسمها لوفيسا أولريكا، كان كاليه توليب فخوراً جداً يوم مولدها لدرجة أنه أطلق عليها اسم الملكة.

- يا لها من قصة حزينة!

- اسمعي، أنا لا أحكي لك قصة ما قبل النوم، الزمي الصمت واستمعي. لا بد أنك ولوفيسا وُلدتما في عام واحد، عيناها خضراوان كعينيك،

والشعر الأحمر هو نفسه تقريبًا. إذا تمكنت من تجاوز هذه الأسوار والابتعاد عن "الندبة"، فلن تكوني بمأمن أبدًا في "الجزيرة الجنوبية"، لذا يجدر بك الذهاب إلى كارل توليب في حانة "العابث" وإخباره بأنك ابنته لوفيسا أولريكا، صديقة طفولة جوانا أولف، وأنت عدت إلى والدك العزيز بعد كل تلك السنوات.

- ألن يميز ابنته التي من صلبه؟
- بالطبع، إنه ليس غبيًا. لكنه سوف يصدقك لأن كلماتك كذبة يتمنى سماعها أكثر من أي شيء في حياته.

يغمر الارتياح أنا استينا عندما لا ترى بيتر بيترسن في مكانه المعتاد في أثناء صلاة الصباح، وترى نفس المراقب الذي اصطحبها إلى الفناء، الذي كان يقف جوارها عندما كان بيترسن يجلد "الحيزبون"، اسمه جوناتان لوف، أصغر من معظم زملائه، ولا يبدو أنه يعاني إعاقة ما عدا عن تخشب طفيف في ظهره، وهو معروف بدمائته، ويبيع الطعام والكحول دون المطالبة بمبالغ باهظة. تقرر أنا استينا أخذ زمام المبادرة، فتذهب إليه أمام المقاعد بعد انتهاء الصلاة، وتحني له ركبتيها وتطلب السماح لها بالحديث مع القس، فلا تكاد تصدق عينيها عندما ينتحي جانبًا بابتسامة طفيفة ويسمح لها بالاقتراب من نياندر، الذي بدوره يلوح لها منزعًا لتدخل حجرة المقدسات.

- ما خطبك أيتها الفتاة الحمقاء؟ ألا تفهمين أنك تثيرين شكوك الناس بمجيئك لمقابلتي مرارًا وتكرارًا؟ ما من مفتاح أعطيه لك، ليس بعد.
- لا بد أن أهرب الليلة، الليلة وإلا فلن أهرب أبدًا، ففي أي لحظة سيجرني بيتر بيترسن إلى البئر ويرغمني على الرقص، وبعدئذ لن أكون قادرة على الزحف عبر أي فجوة.

يصير تنفس نياندر ثقيلًا مجهدًا، ويتلمس باحثًا عن ظهر كرسي ويرتمي عليه، يمضغ لحيته ويفرك فروة رأسه حتى تتطاير ندف الجلد الجاف، وعندما يبدأ التفكير بصوت عال، يدرك أنه ما يزال ثملًا وما كان ينبغي أن ينام في سريره قبل الصلاة.

- اللعنة على كل هذا! ألن أجد ثواباً على كل شقائي؟ لماذا تبتليني يا رب؟
إنها تقول الليلة، الوقت ما زال مبكراً، مبكراً جداً. لكن بجوركمان، ذلك
الجشع اللقيط، ذلك الكلب الشره، على وشك الإفلات مني، والشكوى
مكتوبة جاهزة... لكن ربما أهتدي إلى سبيل آخر، يؤدي الغرض
نفسه...

وبعد دقيقتين من هذه التتمات، يبدو القس كأنه توصل إلى قرار، ويهوي
براحة يده على الطاولة.

- بحق الشيطان، انصتي لي جيداً يا بنيتي، تقولين الليلة، فالليلة إذن،
مهما يكلف الأمر. عليك البقاء مستيقظة وانتظار طرق على الباب،
سيفتحه لك شخص، وعندئذٍ تختفين، ومهما يحدث لك بعدها، فلا
يعنيني في شيء ما دمت بعيدة لمدة كافية لمساءلة بجوركمان على
سوء إدارته، أتفهمين؟ طيب، اذهبي وليحفظك يسوع المسيح وإبليس
وأودين، وإلا فعليهم تبرير تقصيرهم أمامي.

عندما تخرج أنا استينا إلى الفناء يقودها المراقب لوف، تجد شيئاً يحدث،
جميعهن مصطفات، كل مجموعة طعام تقف خارج حجرتها، وبيتر بيترسن
يسير جيئة وذهاباً بينهن، مختالاً كديك، متألقاً كالشمس. يدفع لوف أنا استينا
في اتجاه مجموعتها فتسرع وتقف جوار "العنزة" وجوانا وليزا المجنونة،
ويتردد صدى صوت بيتر بيترسن المدوي بين المباني.

- سيداتي سادتي، اكتشفت سرقة في وقت مبكر من هذا الصباح، وفي
أثناء وقوفكن هنا لطيفات، نقلب جميع الأسرة رأساً على عقب حتى
نجد الأشياء المسروقة. ما من سبب يدعو أي بريئة للخوف، يمكنكن
إمتاع أعينكن بهدوء بالبهاء الذي أمامكن ما دام البحث جارياً.

تحس أنا استينا بالأمل يموت بداخلها، فات الأوان، اختار بيترسن ضحيته
والآن لم يتبق سوى الرقصة، سيجدونهُ أيضاً كان الشيء الصغير الذي دسّوه بين
القمل المتختم بالدماء في فراشها، ولن تجديها اعتراضاتها المحمومة نفعاً.
سوف يرسل بيترسن في طلب "المعلم إريك" ويحكم عليها بعقوبة ضمن

الحدود المسموح بها. توشك على البكاء، وتعض شفتها السفلى بقوة، شاعرةً بألم يمكنها اختياره بنفسها.

وبعد بضع دقائق، يعثرون على السكينة الخشبية، ويحملها عاليًا المراقبُ الظافر ويسير نحوها مباشرة، مُدليًا صيده الثمين بين إبهامه وسبابته، يسأله بيترسن عن السرير الذي وجدها فيه، وعندئذٍ يمسك المراقبُ بجوانا من ذراعها ويجرها إلى البئر، فتتمد ابتسامة بيترسن من الأذن إلى الأذن.

الساعة الرابعة والنصف فجراً. وعندما يمضي أكثر من نصف اليوم، ما تزال صرخات جوانا تُسمع، ما تنفك تخفت مع كل ضربة. لا تراها أنا استينا مرة أخرى أبداً.

الفصل التاسع والثلاثون

السرير الذي جوار أنا استينا فارغ، لا بد أن المراقبين، كما فعلوا بـ "الحيزبون"، حملوا جسد جوانا المتضعع إلى المستوصف كي يصلحوا من شأنه بقدر مستطاعهم. الأصوات الليلية في الحجرة أكثر إثارة للرعب من المعتاد، إذ يُسَمَع النشيج والكلمات المتفرقة من جميع الزوايا، شهقات عنيفة والنزيلات يستيقظن فزعات من كوابيس مروعة، معظمهن ينمن نومًا قلًا بعدما أرغمن على سماع الصرخات القادمة من الفناء حتى بعد العصر. عندما ذهبنا أنا استينا إلى صلاة المساء، رأيت بقعًا حول البئر حيث كانت جوانا تسحب جسدها على الأرض، وعلى الجزء الخارجي من البئر لطخات حمراء، مصدرها لن يقدر على تخمينه من لم يعيش في "الندبة". مشاعرها لا تدع مجالًا للإرهاق، الرعب والأسى على مصير جوانا، يرافقه ارتياح هامس لأن فتاة أخرى حل بها المصير الذي ظننته مصيرها، فيعقبه على الفور شعور بالخزي من الفكرة نفسها. بداخلها تحس بذعر متعاضم، وإحساس أنها عالقة في شيء ليس بمقدورها إيقافه، تحتاج أنا استينا إلى كامل قوتها وعزيمتها من أجل هروبها، لكن ما حدث لجوانا خلف بداخلها جرحًا غائرًا تتسرب منه طاقتها. ليس الليلة، يا ربي، ليس الليلة. بيد أنها تعرف أن أوان الخيارات فات. تنتظر في الظلام.

يأتي الطرق خافتًا كما قيل لآنا استينا، وفي بادئ الأمر لا تثق بسمعتها، لكن عندما ترفع وركيها فوق حافة السرير وتمشي على أطراف أصابعها، تسمع مفتاحًا يدور في القفل، فينزلق الباب ليبيّن شقًا رفيعًا، ينتظر شخص على الجانب الآخر، وبصمت يدفع الباب بما يكفي لمروها، إنه جوناتان لوف،

المراقب الشاب، يرفع إصبعًا إلى شفتيه، ويسند كتفه إلى الباب وفي الوقت نفسه يمسك المقبض حتى لا يضغط على مفاصل الباب عندما يغلقه، ويوصد القفل ثم يشير إليها لتتبعه.

يسيران عبر الفناء سيرًا حثيثًا ويصعدان السلالم نحو المبنى القديم، وتسمع أنا استينا أصواتًا وضحكات قادمة من الطابق الرابع، ما زال المراقبون مستيقظين، يعربدون، وبالداخل تسمع أصوات ألعاب وشراب، أصوات أوراق مهترئة من كثرة الاستعمال ترتطم بسطح طاولة، ورنين قنّان وكؤوس. يلوح لوف لها لتقف في ظل جوار الباب، ثم يدخل هو عبر النصف المفتوح، وبعدما يتحقق من فراغ الطابق السفلي، يمران عبر مطبخ مظلم حيث ما يزال دفاء المستوقد عالقًا، وعنده يقف لوف ليوقد مشعلًا صغيرًا من الجمرات، ثم يحمي الشعلة بيده وهما يتابعان السير عبر حجرة طعام صغيرة، ومنها إلى دهليز. تصعب الرؤية على أنا استينا لأن الشعلة تعميها بدلًا من أن تنير طريقها، لكنها تعرف أنهما يعبران إلى الجناح الجديد، الجناح الذي ساعدت "العنزة" في بنائه.

تنخفض الأسقف في أثناء سيرهما، وتخشوشن الجدران تحت يد أنا استينا، إذ لم يُقدّم أي شخص قط على تزيين هذه الأسطح بفرشاة أو ورق حائط، وخلف باب دون قفل يجدان سلمًا متداعيًا يقود إلى القبو، يغلق لوف الباب ثم يجد على حُطاف فانوسًا ذا شمعة صغيرة ويشعلها، وعندما يبلغان أسفل السلالم يتكلم إليها أول مرة.

- لن نسمعنا أحد هنا، لكن هذا ليس سببًا لنتكلم بصوت أعلى مما هو ضروري. إنك محظوظة، أنت وصديقك نياندر، فمن عادة بيترسن أن يكون سخياً مع الجميع بعدما يحظى بمتعته مع السوط، حتى لا يذهب أحد إلى المفتش بجوركمان ويهمس في أذنه بكلام عن استخدام القوة المفرطة، والآن لا يوجد بالأعلى كثيرون ممن يمكنهم المشي باعتدال.

تنظر أنا استينا إليه وتنتظر، فيحس الشاب بسؤالها.

- أعطاني نياندر بضعة دالرات لأفتح الباب وأصطحبك إلى هنا ثم أمسك لساني. وأمرني بالانتظار حتى تفعلني ما عليك فعله، خذي الفانوس، أمامك ساعة، وفقًا لحجم الشمعة، أو ربما مدة أطول.

تومئ. وقبل أن يناولها الفانوس، يفتح زجاجة ويشعل غليوناً فخارياً عبّاه سلفاً بالتبغ، ثم يقتعد إحدى درجات السلم وهو يمد إليها الفانوس بابتسامة خفيفة.

- حظاً موفقاً.

عندما تبتعد بضوء الفانوس الباهت عن لوف، لا ترى منه سوى توهج غليونه، وكلما يأخذ منه نفساً، يغمر الوهج الأحمر وجهه، فيبدو لها كأنه قناع مسرحي معلق في الفراغ وليس وجه إنسان حي.

القبو ضخم وتقسم جدران المساحة إلى أقبية منفصلة، بعضها مقسم بألواح خشبية من الداخل. تسمع أنا استينا حركة الجرذان وهي تخشخش على امتداد الجدران، وتومض أعينها ثم تتلاشى كلما سقط عليها الضوء، المكان نتن، فالقبو بأكمله مليء بالطعام، ومن الواضح أن بعضه نسي ففسد، صناديق تفاح ذابل، وجوالات لفت، وبراميل شبه مليئة باللحم المملح حيث تحللت قيعانها وتدفق المحلول الملحي على الأرض الترابية. تخمن أنا استينا أن اللحم هو مصدر الرائحة الأسوأ، نتانة التفسخ الثقيلة المثيرة للقيء، يندفع الذباب والعث إلى ضوء فانوسها، يطن في أذنيها ويرتطم بوجهها كأنه ثمل من التخمة.

تشق طريقها بحرص حول الجدران، وهي تلقي نظرة سريعة من حين لآخر على الشمعة المتضائلة، وتستغرق وقتاً أطول مما كانت تأمل، بكل ما حولها في حالة فوضى، أشياء بعضها فوق بعض، وأخرى مكومة في الأركان، فتضطر مرة تلو أخرى إلى الانبطاح على الأرض حتى تحاول الرؤية عبر الأشياء المتناثرة، وكل مرة لا ترى سوى حجر الأساسات.

وأخيراً لا يتبقى سوى المساحات الصغيرة بين الفواصل الخشبية، وعندها تتراكم الجوانات والقمامة لدرجة أنها لا تستطيع الاقتراب، ولا تجد خياراً سوى الشروع في تحريك الأشياء بعيداً، شيئاً فشيئاً، تضع الفانوس على الأرض وتبدأ العمل الشاق، الأقمشة والأغطية الخشبية الزنخة متحللة تحت ثقل محتوياتها، وسرعان ما يزحف قمل الخشب على ذراعيها وكتفيها، وكلما ارتعشت الشمعة، تتيقن أنها ستنطفئ وتركها في الظلام، الرائحة ما تنفك

تزداد سوءًا، لكن أنا استينا تحرز تقدمًا ببطء، تخلي ممرًا عبر تل الأشياء المنسية، حتى تتحسس الحجر أمامها.

تقفز عندما تسمع صوت لوف مرة أخرى، قريبًا منها، يقعد مُصالبًا ساقيه جوار الفانوس ببضع خطوات وراءها، وقد تحرك بهدوء بالغ فلم تسمع شيئًا في غمرة انشغالها بنقل الأنقاض.

- كيف الحال؟ لم يبق الكثير من الضوء في الفانوس.

تتحسس الفجوة حيث ينتصب الجدار من الأرض، ويردف لوف:

- أعطاني نياندر تعليمات محددة بشأن ما ينبغي لي فعله إذا لم تجدي ما تبحثين عنه في الوقت المناسب.

تنبطح على الأرض وتستكشف الفجوة بيديها، تجدها أصغر مما توقعت، تبعد حافتها العليا شبرين فقط من الأرض.

- القس لا يرغب في المغامرة مرة أخرى باقتيادي لك لنعود عبر الفناء، فإذا صادفنا أحدهم هناك يفرغ مئانته، فسينتهي الأمر نهاية كارثية.

تمد ذراعها في الفجوة إلى أبعد نقطة ممكنة ولا تلامس سوى الهواء، ها هو ذا طريق ألما غوستافسدوتر إلى الحرية.

- طلب نياندر مني، إذا لم تجدي ما تبحثين عنه قبل فوات الأوان، أن أضع يدي حول عنقك وأخنقك، ثم أتركك جوار الجدار تحت بضعة جوانات لفت.

تستدير نحوه، فتراه يبرم شاربه الخفيف بين إبهامه وسبابته ويبتسم لها تحت ضوء الفانوس، فتبتسم له يائسة وظافرة في الوقت نفسه.

- إنها هنا! وجدت الفجوة، كانت قناة لتصريف مياه الأمطار، سُيِّدَت عندما كان المنزل دون سقف في خريف عام اثنتين وسبعين، تبلغ الجانب الآخر من الجدار.

يميل لوف رأسه إلى جانب.

- وأنا كنت أمل مع نفسي ألا تجدي ما تبحثين عنه، فقد وعدني نياندر بعلاوة مقابل مشقة إسكانك للأبد. وبكل صدق، رأيت أنني يمكن

أن أجنبي فوائد أخرى، والآن يبدو أن عليّ إرضاء نفسي بأمر واحد.
اعذريني لأنني أريد فعلها في الظلام، إنك نحيلة وقذرة وأفضل ألا أنظر
إليك.

ينفخ لوف في شمعة الشحم فيطفئها. لا تجد أنا استينا طريقاً لتجاوزه
وهو يقترب منها بذراعين مفتوحتين، ويرغمها على الاستلقاء على الأرض،
ثم يمزق فستانها الأبيض، ويأخذ منها ما رفضت إعطائه لأندريس بيتر عند
”مرجة الأطفال“ منذ أمدٍ سحيق.

وبعدما يفرغ يتركها في مكانها على أرضية القبو، تتمدد مستلقية على
ظهرها وعيناها مفتوحتان، لكن الظلام حالك لدرجة أن فتحهما أو إغماضهما
لا يغيران من الأمر شيئاً، وفي الظلام تتراءى لها نفسها من الأعلى، وقد أضيئت
بطريقة ما، جسد كأنه جسد شخص آخر، مهزول، عارٍ، قذر، لا تتعرف عليه،
تزحف الحشرات على جلدها، ولا تحس بشيء، تحتشد لتمتص الدم الذي ينز
منها ويتجمع مكوناً بركة متخثرة تحت فخذيهما وأسفل ظهرها، لا تبكي، إذ لم
يعد للمشاعر وجود، يعلو صدرها ويهبط، فتدرك أنها ما تزال على قيد الحياة،
لكن الحياة خيار مطروح أمامها، لم تعد ترغب فيها، بكل بساطة يمكنها أن
تصغي إلى حركة رثتها الطفيفة ونبضها الواهن وتوقفهما بإرادتها للأبد،
وسيمتثلان لأمرها.

لا تدري أين عساها أن تجد القوة في هذا المكان القميء، أو ما إذا لديها
إرادة كامنة بداخلها، لكنها تعرف أنها لن تدع رحلتها تنتهي عند هذا الحد،
لن تسمح بهذا، فبداخلها جذوة ما تزال متقدة، تتخذ قرارها وتبدأ الزحف
على مرفقيها وركبتيها نحو الجدار، الألم لا شيء الآن، تحس به كأنه قادم
من مسافة بعيدة، سطح الفجوة الخشن يخدش كتفيها وهي تقحم نفسها إلى
الداخل وذراعاها فوق رأسها، ثم تضطر إلى الانقلاب والدخول على ظهرها،
زاحفة على الأرض مثل يرقة على كعبيها ولوحي كتفيها، وإذا حركت رأسها
للأعلى قليلاً فسترتطم بالحجر فوقها، تحس بكتلته المصمتة، المنزل بأكملة،

جاثم بثقله على هذا الأساسات، تتقدم ببطء، بوصة تلو بوصة، حتى تُحاط بالحجارة من كل الجوانب.

تحس بشيء أمامها، شيء يعترض طريقها حيث تضيق الفجوة، يبدو أن حجرًا انزلق للأسفل وضيق الممر، سُيدت الأساسات كيفما اتفق على أيدي النزيلات تحت إشراف بنائين يتنافسون في عرض أقل الأسعار. تلامس أنا استينا الشيء بيدها أولًا، شيء غريب عالق تفوح رائحته النتنة في جميع أنحاء القبو.

الشيء الذي لمستته قدم.

قدم ألما غوستافسدوتر الباردة الميتة.

لم تغادر ألما مشغل "الندبة" قط، بلغت هذا الحد ولم تتجاوزه، علقت تحت الصخور بعدما قطعت نصف الطريق إلى الحرية، حتى قضت نحبها من العطش والجوع والجرذان.

لا تدري أنا استينا مقدار ما ينقضي من الليل وهي تفسح الطريق لنفسها، يبدو لها أن الزمن نفسه يتخلى عنها في كابوس لن تنساه أبدًا، غُور مائج يعج بالمشاعر والأشكال والأصوات. الجثة طرية كالطين، تتفتت مُزعًا عندما تلمسها، تحركها قطعة قطعة، مزعة مزعة، وعندما تبلغ تجويف الصدر الذي كان متماسكًا بما يكفي لينحشر بين الأرض والصخر، تجد الهوام والحشرات بَنَت فيه أعشاشها، تتهشم العظام النَّخِرة بأبسط لمسة ويتراكم سكانها الجدد في كل الاتجاهات. وعندما يصير الطريق سالكًا أمام أنا استينا، تميل رأسها جانبًا كي تمر تحت الحجر الناتي، متلوية كأفعى تحت الطرف الحاد الذي يخدش جلدها، ببطء وثبات تبلغ النقطة الأصعب، فتفرغ رثتها من الهواء، وتضغط نفسها، فتحس بالملاط يتهشم عندما تحتك به أضلاعها، وتراقص أضواء باهرة أمام عينيها إثر الضغط الذي يجعل تنفسها مستحيلًا. لن تعرف أبدًا كيف تمكنت من ضغط نفسها متجاوزة النتوء الصخري الصغير الذي يفصل بين الحياة والموت، ربما تضررت جوعًا أكثر من ألما، أو ربما لأن الصخور صارت زلقة بإفرازات جثة ألما، أو أن الفتاة الميتة في القبو خلفها وضعت يديها على قدميها وساعدتها بالدفعة الخفيفة التي كانت تحتاج إليها.

على الجانب الآخر من الجدار، تهب ريح دافئة من الخليج، ترى أنا استينا
أولاً ومضات النجوم في السماء المظلمة حالما يخرج وجهها من النفق،
وفوقها يلوح جدار المشغل، لكن وراءه سماء مرصعة بالنجوم تمتد من الأفق
إلى الأفق، ثم يأتيها قصف الرعد من بعيد فوق البحر، وعندما تحس بأولى
قطرات المطر على جلدها العاري وترى انعكاس صورتها في الماء جوار
”جسر التنهدات“ في لحظات البرق الخاطفة، تعرف أنها لن تعود كما كانت
أبدًا، لن تكون أنا استينا كتاب أبدًا.

الفصل الأربعون

عندما يقترب الصيف من نهايته، تُخلف عاداتها الشهرية موعدها للمرة الثالثة، لم تنتبه للمرة الأولى، فكثير من الفتيات في المشغل ينقطع دمهن، على الأرجح لأن أجسادهن الضاوية تعرف أن عليها الاحتفاظ بكل مثقال ذرة من قوة، وفي المرة الثانية، الحال هو نفسه، فتقول لنفسها إن جسدها يحتاج إلى مزيد من الوقت حتى يتعافى، على الرغم من أنها تحت رعاية كارل توليب بدأت تستعيد اللحم الذي سرقه الجوع منها، تعيش تحت سقفه وتساعد في إدارة حانة "العابث"، صار اسمها لوفيسا أولريكا، وإن كان يعرف أنها ليست ابنته المدللة، فهو يظهر معرفته بطريقة مراعية، محاذراً ألا يغمرها بحبه الأبوي الذي اشتعل في صدره من جديد، عادت الحياة إليه، اختفى الرجل الشائب الذي قابلته أنا استينا أول مرة، الذي كان منكفئاً على نفسه كأنه يحتمي من العالم خلف نُضده، وعادت أيام مجد "امرئ الزهر"، تجلجل ضحكته في أرجاء الحانة وهو يمازح زبائنه، ويفشو مزاجه بين الناس، تغير حانة "العابث" جلدها، إذ تُغسل الجدران المتربة فتغدو بيضاء، وتُمسح الأرضيات، وتلمع الأباريق، يتكاثر الزبائن، حتى على القوم من الساحة التي جوار "قاعة النبلاء" صاروا يلمحون بين الضيوف عندما يتأخر الوقت.

وفي المرة الثالثة، تعرف أنا استينا أن حُسن طالعتها على وشك أن ينقلب شؤماً، إذ تحمل طفلاً دون إرادتها، طفل جوناتان لوف. عندما وصلت أخذ كارل توليب بيدها واصطحبها إلى أعلى التل إلى سانت نيكولاي ليتكلم مع راعي الأبرشية، فدوّن اسمها في السجلات، وصارت ضمن الرعية رسمياً، ومع نمو بطنها سوف تجلب العار لاسمها الجديد وأبيها الجديد.

الذين ما يزالون يتذكرون لوفيسا أولريكا من طفولتها ويمزحون -بعد بضع كؤوس- بشأن مدى غرابة تغير شكل عظام وجنتيها في غضون بضعة أعوام، وكذلك شكل أنفها، لكنهم يحتفظون بشكوكهم لأنفسهم مراعاةً لبهجة "امرئ الزهر" العارمة - سوف يتخلون عن نبرة المزاح عما قريب، وسوف ينعتونها بالانتهازية الساعية وراء الثروة، وبالفاجرة التي تمارس العُهر والخداع والمستعدة لفعل أي شيء من أجل تأمين مستقبل لها ولابن السُّفاح الذي تحمله. حتى "امرؤ الزهر" نفسه سوف يضطر إلى سماع صوت العقل عندما يأتي إليه راعي الأبرشية ونائب الأسقف يرتديان معطفيهما الأسودين الطويلين ليجريا معه محادثة جدية. سوف يقولون إن الفتاة مومس متشردة، هل هو متأكد أنها ابنته حقاً؟ وسوف يقنعه زبائنه المنتظمون الذين يهتمون لأمره لأول مرة منذ سنوات. وهي، أنا استينا كنان، سوف تُلقى في المجاري، ومنها سيكون طريق العودة إلى "الندبة" قصيراً جداً.

سمعت أنا استينا أن القس بينغت نياندر اختفى، فالشكوى التي سلّمها من أجل إدانة هانز بجوركمان كانت القشة التي قصمت ظهر صبر المجلس عليه، أي نياندر، وقصته لم تتسق مع العظام التي وُجِدَت في القبو، البقايا الآدمية التي على الرغم من تحللها الذي مضى عليه وقت طويل، لا يمكن ربطها سوى بالنزيلة المفقودة، كنان. وبدلاً من البقاء ومواجهة الشكوك التي تحوم حوله، شوهد وهو يصعد على متن سفينة متجهة إلى إنجلترا، يلعن ويمشي على ساقين مترنحتين. كما لم يعد بجوركمان في منصبه، إذ أبحر في الاتجاه المعاكس عبر بحر البلطيق. لكن بيترسن ما زال باقياً، ومعه "المعلم إريك"، ينتظرانها بصبر على الشاطئ الآخر من الخليج، حتى يدعواها لرقصة أخيرة حول بئر المشغل.

تراه أول مرة ذات مساء في سبتمبر. يحين وقت الإغلاق، ومعظم زبائن "العابث" ليس من الصعب إقناعهم بالمغادرة، فحتى أشرسهم يمكن رشوه بتقديم كأس من أجل الطريق. ينسحب كارل توليب إلى مهجعه بعد يوم عمل شاق، وعندما تسير أنا استينا في جولة أخيرة بين البراميل المنتصبة التي تؤدي وظيفة الطاولات، تلاحظ الزبون الذي ما زال موجوداً، رجل متكور على

الأرضية في الزاوية، جوار النار حتى يدفئ نفسه، شاحب ومهزول، لا يسهُل تخمين سنه، إذ يبدو شاباً وعجوزاً في آنٍ واحد، شعره الطويل أشقر لكنه متسخ لدرجة استحالة تبيين لونه بدقة، ووجهه قناعٌ من الأوساخ المتصلبة، هذه ليست أول مرة تقع عينها عليه، فهو يترنح بين الحانات كشبح، منذ ساعة فتحها حتى وقت متأخر من الليل، والآن لا يريد أن يتحرك أي حركة، أنفاسه قصيرة يرافقها هسيس، وعيناها مغمضتان وجسمه متقوقع على ما بقي فيه من دفاء، لا يستجيب لنكزتها، فتضطر إلى الجثو على ركبتها وهز كتفيه النحيلتين، وجسده كله جلد على عظم، تفوح منه رائحة ننتة.

- استيقظ، تأخر الوقت، لا يُسمح بالنوم هنا.

تهزه مرة أخرى، بلطف أولاً، ثم بعنف بعد لحظات، وعندئذٍ يفتح عينيه، فتقرأ أنا استينا فيهما المشاعر نفسها التي علّمتها إياها السنة المنصرمة: الخوف والتشوش، وألمٌ من نوع يعضُّ ما دام المرء محتفظاً بذاكرته. وترى أنه شاب، أصغر مما قد تظنه من مظهره المضنى بالهموم، عيناه تدوران إلى الخلف ويسبل جفنيه عائدًا إلى خَدَره، تاركًا إياها لا تدري ما عساها أن تفعل. تفتح أنا استينا الباب المطل على الشارع، الريح شديدة في الزقاق، تتخللها برودة لاسعة، وضوء مصابيح الشوارع يصل إلى الأرض بالكاد، السنة أوشكت على بلوغ نهايتها، ويُتوقع صقيع الليل في أي يوم. تغلق الباب وتنزل المزلاج الخشبي إلى مكانه، ثم تجلب بعض الحطب للنار، وتنفخ الروح في الجمرات المختبئة تحت رماد المستوقد، وتضع غلاية نحاسية مع قليل من الماء والصابون في المدفأة، وعندما يدفأ الماء، تشرع في تنظيف وجه الشاب بقطعة قماش.

تذوب قشرة الطين ببطء وتزول، وتحتها ترى أنه مجرد صبي، ليس أكبر منها هي نفسها، يستعيد وعيه رويدًا رويدًا، وعلى الرغم من أن ثمالته تضعف قدرته على السيطرة على جسده، يبذل ما بوسعه ليساعدها على نزع قميصه حتى تتمكن من نقعه وتنظيف جسده، تعنكر المياه في القدر ثم تسود، فيتعين عليها إضافة المزيد. تعطيه ماء من البئر ليشربه، ثم تطحن حبيبات قهوة وتضعها على النار. هي عن نفسها لم تعتد مذاقها المر. لكنها سمعت

آخرين يقولون إنها تساعدهم على تبديد السُّكْرِ. تكلمه بصوت خافت، محاولةً استنفار ذهنه بأسئلتها، فيستجمع شتات عقله ببطء حتى يبدأ الكلام:

- اسمي يوهان كِرستوفر بليكس.

- وأنا...

تمسك لسانها.

- لوفيسا أولريكا، لوفيسا أولريكا توليب.

لا ترغب في إخباره عن خلفية ليست خلفيتها، وهو من جانبه لا يبدو راغباً في البوح لها بكل شيء.

- بيت والديّ في كارلسكرونا، خدمت جراحًا متدربًا في أيام الحرب، وجئت هنا إلى استوكهولم بحثًا عن النجاح والثراء، لكنني وجدت... شيئًا آخر.

يظنان قاعدين في مكانهما بصمت، ثم تجلب بطانية وتضعها على كتفيه ريثما يجف قميصه في حرارة المدفأة. وعلى نحو غير متوقع، يخالج أنا استينا إحساس بالحميمية ينمو بينهما، وهو ما يدفعها لطرح السؤال الذي خطر لها حالما ذكر لها مهنته.

- سمعت عن وجود أعشاب، أعشاب خاصة للنساء اللاتي يحملن أطفالاً دون إرادتهن، من النوع الذي تستعمله فراشات الليل.

تعجز عن محو مشاعرها عن وجهها، ليس الحزن على الطفل الذي سوف يُجَهَّض، إنما غضبها عندما يخطر لها والده وإحساس الدَّسِّ الذي لم تتمكن من غسله عن جسدها. تضطر إلى انتظار رده مدة طويلة، ثم يومئ أخيرًا.

- أيمكنك مساعدتي في العثور على قليل منها؟

نتيه نظراته حتى تستقر على بطنها، المخفية تحت طيات فستان واسع قايضته بفستانها القديم لتمهل نفسها بعض الوقت. يرمش كأنه يراها أول مرة، وتلمح أنا استينا في عينيه وميض شيء آخر، شيء غير اليأس والقنوط، وحتى صوته يكتسي بنبرة جديدة وهو يجيبها.

- نعم، نعم. ساعدتني وسوف أساعدك.

الفصل الحادي والأربعون

ظل كرسْتوفر بليكس يعيش حياته زاهلاً عما حوله منذ نهاية الصيف، في ثمالة دائمة ما استطاع إلى الشراب سبيلاً، إما جالس في حانة، وإما مترنح في الأزقة، يستيقظ حيثما داهمه النوم آخر مرة، في مدخل بيت، أو جوار سياج، أو غارقاً في قيئه في ركن من "الأرض المحروقة"، وعندما يستيقظ ويجد أنه لم يُسحَق تحت عجلة عربة في العتمة، يبدو له أن العالم نفسه يهزأ به، وكل صباح يعيش لحظات مقبّية، يعاني آثار الشراب وهو بين النوم والوعي، إذ تعود به ذاكرته إلى غرفته الرطبة، عندما كانت تنتظره مهمة الاعتناء بالرجل الذي يفقد أطرافه تباعاً، يصب النبيذ في حلقه، ويعقد العاصبة، ويبتز الطرف، ثم يحمله إلى ماغنس في سقيفته، ويقعد مرتجفاً في ركن ويشرب حتى يفقد وعيه، ومن حوله تهبط الأشباح لتجوس في المنزل الخرب، ويتناهى إلى مسامعه نعيق البومة السمراء في الغابة. وحتى الآن لا يجد مصدر راحة سوى مشروب الأكوافيت، يلجأ إلى القنينة متى ما استطاع. روحه ما تزال فتية، لكن جسده يهلك، ما زال قادراً على مقاومة السموم التي يتجرعها، وصمد مدة كافية إلى أن قابل الفتاة، اسمها لوفيسا أولريكا، وقد طلبت منه المساعدة، تحتاج إلى مساعدته وما من أحد آخر سيساعدها. يفهم كرسْتوفر بليكس أن هذه يد رحيمة مُدَّت إليه وسط لجة الظلمات التي يعيش فيها آخر أيامه، وأن العناية الإلهية أنعمت عليه بفرصة للتكفير، حياة مقابل حياة.

تسمح الفتاة له بالمكوث في "العابث" حتى الصباح، ويجد قميصه جافاً ونظيفاً لدرجة أنه يبدو له قميصاً مختلفاً تماماً عن الذي خلعه الليلة الماضية. ولأول مرة منذ عودته إلى استوكهولم، لا يضع البراندي هدفاً ليومه، بل يغير

مساره متجهًا صوب أطراف المدينة، عابِرًا ”جسر المسلخ“، ومتجاوزًا سوق السمك، مواصلاً طريقه شمالًا بمحاذاة ”النهير“ و ”المستنقع“. يدور حول ”بوابة جبايات ورك القط“ ويبحث عن هدفه في ”الفيء العظيم“ جوار ”ليل جانز“، حيث تنتصب جذوع الأشجار مسربلة بالصمت، الغابة خالية وباردة، وأوراق الأشجار كألسنة اللهب تتوهج بالأحمر والذهبي، ستتساقط عما قريب. ولّى موسم ما يبحث عنه، لكنه يدقق النظر إلى الأرض حول جذوع الأشجار المبتورة والأشجار المقتلعة، ويبحث في كل الأماكن التي ذكرها له إمانويل هوفمان ذات يوم.

يعود إليها في اليوم التالي وفي جيبه الأعشاب الموعودة، وتبدو الفتاة، لوفيسا، مدهوشة ولا تستوعب بسهولة التغيُّر الذي طرأ عليه، يرفض النبيذ وأي مشروب كحولي، لكنه يلتهم بشراسة الخبز الذي تعطيه له. كان قد عقد لها الأعشاب في لفافات صغيرة كي تعلقها وتحفظ بفعاليتها، ثم يطلب منها إحضار القدر، ويربها كل خطوة ويتأكد من أنها استوعبت ما ينبغي فعله.

- دعيها تغلي على نار هادئة لاستخلاص المواد الفعالة، حتى يتغير لون الماء، ثم صفّي المحلول بقطعة قماش واشربه عندما يبرد. حضري جرعة جديدة كل صباح.

- كيف سأجد المزيد من الأعشاب عندما ينفد ما لدي؟

- سوف أجمعها وأجلبها لك.

ترشفت أنا استينا الرشفة الأولى، مستعدة لطعم على الأقل مر كالحقوة أو لناع كالبراندي، ويعرف كرسنوفر أن المزيج ليس قوي الطعم، ويرى الارتياح على وجهها.

- ما مفعول هذه الأعشاب؟

- توقظ الأعشاب جوعًا في لحمك، والطفل غير المولود هو الذي يُهضم حتى لا يبقى منه شيء. هذا هو شرح مُعلّمي وتعبيره. لكن العملية تستغرق وقتًا، عليك بالصبر، هذه الطريقة هي الأفضل والأسلم.

تبلغه الأخبار في منتصف أكتوبر، يقرأ في صحيفة إكسترا بوست عن العثور على رجل ميت، فيعرف أنه لا يمكن أن يكون غير الذي يعرفه، جثة انتُشلت من بحيرة لاردر، دون ذراعين وساقين، ودون عينين وأسنان ولسان، ما اقترفته يدها. يرتعد كريستوفر من الذكرى لكنه يجد العزاء في أن المعاناة التي ساعد في تسببها انتهت أخيرًا. يتلو صلاة من أجل الرجل الميت، ويعرف أنه بات يسير في طريق آخر. يزور الفتاة كل يوم ليطمئن نفسه على صحتها، وينتظر أسبوعًا قبل أن يشرع في الخطوة التي استعد لها منذ مدة. وذات صباح بارد، يغسل ملابسه المتسخة في المجرى المائي، ويدعها تجف تحت شمس الخريف، ثم يتوجه إلى كنيسة نيكولاي ليتكلم مع القس، ينتظر حتى تُتاح له الفرصة، فيُعرِّف بنفسه ويوضح سبب مجيئه.

- أنوي الزواج.

يدلي كريستوفر باسمه واسم لوفيسا أولريكا توليب، ويهنئه القس ويسأله عن أبرشيته التي ولد فيها، فيجيب بأن عائلة بليكس ظلت ضمن رعية كنيسة فريدريك منذ مدة طويلة، فيعده القس بأنه سوف يرسل رسالة في أقرب وقت ممكن حتى تُقرأ نذور الزواج هناك أيضًا.

لا يعود كريستوفر قادرًا على تأجيل المسألة الوحيدة المتبقية، يهبط التل قاصدًا حانة "العابث"، وينتظر حتى يحل المساء وتحين ساعة زيارته اليومية. وفي أثناء إعداد الفتاة لمحلولها اليومي، يوقفها بوضع يده على يدها، ثم يلتقط إحدى الأوراق ويرفعها أمامها.

- هذا كُنْبات الحقول، أخبرني المعلم هوفمان بأنه مفيد للكبد.

ثم يختار زهرة.

- وهذه نبتة سانت جون، وهي ما تجعل المياه حمراء.

ويلتقط المزيد من الأعشاب ويوضح لها فوائدها: عُشبة الملائكة، والميركة، وبقدونس البقر، ويترك واحدة حتى النهاية.

- وهذه هي زهرة الأقحوان، اخترتها من أجل مذاقها. ليس من بين هذه

الأعشاب أي واحدة من شأنها الإضرار بطفلك.

لا تحر جوابًا، لكن كرسْتوفر يرى الحُمرَة تتصاعد إلى وجنتيها.

- فات الأوان، ليس أمامك وقت، لن تستطيعي التخلص منه. سوف يولد الطفل.

لا يميز أي كلمة في خضم صراخها، تضربه بكفيها المفتوحتين، على وجهه، وعلى صدره، وأي موضع تصل إليه يداها. وفي البداية يقف ساكنًا ويتلقى ضرباتها دون أن يدافع عن نفسه، ثم تقترب منه فيفتح ذراعيه ويضم جسدها المرتعش، تُستنزف طاقتها، ثم تهدأ، فيهمس في أذنها أنه أعد لقراءة نذور زواجهما، وأن طفلها سوف يحمل اسمه، ولن يأتي إلى العالم لقيطًا، ولن تلده ابن سفاح.

لا تعرف أنا استينا كتاب ما ينبغي لها قوله أو ما هو شعورها، تحمل في بطنها خنوص لوف، بذرة عُرس مُخضلة بالشر والعنف، وظلت منذ مدة طويلة تتخيل الطفل غير المولود بوجه كالذي رأته في وهج الغليون، شبح خبيث معلق في الظلام وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة. وعلى الرغم من أن مشاعرها تغيرت مع مرور الوقت، صارت تتناول دواءها بتردد متزايد، تحس به، بالحياة التي تنمو بداخلها، ما تزال واهنة، كخفقات جناحي عُثة. كيف يمكن لشيء بهذا الصغر، ثمرة جسدها، أن يكون مثل أبيه ضد إرادتها؟ والآن اتُخذ القرار بالنيابة عنها.

وعندما تذهب إلى كارل توليب وتخبره، يجهش بالبكاء، وتستغرق لحظات حتى تدرك أنها دموع بهجة، يعانقها، ويضع أذنه على بطنها ويقول لها إنه حلم بأنه سوف يحظى بحفيد وأنه استيقظ وهو يهذي من الفرح، لا يسألها عن والد الطفل، وتخبره على أي حال، إنه كرسْتوفر بليكس، الجراح النحيل الذي تحسنت صحته كثيرًا مؤخرًا، عرض عليها الزواج، وسيتزوجان قريبًا حالما يجدان الوقت، فيغمرها توليب بابتسامة عارف، وفي عينيه بريق يمحو عقودًا عن وجهه المجدد.

- رأيتكما معًا، وهذا ما ظننته، عيناى لا تعانيان خطبًا ولا بد أن أكون أعمى حتى لا أرى أن شيئًا يجري بينكما.

يتغير شيء بداخلها، ففي الليل لا يراودها الحلم نفسه عن "الديك الأحمر"، حلم أنها اللهب -المليء بالكراهية الهادرة- الذي يفني استوكهولم ويتركها أنقاضاً يتصاعد منها الدخان، الطفل الذي بداخلها هو النار الآن، لكنها ليست نارًا مدمرة، بل النار التي تشكّل وتصوغ، سوف تجلب أنا استينا طفلاً في هذا الزمن المشؤوم، وسوف يكون الطفل -سواء أكان صبيًا أو فتاة- طفلها، وسوف تربيته بنفسها، لن يصبح كالأخرين، سوف يكبر، ويكبر قوياً ليساعد على جعل هذا العالم شيئاً آخر، خالياً من الظلم والشر، وسوف يجلب الطفل أطفاله إلى العالم الذين سوف يواصلون الكفاح، هكذا سيكون انتقامها من هذا العالم المقيت، إن جاء صبيًا فستسميه كارل كريستوفر، على اسمي والده وجده، وإذا جاءت فتاة، فستكون أنا استينا، على اسم فتاة لم تعد موجودة، لكنها لن تُنسى.

الفصل الثاني والأربعون

يُحكِمُ البرد قبضته على استوكهولم في نهاية أكتوبر، وذات يوم يصبح "الخليج المذهب" متجمدًا ولامعًا، يقف كريستوفر بليكس عند حافته والشمس تغوص مقتربة من الأفق في رحلتها القصيرة عبر سماء الشتاء، تحت البرج القديم الذي استضاف ملوكًا وقتلة ملوك أيضًا.

يفكر بأسابيع نهاية الصيف، قبل أن يقابل الفتاة ويضعه القدر في مفترق طرق ما كان ليتوقعه أبدًا، يتذكر أيام ثمالة هائمًا في أنحاء "مدينة ما بين الجسور" وباحثًا عن الموت كأنه صديق قديم تأخر عن موعد، وكان الأمل يبرق أمامه كلما شهد شجارًا تُستَل في السكاكين، أو حمولة ثقيلة تنقلب على الرصيف، لكن الموت ظل يراوغه، لم يرفع أحد يده ليلمس هيئته الضئيلة، ولم تُكلف الحوادث نفسها عناء إنهاء حياته، كأن حياته لا قيمة لها وحيوات الآخرين مغرية للغاية. أراد أن ينهي حياته بنفسه، لكنه اكتشف كما في السابق أنه يفتقر إلى الجرأة، الانتحار خطيئة، كما يعرف الجميع. إذا كان الفردوس الذي يحلم به خواءً قاتمًا ليس فيه سوى النسيان، فيفترض أن الجحيم الذي أُعد للمتحررين مكانٌ يُرغم فيه على التذكر مرارًا، واستعادة أيام الصيف التي أمضاها بيدين ملطختين بالدماء والرعب يملأ صدره. كيف سيقدر على إنهاء حياته؟ فحاول بدلًا من إنهاؤها أن يجد طريقة لتقصيرها، خلصة، فربما لا ينتبه له الرب، فصار يجوع نفسه حتى نُحلت يداه وتخلله البرد وصار يرتعش إثر كل حركة، لكن في النهاية يتغلب الجوع عليه، وحاول أن يحفر لنفسه قبرًا بقناني الشراب لكنه أخفق.

طلب من الفتاة أن تسديه معروفًا، أعطائها لفافة مغلقة ختمها بالشمع، وفيها تقبع جميع الصفحات التي سوّدها، الرسائل التي ظل يكتبها طوال الصيف لأختٍ لم تعد موجودة، يعرف الآن إلى من ينبغي أن تذهب الرسائل، قرأ العنوان في إحدى الصحف عند متجر الكتب، نفس الصحيفة التي عرف منها خبر العثور على الجثة في بحيرة لادر، وأخيرًا فهم الكلمات الوحيدة التي خرجت من شفّتي ضحيته عندما كان ثملًا، قبل أن يُقطع لسانه، سمعها عندئذٍ: «إننا مدينون لـ...»، والآن عرف أنه يقصد «عند دار اندبِتو».

يجول كِرسْتوفر بليكس بناظريه في أنحاء الخليج، تنعكس الشمس على الجليد الذي يبلغ عمره يومًا واحدًا، فيبدو له من حيث يقف كأنه طريق عُبدٌ بذهب برّاق، هذا هو طريق الجنة التي وُعد بها، اتضح له كل شيء في اللحظة التي طلبت الفتاة منه المساعدة. حياة مقابل حياة. فبإنقاذ حياة الطفل الذي لم يولد، اشترى لنفسه حق التصرف في حياته.

يخلع حذاءه ويقف حافي القدمين على الأرض الباردة، وينضو سُترته وقميصه وبنطاله، ثم يضع قبعته فوق ملابسه.

جسده لم يعد أعجفَ ضاويًا، استعاد ارتواء الشباب، وشعره الذهبي الذي يبلغ كتفيه لم يعد متلبدًا، وقسمات وجهه الغائرة امتلأت، كما لو أن الزمن طُوي إلى الوراء وسمح له مرة أخرى بأن يبدو كصاحب السبعة عشر ربيعًا التي هي سنه.

يخطو أولى خطواته في طريقه الذهبي، وتحتَه الجليد صافٍ لدرجة أنه يرى عبره الصخور في القاع حتى تزداد المياه عمقًا، يواصل السير، خطوة فخطوة، ومن خلفه يسمع جمهرة أناسٍ على الشاطئ، يهتفون طالبين منه الرجوع، لكنهم صاروا في عالم آخر بالنسبة إليه، وهو قطع نصف الطريق إلى عالمه الآخر. يغمض عينيه، الشمس تدفئ جلده في الهواء القارس، وبيتسم في أثناء سيره أبعد فأبعد إلى حيث يتشقق الجليد مع كل خطوة، ثم يتهشم.

الجزء الرابع

الذئب الأعظم

شتاء 1793

الطرب يقرع آخر أجراس العالم،
الرب في حكمه عزيزٌ مقتدر؛
فلا خوف على الأصدقاء المخلصين،
ومثوى الخُطاة، لا ريب، هو الظلام.

- كارل مايكل بيلمان، 1793

الفصل الثالث والأربعون

يستيقظ ميكيل كارديل وهو لا يدري مكانه، لكن خديه مبللان ويتذوق ملح دموعه على طرفي فمه، الظلام يحيط به، وتحت شيء مغروس في خاصرته ويؤلمه، شيء أسطواني أملس، يتحسس سطحه الخشبي فيدرك أنه ممتد فوق مقبض مكنسة. صداعه لا يطاق، مثل الطعم في فمه، وعندما تتكيف عيناه مع الظلام، يتبين شكل باب.

يظل مستلقيًا على ظهره لحظات، وهو يأمل أن تعود إليه ذاكرته، كؤوس تعلوها الرغبة، حانات مشبعة بالدخان، حالة ثمالة متزايدة، أصوات ترتفع من الغضب، تبادل ضربات. ومع عودة حواسه، يشعر بالبرد، بالهواء القارس الذي يصعد من بين ألواح الأرضية، وتصطك أسنانه. إنه في استوكهولم، كما هو الحال دومًا، وهو بداخل الدولاب في حانة "دار البوّار"، الدولاب الذي يُستعمل أحيانًا مكانًا لاحتواء الزبائن الذين لا يمكن التعامل معهم بطريقة أخرى. وسييسل وينيه مات.

في حالته التي بين النوم واليقظة، لا يميز كارديل بين الكابوس والواقع، لكن ضباب سُكره ينقشع عن الذكرى، فيجتاحه ألم الفقد مرة أخرى بضراوة كما عندما سمع الخبر أول مرة، يضيق صدره، ويجاهد في سبيل الهواء، وتشتعل ذراعه اليسرى بألم مباغت، وتفلت منه أنة وهو يدلك الندوب التي خلّفتها سكين الجراح، ويومض البرق خلف جفنيه المغمضين.

ينقلب كارديل على بطنه، وزن ذراعه اليسرى لم يعتده بعد، إذ لديه يد منحوتة جديدة، من خشب البلوط هذه المرة، وزنها أثقل من التي فقدتها، ولم يتسن له الوقت ليعتادها، لكنها تؤدي غرضها، ربما يصعب التلويح

بالبلوط، لكنه ينشر الموت والدمار عندما يصيب الهدف، الأربطة الجديدة أفضل، وكارديل لا ينوي تضييع يده مرة أخرى، يرخي الأربطة ليعيد تدفق الدم، ويجد سنين أماميتين عالقتين بين أصابع القبضة الخشبية، وبعد عودة الحياة إلى ذراعه اليسرى، يعيد شد الأربطة ويخبط الباب.

- افتحوا الباب وأخرجوني بحق الجحيم.

ينقضي بعض الوقت قبل أن يتلقى إجابة من الجانب الآخر.

- هل هدأت الآن يا كارديل؟ لا أريد المزيد من المتاعب، أسمعني؟

- سيسوء مزاجي إذا استنفدت صبري.

يُجرُّ شيء ثقيل كان قد وُضع أمام الباب، ويرفع كارديل ذراعه ليحمي عينيه من الضوء ويترنح خارجًا من الدولاب، الحانة تسودها الفوضى، شظايا الزجاج والقناني متناثرة على الأرضية، يرتمي كارديل على أول مقعد يراه ويضع وجهه بين يديه، وعندما يرفع بصره، يرى لوحة هوفبرو تبتسم إليه من الجدار، والجيثة حاملة المنجل ترقص من البهجة.

- أعطني مشروبًا قويًا يا غيدا، أشعر بأن رأسي على وشك الانفجار.

يعود صاحب الحانة بقدرج جعة.

- اسمعني يا كارديل، إذا واصلت سلوك الليلة الماضية، فلن أسمح بوجودك

هنا، حتى بوصفك زبونًا، لقد أخفت زبائني فأبعدتهم، والذين وظفتهم

لحفظ النظام بدلًا منك فضّلوا ترك العمل فورًا على الاصطدام بك.

يفرغ كارديل مشروبه دفعة واحدة، ثم يجيب عندما يستعيد أنفاسه.

- هدئي روعك يا هانز، بلغتني أخبار سيئة ليلة البارحة وقعت عليّ

كالصاعقة، ولا أتوقع المزيد منها، لم يعد لدي أصدقاء أو أفراد عائلة.

يقلب كارديل محفظته بطنًا لظهر على الطاولة، فتسقط ثلاثة شلنات

ومليم ألماني.

- أضف الأضرار التي سببتها إلى حسابي، سوف أسويه معك

حالما أقبض راتبي، وعدا عن هذا، أحسب أن معرفتنا انتهت، إلّا

إذا رغبتَ في إعادة طلاء جدرانك، فقد ضحك الموت في وجهي أكثر مما ينبغي.

الأزقة متلّفة بضوء الشفق، إذ ما كادت الشمس تزحف لتطل على أسقف المنازل حتى غاصت نحو مغيبها، التلوج منبسطة على الشوارع المرصوفة ومتراكمة بمحاذاة الجدران، مصابيح الشوارع لم تشعل بعد وما من ضوء ينبعث من المنازل أيضاً، ويتجمع الناس جوار النوافذ مستغلين ما بقي من ضوء النهار، الجو بارد، وعلى الرغم من وجيب قلب كارديل وعرقه المتصعب لتخفيف آثار ثمالته، يضطر إلى شد معطفه حول جسده ليقتي الريح القادمة من الخليج، يسير بصعوبة نحو "قاعة النبلاء" وينعطف يمينا، ثم يصعد نحو "تل القلعة"، يأمل أن يحالفه الحظ فيجد آيزاك رينهولد بلوم في "دار انديتو"، وتعود إليه ذكريات الليلة الماضية في أثناء سيره.

كان مساعد شرطة شاب هو أول من أبلغه، لا بد أن الصبي رآه برفقة سيسل وينيه من قبل، فتقدم نحوه ليعزّيه، لم يفهم كارديل شيئاً في بادئ الأمر، لكن آخرين أكدوا ما قاله زميلهم، إذ أكد سكرتير "غرفة الشرطة" الخبر بنفسه: "شبح دار انديتو" رحل عنا، ظل البرد يفاقم مرض سيسل وينيه حتى البارحة عندما لفظ أنفاسه الأخيرة.

كان كارديل ثملاً قبل هذه اللحظة، والخبر لم يكن غير متوقع، وعلى الرغم من هذا أصابه في مقتل، إذ كان كارديل موقناً في قرارة نفسه أن وقتها معاً لن ينتهي قبل أن يسلط الضوء على مصير كارل يوهان، جثة بحيرة لاردن هي التي جعلت كارديل يتشبث بالحياة مهما يكن الثمن. تذكر كارديل مدى إسرافه في الشراب حتى تراءى لنفسه أنه في دنيا وحده، معزولاً عن ضجيج العالم، مكان هادئ بما يكفي ليحمله يتقبل الفراق، وعندئذ ارتطم به شخص عابر.

غضبه العارم على وضاعة العالم وحزنه من خبر الموت أشعلاه كخرطوشة بارود، تُبدلت جِمع الكلمات، وأعقبتها اللكمات، وفي النهاية لا بد أنهم تغلبوا عليه وألقوه في الدولاب بين المكانس، حيث غط في النوم سريعاً. استحوذ كارل يوهان على أحلامه وهو في حفرتة وحيداً في مقبرة كنيسة ماريا، همس

الرجل الميت لكارديل باتهامات عاتبة، بصوت متحشرج بالديدان التي تملأ فمه.

- كان واجبك أن تحقق لي العدالة، لكنك فشلت. الآخر كَفَّر بحياته عما فعله. أنت التالي.

يقبض كارديل على قبعته عندما ينعطف عند كاتدرائية استوكهولم، فهنا تهبط الزوابع الثلجية من الغيوم المدلهمة، حيث تلتقي مياه البحيرة بالبحر، بمحاذاة الجزر المصطفة. يخيم الهدوء على "دار انديتو"، لا تستطيع الشرطة تحمل تكلفة الشموع، واضطروا إلى تعديل مواعيد عملهم لتوافق هوى الشمس. يحالف الحظ كارديل عندما أُلقي في طريقه برجل خارج من الدار قال له إن السكرتير بلوم ما زال بالداخل، عاكفًا على حساباته، لكنه -يردف الرجل بصوت منخفض- يعمل في مكتبه حتى لا يستعمل حطب النار في منزله، ذلك الثعلب الخبيث.

- ليس كأنه يحتاج إلى التقدير في هذه الأيام.

المغزى من تهكم الرجل يفوت على كارديل، لكنه يسعد بالسماح له بالدخول.

يعج مكتب بلوم بالكتب والدفاتر، وكما هو متوقع، تبت المدفأة الحجرية الحرارة في أنحاء الغرفة، لدرجة أن بلوم يقعد إلى مكتبه وهو لا يرتدي سوى قميصه. لا يكلف كارديل نفسه عناء الطرق على الباب.

- أُخبرت ليلة البارحة.

يضع بلوم الورقة التي كان يعمل عليها بداخل ملف.

- تعازي يا كارديل، فقد جلل لنا كلنا.

يقتعد كارديل مقعدًا ويحل أزرار معطفه، وقد صفا ذهنه بعد المشي السريع، وللمرة الثانية منذ استيقاظه، تتسلل إليه نوبة الذعر المألوفة لديه، لا تباغته هذه المرة، ومع هذا لا تقل إيلامًا، يغص حلقه ويجتهد كي يلتقط أنفاسه، تتراقص بقع داكنة أمام عينيه، فيغمضهما ويحاول إرغام قلبه على

إبطاء دقاته. ينتظر بلوم بصمت حتى يتمالك كارديل نفسه ويحس بالحياة تعود إلى جسده.

- هل من شيء صالح للشراب هنا؟

يتردد بلوم، ويتبلبل، وتعتري وجهه حمرة.

- يغمرنى تعاطف عميق معك إزاء حزنك، لكن عليّ تولّي واجباتي، كل لحظة محسوبة عليّ، وإذا تمكنت من النوم الليلة...

- حقًا؟ فلنرَ إذن.

يختطف كارديل بخفة الملف الذي كان بلوم يعمل عليه، فيحاول بلوم استعادته لكنه ليس سريعًا بما يكفي.

- عجبًا يا بلوم، هذا لا يبدو لي كعمل شرطة، بل يبدو كرسالة استجداء موجهة إلى البارون ريوترهولم بشأن منصب في "قصر دروتنغهولم".
"يا صاحب السمو..." ما هذا؟ هل سئمت منصب السكرتارية وما كدت تكمل سنة في الخدمة؟

يغوص بلوم في كرسيه، وكاسفًا يمسح وجهه بيديه.

- اللعنة يا كارديل، غير مسموح لك برؤية هذا، لكنني سأغض الطرف عن فعلتك. مدير الشرطة نورلين أرسل إليه الإشعار الذي ظللنا نتوقعه منذ مدة طويلة، وهذا ليس مستغربًا؛ فريوترهولم كان يريد كلبًا مطيعًا لكن عزيزنا يوهان غوستاف نورلين لا يبالي بأحد ويفعل ما يشاء، ولعل أوضح دليل على هذا هو مجازفة وينيه في الصحيفة بنشره الكلام عن تلك الستائر الفاضحة.

- من سيحل محل نورلين؟

- سوف يُعيّن نورلين في أقصى الشمال، عقابًا له على خطاياها، وسيكون بديله ماغنس أولهولم، الذي سيتترك منصبه في "قصر دروتنغهولم"، ووظيفته القديمة هذه هي التي أسعى خلفها.

- سمعت هذا الاسم من قبل، إنه أولهولم نفسه الذي اضطر إلى الفرار إلى النرويج بعد اتهامات بالاختلاس، والآن سيعيّن مديرًا للشرطة.

- عليك أن تضع في اعتبارك أن المؤهلات الرئيسية للوظيفة هي الولاء المطلق للنظام الحاكم الحالي، إلى جانب الإكثار من التصاغر والمداهنة.
 - وبالنظر إلى ما لمحتّه في رسالتك إلى البارون، لا بد لي من القول إنه لا أحد بمقدوره منافستك في التصاغر والمداهنة يا بلوم.
- يزداد وجه بلوم العابس احمرارًا.

- بحق الشيطان يا كارديل! لا أتقاضى سوى مائة وخمسين دالرًا في السنة، وهذا ليس مبلغًا يعيش عليه المرء. والآن، رؤيتي برفقة أمثال سيسل وبينيه وأمثالك ليست من مصلحتي، لذا إذا ليس لديك غرض آخر، فلدي التزامات نحو واجبات أخرى.

يقف كارديل عند ذكر الراتب الضئيل. ما الذي قاله الرجل الشاب عند الباب؟ يضيق كارديل عينيه مفكرًا وهو يحدق إلى بلوم، الذي نهض ووقف ممسكًا بالباب مفتوحًا.

- إذا كنت تعرف مصلحتك فاقعد والزم الصمت، خطر لي أمرٌ لا أستوعبه، عليّ التفكير لحظة.

يلعن كارديل ذهنه الخامل، حالته الراهنة لا تساعده، ومن ناحية أخرى، لم يحدث قط أن أخطأت غرائزه، بلوم يخفي شيئًا، فقد بدأ السكرتير ينضح عرقًا على الرغم من أن حرارة الغرفة هي نفسها، وتتذبذب عيناه في أرجاء الغرفة وتعودان مرارًا إلى الطاولة التي جوار النار، فيتبع كارديل نظراته، فوق كومة من الكتب تقبع حزمة ملفوفة بورق ومربوطة بخيط، فيسير نحوها ويحملها، ويجد أنها مُعنونة إلى سيسل وبينيه، والاسم مكتوب بخط يد طفولي بحبر خفيف يكاد أن يكون شفافًا.

- كيف وصلت هذه إليك يا بلوم؟

- جاءت فتاة وتركت الحزمة عند المدخل صباح اليوم، وأحضرت إليّ بما أنني السكرتير.

يلقي بلوم نظرات متلهفة نحو الباب، فيلمح كارديل عينيه ويهز رأسه ببطء، يحرك كرسيه ليقطع عليه الطريق، ثم يضع الحزمة على حجره وهو يحل الخيوط ويفك غلافها، فيجدها رزمة أوراق متباينة الأحجام، ملفوفة

بقماشة صغيرة ملطخة، ومكتوبة باليد الطفولية نفسها، يشرع في قراءة السطور المعوجة ويتسارع خفقان قلبه، وعندما ينزل الصفحات، يرمق بلوم بنظرة نارية، وببطء تتبدد الغشاوة التي تكتنف عقله.

- كيف عرفت بموت وينيّه؟
- لا أتذكر على وجه التحديد، جاء أحد برسالة.
- هل تحدثت مع هذا الرسول بنفسك؟
- لا، أنا...
- هذا غريب، أحد ضباط الشرطة الذين تكلمت معهم ليلة البارحة قال لي إنك أنت الذي أخبر الوكالة بساعة الموت وبالتفاصيل. سؤال آخر، صادفت رجلاً عند الباب لمّح إلى أن ثروةً هبطت عليك، هل لي أن أتطاول وأسأل عن مصدر هذه الأموال؟ هل توفيت عمّة لك مؤخرًا؟
- اسمعني يا كارديل، عليك أن تعدني بأنك ستظل هادئًا ...
- ينهض كارديل، ويوصد الباب، ويضع المفتاح في جيبه، ثم يبدأ الدوران حول المكتب، أحدهما ليوسع المسافة بينهما، والآخر ليضيّقها.
- حسب ما سمعت، كان يجري رهان هنا في الوكالة حول موعد موت سيسيل وينيّه، فهل يمكن أن يكون هذا هو طريقك إلى الثراء أيها الأخ بلوم؟
- عزيزي ميكيل ... عليك أن تفهم وضعي ...
- عندما تلقيت هذه الحزمة، كان سيسيل وينيّه ما يزال على قيد الحياة، لكنك لم تكن تنوي إرسالها إليه، إذ قررت سلفًا إيداعه القبر بأكاذيبك حتى تملأ جيوبك. إن كنت ترغب في إكمال هذا اليوم بشقة متورمة فحسب، فيجدرك أن تزن كلماتك بعناية الآن. هل وينيّه حي أم ميت؟
- يقلب كارديل المكتب، ويتقدم بضع خطوات ويمسك بتلابيب بلوم شاهراً قبضته الخشبية، فيعلو صوت بلوم:

- تعقل يا كارديل، قابلتُ روزليس "الدّمك" في المقهى وسمعته يتذمر من أنه على وشك فقدان مستأجر جيد، وأن وينيّه طريح فراش موته ويملاً مبولة غرفته بإفرازات دموية، وهجره الطبيب مفضلاً عليه

مرضى لديهم بصيص أمل، وجاءه القس من أجل طقوسه الأخيرة.
فقيم بهم إذا مات بالأمس أو سيموت غدًا؟ بالنسبة إليّ الفرق هو راتب
عام كامل تقريبًا! أيمكنك فهم هذا يا كارديل؟

بالأسفل جوار رصيف الميناء بعد بضع دقائق، قبل أن يمد كارديل يده
ليأخذ توصيلة بعربة عابرة، يتوقف أولاً لينظف الخشب بالثلج.

الفصل الرابع والأربعون

لا تراه أي عربة وهو يلوّح من خلال الثلوج المتساقطة، لا عند رصيف الميناء ولا عند "مفترق بلازيوس"، ولا يدرك كارديل حقيقة أنه بدأ الركض إلا عندما يسمع وقع نعلي حذائه الجليدي على ألواح الجسر المتحرك الصغير الذي يمكّن قوارب الصيد من عبور "الجسر الجديد" في طريقها إلى "خليج القطط". يجتاحه إحساس قوي بضرورة الاستعجال، كما لو أن العبء الذي يحمله كاف لانتشال الرجل المريض من فراش موته وهو في الرmq الأخير. تتساقط عليه ندف الثلج الحادة من سواد الليل، فتنهش وجهه، وخلف الخليج المكسو بالجليد، يلمح سوق السمك، المقفر منذ ما قبل العاصفة الثلجية، ودون أن يشعر يجد نفسه عند "ساحة المدفعية"، والهواء يستحيل نارًا في رثتيه، يسمع موسيقى قادمة من كنيسة هيدفيغ إليونورا، جوقة تنشد صلاة "تي ديوم"، ينشدونها إنشادًا سيئًا، فالحضور على الأرجح معظمه أناس أرادوا الاحتماء من العاصفة، لكن معاناتهم مع اللحن لا تجرد أصواتهم من المعنى، الأمل واليأس موجودان بالقدر نفسه. يحصي الشوارع حتى يبلغ نهاية المدينة، ويرى جدران القصور وصفوف أشجار الزيزفون المنكمشة تحت ثقل البياض.

الباب غير موصل، تؤلمه فخذاه وهو يركض صاعدًا السلام إلى غرفة وينيه، يرى شمعة واحدة موقدة، وجوار الفراش يقعد قس متشح بالسواد يردد الصلوات وهو بين النوم واليقظة، والخادمة، التي يعرفها كارديل من زيارته السابقة، تعصر قطعة قماش مبللة في وعاء غسل وترفع بصرها مدهوشة، وسيسل وينيه متمد على فراشه دون حراك. لم يظن كارديل أن وينيه لديه

وزن قد يفقده، لكنه يرى الآن أنه كان مخطئاً، يذكره الجسد العظمي بالجثث المتجمدة في سيفنسنكند. لكن وجهه لم يُسجَّ بعد، فلا بد أنه ما زال حياً. يلتفت كارديل نحو الخادمة أولاً حالما يستعيد أنفاسه ويقدر على الكلام.

- أهو بكامل وعيه؟ هل يمكن إيقاظه؟

- وا أسفاه! السيد وينيه لم يتكلم أو يتحرك منذ الصباح الباكر، وقد كان السيد روزليس مرابطاً جواره وودّعه.

يومئ كارديل صامتاً. الوعاء الذي جوار السرير مملوء بسوائل لزجة متخثرة. ثم يلتفت إلى القس.

- اخرج. إنك قاعد على كرسيّ. أنت وكتابك المقدس بذلتما كل ما بوسعكما، لديّ كتاب آخر هنا وسنرى عما قريب مدى جدواه.

لا ينتظر كارديل ردّاً، يخلع معطفه المبلل بالثلج والعرق، فتأتي الخادمة لمعاونته، وفي أثناء مساعدته على حل أربطة ذراعه الخشبية، يبدو القس المتردد كأنه توصل إلى قرار ويمر جوارهما دون كلمة نحو الباب ثم يهبط السلالم. يرمي كارديل بثقله على الكرسي ذي الظهر المنسوج، ويصغي إلى أنفاس وينيه الواهنة قبل أن يلتفت إلى الخادمة.

- أليدك قهوة؟ أو جعة؟ أحضري الاثنتين من فضلك، سيطول مكوثي هنا.

ترتكهما وحدهما. يعن كارديل النظر في وجه وينيه، ذي العينين الغائرتين وعظام الوجنتين الناتنتين وخديه المتهدلين، جلد جبهته في غاية الرهافة والبياض لدرجة أن كارديل يرى تفاصيل جمجمته، الشعر الطويل متناثر، صدغاه رطبان من الحمى، بياض عينيه ظاهر تحت الجفنين، ونوبات السعال خلفت لخطات حمراء على شفثيه وياقة قميصه. يرتعد كارديل من المنظر.

- حباً في الله يا سيسل وينيه، لقد خيبت ظني، أيستسلم رجل في ريعان شبابه لسعال بسيط؟ أتريد استدرار تعاطف الناس؟ أوكد لك أنك لا تخدع أحداً، تبدو تجسيدا للصحة الجيدة. سمعت عندما كنت جندياً أن الألم ليس سوى ضعف يترك الجسد، وأنا متأكد أن هذا القول ينطبق على السل أيضاً. أظهر شيئاً من الشجاعة، اللعنة!

يضع كارديل حزمة الأوراق على ركبته ويحاول تثبيتها وهو يتصفحها.

- والآن استمع إلي، كان يجدر بك التفكير في الموت في وقت سابق، عندما كان الوضع ميؤوساً منه، لأننا لم ننته بعد، لم ننته على الإطلاق. يفتح كارديل مذكرات كريستوفر بليكس، ثم يتنحج ويشرع في القراءة بصوت عال.

- أختي العزيزة...

تنقضي ساعة تلو ساعة، وتغدو الخادمة وتروح، حاملّة الجعة والماء، ثم بعض شرائح الخبز وإبريق حليب محلّى بالعسل، وكارديل يلاحظ غدوها ورواحها بالكاد.

لا يعي كارديل ما حوله إلا عندما يسقط ضوء الشمس عبر النافذة على رأسه المائل، ولا يجد حزمة الأوراق على حجره، فيحس بوخزة زعر إثر فكرة ضياعها، لا بد أنها انزلقت من يده عندما غفا، وهي أئمن شيء وقع في يده سواء أكان الأمر صدفة أو بتدبير العناية الإلهية، لا يراها على ألواح الأرضية تحت قدميه، وعندما يرفع بصره، يرى صفحات بليكس مستلقية تحت يدي ويئيّه النحيلتين. يفرك كارديل النوم من عينيه، وفي أثناء تأمله وجه ويئيّه النائم، يفتح الأخير عينيه، وفي البداية يحدقان إلى بعضهما بصمت، ثم يبتدر كارديل الكلام:

- ها أنت ذا على قيد الحياة، حسنًا، لديك دائمًا إجابة عن كل سؤال، فقل لي، هل أنقذت هذه الرسائل حياتك كتعويذة من قصة خيالية أم أننا لم نشهد سوى مصادفة عظيمة الليلة؟ يهز ويئيّه كتفيه.

- يتفاهم مرضي من حين لآخر، وهذه النكسة هي الأسوأ على الإطلاق، الجميع ظن أنها النهاية، بما فيهم أنا. أما فيما يتعلق بالرسائل، إنني مدين لك بإجابة، لكن أخشى الظن أن المرضى العاجزين دائمًا ما يساعدهم التذكير بما بقي ليعيشوا من أجله.

تنتقل نظرات ويئيّه إلى النافذة، ويبدو أن ظلًا يسقط على وجهه عندما يتابع الكلام:

- قلت لي إنك اقتربت من الموت في أيام الحرب، هل رأيته؟ أقصد شكله. يجفل كارديل عندما يتذكر دمار انجبورغ والرؤيا التي راودته في أثناء غرق جثة يوهان هجيلم إلى أعماق بحر البلطيق.

- نعم، رأيته عندئذٍ، كان ينتظر إتاوته تحت سفن الأسطول، فاردًا جناحين أسودين ومبتسمًا بجمجمته العارية من اللحم.

- ربما يأتينا الموت متخذًا أشكالًا مختلفة، وجدته هوةً سحيقة، وخواءً مظلماً، عرفت أنه إذا ابتلعتني فسأختفي من الزمان والمكان ولن أعود أبدًا. وهو يجذبني إليه، تسنى لي الوقت لأفكر بالحياة التي عشتها، وبدا لي أنني اضطررت إلى الاختيار بين العقل والعاطفة، وظللت مخلصًا للعقل طوال حياتي. ففي مهنتي القانونية عانيت الأمرين كي أحرص على أن يقول كل متهم ما يريد قوله، ما من شخص دافعت عنه في المحكمة ورافقته إلى منصة الدفاع حُكِمَ عليه وأُرسل إلى مصيره دون أن يُسمع منه. حتى في شؤوني الخاصة، كنتُ...

يصمت ويبدأ من جديد.

- صرت أشك في قناعاتي مؤخرًا يا جان مايكل، ليس من الناحية العقلانية، بل نظرًا إلى كل الألم الذي أحسست به. في أيام حياتي الأخيرة هذه، سألت نفسي عما إذا كان الطريق الذي يقود إلى مثل ذلك المكان المظلم هو الأكثر ملاءمة للبشر. لكن الآن، والهوة المظلمة تنتظرني بوعد الخلاص الأبدي من البؤس الذي عشته، تمكنت أخيرًا من النظر إلى ما وراء معاناتي. ظللت أدافع عما أعده فضيلةً طوال حياتي. وفجأة بدا لي أنني حملت شعلة صغيرة بين يدي، شعلة واهنة لأضيء الظلام. ووجدت في هذا عزاءً لدرجة أن خوفي تلاشى وتهيأت لأخذ خطواتي الأخيرة ناعم البال. وعندئذٍ سمعت صوتك. عدت من الهوة. وعندما استيقظت وجدتك تشخر، وأحسست بقوة كافية لحمل الأوراق، وقرأت قصة بليكس.

- والآن وقد عدت إلى الحياة، هل عاد إليك الألم والشك؟

يرى كارديل الأسى في عيني وبينيه، ويرى فيهما أيضًا شيئًا لن يلين. يضغط وبينيه شفثيه حتى تصيرا خطأً أبيض قبل أن يجيب.

- نعم، نعم، يبدو أنهما من ثوابت وجودي، كما يلوح لي أن أفضل بلسم لكليهما هو تقديم قاتل كارل يوهان أمام العدالة. ساعدني على مغادرة هذا الفراش يا جان مايكل، وإذا بقيت أي مياه دافئة لغسل الحمى عن جسدي، فسأكون ممتناً.
- أمتأكد أنك تعافيت بما يكفي للذهاب؟ لم تنقض سوى بضع ساعات منذ أن تركك الطبيب في عداد الموتى.
- لا يمكن أن يكون قد بقي ضعف يُذكر في جسدي الآن، إذا صدقنا ما أظنني سمعتك تقوله سابقاً. فلنستغل ما بقي من وقت لنستفيد من المعلومات التي عرفناها. أتذكر ما أخبرتنا به مدام ساتشس في "دار كيسر"؟
- سأكون أسعد إذا نسيت ما قيل في ذلك اليوم.
- كان من عادة كارل يوهان أن يأكل برازه عندما يكون وحده، وظننت المدام أن هذا السلوك إشارة إلى أنه فقد عقله، وفي ضوء ما نعرفه الآن، أرى أن العكس هو الصحيح، فهذه كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة لكارل يوهان كي يحتفظ بالشيء الوحيد الذي يملكه، أي ما يمكن أن يقود شخصاً إلى معرفة اسمه الحقيقي ومن ثم قتاله. أعطى بليكس كارل يوهان الخاتم وحرص على أن يحتفظ به بالطريقة الممكنة الوحيدة، فعلى الرغم من كل المعاناة التي نزلت به، ظل محتفظاً برشده.
- يحبس كارديل بغثيان يعترض معدته، وما يفتأ يزدرد ريقه ويأخذ أنفاساً عميقة حتى يبقي طعامه في مكانه.
- يا إلهي! اللعنة على كل شيء.
- ما من كلمات أفضل للتعبير عما أشعر به أيضاً، علينا ألا ندع عذابه يضيع سدى، إذا أسرعنا ربما يمكننا إقناع حفار القبور بإعمال معوله في الأرض المتجمدة حتى نصل إلى الجثة قبل غروب الشمس. وما علينا فعله يستحسن أن يجري تحت جناح الظلام، الخاتم ما يزال هناك بلا شك، وسيكون منقوشاً عليه شعار نبالة، ومعه سنعرف اسم كارل يوهان الحقيقي، فلنتعجل.

الفصل الخامس والأربعون

عندما يطل شوابل حفار القبور من الفجوة التي بين الباب وإطاره، يحدق إليهما لوهلة قبل أن ترتسم على وجهه أمارات التعرف عليهما.

- السيد وينيه، صحيح؟ والسيد... كارلين؟ كارديوس؟ كاليبان؟
- كارديل.

يرحب شوابل بهما بحركة من ذراعه، ويريان نارًا في المستوقد وإنجيلًا مفتوحًا على الطاولة.

- أستميحك عذرًا يا سيدي كارديل، عيناى لا تخطئان الوجوه عادةً، لكن وجهك يبدو كأنه أعيد ترتيبه بطريقة ما، لا أظن أن أنفك كان مائلًا إلى أقصى اليسار وإحدى عينيك تبدو كأنها انزلقت إلى الجانب. ويا سيدي وينيه، هل تأكل طعامك كما ينبغي؟ قيل لي إن النحافة موضة في أيامنا هذه، لكن عندما تهب الثلوج من خلفك، تبدو كمجرد معطف وبنطال هربا من خزانتهما.

ينخر كارديل وهو يضرب حذاءه بالأرض ليزيل عنه الثلج.

- لو أنعم علينا جميعًا بجمال مثل جمالك يا شوابل، لاضطر فنانون هذا العالم إلى التسول من أجل لقمة عيشهم.

بيتسم شوابل ابتسامة واسعة، مبدئيًا أسنانه البنية.

- جئتما من أجل جئتكما الملغزة، الرجل الغاضب مبتور الأطراف، صحيح؟ كارل يوهان؟ في الحقيقة كنت أتوقع عودتكما.

- لماذا؟

- يوجد في الأبرشية من لديهم موهبة الاستبصار، ويقولون إن روحه لن ترقد بسلام، وأنه يتلوى بين شواهد القبور كالبزاقة، محاطًا بهالة ضوء باهتة، ويتمتم بكلمات غير مسموعة. لذا أعرف أنه ترك أمرًا عاليًا في حياته، وبالتالي ظلت أنتظر عودتكما.

يتبادل وينيه وكارديل النظرات، ويجد كارديل راحة في رؤية التشكك الصريح في عيني رفيقه، وهو نفسه أكثر تشككًا. يخرج وينيه محفظته ويحسب بعض النقود على طاولة شوابل.

- نريد فتح القبر في أقرب وقت ممكن، الأمر بالغ الأهمية، نريد أن نحظى بفرصة أخرى لفحص الجثة، ومن أجل هذا نريدك أن تُعيرنا حجرتك.

في المقبرة بالخارج، تصطف أشجار الزيزفون العارية التي ما زالت صغيرة إذ غرست بعد أن أخلى الحريق الهائل المجال لها، والريح الفاترة تحمل ندف الثلج من الأغصان وتنتثرها لتسبح في الهواء. يسير شوابل بصعوبة عبر غطاء الثلج السميك، وفي أعقابه وينيه وكارديل، يجد طريقه إلى موقع القبر بعلامات لا يعرفها سواه، ثم يزيح الثلج بغصن شجرة الراتينجية، ويشرع في عمل الحفر المجهد، يتناوب على يديه المعول والمجرفة والعتلة، وسرعان ما يجد إيقاعه ويبدأ دندنة لحن ويحافظ على إيقاع تناوب أدواته. يتابع كارديل المشهد بمزيج من الحماسة والقلق. البرد قارس، ويكون زفيرهما أبخرة بيضاء أمام وجهيهما، يقف وينيه جواره، مستندًا إلى كتفه وواضعًا منديلًا على أنفه ليدفئ أنفاسه.

- ما من سبب يدفعك للوقوف هنا وتحدي القدر، عد إلى الدفء بالداخل، سأخبرك حالما يخرج كارل يوهان إلى سطح الأرض.

يهز وينيه رأسه. ويود كارديل أن يركض في مكانه ويهز يديه حتى يدفئ جسده، لكن يدي وينيه تمنعانه من التحرك، فيظل واقفًا حيث هو ويوقف اصطكاك أسنانه بقوة إرادته وحدها. يمر الوقت إلى أن يبلغ رأس ديتير شوابل المتعرق ذي الشعر الخفيف مستوى ركبتيهما ويخرج كومة تراب مطلقًا آهة أخيرة.

- هلا ساعدتmani على إنهاضه؟

يطلق كارديل سبابًا عندما يلمس الجثة.

- عليّ اللعنة إذا لم يكن متجمدًا تمامًا هو أيضًا.

يومئ ويئنُه مفكرًا ثم يلتفت إلى شوابل.

- علينا معالجة تجمد الجثة.

يساعد كارديل شوابل على الخروج من الحفرة.

- كما قلت، كنت أتوقع هذا الوضع بعينه ووضعت المزيد من الحطب في

النار. سأجلب زلاجة لإخراج الجثة، ثم مزيدًا من الحطب، وبعدها سوف

أتجه إلى "القنطرة" لأتناول شيئًا وبضع كؤوس. أتركوه تحت ملاءة

بعدما تنتهيان.

موافقة شوابل التامة دون تحفظ تزعج كارديل لأسباب يعجز عن شرحها.

- السبب الذي يدفعنا إلى...

- كلا. لدي فكرة، لكن ما دمت ملتزمًا الصمت، بوسعي أن أمل أنني مخطئ.

يراكمون حطب النار حتى تتسبب الحرارة في صرير عوارض الكوخ

الخشبية، ويضعون الجثة المتصلبة، التي ما تزال في كفنها، على مقعد قريبًا

من النار، ثم ينتظرون. كارديل مدهوش من التغيير الذي طرأ على سيسل ويئنُه

في غضون بضع ساعات، صحيح أنه اضطر إلى رفعه تقريبًا على العربة، وأنه

كان ضعيفًا لدرجة أن كارديل لم يسنده فحسب بل رفعه وهما يعبران حديقة

روزليس المتجمدة، لكن ويئنُه يبدو مختلفًا الآن، عيناه تلمعان، وجلده اكتسب

لون الصحة، وشعره الممشط والمعقود عند عنقه استعاد شيئًا من حيويته

السابقة، ولم يعد يحتاج إلى سند، بل صار يذرع الأرضية قلقًا في أثناء نوبان

الجثة ببطاء. ومع مرور الوقت، يضطر كارديل إلى التنفس عبر فمه.

- الرائحة تزداد سوءًا، ألا تعتقد أن كارل يوهان قد نضج بعد؟

- نعم، فلنشرع في العمل.

بأكمام مشمّرة وأصابع ومدية، يتفحصان التجويف اللين، حيث يزعجان

الديدان التي استقرت في مأواها الشتوي، وعندئذ يومض معدن تحت ضوء

الفانوس وسط العتمة الحمراء الداكنة.

يرفع وَيُنِيهِ الخاتم نحو الضوء ويتفحصه من كتب، ويرغم كارديل نفسه على السكون في خضم حماسته، ويحس بعبء اللحظة ثقيلًا لا يطاق، كم مرة بحث كارل يوهان عن الخاتم وابتلعه أملًا في حلول لحظة كهذه؟ ويحس بألمهما معًا كرعد يلوح مقتربًا، وتتعلق عيناه بوجه وَيُنِيهِ مترقبًا قراءة ملامح النصر عليه. يدير وَيُنِيهِ الخاتم تحت الضوء حتى تظهر الظلال نقوشه.

سرعان ما يستشعر كارديل نبرة خيبة الأمل قبل نطق كلمة واحدة، لا يكف وَيُنِيهِ عن النظر إلى الخاتم وهو يتكلم، كما لو أنه ينتظره أن يعيد تشكيل نفسه إلى شكل يمدهما بالأمل.

- لا أفترق إلى معرفة أساسيات فن شعارات النبالة، وعلى الرغم من أنني لم أر رموز جميع العائلات الكبيرة فلا أقدر على استحضارها جميعًا، فالرموز التقليدية مألوفة لدي، شعار النبالة الذي نراه هنا لا يخص رجلًا نبيلًا، نقش الدرع مقسم إلى أزرق وأحمر، مع ثلاث نجوم سداسية على كل جانب يرافقها رسم: إكليل غار وأسد هائج، والتاج يعلوه قوس من الريش الوردي. الدرع سخيّف بغزارة تفاصيله الزخرفية، من نوع شعارات النبالة التي يستلهمها الأطفال من القصص الخيالية عن الفروسية والشرف، إضافة إلى أن الخاتم نفسه ليس مصنوعًا من الذهب، كما ينبغي أن يكون عادةً، ملطخ وحائل اللون حيث شوهدت عصارة المعدة سطحه، ولا بد أن الحجر نفسه ليس سوى زجاج ملون. وعندئذٍ يخفض الخاتم ويفرك عينيه من الإجهاد.

- هذا أقل مما كنت آمله يا جان مايكل، إنه خاتم محير للغاية.

كتفا كارديل، اللتان كادتتا تلامسان أذنيه من فرط الترقب، تتهدلان بسرعة كأن الخيط الذي يشدهما انقطع فجأة. ويردف وَيُنِيهِ بسرعة:

- عندما يُنصَّب أحد فارسًا، يكلف خطاط ماهر من "الأكاديمية الملكية للآداب" بتصميم شعار النبالة، فيختار الرموز ذات الصلة بحياة الشخص المعني ومهنته، فلنأخذ أولوف آف أرسل طبيب الملك غوستاف على سبيل المثال، يحمل شعاره الصولجان المُجنَّح، شعار الطبّابة -أفعى ملتفة حول صولجان- لكنها متداخلة مع تاج، وهكذا

تُبرز أهمية مهنته إلى جانب تقديره للملك. لكن هذا التصميم الذي بين أيدينا مصدره مختلف.

- لكن ما الخيارات المتاحة أمامنا الآن؟ هل بلغنا طريقًا مسدودًا آخر؟

يميل وينيّه مقتربًا من الضوء ويستغرق مجددًا في تأمل التصميم.

- إنه يذكرني بشيء، فهو مألوف بطريقةٍ ما.

يחס كارديل بتصاعد إحباطه الذي يتطلب تنفيسًا، فيطلق سبابًا ويهوي بقبضته اليسرى على سطح طاولة شوابل بقوة كافية لترك أثر عليها، ويأخذ نفسًا عميقًا من خلال أسنانه المطبقة عندما يبلغ ارتداد الضربة طرفه الأبتري، فيبعد وينيّه نظراته عن الخاتم ويصوبها إلى كارديل.

- جان مايكل، أيمكنك قول إنك بكامل قواك العقلية؟

- أي سؤال هذا في ليلة كهذه؟

- سأعد كلامك جوابًا بالإيجاب. هل من شيء تفضّل أكله على أي شيء

آخر؟ أي طبق بعينه؟

إذا لم يكن كارديل قد توثقت معرفته بوينيّه بحلول هذا الوقت، لظن أنه يسخر منه، لكن ما من أثر للمزاح على وجه وينيّه، كدأبه دومًا.

- أحب لفائف الكرنب.

- وما أسوأ طعام تناولته؟

- كان يقدم إلينا حساء في حصن سفيابورغ متى ما حوصر الأسطول بالجليد، وتخمين محتويات ذلك الشيء المريع كان أفضل وسيلة إلهاء نحظى بها، وجدت شعيرات فيه ذات مرة، كنت آمل أن تكون شعيرات قِط، لكنني أشك في هذا.

- وعلى الرغم من هذا إذا انحصرت خياراتك بين هذا الحساء البغيض ومحتويات مَبولة غرفتك، فبلا شك ستفضل الخيار الأول. ما أحاول قوله يا جان مايكل هو إن كارل يوهان ما كان ليأكل فضلاته لأسابيع إن لم يوجد أمل في جدوى تُرجى من فعله، كان يعرف أن الخاتم سوف يمكّن من تعقب هويته، حتى لو تطلب الأمر جهودًا جبارة.

الفصل السادس والأربعون

وجد ميكيل غرفة جديدة في الحي نفسه استأجرها، ومسكنه الجديد -الضيق لدرجة أنه يمكنه ملامسة جدرانه الأربعة من سريره- لا يكاد يختلف عن القديم، حشية الفراش رقيقة حيث ينبغي أن تكون سميكة، مهترئة بأجيال النائمين المتعاقبين عليها، لكن المكان دافئ ورخيص بما يكفي، سيفي بالغرض. يعينه البراندي على النوم، ثم يشرب المزيد منه على الإفطار ليخفف الآلام العديدة التي تأتي مع الفجر.

على الرغم من إرهاق كارديل، فهو غير مستعد لدس نفسه في الفراش، فكلما أغمض عينيه، يجد بانتظاره صورًا من كوخ شوابل، انقضت سنوات منذ أن تألف كارديل مع الكوايبس، وعندما يحل المساء دون أن تبلغه رسالة من وينيه، لا يقصد سريره، إنما يولي وجهه شطر الحانات، كان قد ودّع حانة "دار البوّار" للأبد، لكن الخيارات لا تحدها حدود، يعبر "ساحة الخردواتية" هائمًا على وجهه، ومن الشارع الشرقي ينعطف كيفما اتفق إلى شارع جانبي نحو رصيف الميناء، وفوق باب يقرأ لافتة مكتوب عليها "تيرا نوبا" -العالم الجديد، يألف شيئًا في الاسم، العالم الجديد يناسبه تمامًا.

يجد أناسًا أكثر مما توقع في أمسية يوم في منتصف الأسبوع كهذا، يبدو الحشد مبهتجًا، فيسأل كارديل عن الأمر، يلتفت إليه حارس حليق الوجه وتعايير عدم التصديق ترسم على وجهه.

- ألم تسمع؟ كيف يعقل ألا تسمع؟ المدينة بأكملها لم تتكلم عن شيء آخر منذ انتشار الخبر ليلة البارحة.

يكفهر وجه الحارس وهو يردف:

- إنها ميتة! قطعوا رأسها.

- من هي؟ اللعنة.

- الملكة!

لا يصدق كارديل أذنيه، لا بد أن الرجل ثمل ولا يعي ما يقوله.

- صوفيا ماغديلينا؟ أرملة غوستاف؟ ماذا بحق...؟ هل سئمت المحكمة أخيرًا من سهراتها الموسيقية؟

- لا، ملكة فرنسا أيها الأبله، ماري أنطوانيت. وصل الخبر بالأمس، أقحموا رأسها في المقصلة وألقوا بجثتها في قبر دون شاهد، يا للبربرية!

يمسك الحارس بكارديل من كتفيه ويقرب شفتيه من أذنه ليهمس له خلسة:

- وعلى الرغم من هذا هناك من يظنون أن العامة معهم حق، لكن ليس العامة في هذه الحانة على الأقل. خذها نصيحة مني.

يبصق الرجل على الأرض متقززًا ويشق طريقه نحو الباب.

ولاحقًا بعدما يفرغ كارديل بضعة أقداح في بطنه، يدرك مدى صحة كلام الحارس، إذ لا يمل الناس من الكلام عن الحدث، الجميع سمع قصة عن كيفية ملاقات الملكة لمصيرها، وجميعهم يحكونها بشغف، سواء طلب كارديل منهم حكيها أم لا، أحدهم يقول إنها ضحكت هازئة من الحشد وزعمت أن مائة مقصلة ما كانت لتردعها عن حياة الفجور والترف التي عاشتها، ويقول آخر إنها انتحبت بصمت، وثالث يحكي أن آخر كلماتها كانت موجهة إلى الجلاذ، اعتذار لأنها وطئت قدمه وهي تصعد إلى منصة الإعدام. يبذل كارديل ما بوسعه لتجاهل الأصوات، وتسهل مهمته مع كل كأس، لكن الآخرين يشربون بنفس القدر وتعلو أصواتهم مع مضي الوقت. تشتد حدة الأحاديث الثورية. تنفسي إشاعة مفادها أن الدوق تشارلز حرص على تهريب لوحاته الفنية المستوردة الثمينة إلى خارج البلاد كي يتفادى الضرائب، ويرى ناقده أن

القانون يجب أن يطبَّق على الجميع، وهم الرجال والنساء أنفسهم الذين سهَّل عليهم إخفاء حزنهم على موت الملكة.

عندما يرى كارديل الخاتم أول مرة، يعزو رؤيته إلى تأثير الكحول، فيهز رأسه ويفرك عينيه، مقتنعًا بأن أمنيته هي ما تجعله يهلوس، لكن الخاتم يظل في مكانه عندما ينظر مرة أخرى. رجل شاب يرتدي بنطالاً وصدرية حريرية يضع الخاتم في يده اليسرى، خاتم ذهبي ذو درع بيضاوي أسود منحوت، يشق كارديل طريقه مقتربًا من الشاب ليلقي على الخاتم نظرة أفضل، ويرى هنا وهناك خواتم مماثلة في أصابع النبلاء تحمل نقوش شعارات نبالة، لكن لا، كلما اقترب، يزداد يقينًا، التصميم أصغر من أن تُرى تفاصيله، لكن الهيكل هو نفسه، كأنه مصنوع بقالب واحد.

يدور المكان حول كارديل، ويلسع دخان التبغ عينيه، فيرمش وتسيل الدموع على خديه عندما يلتفت لينظر إلى صاحب الخاتم، الذي يناهز العشرين من عمره، ويرتدي ملابس مبهرجة تبدو غالية بقدر ما تفتقر إلى الذوق، ربطة عنق ناصعة البياض معقودة عند حلقه، ومعطف قرمزي، وشعر مثقل بالمساحيق. يلعن كارديل كؤوس الشراب التي تجرعاها عندما يدرك أن تحديقه السافر قد جذب انتباه الرجل، فيعاود القعود على مقعد وهو يطلق سبابًا صامتًا، ويحاول استجماع شتات نفسه وتبديد تأثير الكحول وهو يبقي الرجل ضمن مجال بصره، وينتظر.

يمضي بعض الوقت قبل أن تتفرق مجموعة الرجل، جميعهم متشابهو المظهر، تجعلهم ملابسهم يبدون كالتواويس، سلوكهم مُتكلِّف، وكل جملة ينطقونها تتخللها كلمة بالفرنسية أو الإنجليزية، ثم يودعون بعضهم بتبادل القبلات على الخدود. يصفو ذهن كارديل قليلًا ويسير خارجًا أمامهم إلى الزقاق، حيث يواجه جدارًا ويتظاهر بالتبول، ثم يلاحظ مستحسنًا أن الرجل يحمل عصا يضرب بها الأرض المرصوفة بالحجر مع كل خطوة، فيسهِّل الصوت عليه ملاحظته حتى عندما ينعطف عند زاوية.

لا بد أنه بالغ في تقدير صفاء ذهنه، فعلى الرغم من حذره، يركل كتل الثلج، ويرى الرجل يلقي نظرة خاطفة فوق كتفه، وعندما يبلغان ”ممر

البقدونس“، ينطلق الرجل راکضًا، فيكز كارديل بأسنانه ويبذل قصارى جهده ليلحق به، لكنه سرعان ما يلاحظ أن المسافة تتسع بينهما، وعندما يبلغان ”الشارع الصخري“، يكاد لا يسمع وقع أقدام الرجل، ثم يختفي كل أثر له عندما يبلغ ”شارع التجار“. يميل للأمام واضعًا يده اليمنى على ركبته ويتمهل حتى يلتقط أنفاسه، وبعدما يخفت لهيب رتتيه ويبصق طعم الحديد من فمه، يخطر له أن المطاردة ربما لم تنته بعد، يعرف كارديل ”مدينة ما بين الجسور“ كراحة يده، وإذا اندفع هدفه إلى الزقاق غير المسمى الذي إلى يمينه، ربما يعرف أنه ينتهي بمنحدر ثلجي تراكم إلى جدار، إذ إن جميع الثلوج التي لا يقدر الرجال على جرفها إلى ”الساحة القديمة“ تكوّم عند هذا الجدار، يلقي نظرة من الزاوية فيجد الزقاق خاليًا، وبعد نظرة أخرى يطلق ضحكة خافتة.

- أقر بأنك تتنفس بهدوء، لكن هذا لا يهم كثيرًا في هذا البرد، بخار أنفاسك أوضح من دخان المداخن، اخرج من وراء الركاب ولنتحدث.

ينقطع البخار عندما يحبس الرجل أنفاسه، لكنه سرعان ما يدرك عقم محاولته، وعندما يخطو إلى الخارج، يتقدم وفي يده معدن لامع. ومع تحرك كارديل جانبيًا ليسد المخرج، يقدر طول الخنجر بقرابة سبع بوصات، يشهره الرجل نحو كارديل وهو يقترب.

- الآن وقد رأيتك من قرب، لا أدري لماذا ركضت، إنك بدين وبطيء أيها العجوز.

لا يبعد كارديل عينيه عن الخنجر.

- أو بالأحرى خبير ومخضرم.

يمسك الرجل الشاب بسلاحه أمامه رافعًا طرفه، يعرف كارديل ما ينبغي له فعله، المخاطرة كبيرة لكنها أفضل خياراته.

- أتود الرقص؟

يقفز كارديل إلى الأمام كأنه يريد معانقة الرجل، وزنه يفوق وزن خصمه كثيرًا فيقذفه في الهواء حتى يرتطم بظهره على الجدار، فيفرغ الهواء من صدره مثل كير حداد ممزق، ثم يفتح كارديل عينيه ليتحقق، لكن عندما ينظر

إلى الأسفل يرى أنه نجح في خطته، كانت اندفاعته قوية بما يكفي لضغط مقبض الخنجر على جذع الرجل وشل حركته، ثم يرفع كارديل الذراع التي كان يدها أمامه، فيرى نصل الخنجر مفروّسًا في الخشب.

- عجبًا!

ينزلق الشاب على الجدار، ويتكور على الأرض متألّمًا، ينظف كارديل حافة المصرف من الثلج ويقعد جوار الشاب، وينتظر حتى تتوقف تأوهاتة.

- يُستحسن أن تذيب قليلاً من الثلج في فمك يا فتى، ستشعر بتحسن.

بنظرة حانقة يفعل الشاب ما قيل له.

- صحيح؟

يرد الشاب بإيماءة.

- ما من داعٍ لإشهار الأسلحة، لا أنوي إيذاءك، أريد أن أطلب منك أمرًا واحدًا، وهو أن تريني الخاتم الذي تضعه، من فضلك، لن أسرقه.

يلعق الشاب مفصل إصبعه وينزع الخاتم. تصميم الدرع مختلف عن تصميم كارل يوهان، وفي الوقت نفسه كارديل محق، فجميع العناصر الأخرى متطابقة.

- هلا أخبرتني أين وجدت هذا الخاتم؟

يتكلم الشاب بصوت مبجوح ومجهد إذ ما تزال أنفاسه مضطربة من الألم.

- إنه شعار نبالة عائلتي، أعطاني أبي الخاتم وهو على فراش موته.

- كف عني هذا الهراء! إذا أنت من عائلة نبيلة، فأنا غوستاف أدولف نفسه، عدت للتو من معركة لوتزن في أتم الصحة والعافية. والآن أخبرني بالحقيقة.

يرمقه الشاب بنظرة فجأة.

- يوجد الكثير من صاغة الذهب المتساهلين الذين يصنعون هذه الخواتم، يمكنهم تصميم شعار نبالة لك ما دمت ستدفع الثمن.

- حتى تتمكن أنت وأصدقاؤك من التظاهر بأنكم أفضل مما أنتم عليه في الحقيقة؟

يبتسم الشاب ابتسامة باهتة ويثبت نظراته على قبضة كارديل الخشبية،
التي ما يزال الخنجر مغروسًا على جانبها.

- أتخيل أنه يصعب على سيد محترم مثلك أن يفهم، بما أنك ليس لديك
أي دافع يدفعك للسعي إلى مكانة أفضل في الحياة.

لا يسع كارديل سوى الضحك.

- ما مدى شيوع هذه الخواتم المزيفة؟

- انتشرت انتشارًا كثيفًا في الآونة الأخيرة، للأسف، مما يصعب التظاهر،
أرى عددًا كبيرًا من هذا النوع في أمسيات كهذه، فكثيرون جدًّا منا
مستعدون لبذل الغالي والنفيس في سبيل تبديل جلودهم. وبالنظر إلى
مدى فضولك، يدهشني أنك لم ترَ خاتمًا مزيفًا حتى الآن.

- لم أهتم بخواتم الآخرين إلا مؤخرًا.

يحشو كارديل فمه بالتبغ ويناول الجراب الجلدي للشاب، الذي يومئ
بقبوله ويحشو فمه بدوره.

- ما اسمك؟

- كارستين نورستروم، وهنا في المدينة أعيش باسم فيكاريه.

- كارستين فيكاريه؟

سمع كارديل بهذا الاسم قبل وقت ليس بالطويل، بقايا الكحول تبطئ
دوران عقله، يمزخ أوراق التبغ بين أسنانه حتى يسبح لسانه في عصيرها،
فيبصق خيطًا بُنيًا على الثلج، ويفرقع أصابعه عندما تسعفه ذاكرته.

- صحيح! أنت وأصدقاؤك محتالون تسلبون أموال الفرائس السهلة،

الذين تسمونهم «الأرانب». هل تعرف فتى اسمه كريستوفر بليكس؟

أتعرف أين يمكن العثور عليه؟

يتصعب فيكاريه عرقًا على الرغم من البرد.

- بليكس مات، أغرق نفسه في "الخليج المذهب" بعيد أيام من تلاوة
نذور زواجه.

- أحقًا؟

- لم نكن نقصد أن... احتلنا عليه للتسلية فحسب.

إذن لم يعش كِرستوفر بليكس سوى سبعة عشر عامًا، لم يجرؤ كارديل على تمني مقابله، وعلى الرغم من هذا فالخبر محزن، حياة قصيرة، طافحة بالألم والموت، ثم انتهت في ذروة اليأس. ربما كان بليكس جبانًا لكن كارديل يتساءل مع نفسه عما إذا كان ليتصرف تصرفًا أفضل في ظروف مماثلة.

- كم المبلغ الذي أخذتموه منه ومن صديقه؟ مائة دالر؟ استلطفت بليكس الشاب في أثناء ما يمكنني تسميتها بفترة معرفتنا القصيرة، ويخطر لي الآن أنني لم أكن صادقًا تمامًا معك سابقًا.

يرفع كارستن فيكاريه حاجبيه ويوقف مضغ تبغهِ.

- كيف؟

- أظنني قلت إنني لا أنوي إيذاءك.

الفصل السابع والأربعون

عندما يلتقيان في وقت متأخر من الصباح ليتناولوا قهوة ساخنة، لا يخبر كارديل وينيّه بالقصة الكاملة، كما لا يشير إلى كارستين فيكاريه باسمه، وعلى الرغم من هذا لم يسبق له أن رأى سيسيل وينيّه في مزاج أفضل.

- أشعر بأن الحظ يعود إلينا يا جان مايكل، فهذه مصادفة موفقة وقد أحسنت التصرف. لأول مرة أصبحنا نعرف معلومات مؤكدة عن شخص كارل يوهان، إنه شاب، وجاء إلى استوكهولم من مكان آخر، ولم يكن من أسرة كريمة المحتد، وراودته أحلام بأن يغدو شخصاً أفضل وسعى إلى صائغ ليزيف لنفسه خلفية نبيلة.

كارديل ليس متحمساً كثيراً وقد تسنى له وقت أطول لتقليب المعلومات في رأسه.

- كل هذا طيب وعلى ما يرام، لكنني لا أرى تغييراً في الوضع، ما زلنا لا نعرف اسمه، ودون اسمه لن نعرف شيئاً، ربما يتذكره الصائغ الذي صنع له الخاتم، صحيح؟
يهز وينيّه رأسه.

- الصاغة كثيرون جداً ومعظم الذين يقبلون بأداء أعمال كهذه متجولون ويعملون دون اعتماد النقابة أو معرفتها، وستكون معرفة أسمائهم صعبة بقدر صعوبة معرفة اسم كارل يوهان، وحتى إذا حالفنا الحظ، فلا أرى سبباً يدفع كارل يوهان إلى التعريف باسمه، سواء الاسم الذي وُلد به أو الاسم الذي أراد اتخاذه.

يمد كارديل ذراعيه بإشارة استسلام.

- إذن كما قلت، الوضع كما كان ولم نقرب من الحل.

- أجل ولا، عندما رأيت الخاتم أول مرة، وجدت فيه شيئاً مألوفاً على نحو لافت، لكن تعذّر عليّ إدراكه مهما بذلت من جهد، وكل ما أستطيع قوله بدرجة من اليقين هو أن شعار النبالة لا ينتمي لأي عائلة نبيلة في السويد، والآن لدينا التفسير، وهو أن كارل يوهان رسم التصميم بنفسه.

- إذن؟

- لا أدري، أحتاج إلى مزيد من الوقت لأفكر ملياً.

عند الساحة بالخارج، تراكم الريح طبقات الثلوج التي حملتها من الأزقة، يمدد كارديل ظهره الذي يؤلمه، فيخطئ تقدير نتوءات الأرض تحته، وبعدها ترفرت ذراعه في الهواء، يسقط للوراء مع هبة ريح جذبت معطفه بالتزامن مع انزلاق قدمه على بقعة جليد، يطلق سباباً عنيفاً من الركام الثلجي الذي انطرح عليه.

- أتعرف يا وينيه؟ حانة "الشمس الذهبية" ليست بعيدة من هنا، الثلج والبرد يشعرانني بالعطش، وأعرف أنك غير معتاد شرب الكحول، لكن الشخص الثمل يفكر تفكيراً مختلفاً عن تفكير ذوي الذهن الصافي، وإذا لديك فكرة عالقة بداخل دماغك الكبير ولا تريد الخروج بالتالي هي أحسن، فالبراندي سيُخرجها لنا.

يفتح وينيه شفثيه كأنه يهم بالاعتراض، لكنه يغير رأيه وينحني انحناءة خفيفة باتجاه كارديل قبل أن يمد له ذراعه ليساعده على النهوض، فيتظاهر كارديل بالاستعانة باليد الممدودة إليه، ليعبر عن امتنانه للبادرة اللطيفة، لكنه يدرك تمام الإدراك حقيقة أن جزءاً ضئيلاً من وزنه الحقيقي كفيلاً بإسقاط وينيه كأنه طفل صغير.

وفي حانة "الشمس الذهبية"، تزار النار في عرينها القرميدي، وتنهش الحطب الذي يقطع ويتصدع بين السنة اللهب. يُقدّم إليهما قرص خبز

شعير محشو بالجبن يرافقه قدحا شوكلاتة ساخنة، وفي إثره إبريق نبيذ أحمر وكوبان مسطحان، يرفعان نخبًا، ويهتف كارديل طالبًا المزيد من الطعام، ومع الإبريق التالي، يتناولان يخنة أرنب بري مغموس في المرق، يتجرعان الكوب تلو الكوب، وكارديل -الذي لم يسعه سوى التساؤل بشأن تأثير الكحول في سيّسِلِ وَيَنْيَه- يشاهد رفيقه مغتمًا، فإن كان ثمة تغير طرأ على وَيَنْيَه، فهو يبدو أشد تحفظًا وانقباضًا، لكن حُمرَة خفيفة بدأت تصطبغ على خديه الشاحبين، ويتفاجأ كارديل بأن وَيَنْيَه هو الذي يبتدر الكلام.

- دعني أعرض عليك معضلة يا جان مايكل، إذا أحببتَ شخصًا حبًّا يفوق حبك لنفسك، وأليس التصرف العقلاني عندئذٍ هو ألا تدخر وسعًا في سبيل ضمان سعادة ذلك الشخص؟

يعبس كارديل ويداري رعدة خفيفة اجتاحت جسده.

- معرفتي محدودة بمثل هذه الأمور.

- اسمح لي بمخالفتك الرأي، يستحيل أن تكون كائنًا بشريًا دون أن تجد نفسك -بطريقةٍ أو بأخرى- في وضع كهذا.

يחס كارديل بوخزة طفيفة في طرفه الأبتري، ويلتفت إلى النار عندما يجيب.

- مثل هذه المشاعر لا تنتهي بأي خير أبدًا، فالذي تحبه دائمًا ما يتركك لسببٍ ما، وفي النهاية تجد نفسك في حالة أسوأ من ذي قبل.

- هذه إجابة حكيمة ووثيقة الصلة بالنقاش الذي نحن بصدده، سأقدم لك مثالًا ملموسًا لما أعنيه. لنفترض أن رجلًا اكتشف أنه يحتضر، ويعرف أن زوجته تبادله حبًّا بحب وأن موته سيكون فاجعًا لها، وتفكيره في حياتها بعد جنازته يقض مضجعه، إذ يرى أرملة وحيدة متشحة بسواد الجِداد، تذبذب زهرة شبابها وهي ترفض جميع خاطبيها وفاءً لذكرى زوجها، وبما أنه ليس بمستطاعه تغيير قدره، يتساءل عما إذا كان بمقدوره فعل أي شيء من أجل تلافي وقوع تصوره. هل تابعتني إلى هذا الحد يا جان مايكل؟

يومي كارديل، ويمد ويُنِيه يده إلى النبيذ ويفرغ كوبه، وعلى الفور يملؤه حتى حافظه.

- الرجل المحتضر يعرف زوجته أفضل مما يعرفها أي أحد آخر، يعرف ما تحبه وما تشمئز منه. وذات مساء، يقابل عريقاً شاباً في الجيش، يرتدي زيه، ذا شارب داكن، رجل وسيم والمستقبل أمامه، يتسامران، ويلاحظ الرجل المحتضر أن العريف ليس ذا مميزات جسدية فحسب، بل ورجل عقلاني راشد وسليم الطوية، يتسم بشيء من براءة الشباب، يدعوه الرجل المحتضر إلى منزله وسرعان ما يتخذه صديقاً، ثم يعرفه على زوجته، التي أضفى اغتمامها من رحيل زوجها الوشيك على جمالها شيئاً من الجاذبية، ويلاحظ أن هذه السمة لا تفوت على العريف، ويمضيان المزيد من الوقت معاً، ثم يبدأ الرجل المحتضر في التذرع بالأعذار حتى يترك الاثنين وحدهما، يستغرق الأمر وقتاً ومجهوداً كبيراً، لكن في النهاية يضرب التناغم بجذوره بينهما. ويتخيل الرجل المحتضر أن هذين الاثنين -الذين يهتمان لأمره كثيراً- سوف يجفان دموع بعضهما يوم يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويمضيان معاً نحو مستقبل مشترك، بالزواج. يغمض ويُنِيه عينيه ويلقي رأسه للخلف، فيلامس شعره المعقود على شكل ذيل الحصان ظهره عندما يفرغ كوبه.

- والأطفال.

يسعل عندما تنزل قطرات من النبيذ في الاتجاه الخطأ. يحدق كارديل إليه مرعوباً.

- هل فعلتَ ما قلته للتو؟ أفقدت صوابك؟

- نعم، هذا ما فعلته يا جان مايكل، وما من سبب كان يمنع نجاح مسعاي.

- إلا أن الناس ليسوا صخوراً أو آلات أو أرقاماً في دفتر.

- لنجحت الخطة يا جان مايكل، إذا لم يحجب سعالي عني أصوات

ممارستهما الحب وتركت باب غرفة النوم مغلقاً، لنجحت في بلوغ

مرادي. لكن يوجد فرق بين التخطيط لشيء والشروع في تنفيذه.

تركت منزلنا في تلك الأمسية نفسها وانتقلت إلى منزل روزليس.

- وماذا عن الطفل الذي سيولد؟ هل أنت والده أم العريف؟

- لا أدري.

خارج النافذة تعبر ظلالُ أناس الزقاق، صاعدة التل في طريقها إلى الساحة. تُضاف قطعة حطب جديدة إلى النار، فترمي بشررها على أرضية الحانة، ويقفز كارديل ليساعد الخادمة على إطفائها.

- اللعنة يا فتاة! توخي الحذر، لا تتطلب الكارثة سوى شرارة واحدة.

يظل وينيه قاعدًا دون حراك، ويلقي كارديل عليه نظرة قلقة ثم يقعد.

- وأحضري لنا مشروبًا آخر قبل أن أموت من العطش، هذه الأرضية ليست الشيء الوحيد هنا الجاف كالقش.

يشربان معًا وتمضي الساعات، تمتلئ حجرة طعام حانة "الشمس الذهبية" وتفرغ مع مد وجزر الزبائن، الذين يهرعون فرارًا من البرد، ويذبيون أطرافهم المتجمدة، ويحدثون ضجيجًا ويضحكون. وفي حجرة منفصلة تجري لعبة ورق، وتنتقل المبالغ المالية من يد إلى أخرى وسط صيحات الجدل والسباب. مالك الحانة أولوف مايرا، وهو هرمٌ وذو مثل عوارض سقف حانته الخشبي، يسمح لهما بالمكوث دون أن يزعجهما أحد حتى يقترب منتصف الليل، لكن بلا طائل.

- وماذا الآن يا جان مايكل؟

لا يعود وينيه قادرًا على الكلام بوضوح، ويحس كارديل بألواح الأرضية تتمايل كأنها سطح سفينة، وتزيغ عيناه فيما حوله، ثم يطمئن نفسه بأن الجدران مزودة بنوافذ وليس كوات مدافع، وأن ما يمتد خلف النوافذ أزقة المدينة المرصوفة وليس أمواج سيفنسكند.

- الآن انتهينا، أسرفنا في الشراب وعدنا إلى حيث بدأنا، ثملان على الأقل.

يا مايرا! كأسا أكوافيت قبل أن تطردنا.

يرفعان كأسيهما.

- نخب الدوران في حلقة مفرغة.

- بصحتك يا سيسل وينيه، على الأرجح أن فكرتي لم تكن جيدة كما لاحت لي في البداية، وبالنظر إلى مدى ذكاء أفكارى عادة، كان ينبغي أن أستنتج هذا لولا ذهني الوسخان بالكحول... أخبرني، ما خطبك؟ امتقع وجهك فجأة، هل اختنقت بشيء؟
- يحدق وينيه أمامه بعينين خاويتين، وقد تلاشى سُكره فجأة وعاد كأنه لم يشرب قطرة كحول قط.
- مهلاً، مهلاً...
- يتأرجح بؤبؤاً عينيه بين أشياء لا يستطيع كارديل رؤيتها، وعندما تتركز نظراته، تتسمران على وجه كارديل المتورد.
- وسخان.
- أستميحك عذراً، ماذا؟
- الوسخان! أعرف من هو كارل يوهان، تعال معي!

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثامن والأربعون

يركضان في خضم العاصفة الثلجية، وتعصف بهما هبات ريح مفاجئة من الأزقة، وتنزلق كعوبهما على بقع الجليد، ويجعلهما الشراب لا مبالين بالبرد. لم يكلف أحد نفسه عناء إشعال الفوانيس أمام المنازل، مفترضين أن الشرطة الليلية لن تأخذ واجباتها بجدية في ليلة كهذه. يُبقي كارديل ياقته مُحكمة حول عنقه بيده السليمة حتى لا يتسلل الثلج إلى ظهره، ويغذ السير في أعقابِ وينيّه، الذي صارت هيئته باهتة في الغشاوة الثلجية أمامه، لكن كارديل لا يحتاج إلى الرؤية، فأصوات سعالِ وينيّه كافية لإرشاده الطريق. يريد أن يطلب من صديقه إبطاء سرعته والتقاط أنفاسه، لكنه هو نفسه معاناته تكفيه. يلمح غطاء رأس متكورًا طار عن رأس شخص في مكان ما يتدحرج فوق أزبال الشوارع المتجمدة. وعندما يبلغان "تل القلعة"، يجرب وينيّه مقبض باب "دار انديتو" ويجده موصدًا، ثم ينجح طرق كارديل العنيف أخيرًا في إيقاظ الحارس الليلي، الذي يطلق سبَابًا حالما تقع عيناه على سيسيلِ وينيّه، فيردفه باعتذار سريع.

- لا أتمنى لك الموت يا سيدي، لكن عندما رأيتك حيًّا تُرزق أدركت أن عليّ تسوية حساب مع السكرتير بلوم.

لا يتمكنون من إغلاق الباب خلفهم إلا بعد مجهود مشترك. وبيدين مرتعشتين يرفع وينيّه الخاتم أمام كارديل ويشير إلى الجدار الذي عند السلالم حيث ما يزال معلقًا عليه شعار النبالة الخاص بمدير الشرطة السابق نيلز هنريك أسكان ليلجنسباريه.

- أترى الآن؟ أسكان، الذي يُلقب بـ «الوسخان».

يضيق كارديل عينيه ويحاول تركيزهما أولاً على تصميم الخاتم، ثم على الدرع ذي الزخرفة المعقدة على الجدار.

- بينهما أوجه شبه مؤكدة، لكن لا أجزم بأنهما متطابقان تمامًا.
- بالضبط، وما ينبغي لهما أن يتطابقا. إذ كنتُ محقًا، فقد وقف كارل يوهان مرات عديدة حيث نقف الآن وعيناه مصوبتان إلى الهدف نفسه، يحمل شعار نبالة كارل يوهان أوجه شبه عديدة بشعار مدير الشرطة السابق ليلجنسباريه، الذي يعرف أيضًا بالوسخان، وهذه لا يمكن أن تكون مصادفة، فهو استمد تصميمه من تصميم ليلجنسباريه وعدل عليه قليلًا.

- وماذا إذن؟ شعارات النبالة ليست أسرارًا محروسة، وهذا الشعار معلق جوار السلالم وبمقدور الجميع رؤيته.

- أجل ولا، قبل نقل قسم الشرطة إلى "دار اندبِتو"، كان الشعار معلقًا في "جادة الحديدية"، لكن الوصول إلى هذين المكانين ليس متاحًا للجميع، فأياً من المجرمين المارين من هنا عند اقتيادهم إلى المحاكمة لا يمكن أن يرغب في تقليد مدير الشرطة، كما لم يعمل كارل يوهان في الشرطة بأي صفة رسمية. أعرف كل شرطي وكاتب عدل ومساعد وضابط حي بأسمائهم ووجوههم، ومن بينهم جميعهم لا يوجد ذو شعر أشقر مثل شعر كارل يوهان، كما لم نسمع قط أن أحدهم اختفى في ظروف غامضة. لكن ليلجنسباريه كان يرأس فئة أخرى من الموظفين، فريق من المخبرين الهدف منه التجسس على كل من يُحتمل أنه يضرر السوء للملك.

- وانظر إلى ما حققوه!

- يقال إن المرء عادة ما يلاقي قدره في الطريق الذي يسلكه من أجل تجنُّبه، والملك غوستاف لم يكن استثناءً. على أي حال، كان عدد المخبرين كبيرًا جدًّا، وكل الطموحين الذين يفتقرون إلى مؤهلات النجاح في مجالات أخرى كانوا ينضمون إلى هذه المجموعة، وهذا المجتمع كان البيئة المثالية لأمثال كارل يوهان. وبما أن هؤلاء الشبان الساعين إلى الثروة لم يلتقوا مباشرة بمدير الشرطة، كان من السهل

عليهم أن يعظموه ويتخذوا منه مثلًا أعلى، بيد أن هذا التعظيم - كما يشي اللقب- كان نادرًا بين الذين يتلقون منه الأوامر مباشرة. لكن المخبرين كانوا يأتون باستمرار إلى هذا المبنى ليقدموا تقاريرهم قبل إرسال ليلجنسباريه إلى المنفى، وقد كانوا مصدر إزعاج لرجال الشرطة الرسميين.

- لا أفهم كيف يقربنا كل هذا من اكتشاف اسم كارل يوهان الحقيقي.

- في أي يوم من الأسبوع نحن؟

يضطر كارديل إلى التفكير للحظة، فمنذ إعلان الموت الكاذب في بداية الأسبوع، تداخلت الأيام في بعضها، دون أن يفصل بينها سوى لحظات وجيزة من النوم. يلتفت وينبئه إلى الحارس الليلي، الذي يطرد نعاسه على مضض ويقدم إجابة:

- اليوم السبت.

- والساعة؟

- نقترّب من منتصف الليل.

- إذن لا يمكننا تضييع أي لحظة يا جان مايكل، فهناك عند "البورصة" يقام احتفال على شرف نورلين وهو يستعد لرحيله، إذا حالفنا الحظ سنجده ما زال بين الحضور، عليّ محادثة مديرتنا المطرود قبل أن يختفي في الشمال.

يصعدان التلة ويبلغان الساحة القديمة، وإلى يمينها "البورصة"، تلقي أبراج الكاتدرائية ظلالتها من خلال العاصفة التي تبلغ عنان السماء. يتنفس وينبئه الصعداء عندما يرى المبنى المضاء الذي يشير إلى أن مراسم الحفل ما تزال قائمة، فالشموع على كل النوافذ، وداخل قاعة الحفل، أزيحت الطاولات إلى الجدران لإفساح المجال للرقص، وتضرب كعوب الأحذية على ألواح الأرضية بقوة تجعل النجف يتمايل فوقهم، يرى كارديل العديد من الوجوه المألوفة في الحشد، الذي يبلغ عدده المائتين على الأقل، حتى الحاكم موديهه انضم إلى الرقص، وجهه محمر كروبيان طُهي للتو، وربطة عنقه غير

المعقودة متدلّية فوق ظهره، وجوه أخرى مألوفة تغدو وتروح وفي أيديها كؤوس الشمبانيا الرفيعة، يلمح كارديل ظهر سيدرهيلم، مفوض التجارة، بين ستارتين ضخمتين حيث يقضي حاجته على الجدار وهو يضحك من شيء في السقف.

- كان نورلين رجلاً ذا شعبية على الرغم من كل شيء.
يوميّ وبيّنه موافقاً.

- نفس السمات التي ميزته بوصفه مديرًا للشرطة هي التي أدت إلى إنهاء خدمته. هل تراه؟

يجول كارديل بناظره في الصالة.

- جوار طاولة الشرف.

يصل ويبيّنه إلى نورلين في الركن، أنف نورلين وخداه محمران، وباروكته الأنيقة منكوشة، ويرتج عليه عندما يقع بصره على ويبيّنه.

- سيسيل! سمعتُ أنك استسلمت ولقيت حتفك، هل احتفلنا بصخب لدرجة أننا بعثنا الموتى؟

- لا أحد يراني سواك لأنك أنت نفسك عبرت للتو إلى العالم الآخر يا يوهان غوستاف، جئتك لمقاة هناك على ساحة الرقص، متّ من الإفراط في شرب النبيذ واختناقك باللوز المحلّى، وقد جئت لأكون دليلًا لك في العالم السفلي.

يسقط نورلين كأسه، ويشحب وجهه شحوب الموتى ويظل واقفًا لا يدري ما ينبغي قوله لعدة ثوانٍ، حتى تقترب امرأة ذات شعر مجدول على هيئة فرقاطة وترطم بويبيّنه في طريقها إلى السلام، فينفجر نورلين ضاحكًا.

- اللعنة، سيسيل ويبيّنه! شبح اندبِتو بحق! إنك ثمل، لم يسبق لي قط أن رأيتك تحت تأثير الكحول، أو سمعتك تمزح، وأستشعر العلاقة بين الاثنين. لكن لا بد لي من قول إن الفُواق ينتقص قليلًا من التأثير العام.

يأتي نورلين بحركة كأنها تعبر عن كل ظلم العالم الواقع عليه.

- ها هي حكايتي مديرًا للشرطة قد بلغت نهايتها، إذا اشتد عليّ برد الشمال، فعزاء الابتعاد عن دسائس استوكهولم كفيل بتدفئة جوانحي.

- أتعرف متى ستتولى إدارة أولهولم مهامها؟

تعود الرصانة إلى وجه نورلين.

- لا يمكنني الجزم، في غضون أسبوع ربما، آسف لأنني لم أستطع أن أوفر لك مزيدًا من الوقت يا سيسل.

- جئت لأكون مديناً لك بدين أعظم بأن أطلب منك معروفًا أكبر يا يوهان غوستاف، عندما حضرت إلى مكتبك بعدما عاينت جثة بحيرة لارد، كان مكتبك يعج برسائل غير مفتوحة أرسلها مخبرو ليلجنسباريه، التقارير التي استمرت في التدفق من جميع أنحاء البلاد على الرغم من مرور زهاء سنة منذ اختفاء ليلجنسباريه في بوميرانيا، هل ما زالت تلك الرسائل موجودة؟ هل رُتِّبَ مكتبك؟

- عادة ما أترك هذه الأعمال لأيزاك بلوم.

- لدي سبب يدفعني للاعتقاد بأن الجريمة التي شغلتنني مع جان مايكل طوال الخريف الماضي يمكن أن نجد خيطاً لحلها في تلك الكتابات، فهل توافق أنت يوهان غوستاف على السماح لي بالاطلاع عليها الليلة؟

- إن كان هذا كل ما تطلبه، فهذا أقل ما يمكنني فعله. اصطحب بلوم، فالسكرتير القدير نال كفايته من الشراب.

يلقي نورلين نظرة ذات مغزى نحو كارديل.

- لكن لا تدعاه يهبط السلام وحده، فذات يوم انزلق وأصاب وجهه إصابة بالغة.

أيزاك رينهولد بلوم، يتجاذب أطراف الحديث مع سيدتين وجهاهما مطليان بالأبيض وترتديان فستانين عريضين، يُسقط كأسه على الأرضية عندما يرى كارديل، الذي يضطر إلى الإمساك به من مؤخرة عنقه حتى لا يختبئ تحت الطاولة.

- لا تضربني مرة أخرى!

يرفع كارديل الرجل الصغير حتى يعتدل واقفاً بساقين مرتعشتين، ويضع وينيه يده على كتفه ليطمئنه. يسمح بلوم بأن يُسقى النبيذ، ويستعيد

ثقتَه بنفسه مع كل رشفة، ثم يجدون معطفه المهترئ في الصالة، ويخرج
وينيئه أولاً عبر الباب، فيرى درجات السلام القصيرة المؤدية إلى الساحة تعج
بالضيوف الذين خرجوا ليبرّدوا أنفسهم، بعدما حميت أجسادهم بالرقص
والنيبذ لدرجة أنهم يهزؤون بالعاصفة الثلجية التي تصعب الرؤية فلا تُرى
البئر ومضختها. ثمة امرأة ذات كتفين عاريتين تحاول التقاط ندف الثلج
بلسانها، وسط ضحك وتصفيق مجموعة السادة، ويخطو أحدهم خطوة إلى
الوراء في أثناء مرور وينيئه، فيرتطمان ببعضهما، وعندما يلتفت الرجل يقفان
وجهًا لوجه، فيتعرف كلاهما على الآخر، ويتراجع وينيئه خطوة إلى الوراء.

- جيليس توسه، لم أرك منذ أيام دراستنا، كما لم أسمع باسمك منذ أن
رأيتَه في تقرير أُرسِل إلى نورلين تنعتني فيه باليعقوبي.
وجنتا توسه محمرتان من الثمالة لكن صوته ثابت.

- سيسل وينيئه! ليتني بمقدوري أن أقول عنك الأمر نفسه، لكن اسمك في
كل مكان في هذه الأيام.

يصمت من أجل التأثير الدرامي وتلوح ابتسامة بغیضة على وجهه وهو
يردف:

- لكن ليس لمدة طويلة، على ما يبدو.

- كيف حال مدام ساتشس في هذه الأيام؟
يهز توسه كتفيه.

- أوه، عليها بذل مجهود كبير حتى تستعيد ثقتها بنفسها، "دار كيسر"
خالية في الوقت الراهن، لكن جمعيتنا الصغيرة لا تفتقر إلى الموارد
ولديها منشآت أخرى بنفس الكفاءة، ينبغي ألا تشغل نفسك بفكرة أنك
حرمت أي أحد من متعته.

- هل أنت من النوع الذي يحب مشاهدة الآخرين وهم يستغلون العاجزين
يا جيليس، أم أنك تشارك؟ مما أتذكره عنك من أيام أوبسالا، أضمن أنك
ممن يحبون المشاهدة.

يأخذ توسه خطوة مقترّبًا، ويخفض صوته وهو يضع يده على كتف
سيسل.

- أعرف أن أجلك قصير يا سيسل، ولا أتمنى لأي أحد الموت بالسل بين أغطية ملطخة بالدماء، لكنني أود أن يكون موتك راحة لك لأن مصيرك سيكون أسوأ إذا واصلت تحدي "اليومينايديز" دون طائل، في هذا العالم أشياء لا أحد يمكنه تغييرها، وحقوق الأقوياء إحداهما، مهما قال محبوبك جان جاك روسو.

يبعد وَيُنِيّه يد توسه.

- لأصبحت أيامك معدودة إذا لم يتخلص ريوترهولم من نورلين.

يلقي توسه رأسه إلى الخلف ويضحك.

- ريوترهولم؟ أه يا عزيزي سيسل، تذكرت فجأة كأن أيام دراستنا كانت

بالأمس، إذ كنت دائماً تمثل مزيجاً مدهشاً من الذكاء والسذاجة.

يفرغ بقية النبيذ الذي في كأسه، ويلقيه بلا مبالاة على السلم ويستدير

عائداً إلى مجموعته، والضحك ما يزال عالقاً بشفتيه.

يسير وَيُنِيّه وكارديل، وبينهما آيزاك بلوم، وهم ينحنون عكس اتجاه الريح

في الساحة، يخرجون إلى "تل القلعة"، ويعبرون "زقاق السرداب"، ومنه إلى

"دار انديتو"، حيث يبدو أن الحارس تخلى عن مكانه. يلهوج بلوم بالمفاتيح

وويُنِيّه يتنحج.

- منذ متى تعمل في الوكالة يا آيزاك؟ منذ عام سبعة وثمانين؟ أم ثمانية

وثمانين؟

- يحدق بلوم إلى الأرض حائقاً وهو يجاهد ليفتح الباب في الهواء

العاصف.

- ستة وثمانون.

يزيلون الثلوج من أحذيتهم في صالة المدخل، وعندما يضع كارديل يده

على الجدار، يجده بارداً برودة الهواء بالخارج. يلوح بلوم بيده ساهماً من

فوق كتفه وهو يقتادهما إلى داخل المبنى، يتبعه وَيُنِيّه ويدها خلف ظهره.

- خدمت إلى جانب ليلجنسباريه لسنوات، فما الذي تتذكره عن المخبرين

الذين جنّدهم في جميع أنحاء العاصمة والبلاد؟

- تزايد قلق الملك غوستاف مع مرور السنوات وتكاثر أعداؤه، ولم يكن يسترخي إلا في هاغا، في عالمه الخيالي تحت أشجار التنوب والشواطئ الصخرية التي أطلق عليها أسماء إيطالية، بعيدًا عن دسائس المدينة. وكان النبلاء يبصقون فوق أكتافهم عندما يسمعون اسمه، وكان البلاط يخشى نزواته، حتى خدمه كانوا يسردون عنه قصصًا تقشعر لها الأبدان، وفي النهاية ظهر قاتله من ضمن هؤلاء الذين حوله. بدأ ليلجنسباريه عمله بالشرطة في السنة الرابعة من وصاية غوستاف عام ستة وسبعين، لكن مع مرور الوقت، رأى غوستاف أنه يحتاج إلى خدمات أهم، ووقع على عاتق ليلجنسباريه أن يوجد آذانًا للملك، بأن يجند مجموعة من الرجال ليتنصتوا على الأحاديث الخاصة ويقدموا التقارير عما يُقال سرًا، وفي السنوات الأخيرة كان الوضع في فرنسا هو موضع الاهتمام، إذ خشي غوستاف تمدد الثورة، فأرسل جواسيس ليلجنسباريه ليبحثوا عن الخونة.

يوميّ وينيّه.

- أجل، هذا ما أتذكره أيضًا. قدم ليلجنسباريه استقالته قبل عام، في ديسمبر، وقد استغرقت أخبار نفيه مدة حتى تبلغ كل الذين يرسلون إليه التقارير. إننا الآن نبحث عن رسالة أو أكثر من التي لم تُفتح منذ وصولها في الربيع والصيف.

يشير بلوم إلى رواق.

- أخذت كل ما كان على مكتب نورلين إلى غرفة صناديق مليئة بأوراق لا أحد يهتم بما فيها لكن لن يتخلص منها أحد أيضًا. في ركن ستجد خزانة كانت قديمة عندما انتقلت الشرطة إلى المبنى، فيها كل ما بقي من مراسلات ليلجنسباريه، سأضيء المكان.

تضيء شمعة بلوم غرفة مغطاة بالكتب والدفاتر والملفات والأوراق. وعندما يفتح كارديل الخزانة المعنية، تسقط على الأرضية كومة وثائق كانت مستندة إلى الباب.

- سحقًا، إذا أخليت الطاولة، سأرفعها جميعها، لكن كيف سنجد ما نبحث عنه؟

يدور وِينِيَه ببطء حول الأوراق ويلتقط عشوائياً أحد الظروف التي لم تُفْتَح.

- سنفرزها جميعها. أتتذكر حديثنا عند مقبرة ماريا عن أطراف كارل يوهان التي لم تلتئم تماماً؟ فلننتبع الجروح زمنياً. متى تعتقد أن الطرف الأول بُتر عن باقي الجسد؟
- تخميني هو في وقتٍ ما من يوليو.
- يمكننا إذن افتراض أن جميع الرسائل التي كانت تأتي من كارل يوهان قد توقفت بحلول يوليو. سنصنف الرسائل حسب مرسلها وتاريخها. إذا اشتملت رزمة رسائل من نفس المرسل على رسائل من أغسطس أو بعده، فيمكننا استبعادها، وأي مراسلات منتظمة تنقطع في يونيو أو يوليو ستكون موضع اهتمامنا.

تمر ساعة أو نحوها وهم يعاينون المئات من الرسائل، بصمت يفرزونها في أكوام، كأنهم منهمكون في لعبة ورق غامضة، بعض الرسائل تعود إلى أعماق الخزانة، يرافقها سباب في حال عودتها بين يدي كارديل. تتناقص الرسائل حتى لا يتبقى منها سوى القليل، ويرتب وِينِيَه الأكوام المتبقية في صف بينما يبذل كارديل كل ما بوسعه ليخفي نفاذ صبره.

- وماذا بعد؟

- سنفتح الرسائل المتبقية لعل محتوياتها تقدم لنا معلومات إضافية.
- القراءة ليست من أفضل مهارات كارديل، وصفوف الحروف الطويلة ترهقه في حين لا يبدو أن فحواها يستحق العناء.
- يا إلهي، لمثل هؤلاء السادة أعظم المواهب في المملكة إذا كانوا يتنافسون في المقدرة على إدخال الملل في نفوس القراء، كاتب هذه الرسالة مثلاً لا يستطيع تهجئة كلمة واحدة.

- دعني أرى.

- إنها مجرد ترهات.

يعقد وِينِيَه حاجبيه مستغرقاً في التركيز.

- بالطبع، لكن لا أعتقد أنها ترهات عشوائية، هذه الرسالة مكتوبة بطريقة مشفرة، بنظام تُبدل فيه أحرف بعينها بأحرف أخرى.
- وما هو وضعنا الآن إذن؟
- نجهل فحوى الرسالة. من المرسل؟
- الرسائل موقعة باسم دانييل ديفال.
- والتواريخ؟
- الأولى عمرها أكثر من عام، والأخيرة يعود تاريخها إلى يونيو.
- يرفع وَيَنِيَه يديه ويدلك صدغيه.
- تعلمت من قبل طريقة لفك الشفرات، لكن كؤوس النبيذ الأخيرة التي تناولناها في "الشمس الذهبية" يبدو أنها أبعدت هذه المعرفة إلى أقاصي ذاكرتي.
- يذرع أرضية الغرفة جيئةً وزهاباً في دائرة صغيرة، وهو يحرك شفتيه بصمت ويرسم أشكالاً مبهمة في الهواء، وبعد لحظات يتوقف ويعود إلى الطاولة، حيث يحمل أحد الظروف، ثم يضحك راضياً.
- اعذرني يا جان مايكل، لقد صعّبنا المهمة على أنفسنا دون داع، ما كان ينبغي لك أن تدعني أسرف في الشراب.
- يرفع وَيَنِيَه الرسالة ويميل كارديل للأمام. في أسفل كل رسالة توجد بقايا ختم، الختم الذي كسره قبل لحظات حتى يفتح الرسالة، وشعار النبالة الصغير المتصلب في الشمع هو نفس شعار النبالة الذي على خاتم كارل يوهان. يستغرق كارديل مدة حتى يعثر على الكلمات.
- اسم كارل يوهان الحقيقي هو دانييل ديفال؟
- دون أدنى شك.
- هل أدرج عنواناً؟
- نعم، آخر رسالة تشير إلى ضيعة اسمها "أغنية الطير". أتعرف عنها شيئاً؟
- لم أسمع بها قط.

- أنا أيضًا. فلنر إذا كان آيزاك بلوم لديه أي إضافة.

بلوم عند المكتب واضعًا رأسه على ذراعيه، يشخر بصوت عال ويقاوم محاولات إيقاظه حتى يلكره كارديل بقوة في أضلاعه، فيجفل قائلاً:

- هل حالفكما أي حظ؟

يومئ وينئيه.

- جائز. أتعرف شيئاً عن مكان يسمى أغنية الطير؟

يفرك بلوم وجهه.

- أغنية الطير ضيعة، عقار متوارث، تقع الأرض جوار نهر ساغا، ليس

بعيداً عن الدار الملكية القديمة في فاسبي. الضيعة مملوكة لآل بالك،

وهي أسرة كونتات، شعار نبالتهم بسيط، كعادة العائلات القديمة: خط

أفقي على خلفية درع أبيض. وحسب ما أعرفه، لم يعد يوجد الكثيرون

من آل بالك في أغنية الطير. كان غوستاف أدولف بالك ضمن مجلس

الملك قبل بضعة عقود، وقد اختفى إلى خارج البلاد، إذا أسعفتني

ذاكرتي، وربما ترك خلفه ذرية. كان آل بالك عائلة عظيمة ذات يوم،

مبرزين في شتى المجالات، لكن أقل نجمهم. لا أعرف أكثر من هذا.

كان وينئيه قد قطع نصف المسافة إلى الباب عندما أنهى بلوم كلامه.

يمتد "شارع التجار" ضيقاً ومقفرًا بمحاذاة "تل القلعة"، خمدت

العاصفة قليلاً وبزغ فجر يوم جديد، لكن ظلام الشتاء سيظل مخيمًا بضع

ساعات حتى تستجمع الشمس ما يكفي من الطاقة للصعود فوق خط الأفق.

ينزل وينئيه حافة قبعته فوق عينيه حتى يتمكن من النظر فيما حوله بحثاً

عن عربة، وكارديل يتبعه قريباً منه، مرتجفاً من الترقب، فالأحداث التي كانت

تسير ببطء شديد صارت متسارعة يسابقون الزمن للحاق بها.

- هل من الحكمة أن نغادر مستعجلين هكذا؟ ألا ينبغي لنا اتخاذ

التحوطات اللازمة؟

يجيب وينئيه من فوق كتفه:

- ماذا تقترح؟

يطلق كارديل سبابًا بعدما انزلق كعب حدائه بين حجرين.

- ماذا عن سيف قصير لكل منا، وسكاكين في أحذيتنا وخناجر في أكمامنا؟ أو ربما مسدس وبنديقية؟ ومدفع هاون نجره خلف العربة تحسبًا لمنعنا من الدخول؟ كما ليس لدي أي مستندات أبرزها لضباط الجمارك.

جوار "الأرض المحروقة"، وجدان حوذيًا يصلح حدوة حصان، يلوح وينبئه له ويترك كارديل يلحق به.

- لا تقلق بشأن جواز السفر، معي مستندات تحمل توقيع نورلين ستكفل مرورنا نحن الاثنين دون طرح أي أسئلة. أما فيما يتعلق ببقية التحوطات، فحلفاؤنا القليلون لم يعد لهم وجود، ليس لنا سوى أنفسنا الآن يا جان مايكل. لستُ رجل عنف، وإذا وجدنا قوة متفوقة بانتظارنا عند نهاية رحلتنا، فلن نقدر على المقاومة كما ينبغي، لا بد أن ينعقد أملنا على ما نملكه، وبالنسبة إليّ الوقت عنصر جوهري، ليس بالنظر إلى حالتي الصحية فحسب، بل وأيضًا اقتراب عهد أولهولم. والآن توجد فجوة بين الإدارتين، إدارة نورلين وأولهولم، وعلينا أن نبذل كل ما بوسعنا لإنهاء مغامرتنا قبل نهاية هذه الظروف المواتية. هل يؤثر هذا الوضع في قوة قناعتك؟ سأستقل هذه العربة وليس لدي ما أخسره. ما زال بإمكانك التراجع، وسأكون آخر من يلومك.

يرفع وينبئه نفسه بصعوبة إلى المقعد ويشير إلى الحوذي باتجاه "جسر المسلخ"، ويبعد كارديل ندف الثلج عن وجهه وينخر.

- إذا توقفنا لحظة لنأخذ ما نحتاج إليه من مؤن من حانة "قيّم الإسطل" قبل أن نغادر المدينة، فستحظى برفيق سفر بشوش ورحلة مبهجة قليلًا، فمشروب سريع للطريق سيحسن مزاجي.

يعض وينبئه شفثيه مفكرًا، ويقول أخيرًا:

- اتفقنا، حتى أنا، على ما يبدو، أعاني صداغًا فظيغًا.

الفصل التاسع والأربعون

يتعين عليهما إيجاد عربة عند "دار الجمارك". منذ أسبوعين استبدلت بعجلات العربات شفرات الزلاجات، وفي حانة "قيم الإسطبل"، المحطة الأخيرة التي تفصل بين استوكهولم والبراري، يباع الخبز واللحم والتبغ، إلى جانب النبيذ يساعد على البلع. الطريق في حالة سيئة، طقس الأسبوع السابق المعتدل صار باردًا، وتخشخش الزلاجات فوق النتوءات الجليدية، التي تكون حادة أحيانًا وناعمة أحيانًا أخرى، فتعاني الخيول في جر الزلاجات، وتمر جوارهم ببطء علامات قياس الأميال المصنوعة من الخشب أو الحديد أو الحجر، وبعد كل عشرة أميال تقريبًا على جانب الطريق توجد حانات هاجعة واستراحات، حيث يتمطى الوقت في أثناء استبدال الخيول المرهقة وإخبار الحوذي للخدم بآخر القيل والقال من المدينة.

يعرف وينيه الطريق معرفة جيدة، فقد طرقه كثيرًا في سنوات دراسته بجامعة أوبسالا. تشرق الشمس من الشرق بعيدًا وتضيء صفحة الأرض لبضع ساعات، تنتقل الأشعة من كتف لآخر وتلقي بظلال طويلة في الاتجاه المعاكس، تمتد الغابة العتيقة غير المبالية بصمت على جانبي الطريق، وساعة وينيه، التي تحمل ماركة بيورلينغ وقد فُكَّت ورُكِّبت مرات لا تُحصى، تستلقي مفتوحة على حجره حتى يصير الضوء معتمًا بحيث تتعذر قراءة موضع عقاربها. وعندما تبدأ النجوم بالظهور، يجذب وينيه وكارديل فرو وأغطية الزلاجة بإحكام حولهما، وكلاهما غارق في تسلسل أفكاره، التي لا يقطعها سوى صياح الحوذي لخيوله من حين لآخر، والقمر حديث الولادة لا يكاد يرسل أي ضوء.

يجد سيسيل وينيّه نفسه يستحضر شؤونه الخاصة التي أفصح لكارديل عنها قبل بضع ساعات، يتذكر أن زوجته هي التي استشاطت غضباً عندما دخل عليهما وهما يمارسان الفعل، أما وينيّه نفسه فلم يشعر سوى بحزن عميق، وهذا ما بدا أنه يفاقم ضيقها، هل كان ينبغي أن يعبر عن مشاعره بانفعال مهتاج وأن ينهال ضرباً على العريف حتى يدميه؟ لم يحبذ وينيّه العنف قط مع النهج العقلاني الذي يتمسك به، والآن يتساءل عن إمكانية وجود مكان يمكن أن يُترجم الحب فيه إلى عنف، مكان بعيد عن متناوله، ومن بعيد يتناهى إلى مسامعه عواء يرتفع نحو القمر، فيتذكر آخر كلمات جوزيف تاتشر ويرتعد.

«إنك نذب في نهاية المطاف... ذات يوم ستتلطخ أسنانك بالأحمر وعندئذٍ سوف تعرف يقيناً مدى صواب كلامي».

تواصل الزلاجة السير طوال المساء، فيطوون ستين ميلاً، وعند تخوم سالا، المشيدة جوار منجم، يتجه الحوزي إلى ساحة مربعة بين المنازل والإسطبلات، ويجذب أعنة خيوله ويلتفت نحو راكبيه.

- لن نستطيع الاقتراب من وجهتكما أبعد من هذا الحد، وعليّ العثور على سرير لأمضي فيه الليلة وعلف لخيولي.
- بداخل الحانة الدافئة ما يزال بعض الزبائن يتناولون عشاءهم، ويجدان امرأة وافرة البدن تدير الحانة، تنخر عندما يسألونها عن "أغنية الطير".
- لن تجدا شيئاً هناك، لا سيما في هذا الوقت من الليل. انقضى زمن طويل منذ أن رأى أحدهم أن زيارة "أغنية الطير" تستحق العناء.
- إذا لم توجد عربة يمكن أن توصلنا، فهل لنا أن نستعير منك حصانين؟
- في هذا البرد ولضيفين لم أسمع اسميهما من قبل؟ مُحال، حتى مقابل كل أموال العالم.

يحصي وينيّه بعض العملات المعدنية على سطح طاولة خشنة حتى يتجاوز قيمة الحصانين، فترتفع زاويتا فم المرأة على وجهها المجعد، ثم تثني ركبتها بمرح لكارديل ووينيّه.

- يتراءى لي أن الأموال الموجودة في هذا العالم أكثر مما ظننت.

الحصانان ضخمان يُستعان بهما في العمل، والسرعة ليست ضمن فضائلهما، الدروب الضيقة طُمرت بالثلوج منذ مدة ولن ترى ضوء النهار حتى مجيء الربيع، يتبع كارديل ووينيه توجيهات الحكمة الجمعية التي استقياها من رواد الحانة، فيسيران تحت ضوء القمر والتل إلى يسارهما بعيدًا ونجمة الشمال أمامهما مباشرة، وبعد زهاء ساعة يلوح أمامهما بين الثلوج صف من أشجار الزيزفون، يشق الحصانان طريقهما حتى يبلغا الأشجار المنتصبة في أرض منبسطة، وعند نهاية الطريق تربض المباني، مظلمة وساكنة، ويلوح بيت الضيعة على الجانب الآخر من فناء في وسطه نافورة مغطاة بقشرة من الجليد، يجذب وينيه عنان حصانه حتى يتوقف ببطء.

- أ يبدو لك المنظر مألوفًا؟

يرفع ميكيل كارديل -غير المعتاد السروج والسعيد سرًا بأنهما لم يجدا حصانين سريعين- ساقه فوق ظهر الحصان ويهبط على الأرض، وللحظة يعلق حذاءه في ركاب السرج.

- من رسائل بليكس؟ نعم، ذلك الوغد المسكين أجاد وصف المكان. لكن لا بد أن المكان مهجور منذ مدة، إنه صامت صمت القبور، وما من دخان يتصاعد فوق المداخل، أحصي عشر نوافذ على الأقل مهشمة، وما من إضاءة ولا أرى أي آثار أقدام.

- وعلى الرغم من هذا، ها نحن هنا، يستحسن ألا نعود أدراجنا حتى نتأكد، المنزل ضخم، أماننا مساحة كبيرة علينا التحقق منها.

الباب الأمامي موارب قليلًا، وقد تراكمت الثلوج على جانبيه، فيضطران إلى دفعه بوزنيهما معًا حتى ينفتح أحد شقيه بما يكفي لدخولهما. الصالة شاسعة ومهجورة، فيقف وينيه ساكنًا، ويرهف سمعه.

- كما قلت، تصعب ملاحظة أي إشارة لوجود بشري هنا، فلنبدأ من الأسفل يا جان مايكل، سأسلك الدهليز إلى اليسار، وأنت اتجه يمينًا، ثم نصعد للأعلى، وملتقي عند السلالم قبل أن نصعد إلى الطابق التالي.

ووفقًا لمواضع المداخن، ستجد المطبخ قريبًا من هنا، فحاول أن تجد أي فوانيس أو أي شيء للإضاءة.

يقود باب كارديل إلى الحجرة الأولى إلى يمينه، فيخمن أنها صالة استقبال، كانت الأسرة في عهد سحيق تستقبل فيها الضيوف، لكن الآن، الجليد، ومن قبله المطر والرطوبة، سال على الجدران وتجمع على الأرضية حيث انتفخت الألواح لدرجة أن بعضها منحني كقوس رمي. وفي العتمة يكتسي كل شيء باللون الرمادي نفسه: أسمال الستائر المعلقة حول النوافذ، والأثاث الذي اتخذت الفئران والقمل منه أوكارًا، واللوحات ذات الأقمشة المتغضنة بفعل الطقس والريح. ثم يستحيل الرمادي سوادًا كلما ازداد كارديل توغلاً في المنزل، يتحسس طريقه بمحاذاة الجدار، ويصادف كعوب كتب مرصوفة على رف، وبيتهج عندما يجد جوارها شمعدانًا مصنوعًا من النحاس، من البرودة بحيث تلتصق به راحة يده للحظة، الشمع هش ومتجمد، يحاول كارديل إشعال الفتيل بحجر صوانه، فتضيء الشرارات الأرفف للحظات وجيزة متجمدة، ثم تشتعل الشمعة أخيرًا بلهب واهن متذبذب.

يحمي كارديل الشمعة بذراعه من التيارات الهوائية ويتابع سيره إلى الداخل، كل شيء صامت هامد بارد، تغلغل الصقيع في الجدران، ولا بد أن السقف يسرب الماء كالغربال، وخلف مستودع مؤن فارغ وشتى أماكن التخزين، يجد كارديل سلمًا يفضي إلى الطابق الأعلى وإلى القبو بالأسفل، فيقف غير قادر على حسم أمره، ثم يقرر استكشاف القبو، يرفع الضوء سدول الظلام عن براميل ورفوف، وبيتهج كارديل برؤيتها تئن تحت ثقل القناني، معظمها متجمدة لكن مع تقدمه يجد المزيد من القناني التي نجت من الإهمال، فيختار واحدة ويكسر عنقها ويرفعها بحذر شديد إلى شفتيه حتى لا يجرح نفسه. توكاي! يطلق تنهيدة استمتاع ويدير ظهره للقبو ويعود إلى السلالم.

يأتي صوت من الأعلى، وقع أقدام على ألواح خشب تصدر صريرًا أو قطعة أثاث أسقطت، فيدرك كارديل أن مغامرته مع الشمعة وقنينة النبيذ جعلته ينسى الوقت، لا بد أن وينيه قد سئم من انتظاره جوار السلالم بعدما تحقق

من نصف المنزل وقرر ملاقاته في الطابق العلوي، يأخذ بضع رشقات أخرى ويتابع الصعود، النوافذ الصغيرة المطلة على السلام تدخل ضوء القمر، ومع النبيذ يرفع آماله بشأن هذا المسعى اليائس، الضوء الذي يحمله بيده يحرمه من الرؤية الليلية التي اعتادتها عيناه، إذ يعميه بقدر ما ينير طريقه.

- لا تتحرك.

ليس صوت سيسل وينيه، صوت رتيب خافت، يتَّسم ببسمة أخرى أيضًا، صعوبة في نطق الكلمات، ربما بسبب البرد.

- أطفئ الشمعة واستدر.

ينصاع كارديل لما أمر به، وفي الظلام المفاجئ تصعب رؤية المتكلم، هيئته الظلية منتصبه أمام النافذة، وخلفها العالم منقسم إلى اثنين بين سماء مظلمة ومساحات ثلوج ساطعة.

- ربما لا تستطيع رؤية ما أحمله بيدي، إنها بندقية ماسورتها موجهة إلى صدرك.

يضيق كارديل عينيه ليحسَّن رؤيته، الرجل متوسط الطول ويضع فرو جلد ذئب مهترئًا على كتفيه، وتحت الفرو بقية ملابسه في حالة مطابقة لحالة المنزل، ما كان فخيماً ذات يوم صار رثاً مهلهلاً، بنطال بال، أزرار مفقودة، أطراف أكمام مهترئة، ووجه الرجل واهن ويبدو أكبر من سنوات عمره.

- أراها الآن، كنا نستخدمها في القوات البحرية، إنه سلاح جميل لكنه ليس آخر موديل حسبما أرى.

- لا تخدمك حالة هذا المكان، إذ لا علاقة له بحالة هذا السلاح الذي خدم أسلافك خير خدمة، من نارفا إلى فروستادت، ولم يخفق قط. أجبَّت لسرقة النبيذ؟ هل أنت وحدك؟

يدق قلب كارديل على طبلتي أذنيه، وهو ضليع في مثل هذه الأكاذيب ولا يتردد لحظة.

- نعم، جبَّت أملاً في العثور على شيء يعينني على الشتاء، مضى زمن طويل منذ أن حظيت بأبي أصدقاء.

يومي الرجل.

- جزء من ملابسك مأخوذ من زي المراقبين، إن لم أكن مخطئاً، ما الذي يفعله مراقب في هذا المكان البعيد عن المدينة؟

- ربما ترك وظيفته ويحاول إعالة نفسه بعدما بدد نقوده على النبيذ، سمعت أن هذا المنزل مهجور وما من أحد سيفتقد ما يؤخذ منه.

- استدر الآن واسلك الاتجاه الذي جئت منه، ما من حاجة إلى النظر فوق كتفك، إنني هنا، بعيداً عنك وبندقيتي مصوبة إلى ظهرك، ستجد سقيفة صغيرة على مقربة من هنا، عند طرف الفناء، إليها سنتوجه.

يلقي كارديل عليه نظرة مفكراً.

- هذه البندقية رديئة الصنع ومتقلبة، في البحرية كان يقال إن البارود لا يشتعل مرة واحدة على الأقل كل خمس محاولات.

يقف الرجل ساكناً مثل كارديل حتى يُسمع صوته الرتيب مرة أخرى.

- هناك مكب روث ليس بعيد عن المكان الذي سنتجه إليه، ظل بعمق عدة ياردات منذ أجيال، تغذيه قاذورات الحيوانات والبشر أيضاً، حتى برد الشتاء لا يبدد دفاء تحلُّه، إذ تصدر عنه الفقائيع والأبخرة، وتعيش فيه ديدان أطول عمراً من أشجار الزيزفون. إنني أحتفظ برصاصاتي في كومة الروث تلك، وكل يوم أذهب إليها ببندقيتي وأغير رصاصاتها بأخرى جديدة، موتك بالحمى والتشنجات حتمي إذا خدشتك إحدى الرصاصات خدشة طفيفة، سيتعفن الجرح، ثم يتحول إلى غرغرينا، ولن تقضي نحبك إلا بعد معاناة فظيعة. لم تخذلني ببندقيتي من قبل قط، وربما يريد القدر أن تكون هذه أول مرة، هل ترغب في المخاطرة؟
يفكر كارديل في قيمة حياته لبضع ثوان قبل أن يهز كتفيه ويدور على عقبه ويهبط السلم.

يسيران عبر الثلوج، والقمر والنجوم تضيء طريقهما نحو الحظيرة، المبنى الأول من عدة مباني خارجية صغيرة. ثمّة مزلاج ثقيل عند الباب.

- ارفعه وادخل.

يعاني كارديل في الإمساك به بيد واحدة، لكنه يضع كتفه تحت الخشب ويرفعه خارج تجويفه، ينفث الباب، فتجتاح كارديل رائحة نتنة تجعله يضع كفه على أنفه.

- رباه!

- ما اسمك على أي حال؟

- ميكيل كارديل.

- طيب يا ميكيل كارديل، سأقدم لك عرضاً، أريد منك التفكير به ملياً قبل أن تجيب، وددت لو أقدم لك خياراً أفضل، لكن عليّ أن أمكث هنا وقتاً أطول قليلاً، في انتظار ضيف آخر، ولا أريد المخاطرة بعودتك مصطحباً معك آخرين.

يحس كارديل بحركة في أعماق ظلام السقيفة، شيءٌ ضخم ينهض بالداخل ويقترّب، تصدر حلقات السلسلة رنيناً وهي تُشدُّ إلى أقصى طولها، ثم يرى الكلب، هائل الضخامة، وذو عينين كالجمر المتوهج، واللعب يسيل من زاويتي شذقيه.

- هذا هو ماغنس يا ميكيل كارديل، سيغدو قبرك، إن جاز التعبير، حالما يلتهم جثتك. إنك رجل ضخم، أفضلُ ألا أجر جثتك على الأرض إليه، لذا إليك عرضي، اذهب إلى الجدار ثم اقترب من ماغنس إلى أقرب نقطة ممكنة دون أن يكون قادراً على المساس بك، وفي مكانك هذا اجث على ركبتيك، سأطلق النار على عنقك حتى تسقط للأمام ضمن نطاق سلسلة ماغنس، هكذا ستموت ميتة مريحة، نهاية سريعة وإنسانية، ولن يتلخخ أي منا بدمائك. وإذا رغبت بدلاً من هذا في الإتيان بتصرف يائس، فسأطلق النار على معدتك وأتركك للبرد والألم والحمى، ماغنس ضخم بما يكفي لتدفئة السقيفة، وما لم تصبك الرصاصة في مقتل، لن تتجمد حتى الموت الليلة، ولا حتى غداً على الأرجح.

ينتصب شعر مؤخرة عنق كارديل، ولا يحرج جواباً، يترأى وميضٌ أمامه وتتخذ النقاط المتراقصة خلف الكلب شكلاً ذا معنى، جناحان أسودان في لجة قاتمة، الموت يدنو منه، القوة القاهرة نفسها التي كادت أن تطبق عليه بأصابعها البيضاء بياض العظام في مياه سيفنسكُند. بساقين مرتعشتين

يضع قدمًا أمام أخرى ويتهاك على ركبتيه جوار الجدار، حيث تتراءى له عُقد الخشب كأنها أعين ملك الموت.

- اقترب قليلاً من فضلك. فرو ماغنس والفرو الذي أرتديه ليسا بأفضل حال، لكن هذا ليس سبباً لتلطّيخهما.

يجر جر كارديل ركبتيه مقترباً شيئاً فشيئاً، ويدنو من فكي ماغنس اللذين سيبلان لعباً وعينييه المفترستين النهمتين، فتلطمه رائحة لحم متعفن ودماء. وبعد لحظة، يسمع كارديل من خلفه صوت حركة وحفيف ملابس متجمدة، وعندما يدير رأسه يرى هيئة سيسل وينيه عند الباب المفتوح، ويرى أن الرجل أيضاً قد التفت نحو الدخيل. تطلق رصاصه، ويتناثر اللون الأحمر في المكان.

يبدو لكارديل أن دوي الطلقة يتردد صداه بلا نهاية، وأن الصمت الذي يعقبها يخيم دهرًا. يتصاعد دخان البارود نحو عوارض السقف قبل أن يتلاشى. إنه ميت، يعرف أنه ميت، ويفهم أن سبب عدم إحساسه بأي شيء هو أنه تخطى مرحلة الألم، وصار في مكان كان يتوق للذهاب إليه وسلسلة مرساة السفينة انجبورغ تقيده إلى الحياة. جوار ساقه يحس بدفق دافئ من الرصاص التي لا بد أنها أصابته في أسفل ظهره، بيد أنه لا يحس بجرح، حتى عندما تتحسس أصابعه جسده بحثًا عن موضعه، وسرعان ما يخبره أنفه بأن السائل ليس دمًا. حيًا ولم يصبه مكروه يسمع كارديل صوت سيسل وينيه يبيد الصمت:

- من بين جميع الأشياء التي كان يُحتمل أن تطلق النار عليها الليلة، لظننت أن الكلب هو آخر ما قد تقرر قتله.

- أدى ماغنس الغرض منه. اسمك سيسل وينيه، أنت من كنت أنتظر. اسمي يوهانز بالك، وأنا المسؤول عن مصير دانييل ديفال، وقد أتيت لتأخذني إلى استوكهولم، فلنذهب إذن، لم يعد لي شيء هنا.

الفصل الخمسون

تبدو الشمس نائية وهي تصعد لتبدأ رحلتها القصيرة كأنها جمرة باهتة تتدحرج عبر الأفق، تسقط الأشعة الشاحبة على سييسل وينييه ويوهانز بالأك وهما يجلسان وحدهما في الزلاجة، ويجلس ميكيل كارديل في الأمام جوار الحوذي، خارج مدى سمع النقاش، ضامًا ذراعيه حوله ليحافظ على حرارته. وفي الزلاجة بالخلف، ينقل وينييه نظراته المتأملة من ظهر صديقه إلى بالأك، وفي ضوء الفجر المبكر تتسنى الفرصة أول مرة لوينييه في أن يلقي نظرة جيدة على الرجل القاعد على الفرو إزاءه، يتعذر تحديد عمره من النظرة الأولى، فهو شاب لكنه شاخ قبل أوانه، أو عجوز لم ترتسم معالم النضج على ملامحه، ويتذكر وينييه الكلمات التي اختار كْرِستوفر بليكس التعبير بها: خواءٌ يحيط به، غيابٌ ما.

تتحشرج أنفاس وينييه عندئذٍ، وتنقطع أفكاره بنوبة سعال مباغته فيميل فوق جانب الزلاجة ويداري فمه بمنديل وهو يبصق لعابًا أحمر على الأرض.

- كيف صحتك يا سيد وينييه؟

صوت يوهانز رتيب، كأنه لم يتعلم قط أن يفهم موسيقى اللغة ونبرات الكلام، لذا يكتفي باستعمال طبقة صوت واحدة، وهذا النقص يذكّر وينييه بسنوات صباه في صف الدراسة، عندما كان يُدرّس مع أصدقائه اللغات، لغات لم يتقنوها ويستوعبوا معانيها بعد، ويطلب منهم القراءة بصوت عال. يحس أحيانًا كما لو أن لسان الرجل يعجز عن إخراج الأصوات الصحيحة ويرغمه على قطع كلامه واختيار مفردات بديلة.

- لماذا هذا الاهتمام؟

يرفع يوهانز بالك بصره إلى سيبيل ويُنِيّه فتلتقي نظراتهما لأول مرة على نحو جاد، بؤبؤًا بالك كبيران وأسودان لدرجة أن لون قزحيته غير واضح.

- ولماذا عساي ألا أبدي اهتمامي بأخي الإنسان يا سيد ويُنِيّه؟

- لأنك وحش يا يوهانز.

يدع بالك الصمت يخيم بينهما دون أن يشيح بنظراته، ثم يومئ ويشعر ويُنِيّه بقشعريرة تسري في ذراعيه وصدرة.

- العالم جعلني ما أنا عليه، وإذا كان ما تقوله صحيحًا، فما هو رأينا في

العالم إذن؟ لكن ربما لدي أسباب أخرى، عدا عن التعاطف، تدفعني

لقلق بشأن صحتك، ستعرف كل شيء في الوقت المناسب.

- هل تعرفني من قبل؟

- سمعت باسمك في صحيفة إكسترا بوست عندما نشرت خبر العثور

على الجثة في بحيرة لاردر، ثم استقصيت عنك، وأوليت اهتمامًا

خاصًا لمسيرتك المهنية في مجال القانون، ووجدت أنك تتمسك دومًا

بمبادئك، لم تفشل قط في التحقيق مع متهميك ودائمًا ما تتيح لهم

فرصة الحديث أمام المحكمة حيث يمكن للجميع سماعهم. أود أن

أعرف يا سيد ويُنِيّه، أما زلت ترى أن وحشًا مثلي يستحق الحقوق

نفسها كالأخرين بعد كل ما حدث وكل ما تعرفه عني؟

- كل الناس سواسية أمام القانون، حقوقك مكفولة بصرف النظر عن

جريمته.

- هل ستسمح لي بسردي قصتي عليك أولاً كما أشاء؟ لن أخفي شيئًا، اطرح

أسئلتك وسأجيبك بأفضل ما يمكنني. أيناسبك هذا يا سيد ويُنِيّه؟ لا

أدري مقدار الوقت المتاح أمامك.

- أنا نفسي لا أدري، سنعرف بلا شك.

- اسمح لي بتمهيد أولاً.

يغمض يوهانز بالك عينيه ويأخذ نفسًا عميقًا، وعندما يغادر الهواء رثيته،

تنبثق ريشتا بخار من أنفه. يبدأ قصته:

- من تقاليد عائلتي أن نسَمِّي الابن البكر باسم الملك غوستاف الثاني، فحرب الملك غوستافوس أدولفوس هي التي أكسبتنا ثروتنا، كما أكسبت كثيرين آخرين. قبل مائة وخمسين عامًا، غزونا الأراضي الألمانية التي يحكمها الأمراء الناخبون وجعلناها خرابًا، صمدنا ملتحقين بالدماء والشرف، وكُرِّمنا بلقب كونت، وضاعت خزائنا بكميات الذهب المسلوب. شيدنا أغنية الطير على أراضينا القديمة، وأزلنا الغابة وفلحنا الأرض. كان والدي آخر نسل طويل ممن يحملون اسم غوستاف أدولف بالك.

- أتذكر والدك من أيام طفولتي، كان عضوًا في المجلس إلى أن استأثر الملك غوستاف بكل السلطات. كان رجلًا عظيمًا.

مرة أخرى ينظر يوهانز بالك إلى عيني ويُنِيهِ نظرات غامضة.

- يقال إن الرجال العظماء تخلقهم التحديات التي يتغلبون عليها، ولا أحد يمكنه إنكار أن والدي واجه العديد من التحديات. عاشت خمسة أجيال من عائلة بالك بين والدي وبين ميادين المعارك التي ظفر فيها أسلافنا بثروتهم، وكل جيل كان يأخذ من الخزائن دون أن يودع فيها مليمًا، فلم يرث والدي سوى الديون، وأدرك أن أصله النبيل لن يجديه نفعًا دون أموال، لكنه عزم على إعادة عائلة بالك إلى مكانتها التي تليق بها. ظل عازبًا مدة طويلة، لم تكن يومًا عائلة يمتاز أفرادها ببهاء الطلعة، لكن عند مولد أبي، بدا أن جميع الملامح غير الوسيمة التي ابتُلِيَتْ بها العائلة قد اجتمعت معًا، عيناها الجاحظتان وأنفه الضخم عوَّضا صغر فكه، وكان هزيلًا ضاويًا، ذا صدغين غائرين وشعر خفيف. اضطر إلى البحث في أقاصي الأرض حتى وجد لنفسه عروسًا، وقد كان زواج مصلحة. على مقربة من أغنية الطير تمتد مساحات أراضي كانت تتبع قبل مولدي لعائلة فايد، وفي الوقت الحالي عائلة فايد على وشك الانقراض، فالبطيريك لوكاس فايد لم ينجب سوى ابنة واحدة، وهو وزوجته كانا قد تقدما في السن فلم يتمكننا من إنجاب وريث، وما من فروع أخرى للعائلة، لكن ثروتهم لم يمسها سوء، وحافظوا عليها في

حين بدد آل بالك ثروتهم. وذات مساء، ركب والدي إلى لوكاس فايد ليطلب منه يد ابنته، وقد كان لقاءً عاصفًا.

- لماذا؟

- الابنة كان اسمها ماريا فايد يا سيد وينيه، وفي هذه الأنحاء تُلقب بـ "مريم العذراء"، كانت ساذجة، وُلدت قبل أكثر من ثلاثة عقود، وقد خرجت من بطن أمها بقدمها أولاً، كانت ولادة متعسرة، أنقذ الطبيب حياتها لكن عقلها ظل قاصرًا دومًا، كانوا يضطرون إلى إطعامها طوال حياتها، ولم تغادر فراشها قط، أمضت حياتها في التحديق إلى أشياء لا يراها أحد، ولم تخبر أحدًا قط بما يجول في ذهنها. وعندما طلب والدي يدها للزواج، لم يصدق لوكاس فايد أذنيه، واستشاط غضبًا وهمَّ بطرد ضيفه، لكن غوستاف أدولف لم يتزحزح عن مطلبه وأوضح الأسس الموضوعية لعرض زواجه، فبموجب هذا الزواج، الذي لا يعدو كونه مجرد إجراء شكلي، سيرث أراضي آل فايد ويتولى إدارتها كما كانوا يديرونها، ولو لجيل واحد، بما يكفي لتأمين مستقبل الفلاحين الذين يعتمدون على أراضي آل فايد، وهكذا لن تنتقل الممتلكات إلى الملك الذي لن يفعل شيئًا سوى بيعها لغرباء حتى يشتري الحلي والجواهر لغانيات البلاط. أقسم غوستاف أدولف بأن يعتني بماريا كما اعتنى بها والداها، اللذان سيوافيهما أجلهما عما قريب. وبعد مدة، سلّم لوكاس فايد بمنطق عرض زواج والدي، وتصافحا وحُملت "مريم العذراء" إلى الكنيسة وزُوّجت دون أن تتفوه بكلمة، ولم يحضر الزواج سوى أقرب أفراد العائلة. كان المهر باهظًا مع الوعد بالمزيد ما إن يرحل لوكاس فايد. بهذه الطريقة أنقذ غوستاف أدولف بيت أسلافه. أمر برسم بورتريه أمي ليست كما كانت إنما كما كان ينبغي أن تكون، في مشهد ريفي وأغنية الطير في الخلفية. يا لها من مهزلة!

يطرق يوهانز بالك قليلًا، يتدفق كلامه بسهولة مع استرساله في الحديث، والتأتأة التي تصدر عنه من حين لآخر تكاد لا تلاحظ.

- وكما لك أن تتخيل، وقعت فضيحة عندما لم يعد بالإمكان إخفاء بطن "مريم العذراء" حتى بكل الأعطية الموجودة في أغنية الطير. فبموجب

الاتفاق مع لوكاس فايد، كان من المفترض ألا يدخل والدي بماريا، وعندئذٍ لم يجدوا بُدًا من الإرسال في طلب القابلات والأطباء من سالا، وهكذا جئت إلى العالم، بوصفي دليلًا على أن غوستاف أدولف بالك دخل غرفة زوجته نصف الميتة وانتهك جسدها. قيل إن لوكاس فايد أُصيب بأزمة قلبية إثر سماعه الخبر، وزار غوستاف أدولف صهره، وبقدرته على الإقناع واساه بقوله إن مستقبل ممتلكات العائلتين صار بمأمن الآن، وأن ما حدث ينبغي الترحيب به. صُعب على فايد أن يتمنى الموت لحفيده، وعاش بضع سنوات، منعزلًا ومغمًا، لم يتكلم مع بعضهما قط، وبعد موته، ضُمت ممتلكاته إلى ممتلكاتنا وصارت جميعها تابعة لأغنية الطير، وهكذا تحققت جميع مساعي غوستاف أدولف، وبفضله وُلدت وترعرعت في رخاء.

يحتك المعدن بالجليد تحت الزلاجة، مصدرًا همسة مطولة رتيبة كصوت بالك، ويخفت الضوء ويتحول لونه من الأصفر الشاحب إلى الأحمر القاني.

- من يرد تربية وحش يا سيدِ وينيّه، يحرض على تعليمه الكراهية منذ سن مبكرة، كان والدي يضربني كثيرًا، فنظرًا إلى مكانته، كان يمارس سطوته على كل المحيطين به، ولا يستثني طفله، وعندما كبرت، تعلمت أن أميز بين الأسباب المختلفة التي تدفعه لضربي، في معظم الأحيان كان يضربني من أجل مزاجه، كي ينفس عن إحباطه إزاء عثرة مؤقتة ما، لكنه أيضًا كان يضربني وهو يبدو في مزاج جيد، وأدركت أنه يرى أن هذه هي الطريقة التي ينشأ بها الطفل صالحًا ومطيعًا. لا بد أن لديه ذكريات طفولة يذرف فيها دموع الألم، ولا بد أنه، إلى حد ما، يعزو الفضل في نجاحاته الأخيرة للتنشئة التي تلقاها في طفولته. وكان كثيرًا ما يطالبني بإجابات عن أسئلة يطرحها وسيلةً لاختباري، وخوفًا من تقديم الإجابة الخطأ أتلعثم في كلامي، مما يفاقم سخطه ويجعلني، بدوري، أكثر ارتباكًا، وكما تلاحظ في طريقة كلامي لم أتمكن من التخلص من هذه الإعاقة. وحش تربي على يد وحش. أجد عزاءً في أنني لم أجلب أي طفل إلى هذا العالم، وفي هذه السلالة الطويلة من الأوغاد،

التي بلا شك تمتد جذورها إلى فجر التاريخ، سأكون الأخير، وحتى إذا لم تنقش سوى هذه الملاحظة على ضريحي، فلا بد أن تُعد حسنة.

يصمت بالك لوهلة وجيزة وهو يومئ لنفسه.

- كان والدي يفعل بي أشياء أخرى أيضًا، في الليل، عندما يبلغ حدًا معينًا من الثمالة، ويبدو له صمت المنزل ليلاً كأنه يتوسل سماع بكاء طفل.

لا يتبين وينيه ما إذا تغير شيء في وجهه بالك أم أن ظلال الأشجار التي على جانب الطريق تخدعه.

- أنزلت انتقامي - كدأب جميع الأطفال - على كل ضعيف عاجز عن الدفاع عن نفسه أمامي، الضفادع التي تلعب في البركة، والكلاب، والدجاج، جميعها تعلمت أن تخشى غضبي كما تعلمت خشية غضب والدي.

تغيب الشمس سريعًا، تُقبل ليلة شتوية أخرى، ويحس وينيه بتكاثف البرد. وفي استوكهولم التي يقتربون منها، ستحصد الليلة إتاوتها من أرواح الشحاذين، وترغم دايتير شوابل ورفاقه على محاولة حفر الأرض المتجمدة بلا جدوى، حتى يستسلموا ويراكموا الموتى فوق بعضهم في انتظار الربيع.

ينفض بالك ندف الثلج عن كتفيه ويللمم الفرو حول ساقه.

- ما زالت أمامنا مسافة، سأروي لك الجزء المهم من قصتي.

الفصل الحادي والخمسون

ينشأ الصبي وحيداً لدرجة أن العالم في نظره يفقد كل معنى له، الناس حوله على الدوام، لكنه مخلوق من طينة مختلفة، الأخير في سلالة طويلة من النبلاء، ومع غياب والده في استوكهولم معظم الأحيان، يجد نفسه وحيداً من نوعه، متفوقاً. عندما يتتبع أصوات الضحك حتى يبلغ مسكن الخدم حيث يلعب الأطفال مع بعضهم، يلوذون بالصمت سريعاً، ويغضون أبصارهم عنه، ويرسلهم آباؤهم إلى مهامهم وهم يتمتمون بالأعذار. يستشعر عداوة الأطفال، على الرغم من أنهم لا يظهرونها. ويعتاد الغرف الخالية.

يتعاقب عليه دون انقطاع أساتذة يدرسونه كل ما يحتاج إلى معرفته من أجل مستقبل ما يجله، وعملية تعليمه مجردة من أي عاطفة، يضربونه كما يفعل والده، وفقاً لتعليمات عن طبيعة العقاب الجسدي الذي يبني الشخصية القوية. أغنية الطير مكان كئيب، وقليلون يتمكنون من الصمود أكثر من عام. جميع أساتذته بلا استثناء كانوا يعدونه شراً لا بد منه حتى يجنوا ما يكفي من المال ويذهبوا إلى مكان آخر. وبمرور الوقت، يخلي الصبي البركة من الضفادع، وتتعلم الحيوانات خشية وقع أقدامه.

وببطء يصبح مدرّكاً لوجود أمه، فأغنية الطير ليست كبيرة بما يكفي لإخفاء أسرارها للأبد، ثمّة طابق لا يُسمح له بالصعود إليه، وغرفة ممنوع من الدخول إليها، حيث تحمل إليها أوعية العصيدة وتعاد فارغة، يحتجزونها في هذه الغرفة، ميتة في نظر العالم كما كانت يوم أحضرها والده إلى هذا المكان، يبدأ الصبي الاستكشاف، ويجد حلقة مفاتيح معلقة على مسمار في خزانة، مفاتيح صدئة ومنسية مسربة بشباك العناكب، وفي الليل يجرب

المفاتيح، واحدًا تلو الآخر، بعدما مسحها بشحم من مستودع المؤن، يجفل من كل صوت يصدره القفل احتجاجًا، وبعد عدة محاولات، يجد المفتاح المنشود. تستلقي في سكون تام بين الأغطية تحت ستائر السرير البيضاء الشفافة، يعبر الصبي أرضية الغرفة ببطء حتى لا تصدر ألواحها صريرًا، ويقترّب إلى مسافة تمكنه من رؤية وجهها للمرة الأولى، يشبه وجهه، يضع يده على البطانية ويشعر بدفء جسدها الذي لا تبدر منه أي حركة، يجد عينيها خاويتين عندما يقف أمام خط بصرها مباشرة، ثم يضطجع إلى جانبها، متكورًا قريبًا منها وشاعرًا بالراحة من وجودها. ثم يأتي إليها كل ليلة.

يطرأ عليها تغيير تدريجيًا، إذ تبدأ التحرك بعدما كانت تتمدد ساكنة كأن الصبي لا وجود له، وعندما ينظر إلى عينيها يرى فيهما بريق التعرف عليه، ثم تريد أن ترفع يدها إلى وجهه، ومع توالي الليالي، تقترب منه، عما قريب سيشعر خده بحنان لمسة الأم، ويخطر له وهو يسوي البطانية ويغادر أن هذا ما سيحدث عندما يعود المرة التالية.

يطول انتظاره أسابيع. وعندما تتمكن أخيرًا من ملامسته، تلتوي يدها كمخلب، وتخدش أظفارها الطويلة وجه الصبي الذي تُرى فيه ملامح أبيه كما ترى ملامحها، ويصدر فحيح من حنجرتها. يركض خارجًا من الغرفة، باكياً من الصدمة والخوف، خدوشه غائرة، ويضطر إلى الكذب بشأن كيفية إصابته بها.

لا يعود إليها حتى يسمع أنين ألواح الأرضية في الليل، ويدرك أنها نهضت من فراشها لا بد، كأن رؤيته أيقظت شيئًا عميقًا بداخلها. أولاً يختلس النظر عبر ثقب المفتاح، وعندما يستجمع أخيرًا الشجاعة لإدارة المفتاح، يدرك أنها لا تلاحظ وجوده، ما دام بعيدًا عنها جوار الباب. يمضي الليالي مقتعدًا الأرضية ومستندًا بظهره إلى الجدار، ويغادرها عند بزوغ أولى خيوط الفجر، قبل نصف ساعة أو نحوها من مجيء خادميها، الزوجان العجوزان اللذان يرافقانها منذ طفولتها، ليعيدها إلى فراشها ويرتبا أغطيتها. ثم تبدأ الحركة مرة أخرى عندما يحل منتصف الليل.

تستغرق قرابة العام حتى تتمرن على المشي وتتمكن من بلوغ النافذة قبل الفجر، وحالما تصل إلى النافذة، تؤدي الطقوس نفسها، ليلة تلو ليلة، ترفع

يديها ببطء نحو الذباب البعجي الذي يرتطم بالزجاج في محاولات عقيمة لنيل حرية يراها لكنه لا يجد إليها سبيلاً، بطؤها وصبرها يجعلانها صيابة لا تُفهر، تقبض كل ذبابة بعجية على حدة تحت يدها، ثم تمسك بأجسادها الضئيلة بإبهامها وسبابتها، وتقربها من وجهها، وبصبر تنزع عنها الأجنحة والسيقان، بعناية حتى لا تهلك الحياة التي ما تزال ترتعش في الجذع النحيل. يرى الصبي شفيتها تتحركان، ويدرك أنها تهمس للذباب وهي تنزع أطرافه، ويتجاسر على الاقتراب منها فيسمع أنها تردد اسم والده، فهذا هو الانتقام الوحيد المتاح أمامها. يجتاح الصبي مزيجٌ من مشاعر قوية، ولا يعود في الليلة التالية، تاركاً إياها تفعل ما يحلو لها.

تحصد حمى روح أمه في وقت لاحق من ذلك الشتاء، ويظل الذباب البعجي مقطّع الأوصال ممدداً في صفوف على حافة النافذة، آخر ذبابة ما تزال تتحرك بعد أيام من مواراة ماريا فايد الثرى. ولا يحزن الصبي عليها. عندما يبدأ ذوبان الثلوج في الربيع، ينزلق كعب حذاء غوستاف أدولف بالك في أحد شوارع استوكهولم المرصوفة بالحجارة، وتنكسر عظمة فخذه. يعتني الطبيب الملكي بنفسه بجرحه ويعالج العظام، لكن الجميع يعرف أن هواء الربيع يجلب المرض، الجرح ليس كبيراً لكنه يتعفن ثم ينز عنه الصديد، فيظل والده طريح الفراش والغرغرينا تتغلغل في نخاع عظامه، فتحمر أصابع قدمه أولاً، ثم تشحب، وأخيراً تسود. وفي الربيع يُستدعى الصبي إلى المدينة لأول مرة كي يلازم فراش موت والده، فغوستاف أدولف من الضعف بحيث لا يتحمل النقل، وألم ساقه -التي فات أوان بترها- مبرح فلن يحتمل أي رحلة بالعربة، كما بدأ التعفن ينتشر إلى حوضه عبر أوردة داكنة.

يُقْتاد الصبي بفضافة إلى حجرة والده، حيث لم تعد سلال الأوراق العطرية قادرة على إخفاء نتانة اللحم المتعفن، ويُجلب له كرسي كي يظل يقظاً إلى جوار والده، ولمدة طويلة يلبث صامتاً مرهوباً أمام كومة الأغصان التي تهتز مع كل نفس متحشرج، وجه والده شاحب يتفصد عرقاً، ونظراته قلقة حائرة. يُتركان وحدهما في معظم الأحيان عندما ينصرف القس إلى مهام أخرى. يستغرق الصبي مدة طويلة قبل أن يللم شمل شجاعته لينهض ويرفع ذراع والده، فلا يحس فيها بأي قوة، ثم يقلبها ويحركها فوق الأغصان،

فلا يند عن والده سوى أنات واهنات، بعدها يسحب الأغطية ليكشف عن وجه غوستاف أدولف بالك، فيراه ضخماً ومحمراً مرعوباً، ثم يضع يده البيضاء الصغيرة على فم والده ويغلق أنفه بإبهامه، ويندهش من مدى سهولة قطع الهواء، وتحاول أسنان والده اليائسة نهش يده من زاوية مستحيلة، ويهتز جسده تحت الأغطية، يزرق لونه، وتبدو عيناه كأنهما على وشك الانبثاق من محجريهما. يؤدي الصبي الحركة نفسها مراراً وتكراراً لكن شجاعته تخذله فلا يبقى يده لمدة أطول، ومراراً يرخي قبضته ويدع والده يستعيد أنفاسه بشهقات طويلة متحشجة. يقضي غوستاف أدولف بالك نحبه وحيداً في الليل، والخادمة التي تحيط كتفي الصبي الصغير بذراعها الرقيقة تظن أن الصوت الذي يصدره هو نسيج بكائه، فتجفف دموع بهجته بمنديلها.

يُسجى والده تحت صخرة في الكنيسة حيث دُفن أسلافه وتزين أسلحتهم الجدران في منصة الشرف أمام الجوقة، في مقاطعة آل بالك التي ينحدرون منها على مقربة من أغنية الطير. ذات ليلة في بدايات الصيف، يظل الصبي مستيقظاً حتى ينام كل من في البيت، ويسير مجتازاً الفناء ثم أشجار الزيزفون المتاخمة للشارع، ظلام غرفته مصدر رعب لكن الظلام بالخارج من نوع مختلف، كأنه صديق يواسيه ويحميه.

وبعد برهة يبلغ الكنيسة، ويجد أبوابها الأمامية غير موصدة وما من أثر لإنسان فيها، يتحسس طريقه مجتازاً الأرضية الحجرية حتى تتهجد أصابعه حروف اسم والده، فيفك أزرار بنطاله ويتركه ينزلق وهو يقرفص. وفي الصباح التالي سيجد مُرثلاً القداس كومة براز صغيرة يطن الذباب حولها، والقذارة ملطخة على أحرف اسم غوستاف أدولف بالك، فيلوذ بالصمت، وينظف الأرضية، ثم يعيش بقية حياته موقناً بأن الشيطان نفسه مر بمنطقتهم الهاجعة، بلا شك في طريقه إلى شؤون أكثر استعجالاً ناحية الجنوب في المدينة الكبيرة.

أما الصبي، فإحساسه بالانتصار يزول سريعاً، ينام نومًا مضطرباً، تؤرقه الكوابيس التي يتردد فيها وقع أقدام والده الذي يقترب في الرواق خارج غرفته. وبمرور الوقت يعي أمراً ما كان ليتوقعه أبداً، وهو أن ثمة محناً أسوأ من التعرض للضرب، إحداها الشعور بالوحدة.

الفصل الثاني والخمسون

في عصر يوم من أيام الاثنين، يضم ميكيل كارديل يديه حول كوب حجري ليمتص منه دفأه، ويقابل وينيه لأول مرة منذ أن ترجل عن الزلاجة التي أقلتهم من أغنية الطير إلى "الساحة الشمالية"، وترنح إلى بيته عابراً الجسر ليغتسل ويحاول، دون جدوى، أن ينال قسطاً من النوم.

- إذن هل عرفت أي شيء من الرجل في الطريق؟

يومئ وينيه بجدية.

- عرفت القليل، إنه نائم الآن. لست متأكداً من مكان إقامة المحاكمة، وحتى يحين موعدها وضعت قيد الاعتقال في "السجن الشمالي"، في كاستنهورف، دون إعلان هويته حالياً. ما زلنا لا نعرف متى سيظهر أولهولم، وأفضل أن أبقى القضية بأكملها طي الكتمان حتى أنتهي من استجوابه وتبدأ المحاكمة. تربطني معرفة جيدة بحراس السجن ويمكنني الدخول والخروج دون أن يعرفني أحد.

انقضت ساعات منذ عودتهما إلى المدينة وافتراق طريقيهما عند "دار الجمارك"، وعلى الرغم من هذا يحس كارديل كما لو أن الريح ما تزال تنشب أظفارها في خديه.

- لا تظنن للحظة أنني لست ممتناً لتجنب رصاصة في المعدة ونهايتي عشاء للكلب، لكن لماذا استسلم الرجل بسهولة؟ بعد كل ما مررنا به، أكاد أشعر بأنه تصرف معنا بقلّة ذوق.

- أمل أن أجد إجابة عن هذا السؤال نفسه مع أسئلة أخرى.

- ما خطوتك التالية؟

- سأنتقل إلى كاستنهوف لأتكم مع بالك، سوف ألتقيك هنا غدًا في نفس الوقت.

ينهي كارديل مشروبه وحده وعلى وجهه تكشيرة امتعاض، كان قد سمع أناسًا يقولون إن القهوة تُذهب التعب عن الجسد عندما يحتاج المرء إلى البقاء مستيقظًا، فقرر غض الطرف عن مذاقها لعلها تنجح في إنعاشه. يشق طريقه بمرفقه عبر حشد من شاربي القهوة الأكثر تحمسًا لها خارجًا إلى الساحة، في معظم الأحيان استوكهولم نفسها هي التي تثير ضيقه لأبعد الحدود، لكنه ممتن لأول مرة لرؤية المدينة مرة أخرى، فعندما يتذكر سقيفة أغنية الطير، يستحضر همسة موت لم يتخيل رعبه من قبل قط، موتٌ يفيض هولًا، لا يشبه في شيء فوضى الحرب الاعتباطية، التي تضرب في كل الاتجاهات دون تمييز. تقل رغبته في النوم أكثر من أي وقت مضى، ويسعد بالثقل المتدلي إلى جانبه الذي يجنبه التفكير في شواغله الأخرى، إنها محفظة نقود ساعد كاريستن فيكاريه بتخفيف حملها عنه، لم يحصِ النقود، لكن من وزنها تبدو كأنها كامل المبلغ الذي احتالوا لأخذه من كريستوفر بليكس، مع الفوائد. نادرًا ما يحمل كارديل معه مثل هذا المبلغ، والأندر هو وخز ضميره بشأنها، إذ لم يحدث كثيرًا أن شكك في مبدأ أن كل كنز ملك لمن يعثر عليه، بيد أن هذا الوضع مختلف، هذه النقود ملك لشخص آخر.

يجفف الهواء البارد حلقه وأنفه، كل نفس يؤلمه، وعلى الرغم من الألم، يذكره بحياته التي ظن أنه فقدتها مؤخرًا. أمامه مهمة، ويشعر مع كل خطوة على الثلوج أن مسعاه الجديد يزيد المسافة بينه وبين الوحش ماغنس وبندقية يوهانز بالك ورعب ضيعة أغنية الطير. يتولى وينيّه أمر بالك الآن، فتتجه أفكار كارديل إلى كتابات كريستوفر بليكس. أخبره أيزاك بلوم بأن فتاة شابة تركت الأوراق عند باب "دار انديتو"، وعليها اسم سيسل وينيّه، وذكر كاريستن فيكاريه أن بليكس قد مات عن أرملة.

كان كارديل قد غيرَ بنطاله، الذي تيبس في الموضع الذي ابتل بالبول، وارتدى البنطال الآخر الوحيد الذي يملكه، البنطال الذي ينتمي للزي الذي مُنح له عندما انضم لحرس المدينة ولا يحب ارتدائه. لم يكن لدى أي من

المستأجرين الآخرين مياه ساخنة، فاضطر إلى تدبير أمره بفرك جسده بالثلج في الفناء بالخارج، واستغل بعض الأطفال ضعف موقفه وأمطروه بوابل من الكرات الثلجية، وانفجر سبابه جاعلاً مصاريع النوافذ تهتز. والآن، مع تحركه يبدأ الدفء يسري في جسده فيتحسن معه مزاجه. يسير في "الشارع الغربي" وينعطف يمينا صاعداً التل حتى يبلغ كاتدرائية استوكهولم.

الجو بداخل المبنى الشاسع يكاد لا يقل برودة عن خارجه. يقولون إن القس في بيته مصاب بالبرد، لكن تحت إصرار كارديل، يظهر كاهن متجمد أخيراً ويتمكن كارديل من إقناعه بتفقد سجلات الكنيسة. نعم، يوجد قيد باسم كريستوفر بليكس ذو علاقة بإعلان زواج في وقت قريب، وجوار اسمه صليب يشير إلى موته. وبعدهما تُغمت قطعة نقود في يد الكاهن المرتعشة، يفلح في تذكر معلومات إضافية بشأن الزيجة غير المعتادة.

توفي الشاب في حادثة بعد وقت ليس بالطويل من زواجه، وكانت العروس حبلى. يقلب الكاهن عينيه في محجريهما بامتعاض لا يخلو من وقار. ويقول إن الأطفال الذين يولدون بعد وقت قصير من الزواج فيفضحون طيش آبائهم صاروا شائعين وليسوا مجرد استثناءات، وهو وزملاؤه تعاطفوا مع المرأة الشابة وأقروا بأن الزواج جرى في الواقع قبل رحيل بليكس، فهكذا سيتجنب الطفل الذي لم يولد بعد وصمة الابن غير الشرعي، كما ستنال الأم لقب أرملة بدلاً من أن تُنعت بالعاهرة. يومئ الكاهن لنفسه. يعرف أنهم قد تعدوا على المقدسات لكن لا يظنون أن الرب قد يعترض.

- وما اسم الأرملة؟

- لوفيسا أولريكا بليكس، وقبل زواجها توليب. والدها يدير حانة اسمها "العابث".

- إنك واسع الاطلاع بالنسبة إلى رجل دين.

يبتسم الكاهن ويقلب عينيه مرة أخرى.

- هذه الأبرشية ظمأى، بعد الطقوس ينفذ مخزوننا فنضطر نحن رجال الدين إلى البحث عن القربان المقدس في أماكن أخرى.

حانة "العابث" على مرمى حجر في الاتجاه الذي جاء منه كارديل، مكان متواضع طاولاته مكونة من صفوف براميل مقلوبة على جوانبها. يستقبله رجل كهل ذو عينين دامعتين بعدما ينحي جانبًا أقداح الشراب التي كان ينظفها بقطعة قماش رطبة.

- المعذرة، لم نبدأ العمل بعد وما من طعام ساخن يمكننا تقديمه، إذا كنت ترغب في وجبة، فليس لدينا سوى طعام بارد.

- لا يهم، لم أحضر لأتناول طعامًا أو شرابًا، جئت بحثًا عن لوفيسا أولريكا، لا أظنك تعرف مكانها، أليس كذلك؟

ينظر المالك إليه من أعلى إلى أسفل مرتابًا.

- لوفيسا ابنتي.

- أهي موجودة بالمنزل؟

يهز كارل توليب رأسه.

- غير موجودة للأسف، إنها فتاة كادحة، غالبًا ما ييأس المرء من رؤية أمثالها في جيل الشباب. وعلى الرغم من هذا يؤلمني أن عملي يأخذ جل وقتها، إن لم تكن عند البئر فستكون في السوق. إذا لم ترغب في الانتظار مدة طويلة، أقترح أن تأتي في وقت آخر.

لا يدري كارديل ما ينبغي له قوله، ويضرب بحدائه الأرض ليخلصه من الثلج.

- هل من رسالة يمكنني أن أبلغها بها؟

يتردد كارديل، متحسبًا وزن محفظة النقود التي داخل سترته.

- لا، إنه أمر ينبغي ألا يُنقل عبر شخص آخر، سوف أعود في وقت آخر.

- بكل سرور، حظًا أوفر المرة القادمة.

الفصل الثالث والخمسون

كان الربيع دافئاً، كما كانت نهاية الصيف، والآن تغطي الأرض طبقة سميكة من الثلوج، والذين يزعمون القدرة على قراءة النذور السيئة في آلام المفاصل ووسائل التنبؤات الأخرى قالوا مبكراً إن هذا الشتاء سيكون أسوأ شتاء في ذاكرة الأحياء.

أنا استينا تصدق ما يقال، إذ بدأت الليالي تحصد حصتها من أرواح الذين ينامون بالخارج بسبب السكر أو الفقر، ومع تجمد الأرض وتصلبها يستحيل دفنهم حتى يتغير الطقس، فتكوم الجثث المتيبسة فوق بعضها في سقائف المقابر، وعندما تمتلئ تُخزّن المزيد من الجثث خارج المبنى وهي مغطاة بأكفانها. ترى أنا استينا في طريق عودتها من سوق السمك ركام الثلج خارج كنيسة جيكوب، حيث تننأ الأيدي والأقدام المتجمدة من غطائها الثلجي، الذي في أعلاه كشطت الرياح الباردة الثلج عن وجهه جثة زرقاء داكنة، وفي فمها وضع أبناء شوارع غليوناً فخارياً مكسوراً ووقّعوا عملهم بالبول.

في النهار تستجيب أنا استينا لاسم لوفيسا توليب، وعملها في حانة "العابث" وما حولها يتطلب كل وقتها، يبدأ يومها مبكراً، وتتعلم ارتداء ملابسها سريعاً واستقبال العمال الذين يفرغون البرميل الذي أسفل المرحاض الخارجي أمام الحانة ثم يحملون محتوياته على عربتهم، وهذه إحدى المهام العديدة التي تولت مسؤوليتها بعدما لاحظت استغلال الناس لسهو "امرئ الزهر" بمطالبته بالدفع كل أسبوع دون تقديم أي خدمات بالمقابل. تنقل الماء حتى تتجمد البئر التي جوار الساحة، وتغسل الأطباق والأباريق بفركها بالثلج، وتحمل الحطب من طوافات الخشب عند الميناء، وفي كل

صباح ومساء تكنس الأرضيات وتكشطها حسب الضرورة. هذه الأعمال الشاقة تخفف وخزات ضميرها التي تشعر بها عندما تلتقي عيناها بعيني كارل توليب الخضراوين المزرقتين وهي تنظر إلى وجهه الذي يبتسم كلما رآها، وفي كل مرة يضع يده بحنان على بطنها النامي. تعرف أنه يراها ابنته، ويتمنى أيضًا أن تضعه في منزلة أبيها.

لم يعد "الديك الأحمر" يلاحقها في أحلامها، لكن هواجس المستقبل لا تتركها بسلام، فعندما تستيقظ تجد ملاءتها رطبة بالعرق على الرغم من أن غرفتها تتخللها التيارات الهوائية الباردة، تحس كما لو أن طفلها أشعل جمرة بداخلها ويدفئها على الرغم من البرد. يزداد حجمها بمرور كل يوم. عندما تعجز عن النوم، تشعل شمعة وتتفرس وجهها المنعكس على زجاج النافذة المطلة على الزقاق، تتخيل أن وجهها يصبح أكثر استدارة، من الطعام الذي تتناوله الآن والحياة الناشئة بداخلها، يتعذر التعرف على فتاة المشغل التي كانت تتصور جوعًا، بيد أن هذا التغيير ليس كافيًا، وحتى ما فعله كرسنوفر بليكس -الذي صارت تحمل اسمه- من أجلها لن يكون كافيًا.

استوكهولم في غاية الصغر، الجميع يجوبون الشوارع نفسها، ويحتشدون في الأماكن نفسها. عندما تغادر أنا استينا حانة "العابث"، تربط محرمة فوق شعرها الأحمر بحيث يتدلى طرفها فوق جبهتها. تبقى شمال "القنطرة"، بعيدًا عن المنطقة التي يجوس فيها تيست وفيشر لاصطياد الآثام، لكن المراقبين موجودون أيضًا في "مدينة ما بين الجسور"، وكلما وقع بصرها على معاطفهم الزرقاء وأحزمتهم البيضاء، يختلج صدرها ويفوَّت قلبها نبضة. في أحلامها يترأى لها المشهد نفسه مرارًا: إنها مشغولة بأمرٍ ما في مستودع المون خلف المبنى الرئيسي لحانة "العابث"، وعند عودتها وتخطيها عتبة الباب، تلتقي عيناها بعينه، فيسقط ما تحمله بين ذراعيها دون أن تسمع ارتطامه بالأرضية. بيتر بيترسن يقف هناك، متكئًا على برميل وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة، ينحني ويناديها باسمها الحقيقي، وتقف متمسرة في مكانها عندما يقترب منها ويأخذ بيدها.

- أظنك مدينة لي برقصة يا أنستي.

الزبائن الموجودون بالحانة، الذين بدأت تعدهم ضمن أصدقائها، يشيرون نحوها ويتهامسون، وينهار كاليه توليب باكيًا عندما يدرك مدى خداعها. ثم يعقد بيتر بيترسن حبلًا حول معصمها كأن الحبل رمز حب، ويقتادها خارجًا إلى الشارع نحو عربة جاهزة لإعادتها إلى حيث تنتمي، إلى المشغل في "الندبة"، حيث ينتظرها "المعلم إريك"، وحيث ستُجبر على رقص عدد من الجولات حول بئر الفناء كافية لمحو هويتها فتصير حطام إنسان. وسوف تفقد الطفل الذي تحمله، فبغية إنقاذ حياتها، سيتخلص جسدها من كل حمولة زائدة، وسيُلفظ الجنين الذي لم يكتمل نموه بقعة حمراء على الحصى جوار البئر، بقعة ستمشي بجانبها في غدوها ورواحها والرعب والجنون يتملّكها.

تعود أنا استينا كنان في العصر إلى الحانة ومعها المشتريات التي ابتاعتها بنقود "امرئ الزهر"، أرنيان صيدا للتو بفرويها الشتويين، وبضع سمكات، وخبز. تغوص الشمس تحت خط الأفق، وفي الأزقة تحوم دوامات الثلج فتجعل القليلين الذين ما زالوا يتنقلون يهرعون إلى جانب المباني بحثًا عن سقف فوق رؤوسهم. تجد أنا استينا كاليه توليب قد وضع نبيذًا متبلاً فوق المدفأة وكوبًا لها، يعانقها ويدلك كتفها بيديه الضخمتين كي يدفئها.

- جاء رجل وسأل عنك.

- هل قال ماذا يريد؟

- لا، قال إنه سيعود.

- كيف كان شكله؟

- رجل ضخم، ذو وجه بشع. أبدو لك هذا الوصف مألوفًا؟

تهز أنا استينا رأسها وهو يصوب إليها نظرة يشوبها الفضول.

- آه، وكان يرتدي زيًا يشبه زي المراقبين.

تحس بالكلمة كأنها لكمة، وتشيح بوجهها حتى لا يرى تصاعد الدماء

إلى خديها.

إنها ليست بمأمن، لا تملك شيئاً، اسمها الجديد والعالم الذي أُتيح لها العيش فيه مرهون بحسن نية أناس آخرين. سيعود المراقبون، وهم يعرفون أن وجهها وجه أنا استينا كذاب وليس لوفيسا أولريكا توليب، الحقيقة الراسخة سوف تدحض كذبتها، ولا مناص من الكابوس. الطفل الذي لم ترغب في شيء بقدر رغبتها في التخلص منه في بادئ الأمر، صار الآن منبعاً للحنان بداخلها، وإذا وجدوها مرة أخرى فهو هالك حتى قبل أن يطلق صرخته الأولى. تجلس في حجرتها عندما يحل المساء، وتتفرس انعكاس وجهها على النافذة، لاعنة ملامحها الشاحبة. تمضي أنا استينا بقية الليلة وذراعاها حول كتفها النحيلتين، متأرجحة للأمام والخلف على كرسي متقلقل، غارقة في التفكير في أفضل طريقة تخلّص بها نفسها من الوجه الذي أورثته ماجا كذاب لها.

الفصل الرابع والخمسون

يُحْكِمُ سَيْسِلٌ وَيُنِيهِ لَفٌ وَشَاحَهُ حَوْلَ عُنُقِهِ لِيَحْمِيَ الْمُنْطَقَةَ الْمَكْشُوفَةَ فَوْقَ الْمَعْطَفِ مِنَ التَّلُوجِ الْمَتَسَاقِطَةِ، يَغَادِرُ مَدِينَةَ مَا بَيْنَ الْجَسُورِ عِنْدَ "دَارِ سَكِ الْعَمَلَةِ الْمَلِكِيَّةِ" وَيَسِيرُ عَبْرَ الْخَشْبِ الْمَتَجَمِّدِ فَوْقَ الْجِسْرِ الَّذِي جَوَّارُ سَاحَةِ الْخَشْبِ، ثُمَّ يَعْبُرُ "جَزِيرَةَ الشَّبْحِ الْمَقْدَسِ" بَعِيدًا عَنِ الرِّيحِ جَوَّارِ الْإِسْطِبَلَاتِ الْمَلِكِيَّةِ وَدَارِ بَيْرِ بَرَاهِيهِ، وَيَتَرَنِّحُ فِي الرِّيحِ مَرَّةً أُخْرَى جَوَّارِ "جِسْرِ الْمَسْلُخِ". إِلَى يَمِينِهِ تَنْتَصِبُ مِنْ مِيَاهِ الْبَحِيرَةِ أَعْمَدَةُ "الْجِسْرِ الشَّمَالِيِّ" الْحَجْرِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَكْتَمَلْ تَشْيِيدُهَا، كُلُّ عَمُودٍ مَحَاطٌ بِقَبْضَةِ جَلِيدِيَّةِ خَانِقَةٍ، وَنَهَايَاتِ الْأَسَاسَاتِ غَيْرِ الْمُنْتَهِيَةِ تَتَوَقَّعُ إِلَى دَعَائِمِ مَقْنَطَرَةٍ لِتُصَلَّ بَيْنَهَا.

مَبْنَى الْمَحْكَمَةِ الدُّنْيَا - الَّذِي مَا زَالَ يُسَمَّى كَاسْتَنْهَوْفَ عَلَى اسْمِ صَانِعِ الْخَمُورِ الَّذِي كَانَ يَدِيرُ حَانَةَ السَّرْدَابِ فِي الْمَكَانِ قَبْلَ مِائَةِ عَامٍ - يَنْتَصِبُ عِنْدَ أَحَدِ جَوَانِبِ "السَّاحَةِ الشَّمَالِيَّةِ"، وَبِخَمْسِ خَطَوَاتٍ يَبْلُغُ وَيُنِيهِ قِمَّةَ الْمَدْخَلِ، الْمَنْقُوشِ فَوْقَهُ الشُّعَارُ الْمَلِكِي عَلَى لَوْحِ حَجَرٍ رَمْلِيٍّ بَرَّاقٍ، وَيَعْرِفُونَهُ عِنْدَ الْبَابِ، وَيَخَاطَبُ الْحَارِسَ الْمُنَاطَبَ بِاسْمِهِ، وَيُقْتَادُ إِلَى السَّجْنِ، يَمُرُّ عَبْرَ دَهْلِيزٍ عَلَى جَانِبِيهِ صَفٌّ مِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي تَفْضِي إِلَى زَنَازِينِ، جَمِيعُهَا مِضَاءٌ بِنُؤَافِذِ ضَيْقَةٍ، وَكُلُّ زَنَازِنَةٍ أَثَاثُهَا مَتَقَشَفٌ: سَرِيرٌ صَغِيرٌ يَخْفِي بِالْكَادِ مَبُولَةَ الْغُرْفَةِ، وَمَنْضَدَةٌ، وَمَقْعَدٌ.

يَجْلِسُ يُوَهَانُزُ بِالْكَ فِي الزَّنَازِنَةِ الْمَعْتَمَةِ، يَحْدِقُ إِلَى الْهَوَاءِ قَبْلَ أَنْ يَوْقِظَهُ وَصُولَ وَيُنِيهِ مِنْ تَأْمَلَاتِهِ، ثُمَّ يُوَصِّدُ الْبَابَ عَلَيْهِمَا، وَيَتَلَاشَى وَقَعَ حِذَاءِ الْحَارِسِ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ الْحَجْرِيَّةِ.

يَوْمِي وَيُنِيهِ لَهُ مَحْيِيًّا.

- صباح الخير، أديك كل ما تحتاج إليه من طعام وأغطية وتبغ؟
- لا أحتاج إلى شيء، ولم أذخ من قبل قط. السمك ولحم الخنزير كافيان، ولم أعد أتأثر بالبرد.
- ثمة شيء بشأن بالك يذكّر وبينه بالعنكبوت، يربض في شبابه ساكنًا صبورًا، وسليبيًا على نحو متهمك.
- على المنضدة طبق فيه بقايا وجبة، عصيدة، وما يبدو كسمك كراكي مسلوّق. يفرك بالك عينيه، ويقتعد وبينه المقعد.
- أتعرف يا وبينه؟ إنني أصغر منك بعدة سنوات، على الرغم من أننا نبدو كأننا وُلدنا في العام نفسه. ربما تنحت الحياة قسما ت وجوهنا بالتجارب التي نعانيها، أو ربما أن أفعالي هي التي جعلتني أشيخ مبكرًا. أين انقطع حديثنا؟ آه، في منتصف الفصل الثاني، كنت أستعد لمغادرة البلاد.

ماء الإبريق الذي جوار السرير تشكلت فوقه طبقة ثلجية، يكسرها بالك بسبابته قبل أن يصب لنفسه كوبًا، يتنحج ويشرب، ويطلق لوهلة كأنه يبحث عن الموضوع المحدد الذي انقطعت عنده القصة، ويبدأ.

بمرور الوقت يصبح الصبي رجلًا شابًا، لكن دون أب أو أم، محكوم عليه بأن يظل صبيًا من عدة نواح، وما دام صبيًا تظل ضيعة أغنية الطير تحت إشراف مجلس أوصياء، وهم مجموعة سادة صارمين في استوكهولم كانوا يساعدون غوستاف أدولف بالك في إدارة شؤونه، ولا يعرفهم الشاب إلا عبر رسائل يتلقاها منهم، رسائل مكتوبة بأسلوب رسمي للغاية، لدرجة تُصعّب عليه استيعاب محتواها، ويرسلون وكيلاً مرتين سنويًا إلى أغنية الطير ليشرّف على إدارة الممتلكات ويحرص على أن تعليم الشاب مستمر وفقًا لرغبة والده. وفي عيد ميلاده السابع عشر، يتلقى خطابًا رسميًا يحمل معلومات غير متوقعة، فوفقًا للبنود التي اشتملت عليها وصية غوستاف أدولف بالك ورغباته الأخيرة، فقد حُصص تمويل من أجل رحلة تعليمية في أنحاء القارة، ورُسم مسار محدد للرحلة، مرفق معه عناوين المصرفيين الذين -إثر إخطارهم

مسبقًا بوصوله- سوف يتولون دفع منصرفات سفره بالعملات المطلوبة مقابل سندات موثقة عدليًا مرفقة بالتعليمات التي تركها الأب الراحل. تبدأ رحلته عبر البحر، من استوكهولم إلى ريفال، ثم جنوبًا إلى باريس، وفلورنسا، وروما. للمرة الثانية يغادر أغنية الطير، ويشاهد مبانيها الموحشة تختفي خلف قمم أشجار الزيزفون.

وفي باريس يحيد عن خط سير رحلته، كان قد قرأ عن المدينة، مسرح الروايات والقصص، وموطن المفكرين وأصحاب الرؤى، التي لطالما تاق لرؤيتها بعينه ووجد أن الرسومات لم تفها حقها، ثمة شيء في الأجواء هنا، في كل مقهى ومطعم يتناقش الناس بشأن حقوق الإنسان وأحواله، الرُّق يُدان بالإجماع، وكثيرون يذهبون خطوات أبعد بمقارنة قهر الأرقاء بأحوال الناس في ظل حكمهم الملكي. وفي ثنايا القيم المثالية الجذابة يستشعر الشاب إحساسًا مألوفًا لديه، أكثر مما يألفه أي أحد آخر: الخوف.

يشعر، كأنه يملك حاسة سادسة ما، بأنه محاط بالتعطش إلى الدماء الذي يأتي في أعقاب الخوف، وعندما يقترب يوم الرحيل لا يجد في نفسه الرغبة في مغادرة المدينة، فثمة شيء قادم، لا يدرك ماهيته تحديدًا، لكنه يريد أن يشهده بأَم عينيه. خلال الأشهر الأولى، يمضي كل لحظات يقظته في شوارع المدينة وساحاتها العامة، يستمع إلى النقاشات بلغة تعلمها من الكتب وعصي مدرسيه، لكنه سرعان ما يزداد فهمه لها. ويبضع مراسلات إلى موطنه يتمكن من تأمين منصرفاته مع المصرفيين الفرنسيين، ويستأجر غرفة في الحي اللاتيني.

تضج المدينة بالحياة والحركة في كل مكان، وتُطبخ ثورتها على نار هادئة، أذكاهها ضعف حصاد العام السابق. وفي بداية مايو، يعقد مؤتمر "مجلس طبقات الأمة"، لأول مرة منذ قرابة مائتي عام، وتُعلن "الجمعية التأسيسية الوطنية"، ثم يُقتحم سجن الباستيل، وبحلول صيف عام تسعة وثمانين، تخضع باريس للحكم الذاتي بمباركة مجلس المدينة و "الحرس الوطني" الذي شكّل حديثًا. ويتخلص الفلاحون من نير الاستبداد في بقية أنحاء البلاد، ويرغم اللوردات الإقطاعيون على الاختيار بين الفرار أو التنازل

عن حقوقهم القديمة المتوارثة. يقف الشاب وسط كل هذا، لا يشارك لكنه يشاهد متحمسًا. وفي أغسطس تنشر الجمعية التأسيسية الوطنية "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"، ويفشو الخبر في جميع ساحات المدينة ونقاط التجمع. يرى الشاب الملك لويس السادس عشر يخاطب الجماهير بنفسه من شرفة قصر تويلري، مهيبًا على الرغم من أنه لم يعد شابًا، يتكلم الملك بخير عن الدستور الجديد، الذي يمثل واقع حلول نظام جديد محل القديم. وخلال الشهور القليلة التالية، يبدو استقرار المدينة تحت النظام الجديد، لكن الشاب يستشعر هشاشة الوضع، ويترقب، ويظل في المدينة حتى نهاية العام، والعام التالي.

يعرف يوهان بالك أن الكراهية تتطلب الخوف تمامًا كما تتطلب النار الوقود، ويشعر بالخوف يتعاضم فيما حوله، وربما هذا الخوف -أكثر من أي شيء آخر- هو ما يجعله يحس بأن باريس دياره الأقرب إليه مقارنة بأغنية الطير، فهو ليس استثناء هنا، حيث الجميع خائفون، معظم الناس تملؤهم الكراهية، وبينهم يحس يوهانز بالتفوق، إذ بدؤوا للتو يتعرفون على مشاعر ظل هو يضمهرها في صدره طوال حياته. وعلى الرغم من أن الإيمان بقوة الشعب في وجه الملك يتزايد، فالقلق ينتشر بين صفوف الثوريين، كثيرون يرون أعداء في كل ركن داخل وخارج أسوار المدينة. يكتب مارا الشهير بخطاباته المحرصة منشورات لاهبة تدعو لاتخاذ تدابير صارمة، أي إزالة بلاء الأقلية من أجل المصلحة العامة، واليوم يُعبّر عن مقصده بمقولة الغاية تبرر الوسيلة.

يشعر الشاب، لأول مرة في حياته، بأنه جزء من شيء يفهمه، ومحاط بأناس مثله، يستشعر خطر الموت الهائل الذي يحيق مستخفيًا بالجماهير، متربصًا بهم، وينتظر الشاب بتقرب مفرط، متلهفًا لمعرفة الأشكال التي سيتخذها الموت.

في ديسمبر عام واحد وتسعين، يستيقظ إثر جلبة في السلام، ثم يركل باب غرفته رجالٌ يرتدون أزياء الحرس الوطني، أزياء مصنوعة في المنازل تحمل ألوان العلم الجديد. بلّغ عنه، ولن يعرف الواشي أبدًا، هل كان شخصًا

يلتمس الحظوة لدى اليعقوبيين؟ أم ربما المصرفيين الذين يتعامل معهم؟ أو مالك الغرفة التي يؤجرها؟ من السهل أن تحوم حوله الشبهات بوصفه أجنبيًا من أسرة نبيلة، يقولون إنه جاسوس، ويُقتاد إلى دير سان جرمان دي بري، على مقربة من مكان إقامته، ويقال له إنه سيخضع للاستجواب.

لا يُستجوب أبدًا، يودع زنزانة السجن العسكري الواقع تحت الأرض أسفل دير بيندكتين، ما من نافذة أو ضوء من أي نوع، وفي البداية ينتظر بصبر ويجهز دفاعه عن نفسه بأفضل ما يمكنه. يجلب حارس له الخبز والماء، وأحيانًا فتات أطعمة أخرى، دون أن يظهر وجهه أبدًا، إذ يُقحم وعاء عبر فتحة أسفل الباب، ولا أحد يجيب عن أسئلته، يُترك ليتعفن في زنزانتة. ربما تغير تسلسل القيادة بين الثوريين، ونُسي أمر اعتقاله. الزنزانة حالكة الظلام، فلا يرى يده أمام وجهه، وبمرور الوقت يغدو غير موقن مما إذا كانت عيناه مغمضتين أم مفتوحتين، ولا يعرف أين ينتهي جسده وأين يبدأ الظلام، لا يسعه سوى الجلوس ساكنًا في الدُّجنة.

يدرك حقيقة أنه ليس وحيدًا، إذ يرى أشياء لا يمكن أن تكون موجودة، فالأب الذي ظن أنه مات يأتي لزيارته، وعندما يتحسس طريقه إلى سريره لينام، يرى أمه -التي تنتظره بصبر- تزحف إليه وتمد مخالبا نحو وجهه، فيدافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة. وهكذا يمضي الوقت، دون أي وسيلة لقياسه.

يُنْتَشَل من تأرجحه بين اليقظة والنوم بجلبة فظيعة، سرعان ما يدرك أنها أصوات بشرية مرتفعة غضبًا، ثم يُفتح بابه بعنف، فيدخل ضوء قوي يرغمه على تغطية وجهه بيديه، تمسك به قبضات وترفع جسده، ويُحْمَل خارجًا إلى الساحة التي أمام الكنيسة حيث يحتشد مئات الناس، جماهير الثوريين من الطبقات الدنيا والحرس الوطني جميعهم مجتمعون، وسجناء سان جيرمان كلهم أُخرجوا إلى الميدان.

يرى الحشد الضخم يتموج، تشرئب رؤوس هنا وهناك بين الحشد وسرعان ما تنخفض إلى مستوى الآخرين مع صوت مكتوم، فيحترق فيما يراه في بادئ الأمر، ثم يدرك أنهم يدوسون على كل سجين حتى الموت. قرابة

عشرة رجال يتكالبون دفعة واحدة على ضحية، يمسون بأكتاف بعضهم وخصورهم ليحفظوا توازنهم، ثم يقفزون بثني ركبهم وتسويتها، وبعد لحظات يتضع جسد السجين، تفرقع عظام قفصه الصدري، وتُدعس الجمجمة بقوة حتى تسوى بالأرض وتُقذف مقلتا العينين وتتدرجاً على الأرض المرصوفة بالحجر، الأرض المغطاة بمزج دامية ولا يعرف أحد أي عضو كان متصلًا بأي جسد.

تتوافد المزيد من الحشود إلى الساحة، حتى يسود الهرج والمرج ويضطر الرجال الذين أخرجوا الشاب إلى التخلي عنه من أجل صد الجماهير. يزحف بين غابة السيقان المتشابكة حتى يبلغ سياجاً، ويرى فجوة بين لوحين، في غاية الضيق، ثم يتفاجأ بإدراك أن جسده نحيل بما يكفي للعبور.

كهذا يستعيد حريته، وعلى الجانب الآخر من السياج لا يميزه شيء عن بني الغبراء الذين يحتشدون حول الكنيسة. يفتسل من نهر السين، ولا يتعرف إلى انعكاس صورته على الماء. وبعد مضي الوقت يسمع إشاعة منتشرة عن أن عدد الأجانب المسجونين قد صار كبيراً لدرجة تهدد الكومونة نفسها، وأن الرعاع الغاضبين قد تجرؤوا على تولي زمام الأمور بأنفسهم، ودير سان جرمان دي بري مجرد أحد السجون التي شهدت هذه الحادثة.

في أثناء سجنه، جاء إلى باريس الموت الذي ظل ينتظره منذ أمد بعيد، إذ يرى في تجواله في المدينة أكوام جثث يفوق ارتفاعها قامته، مجزرة راح ضحيتها الآلاف، الفوضى تسود كل مكان، وعلى الضفة الأخرى من النهر، يرى رجالاً سكارى يرغمون امرأة على الصعود فوق كومة جثث، لترقص وتغني أغنية تمتدح الجمهورية، وعندما ترفض، تخترق الحراب جسدها. إنه شهر سبتمبر من عام 1792، وأوراق الخريف في كل مكان. قبل بضعة أيام أرغم الملك على الفرار من قصر تويلري عندما اقتحم القصر، لكن ألقى القبض عليه، ومعه أسرته. في الشوارع يغني الناس أغنية "سا إيرا"، التي يعرف الشاب لحنها تمام المعرفة من عام الثورة الأول، لكن كلمات الأغنية تغيرت الآن، كانت الأغنية عن العدالة للمضطهدين، والآن صارت عن شنق الأرستقراطيين من أعمدة الإنارة. جميع الرجال يضعون شارة الثورة ثلاثية الألوان على قبعاتهم، الألوان التي من المفترض أن ترمز للحرية والإخاء

والمساواة. طريق الشاب إلى خارج المدينة يأخذه إلى الساحة ثمانية الجوانب التي كان يعرفها باسم ساحة لويس الخامس عشر، والآن في وسطها ينتصب شيء غريب، موضوع جوار قاعدة صخرية كانت تحمل تمثالاً لأبي الملك متربعاً على صهوة حصان. إنها أول مقصلة يراها. ما من جلاذ بوسعه قطع جميع الرؤوس التي تتطلب الثورة قطعها، لذا اخترع شخص آلة لتؤدي المهمة. يصفق الشاب ويضحك ملء شذقيه حتى تظهر الشقوق على شفثيه اليابستين.

يهيم على وجهه باتجاه الشمال، حافي القدمين، لا يأبه له أحد، فمظهره مفزع، ولا يملك شيئاً ذا قيمة. وفي فلاندرز يجد بضعة سويديين، يتمكن من إقناعهم بخلفية عائلته، ويقترض منهم أموالاً مقابل تسديد ثلاثة أضعافها. ثم يمضي في طريقه إلى دياره مروراً بروسنوك، حيث يحجز قمرة في سفينة متجهة إلى كارلسكرونا. وعند نهاية العام، يعود إلى مسقط رأسه بعد غياب دام أعواماً، لكن يبدو كأنه شاخ أعواماً تفوق أعوام غيابه.

يعود بالك إلى النور، وتبدو عيناه كأنهما لا تريان، كما لو أن نظراته موجهة إلى الداخل إلى ذكرياته كي يجلو الغبار عن صورة من الماضي.

- وعندئذٍ قابلت دانييل ديفال، كنت أبحث عن وسيلة نقل إلى استوكهولم لتعيدني إلى أغنية الطير، البيت الوحيد الذي بقي لي. وجدته عند نزل على الطريق حيث كنت أبحث عن حوزي، وحجز مكاناً في نفس الزلاجة، ثم بدأنا نتجاذب أطراف الحديث في أثناء الرحلة. تعرف بنفسك مدى بقاء الساعات والخيول تكذب لتشق طريقها. لم تره في حياته يا سيد وينييه، يؤسفني أن الجثة التي عثرت عليها في بحيرة لاردر لا تفيه حقه، كان وضاح المحيا، كما لو أن روحه تشع من داخله فتجعله نبراساً يضيء العالم للآخرين، وعيناه واسعتان وزرقاوان صافيتان، ومائلتان قليلاً في وجه متناسق القسمات تناسقاً مثاليًا، وفي عينيه وميض يوحى بالمكر والبراءة معاً، وبالجرأة والتواضع في آن واحد، كعيني طفل مُنعم لن يستطيع أي أب حمل نفسه على تعنيفه. كان شعره الذهبي طويلاً عندما التقينا، مربوطاً عند عنقه بشريط حريري،

لكن مع مرور الوقت صار يتركه متدفقاً حول كتفيه، وعندما يبتسم، يفتر ثغره عن صفي أسنان أبيضين بياض الحليب، الصف العلوي مستوٍ تماماً، وفي السفلي لديه سن معوجة قليلاً، كما لو أن خالقه ساوره القلق بشأن تجاوز حد الكمال. وكان جسده ممشوقاً متناسق البنية، يرتدي ملابس جميلة مفصلة لتبرز تقاسيمه المعتدلة، ولديه يدا فنان ذو أنامل طويلة رشيقة، حتى رائحته كانت أخذة، تحفه هالة عبق مروج مزهرة، في حين يُغرق الآخرون أنفسهم بالعطور ليخفوا نثانتهم. توالت الساعات دون أن أحس بها، حتى إنني تمنيت أن تدوم الرحلة لمدة أطول، دانييل كان فاتناً وحاضر البدهة، ومحاوراً بارعاً ولين العريكة، كان يقعد قريباً مني، وعندما قلت له شيئاً استطرفه، انفجر ضاحكاً ووضع يده على ركبتي كأنه لم يسعه تمالك نفسه.

يصمت بالك ويصب لنفسه مزيداً من الماء.

- عليك أن تفهم يا سيد وينيّه أنني لم أحظ بصديق قط، وحدتي كانت أقسى مما تتصور، لا أتذكر أن أي أحد أولاني اهتماماً أو طرح عليّ سؤالاً بدافع الفضول فحسب، لذا لم أكن مهياًً لدانييل ديفال، كنت... ضعيفاً أمامه.

يشرب من الماء البارد حتى ينفد.

- وعندما بلغنا وجهتنا، عرض عليّ دانييل أن يكون دليلي في استوكهولم في اليومين التاليين. أرهقتني الرحلة وكنت بحاجة إلى الراحة. كان يعرف المدينة التي لم أمكث فيها سوى وقت وجيز ولضعت في دوامة حياتها الصاخبة، ولم أر سبباً يمنعني من قبول عرضه. يومي لنفسه.

- سأحدثك عن أمسية بعينها يا سيد وينيّه، أُقيمت حفلة تنكرية في تلك الليلة، على الرغم من أنه لم يمضِ عام منذ مقتل الملك في مناسبة كهذه، وبدا أن الرجال يستمتعون بهذه النقطة على وجه التحديد، إذ لم يكونوا من النوع الذي يتفجع على رحيل الملك غوستاف، كانوا جميعهم يضعون أقنعة، لكن ملابسهم فضحت ثرواتهم وعائلاتهم النبيلة، لا أنا ولا ديفال كنا ننتمي إلى هذه الأوساط، لكن بعدما تمكن

دانييل من شراء قناعين لنا، لم يلاحظ أحد أننا غريبان، لا سيما مع كميات النبيذ التي تدفقت، وحينما جن الليل، تفرق السادة إلى أماكن ترفيهية أخرى، وجُبرنا معهم، وهكذا وصلنا إلى دار نائية عن بقية المباني، جوار الشاطئ حيث ترسو قوارب شحنات الغلال، استقبلنا خادم أسود البشرة، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في غرف مبهجة، كان الرعب بانتظارنا هناك يا سيد وينيّه، كنت أشرب وعندما رأيت بعض الأقنعة التي لم ألاحظها سابقًا، ذهلت من مدى إتقانها وواقعيتها، كانت وجوهًا شوهاء تكسوها النتوءات والأورام، ورؤوسًا منبعجة بأشكال غريبة، أناس يرتدون أزياء تجعلهم معاقين وذوي هيئات بشعة، لكن سرعان ما أدركت أن أولئك التعساء لا يضعون أقنعة أو يرتدون أزياء من أي نوع، تلك كانت هيئاتهم الحقيقية، إذ ينتمون للدار من أجل الترفيه عن السادة، وبعد برهة جاءت النساء، عاريات إلا من براقع خفيفة، ولم تكدمضي لحظة حتى حل الرجال أحزمتهم وتركوا ملابسهم تسقط على الأرض، وقبل مضي وقت طويل صارت الغرفة حشدًا مائجًا من الرجال والنساء الذين يتضاجعون بكل الطرائق، وكان المعاقون المشوهون يلبون أي خدمة تُطلب منهم، أثار المشهد تقززني، وعندما نزعت قناعي عن وجهي، قرأ ديفال التعابير المرتسمة عليه، وقال: «كنت أظن... أن والدك...»، ولم أدرك المقصد من كلماته إلا في وقت متأخر لاحقًا. غادرنا، ولم أجد سببًا لتأجيل العودة إلى أغنية الطير، وأنهيت التحضيرات اللازمة، طلبت من دانييل مرافقتي بما أنني ليس لدي خدم ومتطلباته ليست كثيرة.

- ماذا حدث بعد ذلك يا يوهانز؟ هل عثرت على مراسلاته؟
- كنت أعرف أنه يكتب رسائل يا سيد وينيّه، لكنني لم أستغرب الأمر، واستغرقت مدة لاكتشف الجهة التي يرسلها ولماذا. رسائله إلى ليلجنسباريه كان يكتبها مشفرة، كما تعرف بالطبع، لكنه كان يكتبها أولاً كتابة عادية ثم يستعين بمفتاح لكتابتها مشفرة. لا بد أنه فتح المدفأة الحجرية في غرفته دون أن يتحقق من وجود جمرات فيها، كانت أمسية باردة، وفتحتها لاحقًا لتأكد من توفر الدفء حتى الصباح،

فوجدت ورقة مجددة ملقاة على الرماد، مسودته الأصلية، ولم أستطع منع نفسي من قراءتها.

- وما الذي استنتجته؟

- دانييل ديفال كان باحثًا عن الثروة يا سيد وينيه، لم يرغب في شيء بقدر رغبته في أن يجد حظوة لدى مدير الشرطة ليلجنسباريه وبالتالي يعزز مصالحه، وأتخيل أن شخصًا ما أخبره بوصولي الوشيك إلى كارلسكرونا، ربما عرف من أحد السويديين الذين قابلتهم في فلاندرز، وبوصفه مخبرًا أوكلت إليه مهمة التجول في الميناء ومراقبة أي أشخاص مشتبه بهم من الذين جاؤوا من فرنسا لينشروا الثورة في الشمال، وقد افترض أنني يعقوبي شاركت في الثورة وعدت إلى الديار لبث الروح الثورية، لذا رافقني إلى أغنية الطير، وكان يأمل أن أطلعته على خططي الرامية للإطاحة بالنظام الملكي، فينال شرف إماطة اللثام عن المؤامرة.

- ماذا فعلت بعدما قرأت الرسالة؟

- خطرت أُمِّي ببالي، تذكرتها وهي تنزع أطراف الذباب البجعي متخيلة انتقامها من أبي. وماذا يكون ديفال سوى ذبابة بجعية تطنُّ في بيتي؟ ألم يكن يستحق المصير نفسه؟ أمضيت ساعات عديدة مفكرًا في كيفية إنجاز هذه المهمة. كانت أُمِّي تمدد فرائسها على حافة النافذة وتركها تعاني، إذن كنت بحاجة إلى حافة نافذة كبيرة بما يكفي لدانييل ديفال، وعندئذٍ تذكرت "دار كيسر"، حيث وجدنا أنفسنا بين أناس عراة وذوي هيئات شوهاء، تذكرت الكلمات التي فلتت من لسان ديفال وأدركت معناها، فهو اصطحبنني إلى الدار لأنه كان يعرف أبي، الذي لا بد أنه كان من الضيوف الذين يترددون على الدار بانتظام، وخبمن ديفال أنني أشارك أبي الميول نفسها، ولا بد أنه تخيل أن غوستاف أدولف بالك الميجل قد اصطحب ابنه البكر إلى استوكهولم ليعرفه على شهوات الجسد التي تروق للسادة الذين ينتمون إلى طبقته الاجتماعية، وأعجز عن إيجاد كلمات أعبر بها عن تقززي من هذه الفكرة، لذا رأيت أن من الملائم أن أجعله يمضي بقية أيام حياته في "دار كيسر" بمعية أناس

من أمثال أبي، ففي أوساطهم سيكون دانييل ديفال موضع ترحيب بعد تحضيره كما ينبغي.

يضيق عينيه ناحية خط الضوء الذي يبتهت جوار السقف.

- لا أظنني بحاجة إلى إخبارك بالبقية يا سيد وينيه، كل ما لا تعرفه الآن بضعة تفاصيل عملية، تعين عليّ الذهاب إلى استوكهولم من أجل هذه الترتيبات، وحرصت على ألا يغادر دانييل أغنية الطير قبل عودتي. خطوتي الأولى كانت مقابلة مجلس الأوصياء الذين ظنوا أنني مت منذ مدة طويلة، وطلبت منهم مبلغًا كبيرًا مقابل وعدي بأنني لن أقرب من بيوتهم مرة أخرى أبدًا، ثم قادتني استعلاماتي إلى اليهودي، دوليتز، الذي صار بمقدوري تحمل تكلفة خدماته، وعن طريقه وجدت الجراح المتدرب، كرسنوفر بليكس، واشترت ديونه وحياته. لم أجد من قاطني أغنية الطير سوى ماغنس عندما عدت من فرنسا، كان كلب صيد شبه بري يتذكر رائحتي بالقدر الذي يجعله يربط بيني وبين الطعام، فسمح لي بتقييده في السقيفة ولم أخيب ظنه.

يدع وينيه الصمت يخيم بينهما لحظة قبل أن يتكلم.

- تعرف أن بليكس كتب كل ما فعله، وكتاباتة هي التي أتاحت لنا الوصول إليك، ماذا حدث لكرسنوفر عندما أدى دوره؟

- كان بليكس يخشى ظله ومستعدًا لفعل أي شيء لينقذ نفسه، وبعدما أكمل كل ما طلبته منه، تركته يركض إلى الغابات.

- وبما أنك مستعد الآن للاعتراف بكل شيء، لماذا انتظرت حتى عثرنا نحن عليك يا يوهانز؟ لماذا لم تأت إليّ مباشرة؟

- كانت تنقصني الأدلة على جرائمك يا سيد وينيه، ويهمني جدًا ألا يُدحض اعترافي. قرأت في صحيفة إكسترا بوست أنك توليت قضية جثة بحيرة لارد، فتأكدت أنك سوف تكشف جوانب القضية وتجدي وتثبت أنني فعلت ما فعلته.

يحس وينيه بضيق فيجعله يتردد قبل طرح السؤال الذي كان ينتظر لطرحة.

- لماذا تفعل هذا الآن يا يوهانز؟ ما هدفك؟

ينظر يوهانز بالك إلى عينيه نظرة مباشرة، ويبدو بؤبؤا عينيه، المتسعان الداكنان في الضوء المعتم، لويئيه كأنهما هاويتان لا قرار لهما، ليس فيهما سوى الخواء.

- لقد رأيت العالم يا سيد وينيّه، البشر ليسوا سوى آفات مفترية، قطع ذئاب متعطشة إلى الدماء لا يريدون سوى تمزيق بعضهم إربًا في خضم مسعاهم إلى السلطة، المستعبدون ليسوا بأفضل من أسيادهم، إنما أضعف منهم فحسب، والأبرياء لا يتسمون ببراءتهم إلا لعجزهم. فقبل أن تصبح باريس حمام دماء، كان الجميع يتحدثون عن المساواة والحرية والإخاء، وعن حقوق الإنسان، والآن تلك الأصوات نفسها تُسمع هنا. رأيت إعلان حقوق الإنسان مجلّدًا بجلود رجال مدبوغة سلّخت حالما جرّت المقصلة رؤوسهم عن أجسادهم. وهنا المواطنون والفلاحون أيضًا يتأهبون للثورة على طبقة النبلاء، مضطهديهم القدامى، أتتذكر يا سيد وينيّه في بداية العام عندما رفع أحد النبلاء يده على تاجر واضطر حرس المدينة إلى دفع الحشود المهتاجة من أمام بوابات القصر نفسه؟ كانت الثورة في الأجواء ذلك اليوم، وما تزال. أنا السليل الأخير لإحدى أبرز عائلات المملكة، والابن البكر لعضو مجلس المملكة، سوف أتقدم أمام المحاكم الدنيا وأدلي باعتراف مفصل بما فعلته بدانيل ديفال الذي ينتمي إلى عامة الناس، وأنت بنفسك سوف تثبت جرمي بما لا يدع مجالًا للشك، وسوف يثور الناس طالبين الثأر، هكذا سوف أقدح زناد الثورة قبل أن أواجه حد السيف. شوارع باريس تطفح بالدماء في هذه اللحظة، ويحتاج نصل المقصلة إلى الشحذ عدة مرات في اليوم حتى يقطف الرؤوس بأعدادها الهائلة، هذا هو المصير الذي أتمناه لاستوكهولم، أن تسيل الدماء في مجاري الأمطار، ويا حبذا لو قل عدد الناجين، فلتختنق مدينة ما بين الجسور بالجثث، فلتمتلئ المقابر، فلا يبقى سوى الغريان.

يطلق ضحكة قصيرة خافتة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- وها أنت ذا يا سيدِ وَيْنِيَه، إنك الاستثناء في عالم الذئاب، رجل من فصيلة أفضل، وُلدت في زمان غير زمانك، إنك تُعلي من شأن العدالة والعقلانية في حين أن الآخرين لا يريدون سوى تعزيز مصالحهم. قرأت اسمك في صحيفة إكسترا بوست، وعندما فهمت حقيقتك، اتضح لي كل شيء، جاءت بك العناية الإلهية إلى المكان الذي تنتهي فيه رحلتي، إنك معروف بحرصك دومًا على إتاحة الفرصة للمتهمين بأن يرووا القصة من وجهة نظرهم، وسوف أرويها بلا شك، وما سيحدث بعد ذلك فسيُنسب إليك بقدر ما يُنسب إليّ.

الفصل الخامس والخمسون

عندما يستيقظ سيسيل ويُنِيهِ في صباح الثلاثاء بعد ساعتَي نوم، يجد الغرفة قارسة البرودة، ويحس بأغطية فراشه ثقيلة، فيتساءل، وذهنه ما يزال ضبابياً من النعاس، عمن وضع عليه البطانية غير المألوفة، ذات اللون العنابي الداكن، بدلاً من بطانيته البيضاء، وحينما يستعيد صفاء ذهنه، يدرك أنه مخطئ، فالبطانية محمرة بالدماء، وكستها قشرة داكنة بعدما جفت بمرور الوقت، إذ انتابته نوبة سعال في الليل لم يتمكن من إيقافها، وتكونت على فكه وحلقه قشرة حمراء، وشحب جلده حتى كاد يشف ما تحته، وراح يتساءل عن مقدار ما فقده من دماء.

يرى أصابعه بيضاء كالعظام عندما يرفعها أمامه، وقد فقدت الإحساس، وكذلك ساقيه، يغادر فراشه متعثراً بساقين مرتعشتين، ويهشم الثلج الذي تكون على سطح إبريق الماء ويرتعب من مدى فقدانه للسوائل الذي يشهد عليه عطشه. يستغرق وقتاً حتى يفرك كل شيء وينظفه، ويلبسه جلده. وحالما يفرغ، يرتدي ملابسه بأقصى سرعة يسمح بها ضعفه، ويسير إلى المطبخ ويرسل ابن إحدى الخدمات ليجلب له عربة تحمله إلى ميكيل كارديل في "مدينة ما بين الجسور".



يتصاعد البخار من القهوة التي أعدت للتو نحو دعائم سقف مقهى "البورصة الصغيرة"، الوقت مبكر، والطيور الفضولية تجول بين من يعانون آثار ما بعد الثمالة والناممين، الذين يتناولون كوباً منعشاً من القهوة قبل أن يتوجهوا عبر متاهة الأزقة إلى أعمالهم. يجد سيسيل ويُنِيهِ أنه وصل أولاً، على الرغم من أنه تأخر عن الموعد، ينتظر دون تذمر، غارقاً في أفكاره، حتى يقع

ظل كارديل الضخم على المدخل، ويضرب حذاه بالأرض حتى يزيل عنه الثلج، وينتفض مثل كلب مبتل.

- عليك أن تعذرني، صادفت صديقنا العزيز بلوم قبيل قليل، كان يترنح من مبنى إلى مبنى عند "جادة الرهبان" في حالة يرثى لها، ولم يطاوعني ضميري على تركه وشأنه، فجررته إلى مكتبه في "دار اندبنتو" حيث يمكنه النوم حتى يفيق من سكره دون أن يموت متجمداً.
- وما مناسبة احتفاله؟

- كان مهموماً بالأحرى، صعب علي تمييز كلامه المتلعثم، لكن أظنه تلقى رسالة البارحة مفادها أن أولهولم في طريقه من النواحي الغربية ومعه حاشيته بأكملها، مستعداً لتولي منصبه الجديد مديراً للشرطة والانتقال إلى مقر نورلين القديم، ويتوقع وصوله غداً. ربما يرتكب بلوم بعض الهنأت ويتسم بشيء من المكر، لكن في أعماقه يختبئ رجلٌ محترم، إنه غير متحمس للعمل مع مدير فاسد، لهذا كان ثملاً. ماذا عنك؟ ما الذي توصلت إليه؟

- روى يوهانز بالك لي قصة عن كيفية خلق الوحش. رأيت هذا من قبل يا جان مايكل، ليس بهذا الوضوح، لكنني رأيت أن كل معتدٍ سبق أن كان ضحية. بيد أننا لم ننته بعد، تشتمل قصته على تفاصيل غير منطقية، ويجب أن أتحقق من شكوكي قبل أن ألتقيه مرة أخرى.

يمسك ميكيل كارديل بقبضته الخشبية ويرى أمامه كل اللكمات التي كالها والخراب الذي أنزله، ويعرف تمام المعرفة أن وينيه يقول الحقيقة.

- جان مايكل... ثمة أمر أجدني مرغماً على طلبه منك.

- تعرف أن ما عليك سوى أن تطلب.

- أحتاج إلى مزيد من الوقت قبل وصول أولهولم، يوم واحد على الأقل.

يفرك كارديل جبهته ويبدو حائراً.

- ما الذي تخشى حدوثه عندما يصبح أولهولم مديراً للشرطة؟

- أظنه سيتخذ الخيار الأسهل بإعفائي من جميع الصلاحيات التي منحني إياها نورلين، وإعلان انتهاء تحقيقاتي، وإطلاق سراح بالك حالما يدرك وجوده. وهذا ما يجب ألا يحدث، إنه في غاية الخطورة.

- لكن حتى صلاحيات مدير الشرطة غير محدودة، صحيح؟ لماذا لا
تحرص على تقديم بالك أمام المحكمة فوراً؟ لا أظن أن أولهولم سيوقف
المحاكمة دون أن يبدو مستبداً.

ينظر وينيه إلى كارديل نظرة يملؤها الاحترام.

- أريد أن أفهم دوافعه فهماً تاماً قبل أن أدرج اسمه في سجل الاعتقالات
الخاص بالمحاكم الدنيا، وبعدهما أفهم دوافعه سأقرر الطريقة المثلى
لسير المحاكمة، ولهذا، يا جان مايكل، أحتاج إلى يوم آخر. إذا تدبرت
لي هذا الأمر فسيكون لدينا أمل.

- أمل؟ في ماذا؟

- لن أخفي عنك شيئاً، لكن وقتي ضيق للغاية، أخشى أن عليك بالصبر
في الوقت الراهن.

- وكيف تحديداً تظن أن مراقباً متمرداً مثلي يمكنه إيقاف مدير شرطة
استوكهولم القادم؟

- لا أملك جواباً لك يا جان مايكل، كما لا يمكنني تقديم أي عون لك فيما
يتعلق بهذه المهمة، جميع مواردني سأكرسها لمهامي الحالية، لم يبق
لدي شيء.

يحك كارديل رأسه ويعبس، ثم يظل قاعداً دون أن يقول شيئاً، ينقر بيده
على الطاولة إيقاع مارش عسكري غير مسموع، وبعد دقيقة كاملة يرفع رأسه
ويبادل وينيه النظرات.

- ما دام هذا هو ما تريده، فلك ما تريد. يوم واحد.

يستدير على مقعده ويلوح بذراعه الخشبية في الهواء.

- أيتها الفتاة! احلمي أكواب القهوة هذه واجلبي لي كأس براندي، ميكيل
كارديل يحتاج إلى مشروب يساعده على التفكير، وهو في عجلة من أمره.

يتركه وينيه وينطلق عبر الأزقة نحو "الأرض المحروقة" منحنيًا عكس
اتجاه الريح، ويضع المنديل على فمه ويحاول التنفس ببطء وهدوء، يستعيد
سيطرته على جسده رويداً رويداً، ثم يمسح وجهه بحفنة ثلج قبل أن يعبر
الساحة.

الفصل السادس والخمسون

يقتعد متسول زاوية "شارع القس"، مرت أنا استينا جواره عدة مرات في طريقها عبر التل إلى السوق الذي في "الساحة القديمة"، وعادة ما يقعد المتسول على قطعتي خشب يربطهما معًا جاعلاً منهما مقعدًا، وأمامه على جِجْره يستعرض عاهته التي يكسب منها عيشه، كلتا يديه مشوهتان، إلى درجة تدفع الناس المارين به إما إلى التوقف والتحديق وإما الميلان نحو مصرف المياه من أجل تحاشيه.

عاهته ليست إصابة سببتها النار، بل كأنما شيء حوّل لحمه إلى شمع وشكّله بأشكال غريبة ثم تركه في حاله، أنسجة أصابعه تبدو كأنها ذابت وانحسرت بعيدًا، تاركة أطراف أصابعه دون أظفار وطبقة جلد سمكها يكفي لتغطية العظام بالكاد، وعلى راحتي يديه وظاهرهما أشكال شاذة من تجاويف ونتوءات، والجلد لا لون له وناعم كأنه جلد رضيع حديث الولادة.

إليه تلجأ أنا استينا ملتزمة إجابة سؤالها، وتجد أنه لا يقعد في مكانه هذا طوال الوقت، فيتعين عليها الانتظار، وتحاول بثّ الدفء في جسدها عندما لا تطيق احتمال البرد. وأخيرًا يظهر متأبطًا لافتة صغيرة ويداه ملفوفتان بخرقه قماش، تمهله أنا استينا قليلًا حتى ينصب مقعده ويستقر في موضعه، وتتابعه وهو يحل الخرقه بلطف فيكشف عن يديه المتهتكتين لأنظار المارة والثلوج المتساقطة، تتلاحق أنفاسها وهي ترى أن اليدين كما تتذكرهما تمامًا، ثم تدنو منه وتمد إليه الخبز الذي ادخرته من إفطارها، فيرمش بعينه وهو في حيرة من أمر هذا الكرم، ويزداد ذهوله عندما يرفع بصره ويرى المعطاءة.

- بارك الله فيك يا بُنيّتي، لكن ماذا فعلتُ لأستحق هذه الهبة؟

- أريد سماع ما حدث ليديك.

يبتسم شاعرًا بالارتياح.

- إنها قصة رويتها مرات عديدة مقابل أقل من هذا. هل ذهبتِ جوار بحيرة كلارا يا بنيتي؟

تومئ.

- إذن ربما شممتِ رائحة بعينها، رائحة لا تنبعث من المياه المتعفنة ولا من القمامة على الأرض، فهناك مصنع كنت أعمل فيه متدرّبًا، يصنعون الصابون من كل الأنواع، من النوع الذي يفرك به المعوزون أجسادهم عندما يستحمون في يوم الكريسماس، والنوع الذي تستعمله النساء النبيلات عند قضاء حاجتهن في الصباح. تفاصيل الصناعة هي نفسها، والفرق هو اقتصار العطور على النوع الثاني، لكن قبل العطور تأتي النتانة، التي تأتي بدورها من جيف الحيوانات، بعدما تذاب لاستخلاص الشحم، الذي يُمزج مع مكونات أخرى ويترك ليتصلب، وسرعان ما يغدو الصابون نقيًا وجاهزًا للاستعمال. كنت شابًا وتلميذًا هميمًا، فأفترطت في حماستي عندما كنت على وشك إضافة البوتاس إلى الحمض الكلسي، صارت الجرعة قوية للغاية، تدفق المسحوق الأبيض على يدي الاثنتين، وحالما غمستهما في الماء لأنظف نفسي، سمعت معلمي يصيح محذرًا، لكن بعد فوات الأوان، أحسست كأنني وضعت يدي في زيت يغلي. رماد الصودا يشتعل في الماء، كما ترين، ويحرق كل ما يمسه، هكذا صرت إلى حالتي التي ترينها اليوم. عندئذٍ أشفقوا علي وسمحوا لي بالعمل بمكنسة، لكنني لم أعد بارعًا في العمل كما كنت، وما أجنبيه لا يكفي معيشتي.

تصمت أنا استينا قليلًا وهي تفكر.

- كيف كان شعورك؟

يضحك.

- شعرت كأنني رأيت لمحة من الجحيم الذي أتجه إليه بلا شك يا صغيرتي.

وعندما يرى أنها غير راضية بإجابته، يتابع بنبرة أكثر جدية:

- لم أمر بمحنة بهذا السوء من قبل قط، عندما أخذ معلمي قطعة قماش صوفي وأزال الرماد الذي صار بثورًا مقززة، أحسست بجلدي كأنه

يتقشر من يديّ، وأرسل في طلب الليمون قائلًا إن عصيره سيخفف معاناتي، وربما كان محقًا، لكن الألم لازمني أيامًا، وأحسست كأنني أعتصر جمرات مشتعلة بكل ما أملك من قوة.

يبصق على الذكرى المريرة، وعندما يرفع بصره ترى أنا استينا أن مزاجه الرائق قد تبدد.

- حسنًا، هل من شيء آخر؟ الآن وقد تذكرت كل شيء، لا أظن أن الخبز كان مقابلًا مجزيًا.

- أيمكنك تحضير رماد الصودا مرة أخرى؟ من نفس النوع الذي أحرقتك. سوف أدفع لك مقابله.

لا تستغرقهما مغادرة "مدينة ما بين الجسور" أكثر من نصف ساعة، يتراءى لنا استينا المبنى الذي جوار شاطئ بحيرة كلارا مائلًا فوق الماء، أو ربما توهمت الرؤية بسبب التضاريس، كما لو أن الأرض السبخية التي شُيد عليها لم تعد قادرة على حمل وزنه. يتوجب عليهما انتظار غروب الشمس وتوقف العمل، يغادر العمال المشغل واحدًا تلو الآخر أو في مجموعات صغيرة وينزلقون على الجليد، تسمع أنا استينا الرجل مشوه اليدين يحصي العمال تحت أنفاسه حتى يتأكد من ذهابهم جميعًا إلى منازلهم، ثم ينظر فيما حوله قلقًا قبل أن يشير لها بأن تتبعه.

يسيران حول المبنى وينحدران إلى الجليد الذي عند الشاطئ، يتكئ المبنى من ناحية البحيرة على ركائز خشبية طويلة تتيح مرور شخص زحفاً تحتها. يشق المتسول طريقه نحو العوارض ويطلق سبابًا بصوت خافت عندما يتكرر انزلاق قدميه، لكنه يجد الفجوة التي يبحث عنها، فجوة كبيرة بما يكفي لإدخال ذراع ورفع المزلاج. يجدان كومة قمامة متجمدة أسفل باب الأرضية، وتفترض أنا استينا أنه يفتح كل صباح عندما تنظف الأرضية، وعبره يصرف زبد النفايات إلى البحيرة، يطلب رفيقها منها الصمت بإشارة وهو يفتح الباب برفعه قليلًا، ويختلس النظر ويده الأخرى على فمه حتى لا يفضحه بخار أنفاسه، يقف مدة طويلة قبل أن يجذب نفسه للأعلى فوق الأرضية، وتنتظر أنا استينا إشارته قبل أن تتبعه.

الفصل السابع والخمسون

يدير كارديل ذراعه السليمة كأنها ريشة طاحونة هوائية حتى يضخ الدم إلى أطراف أصابعه المتجمدة، ويتقافز في مكانه ليعث الدفء في جسده، وقد ظل ينتظر لأكثر من نصف ساعة في فناء المنزل الواطئ، إذ أرغمته الخادمة -التي ترفض السماح لأي غريب بتخطي عتبة الباب، ناهيك بشخص مثل كارديل- على الانتظار بالخارج حتى تستعد سيدتها، وعندما يطلب منها مشروبًا دافئًا يعينه على مكافحة البرد، تنخر بصوت عالٍ وتصفق الباب في وجهه. يأخذ السأم منه كل مأخذ، وكلما ينظر إلى ساعة أبرشية كاتارينا -التي يتمكن من إدخالها في مجال رؤيته فوق حافة السقف المكسو بالقرميد بوضع أحد حذائيه على كتلة خشب وموازنة نفسه فوقها- يقتنع بأن أجزاء الساعة الداخلية تجمدت فلم تعد عقاربها تتحرك. وأخيرًا ينفتح الباب مرة أخرى ويطلُّ عبره وجه الفتاة المتجمه.

- يمكنك الدخول إلى الصالة الآن وتناول كوب جعة دافئ، إذا أردت، ستقابلك سيدتي حالاً.

فكرة المشروب الدافئ وحدها كافية لتبديد نقمة كارديل، ينفض الثلج عن كتفيه ويضرب حذاءه بعناية قبل أن يخطو إلى الداخل، تعبق في أرجاء المنزل رائحة خبز طازج، وحالما يعلق معطفه وشاحه، يحس بحرارة المدفأة تذيب قميصه المتيبس، فيتنهد ممتنًا.

سيدة المنزل تنتظر خلف المطبخ في حجرة شحيحة الإضاءة، ما تزال الأرملة فرومان متشحة بالسواد من ذيل فستانها إلى قبعتها، على الرغم من انقضاء عدة سنوات منذ رحيل زوجها، تناهز الستين من عمرها، ويتولد لدى

كارديل انطباع أن الزوجين لم ينجبا أطفالاً، وأن غياب الأسرة جعل حزن السيدة على زوجها الراحل مظهرًا دائمًا في المنزل. وعلى الرغم من أبعاد الحجرة المتواضعة، تُشعُّ الأرملة مهابةً بحضورها الطاغي حيث تجلس قريبة من النار، ظهرها مستقيم كخيوط مشدود، وعلى وجهها الصلدا لا يلمح كارديل أثرًا لثناء الذات، ولا يرى سوى وقار موزون، تعابير وجه يُعلن للعالم القاسي أنها مستعدة وقادرة على رد الصاع صاعين، ويجد كارديل عنقه -الذي لم ينحن قط لضباطه في الجيش- مائلًا نحو ألواح الأرضية دون أن يشعر، ثم يتنحى.

- طاب يومك.

يخامره إحساس بأن السيدة فرومان تتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه دون أن تحرك عينيها، وأنها تقرأ من مظهره كل ما تحتاج إلى معرفته. تتعمد نصب حاجز من الصمت للحظات قبل أن تجيب.

- قيل لي إن اسمك كارديل وإنك مراقب، تعجز قدرتي على التخيل عن تخمين ما تريد أن تحدثني بشأنه، وحقيقة أن حياتي نادرًا ما تتخللها المفاجآت هي السبب الوحيد لوجودك هنا الآن وعدم صرفك، إذن، ماذا تريد؟

يחס كارديل بأذنيه -اللتين كانتا متجمدتين قبيل قليل- تتوهجان من الحرارة، ويتململ شاعرًا بالضيق، ثم يدرك أنه كان مخطئًا بشأن نظرات العجوز الصارمة، إنها كفيفة، فمع تكيف عينيها مع العتمة، يرى أن عينيها يغطيهما غشاء حليبي، يختلج لإرادياً ويحاول العثور على الكلمات المناسبة. - آسف لأنني جئت دون إخطارك مقدمًا، واسمحي لي بالتعبير عن تعازي المتواضعة لرحيل زوجك المبكر...

تخرسه برفع يدها.

- صمًا أيها المراقب، طيور العقق يجدر بها أن تلتزم نعيها، ولا تحاول التغريد مثل العنادل. آرنيه فورمان قس أبرشية كاتارينا، فلترقد روحه بسلام، رحل عنا منذ سنوات عديدة، وحزني عليه يقول عني أكثر مما يقول عن قسنا المبارك. هيا الآن أيها المراقب، حريٌّ بك أن تكف عن تقديم رجل وتأخير أخرى وتدخل في صلب الموضوع.

يوميء كارديل قبل أن يتذكر أنها لا ترى، ويبحث عن الشجاعة بداخله ويتفاجأ عندما يجدها.

- إنك تعيشين حياة في غاية التواضع هنا، على ما يبدو لي، بالمقارنة مع مكانة القس فرومان الرفيعة.

يحس بشيء من الرضا عندما يراها تجفل قليلاً من كلماته قبل أن تتمالك نفسها، فيردف سريعاً:

- أخبريني، هل سمعت بالاسم أولهولم؟ ماغنس أولهولم.

يشعر بشيء يتحرك في الغرفة، شيء محسوس كأنه هواء قارس البرودة دخل عبر لوح نافذة كُسر للتو. لا أثر لأي سخرية جافة عندما تجيبه.

- نعم، أتذكر ماغنس أولهولم.

- قيل لي إن أولهولم فر إلى النرويج بعدما أخذ أموال صندوق معاشات الأرامل الخاص بالكنيسة قبل عدة سنوات، الذي ربما كان يشتمل على أموال كان يمكن أن تجدي فيها عوناً بعد وفاة زوجك.

يتساءل كارديل عما إذا كان بمقدور شخص يجلس ساكناً أن يزداد سكوناً، ويلاحظ أنه إن كان بمقدور أي أحد أن يفعل هذا، فها هي السيدة فرومان.

- لا حاجة إلى تذكيري بمن هو أولهولم أو بما فعله، أعرف كل شيء تمام المعرفة.

- إذن لا بد من وجود أخريات مثلك، ممن يتذكرن أيضاً اسم أولهولم، ربما لديهن أطفال وأحفاد عاشوا طفولة بائسة بسبب ما فعله أولهولم، وأظنك تعرفين أسماءهن، جميعهن.

- أظنني أعرف.

- قولي لي إذن، بما أنك أمضيت سنوات طويلة زوجةً لرجل يتقي الله، أتتذكرين مقولة «العين بالعين والسن بالسن»؟

تنفرج شفتا السيدة فرومان كاشفة عن صف أسنان حادة، ويستغرق كارديل لحظة ليدرك أنها تبتسم.

الفصل الثامن والخمسون

الساحة الشمالية مقفرة ومغطاة بملاءة من الثلج، وفي وسطها ينتصب تمثال غوستاف أدولف، الذي لم يكتمل وما يزال مخفياً تحت أغطية متجمدة، في انتظار مراسم كشف الستار عنه التي تأخرت عامين، ويقال إنه سيكون أول تمثال فروسية في المملكة. يتوقف وينتبه أمام التمثال ويتفحص هيئته التي لم تتخذ شكلاً بعد، هيئة شبحية تلوح فوق الساحة على نحو يوحي بالوعيد كأنها هيئة حاصد الأرواح الذي يريد يوهانز بالك إطلاق العنان له في "مدينة ما بين الجسور"، وإلى يمين وينتبه قصر الأميرة صوفيا ألبرتينا، وإلى يساره الأوبرا، كل مبنى صورة مطابقة للآخر، أحدهما مُضاء بضوء الصباح الشاحب، والآخر ما يزال في الظل، يتمهل وينتبه مدة أطول قليلاً، ونظراته تتأرجح بين المبنيين، ثم يدور على عقبه ويسير عبر بوابة السجن، وعندما يبلغ الباب الذي يقصده ويطلب فتحه، يضطر إلى تثبيت نفسه بالالتكاء على إطار الباب قبل أن يجتاز عتبهته. الزنزانة التي يقصدها ليست زنزانة يوهانز بالك.

لا يفصل الزنزانة سوى بضعة أبواب من بداية الدهليز، ولا يميزها عن زنزانة بالك شيء سوى نزيلها، الذي ينكمش متراجعاً عندما يُفتح الباب ويدخل وينتبه.

- يا إلهي! ما خطبك؟ تبدو كشبح، كهيكل عظمي حي، لقد أفرغتني، هل أنت الموت نفسه جئت من أجلي؟
- ما من سبب يجعلك تخشاني، بل العكس تمامًا. اسمي سيسل وينتبه وأعمل مع الشرطة، بطريقة ما، لكنني لم أت إليك الآن بموجب سلطاتي.

- رأيتك من قبل، وجهك الشاحب مر أمام بابي، وكلما رأيته كنت أظنه
جمجمة سابحة في الهواء.

- أسمح لي بالجلوس؟ ساقاي ليستا ثابتتين كما كانتا ذات يوم.

يهز الرجل كتفيه وهو متفوقع على سريره في ركنٍ قصي من الزنزانة،
فيقعد وينيه على المقعد، الذي هو نسخة طبق الأصل من المقعد الذي جوار
سرير بالك، ويلقي نظرة من كتب على الرجل المُدان. رجل عادي ذو وجه لا
يميزه شيء سوى لحية نابثة عمرها يوم، يرتدي قميصًا كتانياً بسيطاً، متسخاً
من الأيام التي أمضاها في الزنزانة، وبنطالاً مهترئاً يبلغ ركبتيه، وقد أحاط
نفسه ببطانيته وسترته البنية. يتمهل وينيه حتى يلتقط أنفاسه قبل أن يعاود
الكلام.

- اسمك لورنتز يوهانسن، أليس كذلك؟

- إنه ليس سرّاً أحاول إخفاءه.

- ما مهنتك؟

- كنت أصنع البراميل.

- غداً ستأتي العربة وتأخذك إلى ساحة الإعدام.

يتنهد الرجل ويرتعد.

- أجل، هذا ما هو عليه الوضع، سيقطع "المعلم هوس" رأسي، وأقصى
أمنياتي هي ألا يكون ثملاً إلى درجة تُنسيه شحذ سيفه الليلة، وأن
يتعقل ويضرب عنقي فوراً دون استعراض والأعيب.

- هل جاء القس هنا؟

- نعم، جاء مبكراً، كان يرتدي أبهى ملابسه، ذلك الشيطان. ليس من
الضروري أن تكون أذكى مني لتدرك أنه كان في طريقه إلى أنشطة
أكثر إبهاجاً في أمسية يوم الجمعة، وما كاد يفرغ من تسليم روعي
الخاطئة إلى الدار الآخرة حتى انسل خارجاً عبر الباب، وسمعتة يدندن
عند مروره أسفل نافذتي متجهاً إلى "الحدائق الملكية".

- هلاً أخبرتني بكيفية انتهاء المطاف بك هنا؟

- ماذا عساي أن أقوله ولا يعرفه الجميع؟

- أود سماع ما حدث بكلماتك أنت، من فضلك.

يهز يوهانسن كتفيه مرة أخرى.

- بكل تأكيد، قصتي قصيرة بقدر ما هي محزنة، والساعات تمضي بطيئة على أي حال. قتلت زوجتي يا سيد وينيه، هذا كل ما في الأمر، كان زواجنا يزداد تعاسة بمرور كل عام، شربت قليلاً في تلك الليلة، وبدأنا الشجارات نفسها التي ظلت تنغص حياتنا منذ الأزل، وعندئذٍ فقدت صوابي.

- هل أنجبت أي أطفال؟

- لم تكتب لأحدهم الحياة لأكثر من عام.

يومئ وينيه مفكرًا.

- أنا مع الرأي القائل بأن ثمة قتلثة وثمة قتلثة يا لورنتز يوهانسن، ما قولك في هذا الرأي؟

- لا أعرف ما تقصده.

- أرى أن المرء الذي يرتكب جريمة في ظل ظرف بعينه قد لا يرتكبها في ظرف آخر. هل كنت لتقتل زوجتك إذا كانت شخصًا آخر لم تقابله من قبل قط؟

- لماذا عساي أن أقتلها؟ وإذا كانت متعلقة قليلاً وتزوجت رجلاً أفضل لبقيت على قيد الحياة ولبقيت حرًا كطائر.

- هل أنت نادم على ما فعلته؟

يُطرق يوهانسن مفكرًا.

- كانت امرأة بغيضة يا سيد وينيه، لا تكف عن الجدال والشجار، وتزايد مقتي لها بمرور الأعوام، لكنني أحببتها أيضًا. وحقيقة أنني أندم على فعلتي لا تغير من الأمر شيئًا، سأدفع ثمن ما اقترفته تحت فولاذ "المعلم هوس" غير الحاد، وهذا كل ما في الأمر، إن كان موتي سوف يعيد لها حياتها، فسأكون سعيدًا، لكن ما هكذا تجري الأمور.

يرنو وينيه إلى لورنتز يوهانسن مدة طويلة.

- هل كنت بارعًا في صناعة البراميل يا لورنتز يوهانسن؟
- من بين الأفضل، كنت أحتاج إلى عام واحد فقط حتى أصبح برجوازيًا، وربما أقل من عام.
- وإذا خُيِّرَ بين العزوف عن الزواج وبين الموت، أيهما ستختار؟

الفصل التاسع والخمسون

يسود السكون مصنع الصابون، والظلام مشبع بنتانة ليست كرائحة التحلل، أشد حدة وإثارة للغثيان، وتحس أنا استينا بالجو المتقلقل الذي يملأ الأماكن التي اعتادت الحياة والحركة لكنها هُجرت فجأة، ثم تتكيف عيناها ببطء مع الظلام، ويتحرك المتسول بسهولة متجاوزًا البراميل وأوعية المياه. الجدران الخشبية بسيطة ومثبتة كيفما اتفق، فتلمح أنا استينا بقايا شفق الشمس الغاربة عبر الشقوق التي خلفها، وتسمع المتسول يتحرك بين الظلال وتراه بين الفينة والأخرى، تتبعه عبر الحجرات إلى منطقة تخزين تعج بالدوارق، يتوقف الرجل عندها ويختار دورقًا، ثم آخر، ويحمل الاثنین إلى طاولة ملطخة، حيث يجد قمعًا وقارورة صغيرة، ويتناول قفازين جلدیین خشنین معلقین بخطاف، يقم يديه فيهما، ويخرج المسحوق من كلا الدورقين، ثم يغلق القارورة ويستدير.

- رأيت يديَّ وسمعت قصتي، لستُ بحاجة إلى تذكيرك بمدى خطورة هذا المسحوق، فتعاملي معه بحذر بالغ كأن الشيطان نفسه رابض في القارورة.

يمد إليها القارورة لكنه يسحبها سريعًا قبل أن تتناولها.

- ماذا عن نقودي؟

تدخل أنا استينا يدها في بطانة تنورتها وتخرج قطعة القماش التي حزمت فيها كل النقود التي نالتها من إكراميات زبائن حانة "العابث"، وببطء تبسط الصرة الصغيرة في راحة يدها اليسرى حتى يرى المتسول المبلغ كله، فيتنهد ويهز رأسه.

- هذا المبلغ ليس كافيًا، أتعرفين كمية الحطب التي يتطلبها تحضير رطل واحد من المسحوق؟ وعدد عمال النقل والذين يجرون الحطب إلى هنا ويقطعونه ويجهزونه للأفران؟ هذا المبلغ ليس كافيًا لتعويض كل هذا العناء.

- لدي هذه أيضًا.

تمد أنا استينا إليه قنينة، مليئة ببراندي قوي من بقايا أكواب الزبائن، فيضحك المتسول.

- لست بالذي يرفض مشروبًا جيدًا، لكن إذا أعطيت ما يمكنني الحصول عليه مقابل ما تريدني شراءه، فسيكون بمقدوري شراء قناني كثيرة مما تعرضينه علي.

يصمت ليفكر، ولا ترى أنا استينا وجهه بوضوح كاف لاستنتاج ما يدور بخلده.

- على أي حال، لماذا تريدني؟

تتردد أنا استينا، وقد سئمت الأكاذيب والادعاءات، ولا ترى أنها ستخسر شيئًا بإخباره الحقيقة.

- سأغير وجهي حتى لا يتعرف عليّ أحد بعد الآن.

تحس به يجفل، ويستغرق لحظة ليتكلم.

- لكن يا بنيتي، لماذا عسك أن تفعلي هذا؟

- إنها قصة طويلة، وهي شأني الخاص، تكفيك معرفة أنها مسألة حياة أو موت.

تقول مع نفسها: ليست حياتي وحدي. يذرع المتسول المكان جيئة وذهابًا، وتتسارع أنفاسه ويفرك يديه المشوّهتين معًا، ثم يتوقف أخيرًا ويستدير إليها مرة أخرى.

- إنك جميلة يا بنيتي، تبديد جمالك أمر منافي للطبيعة. ما لديك من نقود

ليس كافيًا لسداد ما عرضه عليك، لذا دعيني أعامل جمالك المعاملة التي يستحقها مرة أخيرة، وعندئذ سنكون قد توصلنا إلى تسوية. توجد كومة جوالات خيش هنا، ليست كثيرة لكنها ستفي بالغرض بوصفها فراشنا الليلة.

تتجمد أنا استينا، وصمتها يجعل المتسول قلقًا فيتململ بنقل وزنه من قدم إلى أخرى، تستشعر أنا استينا إحساسه بالخزي الذي ليس قويًا بما يكفي للتغلب على شهوته.

- لست من هذا النوع من الرجال، كما تفهمين، لكن الظروف...

- لم أكن أعرف بوجود أي نوع آخر.

تبسط إليه يدها.

- على الأقل هلاً منحتني بضاعتك أولاً، قبل أن أمنحك بضاعتي؟

يهز كتفيه ويناولها القارورة. تستشعر وزنها بين يديها، وزن ضئيل ينطوي على قوة مروعة، تفتح السدادة قليلاً وتتشمم، لكن ما من رائحة. توميء، فيتم اتفاقهما. يشرع المتسول في سحب الجوانات إلى الخارج على الأرضية ليجهز فراشهما لليلة، وهي تقف ساكنة، وعندما يرضى عن تجهيزاته، يشير إليها بأن كل شيء جاهز ويدعوها للاضطجاع، فتهدر رأسها.

- اضطجع أنت أولاً، سأعتليك.

يجيبها بابتسامة شبقة ويرخي أربطة بنطاله وهو يرتمي بظهره للخلف على الأرضية حيث تستقبله الجوانات، ويخلع سترته بعنف ويجذب قميصه فوق رأسه، جسده ضاؤٍ من الجوع وباهت من الأوساخ، يرفع ذراعيه المشوهتين ليستقبلها بعناق، فنقلب أنا استينا القارورة وتنتثر المسحوق عليه، دهشته تتحول سريعاً إلى غضب ثم إلى ضحكة ساخرة.

- ألم أخبرك بأن المسحوق يجب أن يُضاف إليه سائل حتى يسري مفعوله أيتها العاهرة الحمقاء؟ لم تفعلي شيئاً سوى رفع سعري.

تنزع سدادة قنينة البراندي وتسكبها فوقه، وعلى الفور يمتلئ المكان برائحة اللحم المحروق، ويتصاعد منه دخان أبيض لاذع وجلد صدره ويطنه ووجهه يكتسي بالفقايع ويتجدد راسماً أشكالاً غريبة. لا تعرف ما إذا كان بإمكانه سماعها في خضم صرخاته، لكنها تقول على أي حال:

- فلتكن هذه لمحة من الجحيم الذي تتجه إليه بلا شك.

تتركه وتعود أدراجها، وفي طريقها تهز قارورة المسحوق الصغيرة لتتأكد من بقاء ما يكفي فيها.

الفصل الستون

الفناء الداخلي خلف حانة "العابث" مقفر، والثلوج التي تساقطت للتو ما تزال بيضاء لم تصفر بعد، وهو ما سيحدث قريباً عندما يفيض المرحاض الخارجي، تخشخش طبقة الثلج العليا وأنا استينا تجمعته في وعاء، ثم تذهب لتذيبه جوار المستوقد، وعندما تصب الماء على المسحوق، يغلي المزيج هنيهة في وعائها ويملاً الحجرة برائحة غريبة ثم يسكن. ليس من السهل فهم كيف يمكن لسائل أن ينطوي على هذه القوة دون أن يظهر ما يدل على قوته. تجلب قطعة لحم من المطبخ، شريحة صغيرة قطعتها من فخذ خنزير مجفف ومعلق من السقف، تصدر قطعة اللحم حسيساً ومن كل الجوانب تنتهشها أسنان ومخالب خفية، فتلتهمها وتأتي على آخرها، تصدر الدخان والفقاقيع، وعندما يتلاشى الدخان يبدو الوعاء كأن شيئاً لم يحدث فيه، اختفت قطعة اللحم دون أثر. أنا استينا ما تزال مترددة، تميل للأمام، ومن عالم مقلوب رأساً على عقب على الجانب الآخر من سطح السائل - ترى فتاة أخرى تبادلها النظر، تشبهها تماماً، ثم تموج أنفاسها سطح السائل فيتشوه انعكاسها، وتغمض عينيها وتأخذ نفساً عميقاً.

الهواء البارد ينهش حلقه وأنفه، لكن ميكيل كارديل سعيد باستبداله بهواء حجرة الأرملة فرومان الفاسد، جرى اللقاء على نحو أفضل مما كان ليأمله، ووُضعت جميع الخطط موضع التنفيذ. سماع اسم ماغنس أولهولم وخبر عودته إلى استوكهولم محا عن وجه الأرملة أعواماً، وجمرة الحنق الدفين أُضربت فجعلتها هميمة متعطشة للدماء، وما كاد كارديل يغادر المنزل

حتى تجاوزه الصبية والخادمت منطلقين عبر الثلوج لبث الخبر، متنفسين الصعداء مثله بالهروب من نظرات الأرملة التي لا تَرى. يحس بحاجة إلى بعض البراندي ليمحو صورة الأرملة من عينيه، فيتوقف عند الساحة قبل أن يبلغ "القنطرة"، ويمكث ساعة أو نحوها إلى أن يقرر أن يرى إذا ما كان لدى "مدينة ما بين الجسور" شيء أفضل تقدمه، وفي أثناء مفاضلته بين خيارات الحانات المتاحة أمامه، يتذكر أمرًا لم يفرغ منه، فينعطف يسارًا عند "ساحة الخردواتية"، ويغير مساره نحو حانة "العابث".

يرى كارديل في عيني كارل توليب أنه تعرف عليه حالما يقترب إليه مستقبلاً إياه رافعاً يده بإشارة اعتذار، فيفرك كارديل ما تحت حافة قبعته ويعبس.

- هل أفترض أن الآنسة لوفيسا أولريكا ما تزال مشغولة في مكان آخر؟
يومئ توليب.

- نعم، هذا ما هو عليه الوضع، ولا يسعني سوى التعبير عن أسفي،
أيمكنني مصالحتك بمشروب يخفف إحباطك؟
يستشعر كارديل شيئاً مختلفاً ويضيق عينيه.

- أرى أن الزبائن قد بدؤوا بالتوافد، وإذا كانت الفتاة تساعدك في العمل،
فلماذا عساها أن تكون في مكان آخر؟

- إنها... لوفيسا متوعدة قليلاً، عادت إلى المنزل مصابةً بحمى من نوع
ما ولم يطاوعني قلبي على إخراجها من غرفتها.

- أوه، فهي في المنزل الآن، صحيح؟ ربما سيكون حظي أوفر من حظك.
يسير كارديل نحو السلالم التي خلف النضد.

- هل فقدت رشك يا رجل؟ لا يجوز أن تقتحم مكاناً لا يُرغب في وجودك
فيه، كما أنك ثمل، أشتم رائحة الكحول من هنا. اغرب عن وجهي قبل
أن أرسل في طلب الشرطي حتى يجعلك تفيق من ثمالتك في زنزانه.
يدفعه كارديل جانباً كأنه يذبُّ بعوضة.

- ابتعد عن طريقي، اللعنة!

تسمع أنا استينا الجلبة على السلم، وتصغي إلى احتجاجات كارل توليب العقيمة وتدرك أن تردها أضع الفرصة من بين يديها، الفرصة التي عانت في سبيلها الأمرين وكانت في متناولها، ترغب في الصراخ لكن لا تند عن شفيتها سوى أنة، تحمل الوعاء بيدين مرتعشتين وتتموضع خلف الباب المغلق، متأهبةً لإلقاء محتويات الوعاء كلها على المراقب حالما يجتاز العتبة.

يملك ميكيل كارديل حواس هو نفسه لا يعرف كيف اكتسبها، قدرات من نوع لا بد أن منشأه يعود إلى السنوات التي أمضاها في ظل الموت، ففي خضم ثمالة التي تلبد عقله، يستشعر اقتراب خطر، ويرى ظلًا في الزاوية فينحني غريزيًا رافعًا ذراعه الخشبية أمام وجهه، فيتشم عليها الوعاء، ويسمع حسيس القماش والخشب، فيمزق القماش عن جسده لا إراديًا، ويجعل الدخان عينيه تدمعان، لا يحس بأي ألم، ويحسب أنه لم يُمس بأذى، وفي أثناء اعتداله واقفًا في مكانه وهو يرمش متشوشًا مما حدث، تنسل هيئة نحيلة تحت ذراعه اليمنى الممدودة وتندفع هابطة السلم، فيزيح كارديل توليب عن طريقه للمرة الثانية ويشرع في المطاردة.

تنعطف أنا استينا إلى اليسار بدلًا عن اليمين؛ دون أن تدري لماذا، وتدخل المطبخ حيث لا تتيح لها النافذة الصغيرة مهربًا إلى الخارج، فلا تجد أمامها سوى مهرب من نوع آخر. تنتظر كارديل في الركن البعيد من المطبخ، ولا تضطر إلى انتظاره مدة طويلة.

يدخل كارديل إلى المطبخ ويرى في وجهها تعبيرًا يعرفه تمام المعرفة، يتذكره من أيام الحرب، إذ كان هناك الذين لا يجلب لهم الأمل سوى الألم عندما تبدو لهم فرص النجاة مستحيلة، فيتخلون عن كل بصيص أمل ويقذفون بأنفسهم طواعية إلى الموت، ربما يشعرون في لحظاتهم الأخيرة بشيء من الرضا، أي الشعور بأنهم استعادوا سيادتهم على أقدارهم، حتى إذا دفعوا الثمن بحيواتهم. الفتاة تمسك سكينًا بكلتا يديها، لا تستمع إليه وهو يصيح بها، ويرى كارديل أنها توجه النصل إلى عنقها، وتغمض عينيها وتضغط السكين على جلدها العاري بكل ما أوتيت من قوة.

الفصل الحادي والستون

- جئتَ في وقت متأخر كثيرًا اليوم، فقد حلَّ المساء، وتبدو شاحبًا للغاية يا سيد وينيه.
- لم أعد أنال قسطًا كافيًا من النوم في الآونة الأخيرة.
- آخر ما أرغب فيه هو تعريض صحتك للخطر، أتود أن تطلب من الحارس بطانية وكوب قهوة؟
- يلوح وينيه بيده مستبعدًا الاقتراح، وبيعض الجهد يقتعد المقعد الذي في زنانة يوهانز بالك.
- أنجزت ثلاثة أمور منذ لقائنا الأخير يا يوهانز، أولها هو التيقن من أنك لم تخبرني بالحقيقة كاملة.
- تضيق عينا بالك لكنه يظل صامتًا في انتظار بقية الكلام.
- في قصتك بضعة تفاصيل بدا لي أن خطبًا ما يشوبها. كما ذكرت بنفسك، إنك لم تدرك الأثر الذي يمكن أن يُخلِّفه اعترافك إلا بعدما عرفت اسمي ومن أكون، وكانت الجريمة أمرًا واقعًا عندئذٍ، كان ديفال مبتور الأطراف وميتًا. وهذا ما دفعني للبحث عن سبب آخر ربما جعلك تفعل به ما فعلت، وحدثني يوحى لي بأن الدافع شخصي وأن معاناة الضحية كانت الهدف. لا بد أن بذرة هذه الكراهية الشديدة غُرسَت في بيئة مشاعر مغايرة.
- يجيب بالك بصوت كالفحيح.
- فيمَ يهم هذا؟ ما حدث قد حدث.

يهز وينيه رأسه.

- لطالما كان طموحي أن أفهم الجرائم التي أتولى التحقيق فيها، وما سمعته منذ لقائنا الأخير يجعلني أظن أنني أفهمك فهمًا أوضح الآن يا يوهانز، انطلقت بأستلتي إلى "الأرض المحروقة" وصادف أن وجدت في نهاية المطاف حوزيًا تذكر توصيل شابين من كارلسكرونا إلى استوكهولم في الربيع الماضي، وقصته تختلف عن قصتك في جوانب صغيرة لكنها جوهرية. لم تتشارك الرحلة وأنتما متساويان يا يوهانز، أنت بنفسك دفعت الأجرة عن كليكما، وأخبرني الحوذي بأن ما سمعه من حديثكما سرعان ما أصبح أكثر حميمية مما قد يتوقعه المرء من اثنين تعرفا على بعضهما للتو، وعندما بلغ استوكهولم وترجّلتما رأى دانييل يأخذ بيدك في يده وأنتما تسيران مبتعدين.

يختار بالك إغماض عينيه كي لا تلتقيا بعيني وينيه.

- أرى أن تنشئتك أسهمت فيما أنت عليه يا يوهانز، فمثل اليدين اللتين تخشوشنان بعدما تمضيان اليوم كله في العمل، أرى أن طفولتك جعلت كيائك كله يكتسي بطبقة جلد قاسية، كما أظن أن دانييل ديفال غير كل هذا، أظنك أصبحت لمدة وجيزة شخصًا غير الوحش الذي تصوره لي بوضوح بالغ، وكل هذا هو ما أفضى إلى مصير دانييل ديفال.

يلوذ يوهانز بالك بالصمت.

- ثمة أمر آخر يا يوهانز، أتساءل عما إذا كنت تدركه أم لا، وهو أنك لا تتأتى عندما تتكلم عن دانييل ديفال.

يلتفت بالك نحوه.

- ما الذي تحاول قوله؟

- أكان الحب يا يوهانز؟ هل أحببته؟

- أيفاجئك هذا؟ إذا وجد وحش مثل هذه المشاعر بداخله على الرغم من أن معظم حياته ضاعت سدى؟

- لا، على الإطلاق.

- هل أحببت شخصًا آخر يا سيد وينيه؟

- نعم.

- إذن ربما تفهم كيف هو شعور الحب بالنسبة إلى شخص لم يكن يعرف بوجود هذه المشاعر، لست شخصًا مميزًا، لست مثلك، لم يُبد العالم نحوي أي تعاطف، وقد عشت حياة لا أجد فيها سببًا واحدًا يمنعي من مبادلة الإنسانية البغض نفسه الذي أظهرته نحوي، حتى ظننت أن دانييل أوجد لي سببًا.

يصمت ثم يردف:

- كان دانييل ظريفًا رقيق الجانب، أتفه الأشياء كفيلة بإطلاق العنان لضحكته، بالنسبة إليّ كان روحًا سماوية هبطت من عوالم سامية كي تُنعم علينا نحن البشر البسطاء. في بعض الأحيان ونحن نتحدث وحدنا، كان يمسك بيدي كأنه يفعل أمرًا طبيعيًا تمامًا، ويضمها برقة بين يديه، وأحيانًا يضمها إلى صدره كي يجعلني أحس بخفقات قلبه. تلتوي شفثا بالك امتعاضًا، ويشيح بوجهه كأنه يلتمس السلوان في الظلال.

- سافرنا من استوكهولم إلى أغنية الطير والأشجار في أوج إزهارها. وكان المنزل متداعيًا، أوصده الأمانء بألواح الخشب، ولم يهدروا وقتًا قبل الاستيلاء على ميراثي حالما انقطعت رسائلي من فرنسا. لكنني أحسست أن الطبيعة نفسها ترحب بنا في البيت بأكاليل الأغصان المورقة والزهور العطرة، ووجدنا في مستودع المؤن بعض الأشياء التي يمكن أن نقتات عليها، وكانت الأجسامث ثقلة بالتوت. كنت أمضي مع دانييل ديفال كل وقتنا، في أفضل مزاج دومًا. لمدة من الوقت.

- إلى أن عثرت على رسالته.

- أجل، اتضح لي أن كل شيء كان أحبولة من دانييل لنيل ثقتي وتحقيق مصالحي، وإذا كنت قد أكدْتُ له أيًا من شكوكه، لباعني فورًا إلى ليلجنسباريه.

يطلق بالك زفرة حرّى، ويرتعد وينيه من قدرته على تمالك نفسه تحت وطأة ألم زكرياته، ثم يفتح بالك عينيه ويلتفت إلى وينيه.

- إنك رجل ذكي، وقد كان غباءً مني أن أضن أن بإمكانني إخفاء أي شيء عنك، الآن تعرف سري، الذي تسترت عليه بدافع إحساسي بالخزي، ليس الحب، إنما الخزي من مدى السهولة التي خُدعت بها. لكن نيأتي تظل كما هي، وعندما تتيح لي فرصة الحديث عند المحاكمة، سوف تغرق استوكهولم في حمام دم يفوق سابقه فظاعةً. ما اكتشفته لا يغير من الأمر شيئاً.

- ذكرتُ أنني أنجزت ثلاثة أمور منذ لقائنا آخر مرة، ربما يتكفل الأمر الثاني بتغيير الوضع.

يبحث وينيّه في جيب سترته ويخرج حزمة أوراق صغيرة، ويبسطها ويمدها نحو بالك، الذي يدعها معلقة في الهواء وقد ارتسمت على وجهه أمارات الشك.

- ما هذا؟

- بعدما تحدثت مع الحوذي، عدت إلى "دار اندبِتو"، إلى نفس الحجرة التي وجدت فيها مع صديقي الرسائل التي قادتنا إلى أغنية الطير، الرسائل التي كتبها دانييل ديغال لكنها لم تُفتح قط، أردت أن أعرف فحواها وقد استغرقت عدة ساعات حتى أفهم طريقة التشفير التي اتبعها دانييل، لكنني نجحت في نهاية المطاف.

- أعرف سلفاً خيالاته الجامحة بشأن مؤامرات اليعقوبيين، فما الفرق الذي تُحدثه هذه الرسالة؟

- الأمر الأول والأهم هو التاريخ، الرسالة التي عثرتَ عليها بين الرماد في أغنية الطير لم تكن آخر رسالة كتبها دانييل، آخر رسالة غادرت أغنية الطير هي التي قرأتها ليلة البارحة.

يكفهر وجه يوهانز بالك، ويرتعد كما لو أن شخصاً مشى فوق قبره.

- ما من ذكر لمؤامرات هنا، قدم دانييل ديغال استقالته بهذه الرسالة، وكتب أنك بريء من كل الشبهات التي أُثرت حولك، وأنه وجد الحب، وهو حبٌ متبادل. هذه هي الرسالة التي كتبها، مرفق معها مفتاح الشفرة ومسودتها، اقرأها بنفسك.

تمتد يد بيضاء بياض العظام، وتأخذ الأوراق من يدٍ وَيُنِيهِ بحذر بالغ كأن
أخف لمسة من شأنها أن تفتتها فتحيلها غبارًا ورمادًا، وفي عتمة الزنزانة
تنهمر دموع يوهانز بالك على الأوراق المرتعشة وتحول الحبر إلى خيوط
سوداء، فينصت وَيُنِيهِ متوقِّعًا سماع صوت روح تنمزق أشلاءً، لكن أذنيه لا
تلتقطان سوى النشيج، فيشبح بوجهه ويدع الوقت يمر قليلًا قبل أن يعاود
الكلام.

- لكانت السعادة في متناولك يا يوهانز، إذا تحلَّيت بالصبر وتقصَّيت
الحقيقة. أحببت دانييل وأحبك، فكانت حياةً بريئةً هي التي لقيت حتفها
بتلك الطريقة المروعة. يوجد آخرون مثله يا يوهانز، بين الناس الذين
تقول إنك تمقتهم أشد المقت وتسعى في سبيل هلاكهم، جميعهم
يستحقون الحياة والسعادة مثل دانييل ديفال، وهذا يقودنا إلى الأمر
الثالث: لدي عرض لك.

الفصل الثاني والستون

تتفاجأ أنا استينا بأن الموت خلو من أي إحساس، عندما تفتح عينيها وتجد نفسها ما تزال على قيد الحياة، ذراعاها ما تزالان مطبقتين وترتعثان وهما تحاولان ضغط السكين على حلقها، لكن كارديل -الأسرع مما يوحى به جسده الضخم- يحيط النصل بيده ويقبض عليه بقوة تجعل مفاصل أصابعه تبيض، يلهث من مجهوده لكنه غير قادر على انتزاع السكين من قبضتها، ويخرج صوته من خلف أسنان تكز من المعاناة.

- هلاً أفلتتها من فضلك، حباً في الله، لا أريد إيذاءك، جئت لأحدثك بشأن كْرِستوفر بليكس.

تفلتها عندما تخور كل قواها من عضلاتها المرتعشة، ويترك كارديل السكين تسقط على الأرض ويضم قبضته ليوقف الدماء.

يروى قصته وهي تغسل يده وتضمّد جرحه، وتروي له قصتها، فيستمع كارديل وقلبه يُعتَصِر في صدره.

- رباه يا بنيتي، لم أسعد قط كما سعدت الآن بهجر عمل المراقبين. يبصق فوق كتفه.

- ماذا عن كْرِستوفر بليكس؟ لقد خدعك قبل أن ينهي حياته، هل ما زلت غاضبة منه؟

تهز أنا استينا رأسها.

- كنت غاضبة في البداية، وعدني بمساعدتي على التخلص من الطفل الذي حملت به دون إرادتي، وظننت أنه كان راغبًا بشدة في المساعدة، وعندما بدأت أشرب المستخلص الذي وصفه لي، كان الطفل هادئًا لا يتحرك، والآن أحس به كل يوم. بدا لي أن من المستحيل أن أقدر على حب طفل وكراهية والده في الوقت نفسه، لكنني أدري الآن. كلما هام عقلي أجد يديّ تتلمسان بطني بحثًا عن نبضات قلبه. أنقذ كريستوفر حياة طفلي، فضلًا عن حياتي، والآن لا أحس سوى بالامتنان، وبالأسف لأنه ليس هنا لأشكره.

يومئ كارديل مشغول البال.

- تتكلمين عن أشياء أكاد لا أعرف شيئًا عنها، لكنني سعيد بأن بليكس تمكن من إنجاز شيء في نهاية حياته المليئة بالمآسي، لم أقابله قط لكن كتاباته أثرت فيّ، ولولاه لذهبت جهودي وجهود صديقي أدراج الرياح، إننا مدينان له بالشكر أيضًا.

- ما الذي جاء بك هنا اليوم؟ ما شأنك معي؟ قد يكون كريستوفر بليكس زوجي شكليًا، لكنني لا أعرف عنه شيئًا غير الذي أخبرتك به للتو، كان غريبًا أسداني معروفًا، رغمًا عني.

- جنّتك بهدية زواج متأخرة. تعرّض بليكس لعملية احتيال فسلب مبلغًا ضخماً من المال في لعبة ورق، فكانت بداية حظه العاثر، وصادف أن تقاطع طريقي مع أحد الذين احتالوا عليه، وبعدهما أنزلت به العقاب الذي ارتأيته مناسبًا، وجدت إمكانية استرداد المبلغ. أراد بليكس أن يؤمن مستقبلاً لك ولطفلك، وأرى أن هذه القطع النقدية لك.

يخرج كارديل المحفظة من جيب سترته، ويأمل أن كريستوفر بليكس -حيثما كان، سواء في النعيم أو الجحيم- يراه في هذه اللحظة ويعرف أن الدين الذي يدين له به هو ووينيّه قد سُدد، يضع المحفظة على المنضدة أمامها، فيهتز الخشب من ثقل النقود، تفتحها أنا استينا بأصابع مرتعشة وتشهق، فيبتسم كارديل رغمًا عنه.

- في هذه المحفظة مائة دالر وأكثر قليلًا، سوف تكفل للطفل أفضل بداية يمكن للمرء تخيلها، وسوف يكون المال مصدر أمانك، قد يأتي

المراقبون هنا ويضايقون فتاة عاجزة، لكنهم لن يتجرؤوا على الاقتراب من أرملة ثرية، فلا ترتدي ثياب الخدم بعد الآن وأظهري أنك مختلفة عما أنت عليه، هذا أفضل دفاع لك ولطفلك.

وبينما الدم يتقاطر من جرح يده، يحس كارديل بأن جرحًا آخر، أقدم وأعمق، يلتئم بداخله. وبعد الآن عندما تطارده في أحلامه لاحقًا صورة يوهان هجيلم الغارق، وعندما يشعر بمرساة السفينة /انجبورغ تسحق ذراعه التي فقدتها، وعندما تنشب نوبات الذعر مخالبتها في حلقه وتكتم أنفاسه - فإن ذكرى وجه الفتاة في هذه اللحظة سوف تمده بالعزاء الذي يحتاج إليه. وأنا استينا كتاب، التي أقسمت لنفسها أنها لن تبكي أبدًا، تحس بالدموع تنثال على وجهها.

- هل ستأتي مرة أخرى؟

- يتوقف مجيئي على احتمال نيتك في إلقاء سائل مشعوذة ما عليّ عندما أدخل الحانة في المرة القادمة، وعلى السعر الذي يطلبه والدك مقابل البراندي، لكن أولًا عليّ الاعتناء بأمر أو أمرين آخرين.

الفصل الثالث والستون

الوقت بعد الظهر، ويجول ميكيل كارديل بناظريه بين الحشود في "سرداب هامبيرغ"، ويقع بصره على سيسل وينيه مقتعدًا كرسيه تحت نافذة غشيتها الصقيع، مهزولًا أكثر من أي وقت مضى، وشاحبًا كالثلوج بالخارج، ممسكًا بمنديله على فمه، وبالخارج يخترق البرد اللحم ويتغلغل في العظام، لكن بالداخل تطقطع النار في المدفأة، وتزداد الحرارة بامتلاء كل شبر من المكان بالناس. يرفع كارديل ذراعه الخشبية أمامه ويشق طريقه إلى طاولة وينيه، ويقعد متنهّدًا قبالته، شاعرًا بالراحة عند ما خفف عن ساقيه وزن بدنه، ثم يبتسم ابتسامة عريضة عندما يلاحظ أن وينيه أمامه كأس على الطاولة، ويلوّح طالبًا كوكتيلاً ساخناً لنفسه. كارديل في حالة معنوية عالية.

- يا له من حشد اليوم! لكن هذا متوقّع على ما أظن، فوق التل قطعوا رأس قاتل زوجة، ويأتي الناس إلى هنا ليتناولوا مشروبًا جالبًا للحظ من كأس القاتل. سمعتهم يتحدثون عند الباب، قالوا إنهم لم يسبق لهم أن رأوا مارتن هوس ثملًا كما كان اليوم، وأنه من المستبعد أن يبقى في منصبه بعدما فعله بالوغد المسكين في منصة الإعدام. لا أفهم سبب رغبتك في أن نلتقي في "سرداب هامبيرغ" من بين جميع الأماكن، أتعرف أنني كنت أجلس هنا في ليلة انتشالي جثة كارل يوهان من البحيرة؟ يبدو لي أن هذا حدث منذ أمد سحيق.

ينفخ كارديل في مشروبه الدافئ ثم يتجرعه باستمتاع بالغ لدرجة تجعله يقطع حديثه المسترسل لوهلة، ويبتسم ابتسامة تبين بها نواجذه وتُعرّض التبغ الذي يمضغه لخطر السقوط.

- تمنيت أن تكون حاضرًا يا وينيّه، الأرملة فرومان حشدت قرابة عشرين أرملة أخرى، مع أطفالهن الذين كبروا والعديد من أحفادهن، جميعهم دُفعوا إلى وحدة الفقر بما فعله مدير شرطتنا القادم بصندوق معاشات الأرمال. رفعناهم جميعهم على عربة وسرنا عبر الجليد إلى أوكنهيل في "جزيرة الخيش"، وهو المكان الذي قال بلوم إن أولهولم خطط لإمضاء الليلة فيه قبل أن يمر بالجمارك. تعرف أنني خضت الحروب، وأقسم أنني لم أر قط فصيلًا أكثر تعطشًا للدماء من أولئك النسوة، انطلقنا في جوف الليل حتى نصل قبل استيقاظ أي أحد، وعندما خرج أولهولم -قبيلًا كالعلجوم، حريّ بي القول- من الباب الأمامي مستعدًا للمغادرة، كنّ قد أخفن الخيول وأبعدنها ونزعن العجلات من عربته، تركنه يخرج حتى منتصف الفناء قبل أن يدرك وقوع خطبٍ ما، عليّ اللعنة إذا لم تكن السيدة فرومان نفسها هي التي تشممت كومة الروث وأدركت أنها غير متجمدة، ومن الرشقة الأولى أصابته في وجهه مباشرة، فأطاحت بباروكته، على الرغم من أنها عمياء. كان أولهولم متأنقًا للمناسبة كما ينبغي، لا بد لي من القول، مرتديًا معطفًا ذا ياقة من فرو القاقم وساعة على فخذة، لكنه أطلق ساقيه للريح -بسرعة لم أتخيله قادرًا عليها- مغطى بالروث من رأسه إلى أخمص قدميه- واندسّ خلف باب حانة، لكن سُدَّت أمامه جميع منافذ الهروب، إذ أحاطت النساء وأطفالهن بالمكان بأكمله إحاطة السوار بالمعصم ومنعن دخول أو خروج أي أحد، واستمر الحصار حتى وقت متأخر من الليل قبل أن يتمكن أحدهم من إخطار حرس المدينة. وهكذا يمكنني أن أعلن بفخر أن مهمتي أُنجزت. طيب، هل نجحت في إنجاز ما كنت تأمل إنجازه في اليوم الإضافي؟

- نعم يا جان مايكل، شكرًا لك على كل ما فعلته، لما توقعت منك أفضل من هذا.

- هل انتهت استجواباتك؟

- نعم.

يميل كارديل ويفرك النوم من عينيه.

- إذن إجابة لُغزنا الغامض هي قلب مفطور؟

- إنه أقدم الدوافع على الإطلاق. كان يوهانز محققاً فيما قاله لي في البداية، رُبِّي ليصبح وحشاً وقد أصبح وحشاً بالفعل، لكن الحب من شأنه مداواة الكراهية، وفي صحبة دانييل ديفال استعاد إنسانيته، إلى أن اتضح له أن الحب كان أكذوبة، وعندئذ بُعث الوحش، أفضح مما كان عليه.

يخيم الصمت عليهما للحظات، ثم يبتدر ويُنِيه الكلام.

- ماذا أنت فاعل الآن يا جان مايكل؟

- ما تزال أمامي بعض المسائل العالقة التي عليّ حسمها، كافية لإبقائي مشغولاً حتى عام 1794. لدي حساب عليّ تصفيته مع مدام ساتشس، إذا تمكنت من العثور عليها، كما سوف يكون لي حديث آخر مع أشخاص آخرين، فلن أتفاجأ إذا أوقف دوليتز -الذي يعامل الناس كالعبيد- ذات ليلة إثر صوت طرق الخشب على الخشب. وإذا لمستُ في نفسي الرغبة، سوف تكون جماعة "اليونيمايدز" تحدياً معقولاً لشخص نجح في عرقلة مدير الشرطة نفسه.

يُفرغ كأسه التي أُعيد ملؤها.

- وكل هذا بالطبع إذا لم أسمح للبراندي بتشتيت تركيزي، وجدت حانة أظنها ستروقني ولن أَدفع فيها مبالغ طائلة، اسمها "العابث". ماذا عنك؟ كيف ستجري محاكمة بالك؟

ويُنِيه لا يجيب، ويلاحظ كارديل قَلْباً أن أنفاسه قصيرة متلاحقة، وأن خديه غائران وكوّنًا تجويفين على جانبي وجهه، وعيناه انسحبتا إلى داخل جمجمته، وأن تغيراً قد طرأ عليه. فيحس برعدة تسري في ظهره.

- تبدو مختلفاً، لا يتعلق الأمر بمرضك. حدث شيء، ثمة خطبٌ ما.

صوت ويُنِيه خافت جداً فيضطر كارديل إلى الانحناء للأمام حتى يسمع ما يقوله.

- عندما أنظر إلى ماضي حياتي يا جان مايكل، أرى حبلاً مجدولاً من الأسباب والنتائج، القيم التي تمسكت بها في شبابي حكمت سلوكي

عندما مرضت وأردت أن أخفف معاناة زوجتي. وكى أخفف معاناتي
قصدتُ نورلين وطلبت منه توظيفي، فأسداني خدمة، وعندما طلب
مني معروفًا بالمقابل، لم أستطع الرفض، وعندئذِ التقينا، أنا وأنت،
حول جثة كارل يوهان، وبدأنا نسير في الدرب الذي بلغنا خاتمته حيث
نحن الآن.

يكبح سعاله، فيميل كارديل فوق الطاولة.

- ما الذي فعلته؟

- الحياة مثل طريقين في اتجاهين متعاكسين، أحدهما يتبع العاطفة،
والآخر يتبع المنطق، وقد اخترت أن أسلك الطريق الثاني. عرف يوهانز
باسمي وسمعتي، وافترض أنني سأواصل السير في طريق المنطق
دون تلفت، كما كان دأبي دومًا. وأنا متأكد أنه كان لينجح في مساعيه
إذا لم أقرر كسر النمط الذي اتبعته طوال حياتي.

يهز كارديل رأسه يائسًا إزاء سيل الكلمات التي يسمعها.

- أخبرني بما فعلته.

- أطلعتُ يوهانز على رسالة دانييل ديفال التي وجدناها بين مراسلات
ليلجنسباريه، الرسالة التي قدم ديفال بها استقالته من تكليفه وعبرَ
فيها عن حبه. يوهانز قتل رجلًا بريئًا. أدرك الوحش أنه ذو ضمير،
وأنه يستحق العقاب، وأن الأفكار التي جعلته يتوق إلى هلاك جنسنا
البشري بأكمله لا أساس لها. لذا عرضت عليه اتفاقًا كان بوسعي
تدبيره. الزنزانة المجاورة لبالك كان يشغلها سجين اسمه لورنتز
يوهانسن، محكوم عليه بالإعدام بعدما قتل زوجته، وخطط لنقله صباح
اليوم إلى ساحة الإعدام، اسم بالك لم يُدرج في أيِّ من سجلات الاعتقال،
كما تعرف، وهذا أمر حرصت عليه عندما جلبته إلى سجن كاستنهوف،
ومساء البارحة عرضت على يوهانز وضع عنقه حيث ينبغي أن يوضع
عنق لورنتز يوهانسن، فوافق. رهننت ساعة جيبي، وآخر ما معي من
نقود أعطيتها الحارس ليساعدني ويُقسِم على الصمت. وعندما جاءت
عربة الجلاد، حملنا على متنها يوهانز بالك وأرسلناه إلى حتفه بدلًا من
يوهانسن.

- لكن رسالة ديفال كانت مشفرة، كيف استطعت معرفة فحواها؟

- لم أستطع.

يضطر كارديل إلى الاتكاء للخلف كي يستطيع التنفس، ويتابع ويُنِيّه حديثه:

- استغللت الوقت الذي أحتته لي في تأليف مفتاح يجعل رسالة دانييل ديفال تقول ما كان يوهانز يحتاج إلى سماعه حتى يقبل عرضي، لم تكن مهمة سهلة يا جان مايكل، وكلفّنتي جهدًا مضمّنًا، لكنني تدبرت أمري، وبعدها لم يبق لي سوى توقيع الرسالة بتاريخ متأخر، لست مزوّرًا بارعًا، لكن هذا الجزء لم يكن يهم يوهانز إلى درجة تجعله يلاحظ أي اختلاف في خط اليد.

يدفع سيسيل ويُنِيّه ببطء كأسًا فوق الطاولة، مترعة بالبراندي.

- الكأس التي أمامك هي نفس الكأس التي قُدمت إلى يوهانز صباح اليوم وهو في طريقه إلى إعدامه، المشروب الأخير الذي يُقدّم إلى كل سجين متجه إلى خارج أسوار المدينة، وقد شربه يوهانز، على بُعد لا يزيد على عشر خطوات من مكان جلوسنا الآن، كنت هنا، ورآني بين الحشد، وعندما التقت أعيننا، لم أر فيهما سوى الامتنان. بكذبتني أريته أن العالم ليس بالجحيم الذي كرهه أيما كراهية، وقد وثق بي، ولم يعرف أنني في الواقع لم أثبت سوى أن انحطاط جنسنا البشري قاعدة بلا استثناء. أزهدت روحه يا جان مايكل، بأوراقِي، كأنني استعملتها لفصل رأسه عن جسده. ألقى عليّ نظرة أخيرة فوق كتفه والعربة تتحرك به إلى "بوابة جبايات اسكونز" وغاب عن بصري. ثم نقشت الأنسة نورستروم الاسم بمسمار على الكأس، التي تحمل الآن التاريخ والاسم يوهانسن، على الرغم من أن يوهانسن في الواقع على متن عربة متجهة إلى النرويج، وهناك سوف يعمل في مجال صناعة الخمر حاملًا اسم والدته قبل زواجها. والآن أسألك يا جان مايكل، هل لك أن تشرب نخب صحتي مرة أخيرة؟

يظل كارديل صامتًا برهة، ثم يمد يده المُضمّدة بالخرق فوق الطاولة، ترتعش يده وهو يحمل الكأس الصغيرة التي عليها كتابة متعرجة ويفرغ

محتوياتها، فيلسع السائل حلقة ويجعل زفيره فحيحًا، ووينّيه يشاهده طوال الوقت.

- سألتني في وقت سابق عن الطفل، عما إذا كان طفلي أم طفل العريف، ما زلت لا أدري، لكنني آمل من صميم قلبي أن يكون طفله.

ينهض وينّيه، متكئًا بكل ثقله على ظهر الكرسي، ويشق طريقه نحو الباب، وقبل أن يقطع نصف المسافة، يصيح كارديل إليه بصوت مُجهد مبجوح:

- قلت لي ذات يوم عندما كنا نتحدث عن الموت إنك وقفت أمام هاوية مظلمة وإنك وجدت العزاء في شعلة حميتها بيديك. ألن يوجد سوى الظلام الآن؟

يبتسم وينّيه ردًا عليه، ابتسامة مترعة بالأسى لكنها خالية من الندم، يمتزج فيها النصر والهزيمة معًا. يهبط الليل على استوكهولم، إحدى الليالي الأخيرة في العام، تنتشر جحافل الظلام فوق المدافع التي تقف حارسًا مواجهةً البحر، وتتسلق جدران القصور وقمم أبراج الكنائس، وتمتد فوق الموج نحو رصيف الميناء و"مدينة ما بين الجسور"، وتجتاز "قنطرة بولهيم" وما بعدها، ومن أزقة المدينة تنهض الأشباح متجاوبة مع الظلام.

تداهم وينّيه نوباتُ السعال وتتزايد بمرور الساعات، لا يعود بمقدوره كبحها ولا يرى سببًا للمحاولة، وعندما يبتسم لميكيل كارديل في ضوء النار، تلوح جميع أسنانه حمراء.

مكتبة

t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

1793

تدور الأحداث في استوكهولم بالسويد عام 1793، يُغتال الملك غوستاف، وتصبح خزائن البلاد فارغة بعد سنوات من الحروب الخارجية، تحكّم المملكة نخبة لا يهمها سوى مصالحها، تاركين المواطنين للمعاناة، فيتفشى السخط والارتباب في الشوارع. يُعثر على جثة في مستنقع المدينة، يجدها المراقب ميكيل كارديل، ويتولّى القضية المحقق سيسل وبيّنه، المريض بالسل وباتت أيامه معدودة. يتحد سيسل مع كارديل، ويتورطان في عالم قاسٍ يعج بأبناء الشوارع واللصوص والقتلة المأجورين وأصحاب المواخير، وتكشف الجريمة عن مدينة ينخرها الفساد تحت مظهرها المخادع.

تُصوّر رواية 1793 مقدرة الإنسان على ارتكاب الفضاعات بدافع النجاة أو الجشع، وأيضًا ما يحمله من قيم الحب والصدقة والرغبة في خلق عالم أفضل.



تصميم الغلاف: محمود هشام



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb